

رسالة
الله الموحى

في القرآن الكريم

حسن كامل الملقطاوى
وكيل وزارة الخزانة سابقاً



دار المعارف بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)
[قرآن كريم]

عن جابر بن عبد الله أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل : يا رسول الله ، ألا نجعلُ لك منبراً ، قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبراً فلما كان يوم الجمعة رُفِعَ إلى المنبر ، فصاحت النخلةُ صياح الصبي ، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمها إليه تنن أنيناً الصبي الذي يسكن . قال جابر كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها .

[حديث شريف رواه الإمام البخارى]

بأبي أنت و أمى يا رسول الله ! لقد كان جزعٌ تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك أولى بالحنين إليك لما فارقتهم .

[عمر بن الخطاب]

تقديم

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

وزير الأوقاف وشتون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ... الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ،
وبعد :

فيقول الله سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بعد أن أَعَدَّه اللهُ لتلقيها ، إنالأنبياء والرسل يعدّهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، إنه يعدّهم في أصالاب الآباء والأجداد بالعزق الطاهر ، والميراث النقى . . .
إنهم خيار من خيار من خيار.

يروى الإمام مسلم - بسنده - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيا بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم " .
لقد اصطفاه الله من بنى هاشم ، واصطنعه لنفسه ، ورباه على عينه .
لقدرباه سبحانه من قبل الميلاد ، ومن بعد الميلاد ، ليحمل الرسالة الكبرى ، الرسالة العامة الخاتمة ، رسالة الإسلام .

ورسالة الإسلام : طابعها وشعارها وجوهرها ، إنما هو : إسلام الوجه لله ، هو السجود لله وحده ، هو : إياك نعبد وإياك نستعين ، إنه التوحيد ، أو هو الإسلام . فكلمة الإسلام هي : تتضمن هذه المعاني التي تتحدد وتبلور ، برغم اختلاف الحروف والنطق ، لتلتقى كلها منصهرة في كلمة الإسلام . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد من قبل الميلاد لحمل رسالة الإسلام . وكان يعد من بعد الميلاد لحمل الرسالة : الإسلام .

ولقد سارت حياته بعد الميلاد على الطهر والنقاء ، وكان أول رمز جميل يعبر عن هذه الحياة ، حياة الصفاء والطهر : إنما هو رمز : " شق " الصدر .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الطفولة المبكرة ، لقد كان صلوات الله وسلامه عليه - إذ ذاك - في بادية بني سعد ، عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان - على ما يروى الأمام مسلم - أتاه جبريل فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقه ، فقال : " هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه " . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - يقولون إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتنع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

وهذا الحادث : إنما يرمز إلى أنه - صلوات الله وسلامه عليه - قد طهره الله منذ الطفولة من حظ الشيطان ، وصدق بذلك والدته حينما قالت لمرضعته : " والله ما للشيطان عليه من سبيل " . وطهره واستقامه منذ نشأته ، جعلاً للعرب يلقبونه بـ " الأمين " ولم تكن كلمة الأمين اسماً له ، ولكنها كانت إذا أطلقت لا تنصرف إلا عليه ، وكانوا يفرحون بحكمه ، ويرضون بتحكيمة .

يقول الربيع بن الخيثم : " كان ينحاکم إلى رسول الله ، في الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص في الإسلام ، ومن الأمثلة المشهورة في ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم في الخلاف الذي كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فإنهم حينما انتهوا في بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل

قبيلة : نحن أحق بوضعه " ، واختلقوا ، حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا حكماً بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبية ، فيكون هو الذى يقضى بينهم ، وقالوا رضينا وسلمنا بذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من باب بنى شيبية ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما يقضى بيننا ، ثم أخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، وبسطه فى الأرض ثم وضع الركن فيه ، ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان فى ربع بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى : أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث : أبو حذيفة بن المغيرة وكان فى الربع الرابع : قيس بن عدى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليأخذ كل رجل بزواية من زوايا الثوب ، ثم ارفعه جميعاً " فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه ذلك .

وهذه الحياة الطاهرة ، رافقها شعور مرهف بحب الله سبحانه ، والسجود له ، وتوحيده وإسلام الوجه له . . . وهذا الشعور حجب إليه الخلوة ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - أى يتعبد - الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة فى الضلال ، ليعتكف فى غار حراء متعبداً ، حتى قالت العرب : " إن محمداً قد عشق ربه " .

واستمر الأمر على هذا النسق - من الإعتكاف والعبودية - إلى أن كان الوحي ، وكانت كلماته الأولى (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ هذه اللحظة يتحقق بالقرآن فى واقعه وأصبح للقرآن صورتان :

صورة نظرية كلامية : هى هذه النصوص التى توحى .

وصورة واقعية حية تتمثل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم تماماً كاملاً . . . حتى ليتمكن أن يقال عنه صلى الله عليه وسلم ، إنه كان قرآن حياً يسير بين الناس ولقد قالت السيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها - تصف خلقه صلى الله عليه وسلم : " كان خلقه القرآن " .

وكلمة " الخلق " هنا : إنما تعنى حياته كلها ، لقد كانت حياته كلها قرآناً ومن أجل ذلك كانت الآيات الكريمة تعبر عن ذلك بوضوح :

(مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) .

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

أما الوصف الذى يجمع كل ذلك فى يقين جازم ، ويبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خلص لله بجميع أقطاره ، وأصبح ربانياً ، فهو قوله :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

إن حياة الناس تخلص لله - على تفاوت فى هذا الأخلص - فى بعض الأوقات .

أما حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خلصت كاملة - فى ليله ونهاره ، فصمته ونطقه ، فى حركته وسكونه ، - لله سبحانه . . . ولم تكن حياته وحدها هى التى خلصت لله . . . وإنما كان مماته أيضاً .

وقد ميزت هذه الآية الكريمة بينه صلى الله عليه وسلم ، وبين بقية البشر . . .

وصدق فيه قول الإمام البوصيرى - طيب الله ثراه ، وجزاه خير ما يجزى محباً لرسوله :

فمبيل العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

والأمام البوصيرى يتابع فى ذلك قول الله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ) :

والأخ الفاضل الأستاذ حسن المطاوى ، يتابع الجو القرآنى ، فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه

وسلم ، ويتحدث عن هذه المعانى التى ذكرناها . . . يتحدث

عنها في استفاضة وفي دقة ، ويتبع القرآن الكريم فيما ذكره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تتبع الرجل المؤمن الدقيق ، الذى مارس الحياة الروحية ممارسة العابد المتبتل ، فاتاه الله فقهاً في الدين وفهماً في كتابه الحكيم .

والأستاذ حسن المطلأوى من هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله في صدق ، ووقفوا حياتهم للدعوة إليه ، بالقول والسلوك ، فمنحه الله سبحانه وتعالى ، فهماً في المجالات الروحية لا تتاح إلا لمن أخلصوا وجههم لله سبحانه .

ونحن نغضب كل الاغتياب ، بأن وفقه الله تعالى للكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم . . . فإنه من خير هؤلاء الذين يعالجون هذا الموضوع .

وليس هذا بأول شئ كتبه الأستاذ حسن المطلأوى ، في التوجيه الروحي ، أو البحث الدينى ، فقد كتب من قبل عن التصوف ، وعن الذكر وعن السيدة خديجة رضوان الله عليها ، وكتب في الفقه على مذهب الإمام مالك . . . وهو دائم العمل لخدمة الإسلام بكل ما يستطيع .

وكتابه هذا ياتى قمة من القمم الشاخنة ، في مجال الهداية إلى الله تعالى ، وفي مجال الدعوة إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإننا لندرجو له التوفيق الدائم ، والعمل المستمر . . لخدمة دين الله ودعوة رسوله . .

ونرجو الله سبحانه وتعالى ، أن يثيبه أحسن الثواب ، وأن يجزيه خير الجزاء ، وأن يوفقه دائماً إلى الصراط المستقيم .

عبد الحلیم محمود

مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام فى أكمل صورها على سيدنا محمد الذى ختم الله به المرسلين ، وجعله رحمة للعالمين ، وهدى به إلى الحق وإلى صراط مستقيم . . . صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ورضى الله أحسن الرضا عن آله الأطهار الأخيار ، وعن صحبه الكرام الأبرار ، وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

أما بعد . . .

فإن الكتابة فى شأن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة وصعبة ، أما سهولتها فتأتى من سعة مواردها ، وكثرة مصادرها ، وأما صعوبتها فتنشأ من سمو قدره ، وعلو مقامه ، فيجد الكاتب مادة الكتابة غزيرة فى سيرته العطرة ، لكنه مهما كتب وأبدع يرى ما كتب بعيداً عن تحيد صورته الحقة ، فيخجل من وضعه ، ويخشى أن يكون مسيئاً على غير ما أراد ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن ذلك ليس راجعاً إلى قصور فى استعداده ، وإنما يرجع إلى عظمة المكان و المكين ، وكذلك كان شأن من سبقوه على كثرتهم ، فليس عذره وعذرهم ويقول ما قالوه :

فبالغ وأكثر أن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

ويعلل نفسه بأن مقاله إنما كان بلسان الحب والتقدير ، تبصرة وذكرى لمثله من المؤمنين الخبيبين ، ويتمثل قانعاً فيقول :

وقد كفانى أنى محب وأن المـ سـرء مع من أحب يحشر

وقد كنت حاضرت منذ عشر سنوات بنادى التجارة وكان موضوع المحاضرة : " رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم " .

وختمت المحاضرة بقولى : و لا أبرح مكاني هذا قبل أن أتقدم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالص

التحية والإعظام ، وببالغ اعتذارى من قلة جهدى فيما تحدثت به عن مقامه الكريم ، طامعاً أن يحمل قصورى على رأفته ورحمته بالمؤمنين .

وأرائى مضطراً فى مستهل كتابى هذا أن أكرر ذلك القول وأنا موقن بقبول عذرى واعتذارى ، لأنه صلى الله عليه وسلم أجدر من قبل المعذرة ، وأغضى عن قصور استدعته الضرورة ، وقد كان من شمائله ألا يرد سائلاً أو يخيب رجائه .

وقد كان لتلك المحاضرة أثر فى نفوس السامعين ، وقد كنت نمت فيها نهماً فيه شئ من التجديد ، وعدم التقيد بالتقليد ، فى الآيات التى قيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وألمنى رى من عطائه ، أن أنفى العتاب من نصوص القرآن الكريم ، وأربط القصة الواحدة برباط الآيات المتفرقات ، فتظهر الصورة فى الحادثة الواحدة متكاملة صافية لا شية فيها ، وقد أبدى لى استحسانه لما قرأ بعض أصحاب الرأى من القراء الكرام .

وقد تشرفت بعد ذلك بزيارته صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، واستأذنته وأنا بين يديه أن أكتب هذا الكتاب ليتم به ما بدأته بالمحاضرة المذكورة ، ومرت الأعوام دون أن أكتب شيئاً حتى أسعدنى الله برؤياه صلى الله عليه وسلم فى المنام فى فجر الأثنين ٥ من شوال ١٣٨٦ هـ (الموافق ١٦ من يناير ١٩٦٧) - وتتلخص الرؤيا المباركة السعيدة فى أنى كنت والأخ الصالح توفيق أبو علم الوكيل الأول لوزارة العدل فى الدور الثانى من منزل ، وجاء من يبشرنا بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيشرفنا بزيارة ، فأسرعنا بالنزول لاستقباله ، فلما دخل وأشرقت أنواره البهية وطلعت الزكية ، قبلت يده الشريفة وذكرت له أسمى ، وأحسست أنى فى جانبه صغير جداً فى نفسى ، ثم استيقظت .

وقد قابلت بعدها بمدة زميلى الفاضل الأستاذ توفيق أبو علم عند الكعبة المشرفة من عامين ، وكنا معتمرين ، فقصصت عليه الرؤيا وبشرته بها ، فسرتة كل السرور ، ثم التقينا فى رمضان الفائت فى الحرم النبوى الشريف (وكنت أخبرته بعزمى على كتابة هذا الكتاب بعد أن ألقىت المحاضرة المذكورة) فإذا به يقول لى ونحن فى الحرم النبوى الشريف : ماذا تم فى الكتاب ؟ إننا ننتظر صدره فى شوق شديد ، فربطت بين قوله وبين تذكر الرؤيا الشريفة ، وقلت فى

نفسى : لعل تذكيرى بالكتاب ونحن فى الرحاب النبوى يتضمن إذناً نبوياً بالكتابة ، وقد تفاءلت باسم الزميل توفيق أبو علم ، وأملت أن يصحبنى التوفيق فى الكتابة عن صاحب العلم صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة أن الزميل توفيق قد وفق فألف كتاباً قيماً عن : " أهل البيت " وتم طبعه ونشره ، وعدت من المدينة المنورة ، فبدأت الكتابة فى شوال الفائت ، وتيسر لى ما يقرؤه القارىء فى هذا الكتاب الذى بين يديه ، ولعل التوفيق حالفى فيه كما أملت ، فتكون الرؤيا قد تحققت فى التقائنا السعيد معاً بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عالم التأليف الذى يتصل به وبأهل بيته الكرام ، ويكون تفضله بالزيارة فى الرؤيا علامة القبول بإذن الله .

وفى غضون الأيام القليلة الفائتة ، بشرنى تلميذى الصالح الدكتور عجمى حسين عجمى برؤيا مباركة ، رأى فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له كلاماً يقرظ فيه الكتاب ، وكان يذكر الكلام فى أثناء الرؤيا ، ولكنه نسيه بعد استيقاظه ، وأخذت من رؤياه بشرى الإذن بالكتابة ، وبشرى أخرى بالقبول ، والهدية على قدر مهديها ، وليست على قدر المهداه إليه صلى الله عليه وسلم . ومع صعوبة المرتقى فى الكتابة عنه ، والإحاطة به صلى الله عليه وسلم ، فإن اللجوء إلى كتاب الله تعالى أنار لى سبيل الإهداء بأنوار القرآن الكريم إلى معالم الطريق ، ولئن كان القرآن الكريم واسع الأقطار ، عميق البحار ، إن مباحث الكتاب ازينت بأنواره القدسية المشعة ، وهو ما يعطى القارئ سعادة روحية ، فى أن يستمتع بها ، ويعترف منها مشرباً هنيئاً سائغاً للشاربين ، على قدر ما استطعت مناولته من تلك الأقطار الواسعة والبحار العميقة ، ولا سيما أنى قصدت أن يكون الكتاب دعامة من دعائم التربية الإسلامية الصحيحة للقارئ ، بما ضمنته فى كل مناسبة من أقوال أسلافنا الصالحين ، وإرشادات أئمتنا العارفين ، إلى جانب القصد الأسمى من عرض صور مختلفة مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله عز وجل ، ذلك الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى أيد الله به الرسالة المحمدية على مر العصور والدهور ، فكان أخلد المعجزات وأبقاها على الزمان كما كان الحصن الحصين للمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وإذا رآني القارئ الكريم قد أطلت قليلاً في بعض المواطن التاريخية فليعذرني ، فإنني أردت التطويل أن أرد القارئ إلى الفهم الصحيح في الموقف الدقيق ، الذي خاض فيه الخائضون ، ولج فيه المفترزون من المستشرقين لأغراض دنية ، قصدوا بها تشويه الحقائق وتليبسها على الناس لحاجة في نفوسهم أضمرها كيداً للإسلام والمسلمين ، وقد يتأثر بما كتبوا بعض الناشئين من المؤمنين - عن حسن نية - إذا لم يكن ملمساً بحقيقة تلك المواقف التي تتصل بسيد المرسلين وأطهر المطهرين ، في حياته أو بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

كذلك أرجو أن يعذرني القارئ الكريم إذا رآني قد خالفت ما جاء في بعض التفاسير ، مما لا يليق به صلى الله عليه وسلم ، أو بإخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فعصمة الأنبياء والمرسلين عندي مؤكدة بيقين ، وما نسب إليهم من الوقائع لا يحمل الأمر فيه على ما يقع منا من ذنوب أو مخالفات بحجة أنهم بشر ، فهم حقيقة بشر ، ولكنهم مصطفون بعلمه سبحانه ، ومطهرون بفضله تعالى ، وقد أثبت الله فضلهم في القرآن الكريم ، فلننظر في أمورهم بعين ذلك الفضل ، ولا ننقصهم منه شيئاً ، ولا يغيب عنا لحظة واحدة قوله تعالى : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) شأو قوله تعالى : (أَوْلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَيَهْدَاهُمْ أَقْتَدَهُ) . أو قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) أو قوله تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ) .

وإني أحمده سبحانه وتعالى إذ وجدت عوناً فيما كتبت ، وعلامة الإذن التيسير كما يقول العارفين ، وتوارد خواطري ، واتفاقها مع خواطريهم ، إنما هو بركة من بركات سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غمرتني بنعمة الله طوال حياتي ، ولست أنكر ذلك لأنه تحدث بنعمة الله ، كما لا أنكر أنني محب له بكل ذرة من ذراتي ، وبكل نفس من أنفاسي ، وبكل أحساس من أحاسيسي ، وكنت أقول لنفسي وأنا أكتب ذلك الكتاب :

فالجب يقضى والمحاسن تشهد

ما شئت قل فيه فأنت مصدق

وكنت أقول ذلك مع تصديقي لما قاله إمامنا البوصيري رضى الله عنه في همزيتة :

إنم معجزاتك العجز عن وصفك إذ لا يحده الإحصاء

ولقد عذرت سادتنا الصحابة الكرام ، وعلى رأسهم الأربعة الكبار سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، حين طاشت عقولهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى هدد عمر أن يضرب بسيفه من يقول أنه مات ، وخرس عثمان عن الكلام ، وأخذ الإمام على يروح ويحيى ، وكان أثبتهم أبا بكر ، ولكنه مع ثباته وتمكينه جاء وعيناه تمملان ، وزفرته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأكب عليه ، وكشف الثوب عن وجهه ، وقال : طبت حياً وميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، ولو أن موتك كان اختياراً ، لجدنا لموتك بالنفوس ، اذكرنا يارسول الله عند ربك .

أما السيدة الزهراء ، وهى أحب بناته إليه صلى الله عليه وسلم ، فقالت راضية مرضية فيما رواه البخارى رضى الله عنه : يا أبتاه ، أجا ربنا دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل نعاه .

وأما أنس بن مالك ، وهو خادمه الأمين رضى الله عنه ، فقد قال فيما رواه الترمذى رضى الله عنه : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شئ ، فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أظلم منها كل شئ ، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنما لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا .

وأما حسان بن ثابت رضى الله عنه وهو شاعره الخاص فقد قال :

كنت السواد لناظري فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وتلك الكلمات على قلبها تريك أثر محبته صلى الله عليه وسلم فى المحيطين به عن قرب ، والواقفين على أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد أوجزت السيدة عائشة وصفه ، وهى

الفقيه الراشدة ، والليبية العاقلة ، والزوجة الأثيرة ، بنت الصديق الأثير مولانا أبي بكر الصديق وهو أول المؤمنين إسلاماً من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين ، والإمام الأكبر ، والعلم الأشهر ، فقالت : كان خلقه القرآن .

وحسبك من وصفها هذا أنه صلى الله عليه وسلم استنار بنور القرآن ، وتأدب بأداب القرآن ، وتخلي بأحكام القرآن ، فكان أفضل البشر وأكملهم على الإطلاق ، كما كان خير الخلائق أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين ، فهو صفى ربه الأصفى ، وحببيبه الأسمى ، ومختاره الأوفى ، ومجلاه الأعلى ، ومصطفاه الأولى ، وإن سألت دليلاً على ذلك فاقراً قوله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)^١ فهو كما ترى ميثاق رباني بزعامته صلى الله عليه وسلم للرسول أجمعين .

وأذا رأيت أن تتذكر بعض شمائله التي حلاه الله بها وطبعه عليها ، فإليك ما قاله صاحب تحفة الأخيار ، سيدى العارف بالله أبو عبد الله الأنصارى التونسى المالكي المتوفى سنة ٨٩٤ هـ :

"كان عليه الصلاة والسلام أكمل العالمين خلقاً وخلقاً وتذكراً وفور عقله وذكاء لبه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه واعتدال حركته ، وحسن شمائله ، وشرف نسبه ، وكرم بلده ، وحلمه واحتماله ، وعفوه مع قدرته ، وصبره على ما يكره ، وجوده وكرمه ، وسخائه وحياءه ، وشجاعته وسماحته ، ونجدته وفضيلته ، وصفاء مودته ، وبذل تضحيته ، وحسن عشرته وآدابه ، وشفقته ورحمته بجميع الخلائق ، وحرصه على إيمانهم ، ووفاءه وحسن عهده ، وصلته رحمه ، وتواضعه على قدر رفعتة وعلو منصبه ، وعدله في سيرته ، وأمانته وعفته ، وصدق لهجته ، ووقاره وصحبته ، وتأدبه ومروءته ، وحسن هديه ، وزهده في الدنيا ، وخوفه من ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، وعلمه بربه ، وشكره وإنابته إلى ربه ، وحسن قيامه بحقه ، وجميل

^١ - سورة آل عمران - الآية ٨١ .

رجائه ، وصدق يقينه ، وتوكله على ربه ، وشدة إيمانه بغيبه ، وكثرة صلاة وصيامه ، وشكره وعطاءه من مال ربه " .

فما من محاسن الأخلاق صفة إلا وقد حازها ، وما من درجة من درجات اليقين إلا كان أساسها .
أقول ولا تطمع أن تحيظها عدداً ، أو تسردها سرداً ، فإنها أكثر من أن تحصى ، وأبعد من أن تستقصى .

وصدق إمامنا البوصيري إذ يقول :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم

كما صدق سلطان العاشقين ابن الفارض حين قال :

أرى كل مداح في النبي مقصراً وإن بالغ المثني عليه وأكثر

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الوري

وإذا أردت أن تعرف كيف اختاره الله على علم ، فاقرأ ما رواه بن عباس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قسم الخلق قسمين ، فجعلني من خيرهم قسماً ، وذلك قوله : (وأصحاب اليمين) ، (وأصحاب الشمال) ، فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرهما ثلثاً ، وذلك قوله تعالى : (وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون) . فأنا من السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل ، فجعلني في خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً ، فجعلني في خيرها بيتاً ، فذلك قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) .

أرأيت كيف كان صلى الله عليه وسلم خياراً من خيار من خيار ، وكيف سعدت أمته بهذا الخيار ، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس ، وحظ الوريث

من حظ مورثه ، وما أسعدنا به صلى الله عليه وسلم ، فكل فضل جاءنا فديننا ودينانا ، فإنما جاءنا ببركته ، ومن فيض جود الله عليه ، ورحم الله سيدي العارف الشيخ أحمد الحلواني الخليجي إذ يقول :

أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى
ثم استمد جميع مخلوقاته
تلك المعارف والعارف فيهمو
بالله صل حبل الرجاء تعطفوا
جد للضعيف بمبتغاه فإنه
جد لي فإن خزائن الرحمن في
فرداً لفرد والبرية في العدم
من نورك السامى فيا عظم الكرم
من بحر منتك العميمة سيب يم
أنا ضيف جودك يمام أولى الكرم
ما للضعيف سوى رحابك ملتزم
يدك اليمين وأنت أكرم من قسم

وشاهده في ذلك قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وهكذا شاء الرحمن الرحيم أن يرحم العالمين على يديه صلى الله عليه وسلم ، وما خص عالماً دون عالم ، بل نال كل عالم من العالمين ، ما شاء الله له من تلك الرحمة ، وحق لإمامنا البوصيري إذن أن يقول :
دع ما ادعته النصرى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

و لا تحسبن أن عطاء الله وقف عند أمور الدنيا الفانية ، فقد أعطاه المقام المحمود في الآخرة بقوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلةً عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وهو مقام الشفاعة للخلائق ، في الإنصراف من الموقف إلى الحساب ، ثم يشفع بعد ذلك للمؤمنين في دخولهم الجنة ابتداءً ، أو في خروج عصاتهم من النار ، كما هو معلوم من حديث الشفاعة ، فكل رسول كريم حين يعاين أهوال القيامة يقول : نفسى نفسى ، ويقول رسولنا الأكرم : " أمتى أمتى " ، وحين يستشفع الناس به يقول : " أنا لها " ، وهو ما يشير إليه سيدي الشيخ أحمد الحلواني رضى الله عنه في قصيدة المستجيرة بقوله :

فالأصل أنت أبو الوجود ومنك فا
ض الجود في الدنيا والأخرى وعم
والخلق فرع أنت أصل وجوده
والفرع مرجعه إلى الأصل الأشم

فلذا إليك الخلق تفرع كلهم في هذه الدنيا وفي اليوم الأهم

وإذا رجوك غداً تقول أنا لها واليوم قمت بأمرهم حتى استم

وسيقول له رب العالمين : اشفع تشفع ، وسل تعط ، وقل يسمع لك ، فما أعظم شأنه في دنياه وأخراه صلى الله عليه وسلم .

وأود أن ألفت النظر إلى ما يجده القارئ من المفاضلة بينه صلى الله عليه وسلم وبين إخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، ليس المقصود منه الإنتقاص من أقدارهم ، حاشا ، فإن أقدارهم في محلها الرفيع الذي أراده الله لهم ، كما نطق بها كتاب الله ، وإنما هو بيان لمقامه بينهم صلى الله عليه وسلم كما جلاها القرآن الكريم ، ونحن ما فضلناه عليهم ، ولكن الله فضله ، فبيننا للقارئ كيف فضله الله في آياته البينات ، أما قوله صلى الله عليه وسلم : لا تفضلوني على يونس ابن متى ، فإنه نهي عن إنتقاص أحدهم ، وبخاصة أنه جاء في شأن سيدنا يونس عليه السلام . (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذنا بالعراء وهو مذموم * فاجتبه ربه فجعله من الصالحين) . وقد يسئ القاصر فهم الموقف فينتقص جهلاً من اجتبه ربه وجعله من الصالحين ، وإذا تجراء جاهلاً على انتقاص واحد من المرسلين ، تجراء على انتقاص غيره وكان من الغاوين ، ونعوذ بالله من جهل الجاهلين وضلال الضالين . وسيرى القارئ الكريم فيما يقرأ مفاضلة لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهي مفاضلة بالحق ، الذي جعله الله على لسان عمر وقلبه بدعوته صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه رضى الله عنه فهم من الحديث النهي المطلق ما فضل ، ولكنه فهم الحديث على وجهه ، فصور مقام الرسول الأعلى بين المقامات العالية ، فأعطى كل ذي حـق حـقـه ، ولم يـبـخـس منـه شـيئاً . ولينتزه القارئ بعد ذلك في رياض الكتاب الموثقة ، ويستنير بشمسها المشرقة في رعاية من الله ورسوله ، وفي أمن وإيمان ، وليعلم من أمر رسول الله صلى الله عليه

وسلم ما جهل ، أو يتذكر من أمره ما نسي ، وليكن همه أن يكون مسلماً صادقاً ، جديراً
بإلتساب إلى الإسلام الذي جاء به الرسول الأعظم ، فدعا إليه بقوله وفعله وحاله ، وجاهد في سبيله
بنفسه وماله ، في الحرب والسلم في عزم لا يلين ، وقوة لا تهى ، وهمة لا تفتز ، إثثار الله على ما سواه
، ومن عرف ربه هان عليه ما يبذل في سبيله .

وليكن لك أيه القارئ برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة كما نصحك الله ، فتخلق بأخلاقه ،
واتسم بصفاته ، و لا سبيل إلى ذلك إلا بالفقه عنه ، والإستماع منه ، والطاعة له ، فإنك إن فعلت ،
سعدت مع السعداء في دنياك وأخرائك ، كما سعد السابقون الأولون ، والآخرون الصالحون ، وفي
مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، ونأمل فيما نهينا إليه أهل الفراسة والفطنة حين قالوا : إن الله تعالى جعل
لرسوله مناسبة تشريف حين جعل حروف : " لا إله إلا الله " اثني عشر حرفاً وجعل حروف " محمد
رسول الله " اثني عشر حرف ، وسر هذه المناسبة كانت لهؤلاء الخلفاء الراشدين أيضاً ، فاسم " أبو
بكر الصديق " ، واسم " عمر بن الخطاب " ، واسم عثمان بن عفان " ، واسم " علي بن أبي طالب " ،
يشمل كل منهما اثني عشر حرفاً ، وهي مناسبة إرضاء الله في التأسى برسوله صلى الله عليه وسلم ،
وذلك ما يكشف لك عن سر سعادتهم ، لكمال مناسبتهم في أخلاقهم للحضرة النبوية الشريفة ، وقد
شهد الله لها بالكمال في قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) . وإن أردت ضمناً بالسعادة فهماكه
من ربك لا منى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما)^١

هذا وأرى لزاماً علىّ أن أتقدم بجزيل شكرى لصديقى الوفي والعلامة النقي الدكتور عبد الحليم
محمود ، إذ تفضل فقدم الكتاب لقرائه وزكى الكاتب وما كتب ، مما أعتز به ، وأطمع أن أكون أهلاً
لحسن ظنه وجمال وصفه ، فإنه

^١ - سورة النساء : الأيتان ٦٩ و ٧٠ .

من علمائنا العاملين وأئمتنا العارفين الذين ندخرهم للدنيا والدين .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لأحبائي السادة المخلصين الأستاذ سعيد الأنصاري المدير العام بمصلحة الضرائب ، والمهندس علي حافظ بوزارة الصناعة ، والأستاذ عبد الحميد الملطوي المراقب العام للإيرادات بالميزانية ، لما بذلوه من مجهودات حميدة في مراجعة أصول الكتاب مما أغنانى عن حمل عبء المراجعة وحدى .

فاللهم كافى الجميع عني يارب العالمين ، والسلام على من اتبع الهدى .

المؤلف

الخميس ١٢ ربيع الأول ١٣٩٢ هـ

حسن كامل الملطوي

٤ مايو ١٩٧٢ م

الباب الأول

العقيدو الإسلامية

الإسلام دين الفطرة :

الإسلام دين الفطرة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، والفطرة تَهْدِي إلى وجود خالق لهذا الكون ، كما أنه تَهْدِي إلى أنه خالق واحد ، لا أول لأوليته ، ولا آخر لآخريته ، ليس كمثل شئ ، لا ينسب إليه البنون لاستغنائهم عنهم ، و لا تفنيه السنون ، لأن حياة الخلق وموتهم بيده ، ولا يشاركه في تدبير الأمور أحد لأنه غني بنفسه عن غيره ، وغيره محتاج إليه على الدوام .

ويقول سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه : إن الله تعالى عرف الإنسان به وتجلي له ، كما استنطقه وأهمه الإقرار بربوبيته ، فشاهده الإنسان ووحده ، وأخذ الله عليه عهداً بذلك ، وذلك كله في عالم آخر غير هذا العالم ، هو عالم الذر قبل وجود الأرواح البشرية في الأبدان ، واستدل رضي الله عنه بقوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) .

وكلامه هذا يفسر لك قوله صلى الله عليه وسلم ، " كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " ، كما يفسر لك قوله تعالى عن أهل الكفر والشرك في سورة الزخرف : (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مهتدون) ، ولم يقبل الله منهم ذلك

التقليد الأعمى ، فقال تعالى اعتراضاً عليهم في سورة البقرة : (أوأو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) .

وقد ركب الخالق في المخلوق عقلاً يفكر به فيما يحيط به من الكائنات ، وهذا العقل يساعد ويساند الفطرة السليمة في عقيدتها ، غير أن العقل آلة مفيدة بالمحسوسات فهو يجول حول الكون ولا يستطيع أن ينفذ إلى ما وراء المحسوسات ، فمن أعتمد على العقل وحده دون نور الفطرة أخطأ الطريق واعتزته شكوك التيه وصدق من قال :

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب لا تغيب

وأداتا المعرفة العقل والروح ، والعقل هو الملكة المدركة للعلوم بواسطة الاستدلال ، وهو الأداة التي يستخدمها في معرفة الله أرباب النظر العقلي ، والروح هي الملكة المدركة للعلوم بواسطة المذاق المباشر عن وجدان سليم .

والعقيدة الإسلامية تقوم في أساسها على أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإذا نطق الإنسان بهاتين الشهادتين بلسانه ، واعتقدهما بقلبه ، فقد صار مسلماً وطولب بما يترتب عليهما من الإيمان والعبادات والمعاملات ، كما شرع الله وبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقلب المؤمن مهياً بفطرته لأن يسع الله بيقينه توحيداً وإيماناً ومحبةً وأخلاقاً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم)

والألوهية معناها السيادة المطلقة ، فالشهادة الأولى إقرار بسيادة الله الذي لا شريك له ، والشهادة الثانية إقرار برسالة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا أقر إنسان بالشهادة الأولى وأنكر الثانية لا يعد مسلماً ،

والأدلة على ذلك كثيرة في كتاب الله الكريم ، منها على سبيل المثال قوله تعالى في سورة الصف : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفُسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتحٌ قريبٌ وبشر المؤمنين) . وهذه الآيات صريحة في أن سعادة الدنيا والآخرة مرتبطة بأساس العقيدة ، وهو الإيمان بالله ورسوله ، وكذلك قوله تعالى في سورة الحديد يخاطب المؤمنين بالرسول السابقة على الرسالة المحمدية (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يؤتاكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لنلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شئ من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ، وقد أتى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم فضله ، و لا مانع لما أعطى الله .

ولم تكن الرسالة المحمدية الأولى من نوعها ، بل سبقتها رسالات إخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، ويجب الإيمان بهم كما يجب الإيمان به ، ويقول تعالى في هذا المقام مثلاً في سورة الحديد : (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قويٌ عزيز * ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهم النبوة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون * ثم قمنا على آثارهم برسلنا وبقينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في

قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون) .

والحكمة في إرسال الرسل إنما هي لتذكيرهم بما نسوا ، وإرشادهم إلى فطرتهم التي حجبتها عنهم شهوات الجسد الذي لا يسته الروح وهم أجنة في بطون أمهاتهم ، وتلك الرسالات إنما هي رحمة من الله بعباده لئلا يكون للناس عليه حجة بعد الرسل الذين هم حجة الله على خلقه : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) .

ولقد دعا الله الناس إلى التفكير فيما يحيط بهم من آثار قدرته تعالى ، وعاون عقولهم في رسم طرق التفكير ، فقال تعالى مثلاً في سورة الأعراف : (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذيرٌ مبين * أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون أقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) ، وقال تعالى في سورة سبأ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجلٌ يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفكٌ مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحرٌ مبين * وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير * وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير * قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ أليم) ، ويقول تعالى في سورة الطارق : (فلينظر الإنسان مما خلق * خلق من ماءٍ دافق * يخرج من بين الصلب

والترائب * إنه على رجعه لقادر) ، ويقول إمامنا على بن أبي طالب كرم الله وجهه : عجبت لمن شك في النشأة الآخرة ، وهو يرى النشأة الأولى ، ويقول تعالى في سورة الغاشية : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت) ، ويقول تعالى في سورة عبس : (فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنبا وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم) ، ويقول تعالى في سورة فاطر : (يأيتها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالقٍ غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) * أى تصرفون عن الحق .

ثم إنه تعالى بعد أن دعا العوام إلى التفكير في المحسوسات دعا أهل العلم إلى التفكير من طريق العلم ، فقال تعالى في سورة النساء : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ، أى لو كان من عند البشر لاعتراه ما يعترى كلام البشر من تناقض المعنى ، وتفاوت الأسلوب قوة وضعفاً ، فكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً ، ولما تحققت أخباره الغيبية التي نبأت عن حوادث مستقبلية ، فوعدت كما صورها الله قبل أن تقع ، وليس ذلك التدبر العلمى في مقدور العوام ، بل هو شأن العلماء الواقفين على أساليب البلاغة ودقائق البيان ورفائق المعاني ، وما يعقلها إلا العالمون .

ولقد كنت أذكر ليلاً كلمة التوحيد : ((لا إله إلا الله)) وأراعى وأنا أذكرها معناها وهو : لا معبود بحق إلا الله ، وأطوى في قلبي في كل مرة من ذكرها ((محمد رسول الله)) ، فإذا بلى يذهب في فسيح أفاق تلك الكلمة الحق ، وينتهى فيما ذهب إليه أنها كلمة الوجود كله ، ولولاها ما قام الوجود كله ، ولولاها ما قام الوجود و لا كان من إنسان وحيوان وجماد وجن وملائكة وسموات وأرض ونجوم وكواكب وبحار

وأثمار وجبال ، ولما قامت الرسالات السماوية ، ولما نزلت الكتب القدسية والشرائع الربانية ، ولما خلق الله الجنة ونار ، وثواباً وعقاباً ، وسعادة وشقاء في الدنيا والآخرة ، وهي كلمة الحق كما سماها الله تعالى في قوله الكريم في سورة الفتح : (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليماً) .

وصدق سيدى الإمام المرسى أبو العباس رضى الله عنه إذ يقول : ليست الفتوة بالماء والملح بل هى بالإيمان والهدى كما قال تعالى في أهل الكهف : (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) ، وقد بين الله تعالى حكمة الخلق فقال تعالى في سورة الذاريات : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ، قال بن عباس فى معنى يعبدون أى يعرفون ، ومن ذلك يتبين لنا أن معرفة الله هى أول فرض أفترضها الله على عباده .

وفى مناسبة الإستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده أرى من المفيد أن أنقل للسادة القراء رسالة كانت جاءتنى فى آخر سنة ١٩٦٢ من شاب مثقف - بكلية التجارة - شكأ لى فيها حاله ، وكشف عما يساوره من حيرة ، وقد أعجبتنى صراحته كما أعجبتنى استشارته لى ، وكان قد قرأ لى محاضرة ألقيتها بنادى التجارة فى " محبة الله تعالى " وقد أجبته حينئذ بالجواب الذى يراه القارئ الكريم بعد الرسالة ، ولم أرد أن أذكر اسمه خشية أن يكون فى ذكره حرج عليه ، لأنى إنما قصدت من نشر الرسالة والرد عليها لب الموضوع .

^١ -يقصد بالماء والملح قوة البدن . وقوة الروح بالإيمان والهدى هى الأهم لأنها أبقى أثرا بعد الموت أما قوة البدن فتتلاشى بالموت .

وها هي ذى رسالته

القاهرة في ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ :

السيد الأستاذ حسن كامل الملطوى

تحية طيبة وبعد

" اسمح لى ياسيدى أن أقدم نفسى لسبادتكم :

فلان . . موظف بجهة . . طالب بكلية التجارة ، أبلغ من العمر ٢٤ عاما ، أى تلك السن التى تتصارع فى نفس الفرد منا رغبات عنيفة ، وتتصادم فى داخل عقله مختلف الأفكار التى قدمتها لنا مدنية القرن العشرين مع ما قدمت من تقدم هائل فى نواحي العلم والفن ، إلى جانب تلك الأفكار الفلسفية المختلفة فى وجود الله ووجود الإنسان ، فى حقيقة الكون وارتباطه بالقوى الغيبية التى تسيطر عليه .

إن تلك الأفكار بتأثيرها تسيطر على أمثالنا من الشباب فإننا ننشأ على الإيمان الفطرى إذ وجدنا ذوبنا مؤمنين فأما ، حتى إذا أستقل الفرد بعقله وفكره بدأت أمواج الشك تتلاعب فى مخيلته ، وبدأت أعاصير الشهوة تفرض عليه نوعاً من التحلل من تعاليم دينه ، وتدفعه إلى تدبير ما يرتكب من آثام ، حتى إذا بلغ من ذلك مبلغاً أحس باليأس والقنوت من نفسه ، فإذا هو ساخط متبرم بالحياة ومن عليها ، ساخط على ربه الذى خلقه ، جاعل من عقله وسيلة يسيرها على حسب هواه .

وهذا ما حدث لى عقب عدة أحداث هزت كيانى . . . فشلتُ أسلمنى إلى نوع من الخمول والجحود إلى سلبية عجيبة أعقبتها ثورة على كل ما تعارف عليه الناس من تقاليد ، وكنت أحاول أن أجد تبريراً لأفعالى وتصرفاتى فلا أجد فأزداد أنحداراً فى الهوة .

ولكن فى داخلى شئ يتلوى ، شئ يهيب بى أن أرجع عما أنا فيه ، وفجأة أحس بالقدرة على نفسى ، على وجودى ، وأتساءل : أين الله ليعطينى كما أعطى غيرى الهداية، وإذا كان قد حرمنى منها فلماذا خلق لى ذلك القلب الخفاق بالأمل والحب ، لماذا جعلنى ذلك الإنسان الحساس المتألم ، أين الحكمة فى ذلك ؟ لماذا خلق لى قلباً خفاقاً وحرمنى الحب ؟ لماذا خلق لى نفساً طموحاً

وخلق فيها الأمل وحرمنى القدرة على تحقيقه ؟ لماذا خلق العقل لأفكر وأدبر وحرمنى القدرة على تنظيم فكري وتدبير أمرى ؟

أى نموذج لعدة متناقضات أنا ؟ فاين التكامل فى خلقى ؟ أين التكامل بين قدرتى ؟ من المسئول عما وصلت إليه؟ هل المسئول هو أنا ؟ الإنسان العاجز الضعيف الذى ليس بيده أى أمر ؟ أنا الإنسان المسير فى اعمالى ، أنا الذى جئت إلى الدنيا دون أن اعلم ودون أن أستشار ، أنا الذى كان وجودى فى الحياة رهن قوى لا أعلمها ، أنا الذى ضيع القدر آمل وأحلامى .

وبعد كل هذا ماذا افعل ؟ إلى أين أسير ؟ إني أنادى الله فى عليائه عبداً من عباده فليجبنى إن كان موجوداً ، إني أناديه باسم حقى الطبيعى الذى أعطاه لى يوم خلقنى وجعلنى عبداً من عباده وجعل لى عقلاً يفكر ، وقلباً يخفق ، ونفساً تهفو ، باسم ما حرم وما حلل ، باسم الآمال التى خلقها فى قلبى ، وباسم الفشل الذى كان من نصيبى .

إني أناديه باسم الله باسم الرب ، إني أناديه باسم الخالق الذى خلقنى فليجبنى ، فأنا أنتظر ، أريد أن يطمئن قلبى وتهدأ نفسى ، أريد أن أستريح .

لقد بعدت الشقة بيننا وبين من سبقنا من رسله وأنبيائه ، وفى الطريق الطويل عبر القرون ضاعت معالم الإيمان وتزعزعت الحقيقة فى القلوب ، ومع موجات الفكر الجديد كادت تمحى الصورة نهائياً .

واليوم من واجب الله نحو خلقه أن يعطيهم النور الذى يهتدون به ، والنور الذى يبدد ظلمات الشك والريب التى تعصف بكيان كل شاب الآن ، إننا فى عذاب ، لقد كانت الطفرة الأخيرة التى انتقل بها جيل بعد جيل لها أكبر الأثر فى نفوسنا ، فالتقدم الهائل الذى تعيش فيه البشرية لا يقابله تقدم فى نواحي الحياة الأخرى ، فالتقاليد من وراء الحياة تلهث فلا هى مستطبعة اللحاق بالركب ولا هى تاركة الركب يسير .

والدين وأهله ورجاله فى موقف المتفرج على الحياة ، قنعوا من الحياة باللحمة التى يأكلونها وقنعوا من العلم بالكلمات التى يرددونها ، فهل تركنا الله ياسيدى ؟

وإذا كان تركنا فلماذا كان خلقنا أصلاً ؟ هل خلقنا لتركنا ؟ لا ، فالعادل لا يترك من خلقه وذلك شأن السيد
العادل ، لا يترك عبده في حيرته بل هو يقدم الهداية ويبصره بالنور .
إنني أبحث عن النور والهداية ، إنني أبحث عن الله في رحمته ومحبته . .
سيدي ، أظنك تتساءل : لماذا أكتب إليك كل هذا ؟ وإليك السبب ، لقد وقع بين يدي مصادفة صفحات
بقلمك عن محبة الله وعشت في الكتاب وبين سطوره بكل أحاسي وكياني ، كنت احاول أن أجد بين سطوره
بصيص نور أو أمل ، ولكني وجدت نفسي بعيداً كل البعد عما جاء في الكتاب ، وأحسست أني أتضاءل أمام
كلماته ، فقررت أن أكتب إليك وأفتح قلبي وأفضي إليك بمكنون نفسي وأسألك كيف السبيل وأين الطريق ؟ "

ولذلك

فلان

وها هو ذا ردى على الكتاب سالف الذكر :

القاهرة في ٣ يناير سنة ١٩٦٣

إلى السيد

" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد - فلقد تلقيت كتابكم المحرر في ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ ، وأبادلكم تحية بتحية ، وأشكر لك حسن ظنك بي والكتابة إلى في موضوع شغلك وأقلق بالك ، تلتمس المخرج مما يحيرك في أمر العقيدة ، والقضاء والقدر ، ووجود الله ، وتختلف المسلمين عن ركب الحياة . . . إلخ .

والشك الذى يساورك سرني ، لأنه بداية السعى لليقين وتعرف الحقيقة وإنك إنما تريد أن تقوم عقيدتك على إقتناع شخصي منك ، لا تقلد فيه والديك أو غيرهما من الناس .

وهذا الاتجاه في ذاته دليل خير فيك ، والأمر سهل جداً وصعب جداً ، سهل لمن فكر بالمنطق الفطري فنظر إلى وجوده من عدمه ، ثم كان بشراً سوياً ، له حيويته وتطوره من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة ، ثم هو بعد ذلك ميت لا محالة ، لا يدراً عنه الموت أحد ، ولو أجمع على مدى حياته كل أطباء العالم ، واتخذوا في هذا الشأن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ثم إنهم يعجزون عن أن يخلقوا في غيره روحاً كالتى تدب فيه ، فإذا عجز البشر واضح في بداية الإنسان ونهايته

وهذا التفاوت الذى تراه بين الناس في أرزاقهم وعقولهم وآجالهم وصحتهم كذلك يدل على تدبير ليس في أيديهم

فلا حيلة لك في اختيار والديك ولا الوطن الذى نشأت فيه .

ثم هذا الكون بما فيه من بدائع المصنوعات والمخلوقات ، من شمس وقمر ونجوم وسماوات مرفوعة ، بغير عمد وليل ونهار يختلفان ، وزروع وأنهار عذبة وبحار ملححة وجبال ورمال ومعادن . . إلخ كلها مسخرة في خدمة الإنسان .

كل هذه الظواهر إنما تدل على وجود الصانع للإنسان ولغيره من المخلوقات والكائنات .

ولو فرضنا لها أكثر من صانع واحد لأدى هذا الفرض إلى أن ما يصنعه واحد ، يعجز عنه الآخر بحكم تخصصه في خلق أشياء دون أشياء ، ولتصورنا إنه لو قام خلاف بين الصانع لفسد الكون من شمس تحتجب عناداً في زميله ، ومن أنهار تغبض ، ومن نبات لا ينبت ، وتكون النتيجة موت الخلق بانعدام أسباب الحياة .

إذن فالتوحيد واضح ، وإن هذا الصانع يجب أن يكون واحداً وألا يكون من جنس ما صنع ، وإلا كان مصنوعاً مثل ما صنع وله صانع ، والمصنوع عاجز ومحدود ، وإذن وجوده من ذاته لا من غيره . ومؤدى ذلك وجود صانع غير مصنوع وغير مشارك ومخالف للمصنوعات وبما أن المصنوعات من الحوادث التي لها بداية ولها نهاية ، فلا بد ألا تكون له بداية وألا تكون له نهاية .

فثبت بهذا المنطق الوجدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وهي كلها صفات ليست للمخلوقات ، بل هي لله وحده .

أما المخلوقات فلها التعدد ولها بداية ولها نهاية ولها شبيهه .

وظاهرة تتكرر بين الناس في كل يوم وليلة ، هي ظاهرة النوم قهراً وظاهرة الاستيقاظ بعد النوم ، ومهما قاومها الإنسان فهي غالبة ، وهذه الظاهرة تدل على الموت المصغر ، فهناك إماتة وقتية وبعث وقتي ، وهي ظاهرة تغلب فيها القوة الخفية التي تتحلى بالصفات المذكورة ، وهي قوة الله .

وهذا الصانع الذى له الوجدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والذى تظهر آثاره في هذا الكون المحيط بنا ، هو الله سبحانه وتعالى ، ولا شبهة في وجوده ، كما لا شبهة في الصفات الواجبة التي ذكرتها لك .

أما العقل وهو ما ميز به الإنسان فوراءه روح تفوق العقل اتساعاً وانفساحاً ، وهي من أسرار الله ، بل إنها لو غابت عن العقل لفقد تفكيره ، والدليل أنه إذا مات الميت جمده المتحرك منه التي كانت مودعة فيه بسر إلهي .

وهذه الروح جوهر لطيف وسر كما قلنا من أسرار الله ، تسعد باتصالها بالله والاعتقاد في وحدانيته ، وفي قضائه وقدره ، وفي البعث بقدرته يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .

أما تخلف المسلمين عن ركب الحياة فإنهم تخلفوا لتركهم أسباب التقدم ، لأن الله ربط الأسباب بالمسببات ، فهو مثلاً سبحانه رازق العباد جميعاً ، ولكنه أمرهم أن يسعوا لذلك الرزق بأسبابه من زرع وتجارات وصناعات . . إلخ ، فمن ترك الأسباب فقد خالف ناموس الله ، فإذا لم يجد رزقاً لا يلوم إلا نفسه ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : " لا يقعد أحكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة " .

كذلك جعل الله النصر على الأعداء بأسبابه فقال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ، فمن أهمل هذا الجانب وكتبت عليه الهزيمة لا يلوم إلا نفسه وهكذا

ومسيرة ركب الحياة ارتبطت بالعلم وموالاته ، وأنت تعلم أن المسلمين ظلوا القرون الطوال مغلبين على أمرهم من أعدائهم ، فخلفوهم عن ركب الحياة ليكون المغنم للمستعمرين والغرم على بلاد المسلمين ، ولكننا بحمد الله بدأنا في هذا العهد الأخير نسترد حريتنا ، ونبنى مجدنا ، ونرفع رؤوسنا ، وإن شاء الله فسنكون بالصبر والمثابرة في الطليعة بإذن الله .

أما أنك وجدت الفرق بعيداً بين ما تجد نفسك فيه وما قرأته في محاضرتي " محبة الله " ، فذلك أمر طبيعي ، لأنك قرأت عن أهل الذروة في الإيمان ، وهم أشبه بالمتخصصين المتعمقين ، ونحن وأنتم ما زلنا في بداية طريق الإيمان ، ومن سار على الدرب وصل ، وفي الأمثال الصينية حكمة يقولون فيها : (إذا خرجت من بيتك فقد قطعت ثلثي الطريق) ، والنية الطيبة والإيمان الثابت يوصلان الإنسان إلى غايته بعون الله وتيسيره .

هذا ، ويسرني أن أخبرك أني سأحاضر بقاعة المحاضرات الأزهرية (قاعة الإمام محمد عبده) بالدراسة يوم الثلاثاء ١٥ يناير ١٩٦٣ الساعة السادسة مساءً في موضوع تتصل جوانبه بما يشغلك وموضوع المحاضرة " التصوف من وحى القرآن والسنة " ، وأود لو تيسر لك الاستماع يومها لما أقول .

وأكون شاكراً لو قدمت لي شخصك بعد أن اتصلت بي بالمكاتبة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حسن كامل المطاوى

الإسلام دين عام :

وكما أن الإسلام دين الفطرة فهو كذلك دين عام ، وإليك ما يقوله في هذا الشأن فضيلة العالم المحروم الشيخ يوسف الدجوى في كتابه " الرسائل " : الإسلام دين عام ، جاء بإصلاح العقائد التي لعبت بها الأهواء ، مصداقاً لجميع الكتب ومهيمناً عليها ، محترماً لجميع الأنبياء ، وليس بالدين ذى الأثانية الذى يعادى أربابه كل من سواهم ، ولا يعتقدون إلا في رسولهم الخاص ، ويرمون من عداهم بالكذب والبهتان .

" . . . فكان دين الإسلام جامعاً للناس على الرسل غير مفرق بينهم قاتلاً لهم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون) .

" ويقول لأهل الكتاب : (يأهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التورة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) ، وينهاهم عما كانوا يفعلونه بقوله : (ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) ، فهو يريد أن يجمعهم على الأنبياء جميعاً ، ويرجعهم إلى أصول دينهم الحقة .

" . . . إن تعاليم الدين الإسلامى الحنيف مبنية على أساس متين من الحكمة ، لا يزعه شئ ، ولا يؤثر فيه مؤثر ، ومبادئه عقلية بحتة ، لم يدخلها شئ من أوهام النفس ، ولا من خرافات الأعتقادات ، ولا فاسدات العادات . . . لذلك كانت الدعوة إليه عامة ، لا تختص بعربى دون عجمى ، و لا بحضرى دون بدوى ، لموافقة مبادئه لكل الأمم على شكل واحد ونسبة واحدة ، ولذلك يسمى " الدين الفطرى " .

الإسلام والعقل :

" . . . إن الإسلام يقول لمتبعيه : تفكروا ، تدبروا ، انظروا ، إلى كثير من

أمثال ذلك مما ورد في القرآن الكريم ، إنا نقول لبني الإنسان بصوت يملأ الخافقين ، ويسمع جميع الثقليين :
حاكموا هذا الدين أمام العقل ، حاكموه أمام الوجدان ، حاكموه أمام البرهان ، حاكموه أمام المدنية والعمران ،
حاكموه أمام شرائع المشرعين وقوانين المقننين وآداب المؤدبين ، حاكموه أمام أخلاقكم ومستحسن عاداتكم ،
حاكموه أمام فلسفتكم وروحانيتكم ، قارنوا بين تاريخه وتاريخ الدول والأديان ، انظروا فيه بالميكروسكوب
والتلسكوب ، حللوه بماشتتم من التحليلات ، امتحنوه بما أردتم من الامتحانات على شرط الإنصاف وعدم
التعصب ، فستنطق ظواهره الطبيعية والروحانية بأنه منبع كل خير وجماع كل فضيلة " .

الإسلام دين الوجدانية في جميع الرسالات :

ويقول فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة ، مد الله في عمره ، في كتابه " العقيدة الإسلامية " :
" الإسلام دين الوجدانية ، وهو لهذا الدين الجامع بين الديانات السماوية كلها . . . (شرع لكم من الدين ما
وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين و لا تتفرقوا فيه كبر
على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب * وما تفرقوا إلا بعد ما جاءهم العلم
بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجلٍ مسمى لقتل بعضهم وإن الذين أورتوا الكتاب من بعدهم لفي
شكٍ منه مريب) .

" . . . التوحيد إذن دين الأنبياء جميعاً ، وهو أقوى وحدة جامعة بين رسالات الله سبحانه وتعالى إلى خلقه . . .
" . . . ووجدانية الذات الإلهية وعدم مشابقتها للحوادث ، ركن من أركان الوجدانية ، لا يسع مؤمناً أن يجهله ،
ولا يعتبر موحداً من لا يؤمن به ، وقد اتفق

العلماء على أن الله تعالى منزّه عن أن يكون متصفاً بما تتصف الحوادث به ، فليس له يد كأيدى الناس ، ولا عين كعيونهم ولا وجه كوجوههم .

الله هو الخالق الفعال :

" . . . والعقيدة الإسلامية (في ركنها الثاني) تقوم على أن الله تعالى خالق كل شئ وأنه تعالى فعال لما يريد ، وأنه لا يمكن أن يقع في ملكه إلا ما يشاؤه ، ولا مشيئة في تسيير هذا الوجود لسواه ، ولكن ذلك لا يمنع أن العبد مسؤول عما يفعل ، ومجزى بما يفعل إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه الحكم العدل اللطيف ، وأنه سبحانه كلف كل التكليفات ، والعبد مختار بالقدر الذى يتحمل به تبعه ما يفعل ، وهو يحس بأنه يفعل مريداً مختاراً ، هذا ما تقرره النصوص القرآنية ، وما وضحته الأحاديث النبوية ، وهو ما لا يصح لمسلم أن يجهله " .

الصحابة والقدر :

" وكان الصحابة يؤمنون بقدرة الله تعالى ، وبأنه خالق كل شئ ، ويؤمنون بالقدر ولا يخوضون فيه ، بل إذا جاء القدر أمسكوا . . . ولقد سأل أحد الناس الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه عن القضاء والقدر وصلته بالجزاء ، فأجاب بما يزيل الشبه من غير خوض ، ثم ختم كلامه بقوله : " إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف تيسراً ، ولم يعص مغلوباً ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ولم يخلق السموات والأرض وما بينهم باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار " .

الإمام أبو حنيفة والقدر :

" ولقد قال الإمام أبو حنيفة رضى الله تبارك وتعالى عنه في القدر : هذه مسألة قد استعصت على الناس فأنى يطبقونها ، هذه مسألة مقفلة قد ضل مفتاحها ، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها ، ولم يفتح إلا بمخبر من الله تعالى ويأتيه بيينة وبرهان " .

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

" وإن الذى يستخلص من كلام إمام الهدى على بن أبى طالب الذى نقلناه آنفاً ، أن علينا أن نطيع الله تعالى فيما أمرنا به ، وأن نجتنب ما نهانا عنه ، وحسينا فى ذلك أننا نعلم ونحس ونشعر بأننا مختارون فيما نفعل ، وأننا فى استطاعتنا أن نفعل وأن لا نفعل ، وأنه يكفى هذا الشعور بما يجب علينا ، وما لا يصح لنا ، إن الاشتغال عن ذلك بتعرف أمر مغلق قد ضاع مفتاحه لا يجدى فتياً " .

ولقد قال ذلك الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : " إن الله تعالى أراد بنا شيئاً ، وأراد منا شيئاً ، فما أرادنا بنا طواه عنا ، وما أرادنا منا أظهره لنا ، فما لنا نشتغل بما أرادنا بنا عما أرادنا منا " .

" فهو رضى الله عنه يندد بالذين يتصرفون عن التكليف إلى الكلام فيما كتبه الله علينا من خير أوشر ، والعصاه هم الذين يبررون عصيانهم بما كتبه الله تعالى ، ومنهم الذين يثيرون هذه القضية ، ليضعفوا العزائم عن العمل .

" ولقد ذكر القرآن الكريم أن المشركين قد أحتجوا على عبادتهم الأوثان بأن الله تعالى لو شاء ألا يعبدوها ما عبدها ، ورد الله عليهم قولهم بأنهم ما علموا مشيئة الله فيهم وأشركوا لأجلهم ، وإليك كلام الله تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون * قل فله الحجة البالغة فلو شاء هداكم أجمعين) .

" ونرى من هذا أن المشركين والمكذبين جميعاً يسندون ما يفعلونه إلى الله تعالى ، على أساس أن الله تعالى لو شاء ألا يفعلوا ما فعلوه ، وأن الحجة القائمة عليهم ألا حجة عندهم على أن الله تعالى أراد لهم ذلك ، ويؤكد سبحانه أن مشيئة الله هى الغالبة (فلو شاء الله هداكم أجمعين) ولكن ذلك لا يلقي عنكم التبعة " .

عبادة الله وحده :

" . . . وانفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والتكوين يقتضى ألا يعبد سواه ، ووحداية ذاته وصفاته وأنه ليس كمثل شئ يقتضى ألا يعبد سواه ، لأنه لا يعبد إلا من انفرد بالوجود الكامل ، وعلا عن التشبيه والنظير ، والعبادة تكون بالطريق التي بينها سبحانه وتعالى .

"فلا نعبد بأهوائنا ، بل نعبد بما أوحى به إلى رسوله الأمين وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وبعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، صار كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما وحدهما الطريق لمعرفة العبادة لله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ، " تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبداً ، كتاب الله تعالى وسنتي " .

الأخبار والرهبان :

"وقد نعى الله تعالى على اليهود والنصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وقال تعالى فيهم : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) .

" وقد كانوا يأخذون دينهم من الأخبار والرهبان ، من غير الرجوع إلى أصل الكتاب ، ويعتبرون كلامهم حجة ، من غير أن يبينوا سنده وأصله ، وبذلك كانوا أرباباً من دون الله . . . وصح ما قاله الله فيهم : (إن كثير من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) .

الفقهاء المجتهدون :

" وليس شأن الفقهاء المجتهدين في الإسلام كشأن هؤلاء ، لأنهم مفسرون مستنبطون للأدلة من الكتاب والسنة ، فإن أصابوا في الفهم فيتوفيق الله ، وإن

أخطأوا فمن أنفسهم ، وليس محتكرين للفهم ، بل كل من استوفى شروط الإجتهد له أن يتعرف الأحكام في الكتاب والسنة " .

كلمة التقوى :

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة : " والكلمة الجامعة للعقيدة الإسلامية هي شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهي التي نرددها في كل صلاة ، وهي التي كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم بدعايته ، وهي التي يدعو لها كل داع للإسلام ، وهي فيصل التفرقة بين الكفر والإيمان ، وهي الأساس للبناء التكليفي للإنسان . " والشهادة الأولى " لا إله إلا الله " تضمنت نفيًا وأثباتًا ، أو تضمنت قصرًا وتخصيصًا ، تضمنت نفي الأوهية عن غيره ، وتضمنت بالاستثناء بعد النفي أثبات الألوهية له .

" والألوهية هي أستحقاقه العبادة وحده ، ولكن استحقاق العبودية له لا يكون إلا إذا كان هو المتفضل بالنعمة وحده ، فهو الذي أنعم بالوجود ، وشكر النعم واجب بحكم العقل والمنطق .

والشهادة الثانية " محمد رسول الله " تتضمن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسول من عند الله تعالى رب العالمين ، أرسله هداية البشر أجمعين ، وأن الإيمان بالرسالة المحمدية يتضمن الإدعان للمعجزة التي أثبت بها رسالته ، والتي تحدى بها الذين خاطبهم أن يأتوا بمثلها ، وأنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها : (قل لئن أجمعتم الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

" ويتضمن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الإيمان بأن الله تعالى يكلم عباده إما بالوحي يوحيه ، وإما بخطاب من وراء حجاب ، وإما برسول من الملائكة يرسله إليهم ، كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه

الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علىٰ حكيمة) ، وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراطٍ مستقيم) .

وتتضمن الشهادة بأن محمد رسول الله تصديقه في كل ما أمر به ، وكل ما نهي عنه ، سواء أكان ذلك بياناً للقرآن ، أم كان بياناً لما أوحى الله تعالى به: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) .

طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه :

" فكل ما قرره النبي صلى الله عليه وسلم يجب الإذعان له ، على أنه حكم الله تعالى ، (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، وقال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .. " فالشهادة بالرسالة تقتضى لا محالة الإيمان بصدق كل ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيجب الإيمان بفريضة الصلاة والزكاة والحج وعدد الصلوات ، ومعاني الحج ومناسكه ، وكونه إلى البيت الحرام ، وكون ركنه الأكبر الوقوف بعرفة ، وكذلك تحريم الربا ، وتحريم الخمر والميسر والزنا ، والإقرار بأن عقوبتها هي ما جاءت في القرآن الكريم

" ويعد كافراً من أنكر الأحكام الثابتة في القرآن ، وكذلك يعد كافراً من ينكر أمراً مما علم من الحقائق الدينية بالضرورة ، وتواتر العلم به جيلاً بعد جيل ، من عصر النبي صلى الله عليه وسلم " .

الأمة المحمدية وشريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما بعدها :

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

" وإن أمة محمد الذين يتبعونه حقاً وصدقاً ، هم الذين أحيوا شريعة أبي

الأنبياء إبراهيم ، ومن جاء بعده من النبيين من ناحية الأصول المقررة الثابتة التي لا تختلف فيها الأقسام ، ولذلك قال تعالى :

(وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) . كما قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) .

" . . . فالؤمن بمحمد مؤمن بعيسى ، والمسيحي الذي يدخل في الإسلام لا يخرج من المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام ، ولكنه يدخل فيها كاملة غير منقوصة ، لأنه بشر بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) ومباشراً برسولاً يأتي من بعدى اسمه أحمد) - ولقد سئل قس دخل في الإسلام : لم خرجت من المسيحية ؟ فقال : ما خرجت منها ولكني أدركتها صحيحة ، وسرت فيها إلى كمالها ، وكما لها بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم - كما أن كمال الإسلام في الإيمان بكل السابقين ، بل ذلك ضمن أصول الإسلام " .

الإيمان بالغيب :

ويقول فضيلته :

" الإيمان بالبعث والحياة الأخرى قرين الإيمان بالغيب ، لأن البعث ليس أمراً مشهوداً بين أيدينا ، بل هو والحياة الآخرة أمران مغيبان .

" . . . ولقد كان الماديون يقيسون قياساً مادياً ، والقرآن الكريم يرد قولهم بقياس هو الحكم وحده ، فهم ينفون البعث بأن ما يفنى لا يمكن أن يعود ، وقد ذكر

هذا القياس ورده في قوله تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

مزايا العقيدة الإسلامية :

ويقول العلامة عباس العقاد في كتابه " حقائق الإسلام " في مزايا العقيدة الإسلامية :
" وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول ، لأنها تشمل الأمم الإنسانية جميعاً ، كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير .

" فليس الإسلام دين أمة واحدة ، ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسلطة المطلقة دون الضعفاء المسخرين ، ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المطلقين ، رسالة تشمل بنى الإنسان من كل جنس وملة وعقيدة (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) - (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض) - (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) - (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

" فهذه عقيدة إنسانية شاملة ، لا تخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنها سلالة مختارة دون سائر السلالات ، لفضيلة غير فضيلة العمل

والصلاح : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) .

(سورة الحجرات)

وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم : " لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى " .
" وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة ، أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات ، يتفاوتون بالعلم ، ويتفاوتون بالعمل ، ويتفاوتون بالرزق ، ويتفاوتون بالأخلاق ، (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) [سورة المجادلة] .

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) [سورة النساءِ]

(والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) [سورة النحل] .

(هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [سورة الزمر] .

"وإذا ذكر القرآن الضعف ، فلا يذكره لأن الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكن يذكره ليقول للضعيف إنه أهل لمعرفة الله إذا جاهد وصبر ، وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، وإلا فإنه من المجرمين :

ويقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) [سورة سبأ] .

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهم منهم ما كانوا يجذرون) [سورة القصص] .

" وما من ضعيف هو ضعيف إذا صبر على البلاء ، فإذا عرف الصبر عليه ، فإنه لأقوى من العصبة الأشداء ، (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفاً يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) .

" فما كان الإله الذى يدين به المسلم إله ضعفاء وإله أقوياء ، ولكنه إله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أن يكون مع الله ، والله مع الصابرين .

" بهذه العقيدة غلب المسلمون أقوياء الأرض ، ثم صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول ، وتبدلت المقادير ، وذاق المسلمون بأس القوة ، مغلوبين مدافعين " .

ويقول كذلك ، رحمه الله ، فى ذلك الكتاب :

" . . فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

" فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شركاء (سبحانه عما يشركون) .

" وما هو رب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مآثرة ، ولكنه هو (رب العالمين) ، (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [سورة الحجرات] .

وهو واحد أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) [سورة الإخلاص] .

" لا يؤاخذ إنساناً بذنب إنسان ، ولا يحاسب أمة بجريرة أمة سلفت ، ولا يدين العالم كله بغير نذير (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [سورة فاطر] .

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يفعلون) [سورة البقرة] .
(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) [سورة الإسراء] .

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه (بسم الله الرحمن الرحيم) ، (وما ربك بظلامٍ للعبيد) [سورة فصلت] ، (وهو الأول والآخر والظاهر والباطن) [سورة الحديد] ، (وسع ربى كل شئ علماً) [سورة الأنعام] ، (وهو بكل خلق عليم) سورة يس .

" . . . فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية ، ومن جوف بلاد القبائل والعشائر خرج الدين الذى يدعوا إلى إله واحد (رب العالمين) ، ورب المشرق والمغرب ، ورب الأمم الإنسانية جمعاء بغير فارق بينها غير فارق الإيمان والصلاح " .

" فالله رب العالمين مالك يوم الدين ، لم يكن نسخة محرفة من صورة الله فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الأصل الذى يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة فى الإله ، كأكمل ما كانت عليه ، وكأكمل ما ينبغى أن يكون " .

مزايا الرسالة المحمدية :

ويتعرض العلامة العقاد لنبوءة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول رحمه الله :

" . . . إن النبوءة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوءة ، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الإنسان فى الإله .

" وما نحسب أن النبوءة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول ، غير مشروطة بما غبر فى الأوهام ، من قيام النبوءة كلها على دعوى الخوارق والإنباء بالمغيبات : (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين) [سورة يونس] .

(قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم

الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) [سورة الأعراف] ، (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) [سورة الأنعام] . (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) سورة الأنعام ، فما النبوة بقول ساحر ، ولا يفلح الساحرون ، وما النبى بكاهن ولا مجنون " .

كرامة التكليف الشرعية :

ويتعرض العلامة العقاد للإنسان ، وما شرفه الله به فى التكليف ، فيقول رحمه الله :

" . . . وارتفاع الإنسان ، وهبوطه للإنسان منوطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والتبعية ، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه هى الأمانة التى رفعته مكاناً فوق مكان الملائكة ، وهبطت به مقاماً إلى زمرة الشياطين :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان) [سورة الأحزاب] . (بل الإنسان على نفسه بصيرة) [سورة القيامة] .

" وبهذه الأمانة أرتفع الإنسان مكاناً علياً فوق مكان الملائكة ، لأنه قادر على الخير والشر ، فله فضل على من يصنع الخير ، لأنه لا يقدر على غيره ، ولا يعرف سواه ، (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً) [سورة الأسراء] .

" وبهذه الأمانة هبط الإنسان غروراً وسرفاً إلى عداد الشياطين (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) [سورة الأنعام] . (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) [سورة الإسراء] .

" فهذا الإنسان يتردى من أحسن تكوين إلى أسفل سافلين ، ولا يزال في الحالين إنساناً مكلفاً ، قابلاً للنهوض بنفسه بعد العشرة ، قابلاً للتوبة بعد الخطيئة ، محاسباً بما جنته يده ، غير محاسب بما جناه سواه ، (وأن ليس على الإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى) [سورة النجم] .

(وكل إنسان أُلزِمناه طائرَه في عنقه) [سورة الإسراء] . (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [سورة الأنعام] . (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) [سورة التين] . " وهو مخلوق مكلف ، ذلك جماع ما يوصف به الإنسان ، تمييزاً من العجماوات ، وتمييزاً من الأرواح العلوية على السواء .

" ولهذا كان في أحسن تقويم .

" ولهذا يرتد إلى أسفل سافلين .

" وقوام التقويم الحسن : الإيمان ، وعمل الصالحات ، وسبيل الإرتداد إلى أسفل سافلين مطاوعة الهوى ، والغرور ، والسرف ، وطغيان الغنى ، ومنع الخير ، والمهلح مع البلاء ، والعجلة مع الضعف والأغواء .

" . . . ولعل الصعوبة الكبرى إنما تساور العقل في قوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) ، فلم لا يشاء الله أن تؤتى كل نفس هداها على السواء ؟ تذليل الصعوبة في الجواب نفسه ، فإن الهداية إذا ركبت في طبائع الناس كما تركب خصائص الأجسام على السواء بين كل جسم وجسم ، فتلك هي الهداية الآلية التي لا اختلاف بها بين مدارك الأرواح ولوازم الأجسام المادية ، ومن أختار ذلك فإنما يختار لنوع الإنسان منزلة دون منزلته التي كرمته ، وفضلته على سائر المخلوقات .

" فالعدل فيما أختاره الله للإنسان أعم وأكرم مما يختاره الإنسان لنفسه إذا هو آثر الهداية التي تسوى بينه وبين الجماد " .

أقول ، ويؤخذ مما قرره الإمام أبو بكر الكلاباذي في كتابه " التعرف

لمذهب أهل التصوف " أن الله خالق لأفعال العباد كما هو خالق لأعيانهم (والله خلقكم وما تعملون) ، وكل ما يفعلونه من خير وشر ، فبقضاء الله وقدره وإرادته ومشئته ، ولولا ذلك لم يكونوا عبيدا ولا مروبين ولا مخلوقين ، يقول تعالى: (قل الله خالق كل شيء) ، ويقول: (إنا كل شيء خلقناه بقدر * وكل شيء فعلوه في الزبر) ، وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ، أ رأيت ما نعمل فيه ، أعلى امر قد فرغ منه أو امر مبتدأ ، فقال : " على امر فرغ منه " . فقال عمر : أفلا نتكل وندع العمل ؟ فقال صلى الله عليه و سلم ، " اعملوا فكل ميسر لم خلق له " .

ويقول صاحب جوهر التوحيد :

موفق لمن اراد ان يصل	فخالق لعبده وما عمل
ومنجز لمن اراد وعده	وخاذل لمن اراد بعده
كذا الشقي ثم لم ينتقل	فوز السعيد عنده في الازل

هوى النفس و ضرره:

اقول : ومطوعة هوى النفس هو شر ما يصيب الانسان ، فقد حذرنا الله من هواها ، ونصحنا ان نهاها ، وبين لنا انه اماراة بالسوء ، اي شديدة الإمرة ، كما بين لنا ما سيكون يوم القيامة من ربح مخالفتها وخسارة مطاوعتها في مثل قوله تعالى في سورة النازعات : (فإذا جاءت الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى * وبرزت الجحيم لمن يرى * فأما من طغى * و آثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى) ، وشتان بين العقاب والثواب .
وينصحنا سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه فيقول : حظ النفس في المعصية ظاهر جلى ، وحظها في الطاعة باطن خفي ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه ، كما يقول : إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النفس

فاتبعه ، فإنه لا يتقبل عليها إلا ما كان حقاً ، ويقول كذلك : إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء ، فإذا ذقت المنة ، جاءت معالجة النفس اختياراً ، فالحلاوة التي كنت تجدها في المعصية ترجع تجدها في الطاعة .
أقول : ولا يخفك أن الشيطان عدو مبين ، ومن آثار عداوته أنه يزيد للنفس حب الشهوات ، ليعصى العبد بها ربه ، فيشارك الشيطان في المعصية ، فقد حذرنا الله منه ومن كيده في قوله تعالى " (إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً) ، وتقتضى عداوته أن نخالفه اتقاء لشره ، وقد صور الله عاقبة مطاوعته أقوى تصوير ، وكشف لنا أنها تنحط بنا إلى خسة الحيوان في قوله تعالى في سورة الأعراف : (واتل عليه نبأ الذي آتيناه آياتنا فنسلك منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعنه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

ويصور لنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف الطبائع وتباينها في قبول دعوة الحق فيقول صلى الله عليه وسلم : " إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ، فتعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " جعلنا الله وإياك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

تفسير وحدانية الذات :

وقد نقل فضيلة الشيخ أبو زهرة عن الإمام الأشعري رضي الله عنه تفسيره

لوحداية الذات في كتابه مقالات الإسلاميين فقال :

" وإن الله الواحد الأحد ، ليس كمثل شئ ، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ، ولا جنة ولا صورة ، ولا لحم ولا دم ولا شخص ، ولا جوهر ولا عرض ولا بذى لون ولا طعم ، ولا رائحة ولا محسة ، ولا بذى حرارة ولا برودة ، ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا بذى أبعاد أو أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال ، وأمام وخلف ، ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسمة أو العزلة ، ولا الحلول في الأماكن ، ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، لا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير شبيه له .

" ولم يزل أولاً سابقاً متقدماً للحداثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل حياً قادراً ، ولا تحيط به الأوهام ، شئ لا كا لأشياء ، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وأنه القديم وحده ، ولا إله سواه ، ولا شريك له في ملكه ، ولا وزير له في سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ، ولا بأصعب عيه منه ، ولا يجوز عليه احتراز المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدر عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء .

المتشابهات في القرآن الكريم :

يقول الله تعالى في سورة آل عمران : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر

إلا أولو الألباب * ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .
ويقول العلماء أن المتشابه في القرآن الكريم نوعان : متشابه لفظي وهي الحروف التي في أوائل السور ، ومتشابه
معنوي كقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) ، وقوله تعالى (بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء) ، وقوله تعالى (
والسماوات بنيناها بيدينا) ، وقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) إلخ .
وقد قال السلف : نحن نؤمن بما قاله الله على ما أراده الله من غير تأويل ، أما رأى الخلف فهو التأويل بمعنى أن
اليد تطلق على القدرة ، والوجه على الذات إلخ . . ولكن اتفق السلف والخلف على نفى التشبيه عن الله تعالى ،
استناداً إلى قوله سبحانه : (ليس كمثله شيء) ، وهي آية نفت التشبيه بحرفي الكاف والمثل ، فكأنه تعالى يقول
ليس كهو شيء ، وليس مثله شيء ، وكذلك يقول تعالى : (ولم يكن له كفواً أحد) ، كما يقول جل جلاله : (ولا
يحيطون به علماً) ، والقاعدة التي نخرج بها من كل ما تقدم هي : كل ما خطر ببالك فهو هالك ، والله
بخلاف ذلك ، والأسلم لنا والحالة هذه أن نقول : نؤمن بالمتشابهات على ما أراد الله منها .
وقد سئل الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه : لماذا تركت علم الكلام - أى الكلام في التوحيد - إلى الفقه ؟ فقال
رضى الله عنه : " إن الخطأ في العقيدة يرمى صاحبه بالكفر ، أما الخطأ في الفقه فإن صاحبه يرمى بالمخالفة " .
وجاء في حاشية الإمام الباجورى على الجوهرية : سأل رجل الإمام مالكا عن قوله تعالى (الرحمن على العرش
استوى) ، فأطرق رأسه ملياً ثم قال الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة
، وما أظنك إلا ضالاً ، فأمر به فأخرج .
وسأل الزمخشري الإمام الغزالي عن الآية المذكورة فأجاب بقوله :
إذ استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينية ، فكيف يليق بعبوديتك أن

تصفه تعالى أو كيف وهو مقدس عن ذلك ثم جعل يقول :

قل لمن يفهم عني ما أقول قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه قصرت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ولا تد رك من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت فيك حارت في خفاها العقول
أين منك الروح في جوهرها هل تراها فتري كيف تجول
وكذا الأنفاس هل تحصرها لا ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم إذا غلب النوم فقل لي يا جهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه كيف يجرى منك أم كيف تبول
فإذا كانت طواياك التي بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكي الرب أم كيف يرى فلعمري ليس ذا إلا فضول
فهو لا أين ولا كيف له ووبر الكيف و الكيف يحول
وهو فوق الفوق لا فوق له وهو في كل النواحي لا يزول
جل ذاتا وصفات و سما وتعالى قدره عما تقول

السادة الصوفية و توحيد الله تعالى :

أقول ومما قاله السادة الصوفية في التوحيد :

إن قلت متى فقد سبق الوقت كونه . .

وإن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده . . .

لا تجتمع صفتان لغيره في وقت ، و لا يكون بهما على التضاد ، فهو باطن في ظهوره ، ظاهر في استتاره ،

فهوة الظاهر الباطن ، القريب البعيد ، امتناعا بذلك عن الخلق أن يشبهوه . .

ليس لذاته تكليف ، ولا لفعله تكليف . .

لاتدركه العيون ، ولا تهجم عليه الظنون ، ولا تتغير صفاته ، ولا تتبدل أسماؤه ، لم يزل كذلك ، ولا يزال كذلك ،

هو الأول والآخر ، و الظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير .

وأجمعوا على أن القرآن كلام الله تعالى الحقيقة ، وأنه ليس بمخلوق ولا محدث ولا حدث ، وأنه متلو بالسنننا ، مكتوب في مصاحفنا ، محفوظ في صدورنا ، غير حال فيها ، كما ان الله تعالى معلوم بقلوبنا ، مذكور بالسنننا ، معبود في مساجدنا ، غير حال فيها .

وأجمعوا على أن الله تعالى يرى بالأبصار في الآخرة (أي بلا إحاطة كما سيأتي) وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ، لأن ذلك كرامة من الله تعالى ، لقوله : (للذين أحسنوا الحسنى و زيادة) ، وجاءت الرواية بأن الزيادة هي الرؤية : (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) ، في حين يقول في الكافرين : (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . و قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) في الدنيا ، كذلك في الآخرة ، و إنما نفى الله الإدراك بالأبصار ، لأن الإدراك يوجب كيفية و إحاطة ، فنفي ما يوجب الكيفية و الإحاطة دون الرؤية التي ليست فيها كيفية و إحاطة . ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه تعالى ، لكان سؤال موسى عليه السلام : (أرني أنظر إليك) جهلا وكفرا ، ولما علق الله سبحانه و تعالى الرؤية بشريطة استقرار الجبل بقوله ، (فإن أستقر مكانه فسوف تراني) و كان ممكنا في العقل استقراره لو أقره الله .

و قالوا في هذا المقام أن الله تعالى اطلع على قلوب خلقه ، فوجد أشوقها إليه قلب مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فجعل له الرؤية في الدنيا ليلة المعراج ، قبل أن يراه المؤمنون في الآخرة ، فخص من بين الخلائق بهذه الرؤية ، كما خص سيدنا موسى عليه السلام بالكلام ، واحتجوا بخبر ابن عباس و أسماء و أنس رضي الله عنهم و ينوه سيدس العارف بالله الشيخ أحمد الحلواني الخليلي رضي الله عنه بتلك الرؤية في قوله :

بالعين قد شاهدته منفردا فالعين فلتنعم بماتيك النعم
أكرومة لك لا تضاهى رفعة محبوءة لك يا مقرب فى التقدم

و يقول المغفور له الشيخ الباجوري في حاشيته على جوهرة الوحيد : وقد نفت

السيدة عائشة رضي الله عنها وقوع الرؤية للنبي صلى الله عليه وسلم ، لكن قدم عليها ابن عباس لأنه مثبت لأنه رأى ربه سبحانه وتعالى بعيني رأسه و هما في محلها ، خلافا لمن قال حولا لقلبه ، و القاعدة (اي الأصولية) أن المثبت مقدم على النافي ، حتى قال معمر بن راشد : ما عائشة عندنا أعلم من ابن عباس . و أضاف الشيخ رحمه الله : و كان صلى الله عليه و سلم يراه تعالى في كل مره من مرات المراجعة [أنظر التفصيل في مبحث الإسراء والمعراج في المباحث التالية] .

وجاء في الحاشية المذكورة كذلك :

أما رؤيته تعالى مناما ، فنقل عن القاضي عياض أنه لا نزاع في وقوعها و صحتها ، فإن الشيطان لا يتمثل به تعالى كما لا يتمثل بالأنبياء عليهم الصلاة و السلام ، و ذكر بعضهم الخلاف ، و قال بعضهم إن الشيطان يتمثل بالله دون النبي ، و الفرق أن النبي بشر ، فيلزم في التمثيل به اللبس بخلاف المولى سبحانه فأمره معلوم . و حكى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه رأى المولى سبحانه و تعالى في المنام تسعا و تسعين مرة وقال : و عزته إن رأته تمام المائة لأسأليه فرآه فقال : سيدي ومولاي : ما يتقرب به المتقربون إليك ؟ قال : تلاوة كلامي ، فقال : بفهم أو بغير فهم ، فقال : يا أحمد بفهم وبغير فهم .

أقول و ما أوسع فضل الله على عباده من العلماء وغيرهم ، و هو الغني عنهم وعن عملهم ، وقد دخلت على شياخي العارف بالله سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني في أواخر عمره ، طيب الله ثراه ، فوجدته أبيض الوجه ، مع أنه كان قمحي اللون ، و كان شعر ذقنه كأسلاك الفضة بريقاً ، و عجبت يومها لمنظره الذي كان ينطق بولايته حتى لمن يراه أول مرة دون معرفة سابقة ، و بعد أن سلمت عليه جلست أتطلع إلى أنواره الباهرة ، فإذا به يقول لي في انكسار واضح : دا ربنا ده عظيم جدا ، إذا كان الواحد يراه تعالى وكأنه نور في نور ، و يقول : أنا أغفر لعبدي و لا أبالي ، ثم أضاف رضي الله عنه : و صحيح ها يبالي من مين ؟ فعلمت أنه قائم من النوم بعد هذه الرؤيا مباشرة ، و علمت كذلك أنه قريب الانتقال إلى رضوان الله وهو ما كان ، طيب الله قراره .

الشيخ الأكبر والتوحيد :

وفي كلمتي الشهادتين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، يقول سيدي الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي رضى الله عنه في الباب السابع والستين من الفتوحات :

شهد الله لم يزل أزلا	أنه لا إله إلا هو الله
ثم أملاكه بذا شهد	أنه لا إله إلا هو الله
وأولو العلم كلهم شهدوا	أنه لا إله إلا هو الله
ثم قال الرسول قولوا معي	أنه لا إله إلا هو الله
أفضل ما قلته وقال به	أنه لا إله إلا هو الله

" قال الله جل ثناؤه في كتابه العزيز : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ، ثم قال : (إن الدين عند الله الإسلام) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله " الحديث ، فقال سبحانه : (وأولو العلم) ولم يقل وأولو الإيمان ، فإن شهادته بالتوحيد لنفسه ما هي عن خبر فيكون إيماناً ، ولهذا الشاهد فيما يشهد به لا يكون إلا عن علم ، وإلا فلا تصح شهادته . ثم إنه عز وجل عطف الملائكة وأولو العلم على نفسه بالواو ، وهو حرف يعطى الاشتراك ، ولا اشتراك هنا إلا في الشهادة قطعاً ، ثم أضافها إلى العلم لا إلى الإيمان ، فعلمنا أنه أراد من حصل له التوحيد من طريق العلم الفطري أو الضروري ، لا من طريق الخبر كأنه يقول : وشهدت الملائكة بتوحيدي بالعلم الضروري من التجلي الذي أفادهم العلم ، وقام لهم مقام النظر الصحيح في الأدلة ، فشهدت لي بالتوحيد كما شهدت لنفسي ، وأولو العلم بالنظر العقلي الذي جعلته في عبادي ، ثم جاء بالإيمان في الرتبة الثانية من العلماء ، وهو الذي يعول عليه في السعادة ، فإن الله به أمر ، وسميناه علماء لكون المخبر هو الله ، فقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ، وقال تعالى : (وليعلموا أنه هو إله واحد)

حين قسم المراتب في آخر سورة إبراهيم من القرآن العزيز ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " ، ولم يقل هنا " يؤمن " فإن الإيمان موقوف على الخبر وقد قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) ، وقد علمنا أن لله عبادة كانوا في فترات وهم موحدون علماء ، وما كانت دعوة الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عامة ، فيلزم أهل كل زمان الإيمان ، فعم بهذا الكلام جميع العلماء بتوحيد الله ، المؤمن منهم من حيث ما هو عالم به من جهة الخبر الصادق الذي يفيد العلم ، لا من جهة الإيمان وغير المؤمن ، فالإيمان لا يصح وجوده إلا بعد مجئ الرسل ، والرسول لا يثبت حتى يعلم الناظر العاقل أن ثمَّ إلهاً ، وأن ذلك الإله واحد لا بد من ذلك ، لأن الرسول من جنس ما أرسل إليهم ، فلا يختص واحد من الجنس دون غيره إلا لعدم المعارض وهو الشريك ، فلا بد أن يكون عالماً بتوحيد من أرسله وهو الله تعالى .

" فإذا قال العالم لا إله إلا الله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له : قل لا إله إلا الله ، عن أمر الله سمي مؤمناً ، فإن الرسول أوجب عليه أن يقوها ، وقد كان في نفسه عالماً بهذا ومخيراً في التلفظ بها ، وعدم التلفظ بها ، فهذه مرتبة العالم بتوحيد الله من حيث الدليل ، فمن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب وهو من السعداء ، فأما من كان في الفترات فيبعثه الله أمة وحده كقس بن ساعدة لا تابع له لأنه ليس بمؤمن (أى لم يكن إيمانه يأخذ الدين عن الرسول) ولا هو بمتبوع لأنه ليس برسول من عند الله بل هو عالم بالله .

" فإذا جاء الرسول وبين يديه العلماء بالله وغير العلماء بالله ، وقال للجميع قولوا لا إله إلا الله ، علمنا أنه صلى الله عليه وسلم في ذلك القول معلم لمن لا علم له بتوحيد الله من المشركين ، وعلمنا أنه في ذلك القول أيضاً معلم للعلماء بالله وتوحيده أن التلفظ به واجب ، وأنه العاصم لهم من سفك دمائهم وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم

إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله ، ولم يقل حتى يعلموا ، فإن فيهم العلماء ، فالحكم هنا للقول لا للعلم ، والحكم يوم تبلى السرائر في هذا للعلم لا للقول ، فقاها هنا العالم والمؤمن والمنافق الذى ليس بعالم ولا مؤمن ، فإذا قالوا هذه الكلمة عصموا دماهم وأمواهم إلا بحقها في الدنيا والآخرة ، وحسابهم على الله في الآخرة من أجل المنافق ، ومن ترتب عليه حق لأحد فلم يؤخذ منه ، وأما في الدنيا فمن أجل الحدود الموضوعة ، فإن قول لا إله إلا الله لا يسقطها في الدنيا ولا الآخرة ، وأما حسابهم على الله في الآخرة يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم فيقولون (لا علم لنا) أى لم نطلع على القلوب (إنك أنت علام الغيوب) تأكيد وتأييد لما ذكرنا " .

وما أروع ما يقول سيدى الشيخ الأكبر ، رضى الله عنه بعد ذلك :

قال صلى الله عليه وسلم : " بنى الإسلام على خمس ، شهادة ألا إله إلا الله وهى القلب ، وأن محمد رسول الله حاجب الباب ، وإقام الصلاة المحببة اليمنى ، وإيتاء الزكاة المحببة اليسرى ، وصيام رمضان التقدمة ، والحج الساقية ¹ ، وربما كانت الصلاة التقدمة لكونها نورا ، وتكون الزكاة الميمنة لأنها إنفاق يحتاج إلى قوة لإخراج ما كان يملكه عن ملكه ، ويكون الحج الميسرة لما فيه من الإنفاق والقرايين حيث تجتمع بالزكاة فى الصدقة والهدية وكلاهما من أعمال الأيدي ، ويكون الصوم فى الساقية ، فإن الخلف نظير الإمام وهو ضياء ، وهكذا يكون الإيمان الإلهى يوم القيامة ، فيأتى الإيمان يوم القيامة فى صورة ملك على هذه الصفة ، فأهل لا إله إلا الله فى القلب ، وأهل الصلاة فى التقدمة ، وأهل الزكاة وهى الصدقة فى الميمنة ، وأهل الحج فى الميسرة ، وأهل الصيام فى الساقية ، جعلنا الله ممن قام بيته على هذه القواعد ، فكان بيته " الإيمان " وحده من القبلة الصلاة ومن الشمال الصوم ، ومن الغرب صدقة السر ، ومن الشرق الحج ، فلقد سعد ساكنه . . .

" وإنما قال الشارع : حتى يقولوا لا إله إلا الله ، ولم يقل محمد رسول الله (يشير إلى الحديث السابق) لتضمن

الشهادة بالتوحيد الشهادة بالرسالة ، فإن

¹ - ساقية الجيش هى مؤخرته .

القائل لا إله إلا الله لا يكون مؤمناً إلا إذا قالها ، لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فإذا قالها لقوله فهو عين إثبات رسالته ، فلما تضمنت هذه الكلمة الخاصة الشهادة بالرسالة لهذا لم يقل قولوا : محمد رسول الله . . . " واعلم أن التلفظ بشهادة الرسالة المقرونة بشهادة التوحيد (أي في قول القائل لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيه سر إلهي عرفنا به الحق سبحانه ، وهو أن الإله الواحد الذي جاء بوصفه و نعتة الشارع ما هو التوحيد الإلهي لذي أدركه العقل ، فإن ذلك لا يقبل اقتران الشهادة بالرسالة مع الشهادة بالتوحيد من حيث ما يعلمه الشارع ، ما هو التوحيد من حيث ما أثبتته النظر العقلي . . . "

دليل الوجدانية :

يقول كذلك سيدي الشيخ الأكبر في الباب الثاني و السبعين و مائة في مقام التوحيد :

أحد ما مثله أحد
بجمال النعت منفرد
الذي قام الوجود به
أمرنا عليه ينعقد

اعلم أن التوحيد التعمل في حصول العلم في نفس الإنسان أو الطالب بأن الله الذي أوجده واحد لا شريك له في ألوهيته ، و الواحد صفة الحق ، و الاسم منه الأحد و الواحد ، وأما الوجدانية فقيام الوحدة بالواحد ، فالتوحيد نسبة فعل من الموحّد يحصل في نفس العالم به أن الله واحد .

" قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، و قد وجد الصلاح و هو بقاء العالم و وجوده فدل على أن الموجد له لو لم يكن واحدا ما صح وجود العالم . . . "

" و هكذا استدلل الخليل عليه السلام في الأفعال ، فأعطاه النظر أن الأفعال يناقض حفظ العالم - فالإله لا يتصف بالأفعال ، أو الأفعال حادث لطروئه على الآفل بعد أن لم يكن آفلا - و الإله لا يكون محلا للحوادث . . . قال تعالى في قصة إبراهيم هذه : (و تلك حجتنا آتيناها إبراهيم) ولم يكن له غير هذا ،

فقوله حجتنا التي نصبناها دليلا على توحيدنا وهي قولنا (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) " .

نفي الحلول و الاتحاد عن الصوفية :

أقول وقد طعن بعض أهل العلم على الصوفية بأنهم خرجوا على التوحيد الصحيح و قالوا بالحلول و الاتحاد ، و استندوا في اتهامهم هذا إلى ما ذهب إليه طوائف زائغة عن الإسلام تدعي أنها صوفية ، وهؤلاء لا يعيننا من أمرهم شيء .

و الصوفية الذين نعتد بهم و نعتز ، هم المتمسكون بالكتاب و السنة ، و هؤلاء يجب أن نحسن الظن بعقيدتهم ، لأنهم أهل علم و عمل و حال ، و قد تكون لهم عبارات تدق عن فهم غيرهم ، فيخفى مقصودهم منها على من لم يذق ذوقهم فيرميهم بما هم منه برآء .

فالاتحاد حيث ورد في كلام السادة الصوفية الصادقين ، لا يقصدون به اتحاد ذات في ذات ، و حاشا أن يتحد القديم الخالق بالحدث المخلوق ، و إنما هم يقصدون به فناء مراد العبد في مراد الله تعالى كما يقول سيدي علي وفا رضي الله عنه :

و علمك أن كل الأمر أمرى هو المعنى المسمى باتحاد

و قد قلت في كتابي " منهاج الصوفية " الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في أغسطس ١٩٦٦ :
و يرمي أعداء التصوف سيدي محي الدين بن عربي و هو شيخ التصوف الأكبر بالحلول و الاتحاد ، مع أنه يقول في كتابه الفتوحات المكية ما نصه :

" و أعظم دليل على نفي الحلول و الاتحاد الذي يتوهمه بعضهم ، أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء ، و أن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها ، و إنما كان القمر مجالاها ، فكذلك العبد ليس فيه شيء من خالقه و لا حل فيه " .

و قال رضي الله عنه شعرا :

" ودع مقالة قوم قال عا لهم بأنه بالآله الواحد اتحدا

الاتحاد محال لا يقول به
إلا جهولا به عن عقله شرذا
وعن شريعته وعن حقيقته
فاعبد إلهك لا تشرك به أحدا "

و قد نبه سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراي رضي الله عنه في مقدمة كتاب " اليواقيت والجواهر " إلى أن سيدي محي الدين بن عربي كان متقيدا بالكتاب و السنة ، و يقول :

كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك ، و جميع ما يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراتبه ، و جميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة ، و ما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه . و أضاف رضي الله عنه : كما أخبرني بذلك سيدي الشيخ أبو طاهر المغربي نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لي نسخة الفتوحات التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية ، فلم أر فيها شيئا مما توقفت فيه و حذفته حين اختصرت الفتوحات . .

و يقول كذلك سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراي رضي الله عنه في كتاب " لواقح الأنوار القدسية " :
" و قد توقفت حال اختصار الفتوحات المكية في مواضع كثيرة ، لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة و الجماعة ، فحذفتها من هذا المختصر ، و كنت أظن أن المواضع التي حذفتها ثابتة عن الشيخ محي الدين ، حتى قدم علينا الأخ العا لم الشريف شمس الدين المدني (المتوفي سنة ٩٥٥ هـ) فذاكرته في ذلك ، فأخرج لي نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محي الدين نفسه بقونية ، فلم أر فيها شيئا مما توقفت فيه و حذفته ، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة و الجماعة ، كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص و غيره " .

أقول : و سيدي الشيخ محي الدين هو القائل : " ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ، وما قال بالحلل إلا من دينه معلول ، وهو القائل (باب ١٩٩ فتوحات) : القديم لا يكون قط محلا للحوادث ، و لا يكون حالا في المحدث ، و إنما الوجود الحادث و القديم مربوط بعضه ببعض ربط إضافة و حكم ، لا ربط وجود عين بعين ،

فإن الرب لا يجتمع مع عبده في مرتبة واحدة أبداً ، فهل بعد هذا الكلام الصريح والصحيح يرmon الشيخ الأكبر بالحلول والاتحاد ، وحاشاه .

أما وحدة الوجود التي ينسبها أعداء الدين إلى السادة الصوفية ، ويتهمون بها سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين ، فقد بين أمرها الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله حين قال :

" ينبغى أن نفرق بين وحدة الوجود التي رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود في رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شئ واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يروم أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقاً ، وأما الوجود لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو " .

أقول ومن كلامه تدرك أن الصوفية على عقيدة صحيحة ، وهى أن الله تعالى واجب الوجود ، وهو الذى يمد كل الممكنات بالوجود ، فوجود الممكنات ليس وجوداً ذاتياً ، بل هو بإيجاد الله تعالى ، وهو مفهوم الوجود عند الصوفية ، وشتان بين فهمهم الصحيح وفهم الفلاسفة الخاطئ .

ويقول العارف بالله سيدى مصطفى البكرى في نفى الحلول والاتحاد في كتابه " السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والاتحاد " :

دعوى الحلول والاتحاد جهالة والوصل ثم الفصل جل الله

والحق نزه عن خطور خواطر بالبال قد خطرت تعالى الله

واتبع شريعة أحمد خير الورى من حاد عنه ربنا أرداه

وإليك ما قاله الإمام أبو الحسن النورى ، رضى الله تعالى عنه :

أما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه ، فإنه يتقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل .

فقرب هو في نعته محال ، وهو تدانى الذوات ، وقرب هو واجب في نعته ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز في وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل بالطف .

وأقول وقرب الفضل باللطف هذا ، هو مقام في التصوف يذوقه الخواص من أولياء الله ، ولا يعبرون عنه بألفاظ ، لأنه فوق التعبير ، ويقول فيه الإمام الغزالي رضى الله عنه : يضيق نطاق النطق عنه ، وكل الذى أقوله لكم : فكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخير أما طريق الخاصة فطريق مسلوك ، تضمحل العقول في أقل القليل في وصفه ، وينوه بمقام القرب هذا سيدى الشيخ يوسف النبهاني في قوله :

لا تسل وصف حبهم فهو سر بسوى الذوق ما له إفشاء

أقول : ومن ذاق عرف . وأردد قول شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه من إلهامه الفورى الذى نقلناه عنه ، وكان إلهامه يتدفق من عطاء الله تدفق السيل الجارف كما هو مشهور :

شراب الحب يعرف بالمذاق	وما كل السقاة له بساق
دعاة الحب أكثر ما تلاقى	وقل الصادقون فما تلاقى
وليس بعاشق من لا تراه	من الشهوات طهر والنفاق
إذا ماعشت لا أنسى إلهى	به أسمو من الأخرى المراقى
يعز على ترك الحب عندى	ولو بلغت بي الروح التراقى
ألا يا ساقى العشاق مهلا	تعالى املاً كؤوسك من حقاقي
تركت جميع خلق الله دونى	شغلت عن الخلائق باشتياقي
ومن عرف المحبة عن يقين	محال أن يميل إلى فراق

ولتقريب مذاق السادة الصوفية للقارئ العزيز ، ننقل له ما قاله سيدى ذو النون المصرى في مناجاته :

" إلهى ، ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا إلى حفيف شجر ، ولا خريير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم طل ، ولا دوى ربح ، ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شئ " .

أقول : رأيت في مناجاته كيف فنى عن نفسه وبقي بربه ، فملاً الله عليه فراغ قلبه ، فلم ير آثار الكون في ذاتها ، بل رأى فيها آيات مولاه ، فحقق ما يوجهنا إليه العارفون قولهم : ما خلق الكائنات لترها بل لترى فيها مولاه .

همة الخواص :

ويحكى لنا سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه أنه رأى امرأة ببعض سواحل الشام قال : فقلت لها : من أين أقبلت رحمك الله ؟ قالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، قلت وإلى أين تريدان ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، قلت صفيهم لى ، فأنشدت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت فما لهم همم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حسن مطلبهم للواحد الأحد

أقول ، وقد تقدم الوصف المتقدم خواص الأمة المحمدية ، كما شمل أهل الصفة ما وصفهم به الله تعالى في وصاية الرسول صلى الله عليه وسلم بهم في قوله تعالى في سورة الكهف : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) . وقد جاءت تلك الوصاية بعد قصة أهل الكهف الذين كانوا في أمة سابقة ، وتعلقت همتهم بالله تعالى ، فوصفهم سبحانه بقوله في السورة نفسها : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً *) وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من

رحمته وبهيئ لكم من أمركم مرفقاً) ، وقد احتموا في الله تعالى فحماهم وآواهم في رعايته ، وقال سبحانه : (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) وشملت رعاية الكلب الذى أحبهم وتعلق بهم : (وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد) ، ثم أراهم آية في رعايتهم حيث ناموا في الكهف أكثر من ثلاثمائة سنة ، فلما قاموا قالوا : (لبثنا يوماً أو بعض يوم) .

وفي قوله تعالى : (فضرينا على آذانهم في الكهف سنين عدداً) يقول الإمام القشيري رضى الله عنه في " لطائف الإشارات " أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقتهم فيه من حقائق ما كشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

وفي قوله تعالى : (إنهم فتية آمنوا بربهم) قال في إشارته رضى الله عنه : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا على الوهلة بربهم ، آمنوا من غير مهلة لما أتتهم دواعى الوصلة . ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا¹ إلى الله .

وفي قوله تعالى : (وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم) يقول رضى الله عنه : لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم في أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلما هم أولاً التبيين ، ثم رقايم عن ذلك باليقين . ويقال : (ربطنا على قلوبهم) بأن أفيناهم عن الأغيار ، وأغيناهم عن التفكير بما أوليناهم من أنوار التبصر ، ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنا فيها من شواهد الغيب ، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين .

وفي قوله تعالى : (لن تدعوا من دونه أهلاً لقد قلنا إذاً شططاً) قال رضى الله عنه : من أحال الشئ على الحوادث فقد أشرك بالله ، ومن قال إن الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دونه .

¹ - الوصول إلى الله معناه الوصول إلى حضرة يشهد فيها أفعال إلا الله ، فيذوق ذلك بإحساسه ذوق الواصلين ، كما رأيت فى مناجاة سيدى ذى النون المصرى التى مرت عليك .

أقول : ولأن الإيمان بالله تعالى وتوحيده سبحانه توحيداً خالصاً من كل شائبة هو أساس الأعمال الصالحة ولا تقبل بغيره ، فقد قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في سورة الزمر : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فعبد وكن من الشاكرين) ولئن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم فالمقصود به أمته من باب : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

والإيمان به سبحانه يقتضى الإيمان برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبإخوانه النبيين والمرسلين الذين سبقوه في الدعوة إلى الله ، وكذلك الإيمان بكل ما جاء به من البعث بعد الموت ، والجنة ، والنار والثواب والعقاب ، وكذلك ما أخبرنا به من الغيبيات الأخرى كالملائكة ، والجن ، والعرش ، والكرسى ، والحوض ، والميزان ، وصحف الأعمال . . إلخ لأنه سبحانه وتعالى يقول في سورة البقرة :

(ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الأمور وتركنا كما قال على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعه ، والتأسى به في عقيدته ، وأقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، بمنه تعالى وكرمه ، وقد ترك لنا من بعده صلى الله عليه وسلم التراث الخالد والنور المبين في الكتاب والسنة ، فمن تمسك بهما فقد اعتصم بالله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

الباب الثاني الكتاب والسنة

منة الله على المؤمنين :

من الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأعظم الرسل شأنا ، وهو سيدنا و مولانا محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ، وقال تعالى منوها بتلك المنة في سورة آل عمران : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته و يزيههم و يعلمهم الكتاب و الحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) ، فلولا أن الله تعالى أرسله صلى الله عليه وسلم لهدايتنا ما اهتدينا ، و لا تحلينا بسائر مكارم الإسلام التي سعدنا بها في ديننا و دنيانا أفرادا و أمتا .

فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :

وقد رزق الله رسوله العظيم ، و هيأه لحمل عبته الكبير ، فحلاه بالعلم الذي لا يشوبه جهل ، و بالفضل الذي لا تشوبه نقیصة ، و جمع له بالعلم و الخلق غرر الفضائل التي فاق بها الأولين و الآخرين ، فنهل منها الناس على اختلاف أجناسهم و أوطانهم و لغاتهم ما وسعهم أجمعين ، و لا تزال على حالها منهلا عذبا فراتا للواردين من أصحاب اليمين و السابقين المقربين .

و من الله بالعلم على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (وعلمك ما لم تكن تعلم و كان فضل الله عليك عظيما) ، و في قوله تعالى في سورة الشورى : (و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان و لكن جعلناه نورا تهدي به من نشاء من عبادنا

و إنك لتهدى إلى سراط مستقيم) ، و جعل الله من تعليم رسوله صلى الله عليه و سلم آية للمعتبرين فقال تعالى ردا على المتشككين في سورة العنكبوت : (و ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم و ما يجحد بآياتنا إلا الظالمون * و قالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله و إنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة و ذكرى لقوم يؤمنون) .

معجزة القرآن الكريم :

و قد بين الله في تلك الآيات المتقدمة أن رسوله صلى الله عليه و سلم لم يكن بين قومه قارئا و لا كاتباً ، و لكنه تلا عليهم ما لم يقرءوا أو يكتبوا مثله ، فلا هو بالنثر البياني المعهود ، و لا هو بالشعر الوجداني المعروف ، بل هو قرآن يفوق في بيانه كل بيان ، و يهز عند سماعه أو تلاوته كل وجدان ، أحكمت آياته ، و فصلت كلماته ، و بمرت بلاغته العقول ، و ظهرت فصاحته على كل مقول ، لم يتردد الجن حين سمعوه أن يقولوا : (إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشده فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) ، و لم يتردد كفار مكة حين سمعوه أن يقولوا مع كفرهم به : إن له خلاوة ، و إن عليه لطلاوة ، و إن أسفله لمغدق ، و إن أعلاه لمثمر ، أما المؤمنون فما وسعهم إلا أن يقولوا ما قاله الراسخون في العلم وحكاه الله تعالى في سورة آل عمران في قوله الكريم : (آمنا به كل من عند ربنا و ما يذكر إلا أولو الألباب * ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا و هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .
وقد اجتمع في القرآن الكريم جزالة اللفظة و حسن المعنى ، لأنه أفصح الكلام وأبلغه ، و كيف لا والكلام عزيز من عزيز ، وعلی من علی ، و حكيم

من حكيم ، لذلك تحدى الله به الجن و الإنس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات مثله ، أو بسورة مثله ، و أكد أنهم لا يستطيعون ، كما أكد أنهم لن يستطيعوا فقال تعالى في سورة الإسراء : (قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ، و قال تعالى في سورة هود : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله و أن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) ، و قال تعالى في سورة البقرة : (و إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله و ادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا و لن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين) .

العرب يعجزون عن تحدى القرآن الكريم :

و لما كان القرآن الكريم نزل بلسان العرب ، و كان العرب أول من تلقاه عن رسولنا الكريم صلى الله عليه و سلم ، فقد عجزوا مع فصاحتهم عن تحدى كلام الله ، حيث وجدوه فوق كلام البشر ، و إن كانت مفرداته من مفرداتهم ، و كلماته من حروفهم ؛ و يقول السيد عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) في مزايا القرآن التي أعجزتهم عن تحديه في كتابه " دلائل الإعجاز " :

" أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، و خصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم عن مبادئ آيه ومقاطعها ، و مجاري ألفاظه و مواقعها ، و في مضرب كل مثل و مساق كل خبر ، و صورة كل عظة ، و تنبيهه و إعلام ، و ترغيب و ترهيب ، و مع كل حجة و برهان ، و صفة و بيان .

" و بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، و عشراً عشراً ، و آية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أخرى أو أخلق ، بل وجدوا اتساقاً بمر العقول ، و أعجز

الجمهور، ونظاماً والنشاماً ، وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في النفس بليغ منهم - ولو حك بيافوخه السماء - موضع طمع . . حتى خرست الألسن أن تدعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك ما تصول " .
ويقول أيضاً :

" لول أن العرب حين سمعوا القرآن ، وحين تحدوا إلى معارضته ، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رازوا أنفسهم ، فأحسوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه - لكان محالاً أن يدعوا معارضته - وقد تحدوا إليه وقُرِعوا فيه وطولبوا به - وأن يتعرضوا لشبا الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت .

مثال لبلاغة القرآن الكريم :

وكمثل من الأمثلة يفتح لنا ، رضى الله عنه ، آفاق التفكير في روعة القرآن بالآية الكريمة من سورة هود : (وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) فيقول : " إن مبدأ العظمة في الآية أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء بـ " يا " دون " أى " نحو " يا أيتها الأرض " ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال " ابلعي الماء " ، ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها - نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن وقيل " وغيض الماء " فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر أمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله " وقضى الأمر " ثم ذكر : ما هو فائدة هذه الأمور وهو " واستوت على الجودي " ؟ ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة " قيل " في الخاتمة بـ " قيل " في الفاتحة " ، ثم يقول رضى الله عنه :
" أفترى في شئ من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها - تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ، أم كل ذلك لما يبين الألفاظ من الأساق العجيب ؟ " .

أقول ، وقد حكى الأصمعي أنه أعجب بفصاحة إحدى الفتيات و هي تتكلم ، فقال لها : ما أفصحك ، فقالت : و هل بقيت فصاحة لأحد بعد فصاحة القرآن الكريم ؟ إن آية واحدة من كتاب الله تعالى جمعت أمرين و تبيين ، و خبرين و بشارتين ، هي قوله تعالى في سورة القصص : (و أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم و لا تخافي و لا تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين) .

شرف القرآن :

و حسب القرآن الكريم شرفاً أنه " كلام الله " الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، كما سماه الله و وصفه به في قوله تعالى في سورة البقرة : (و قد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون) .

و في قوله تعالى في سورة التوبة : (و ان أحد من الشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) ، و في قوله تعالى في سورة فصلت : (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم و إنه لكتاب عزيز * لا يأتيه بالباطل من بين يديه و من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

و كذلك نطقت السنة النبوية الشريفة بفضل القرآن و شرفه في أحاديث كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ما رواه الإمام الترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " و فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " ، و أخرج الدارمى و الترمذى من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله : و ما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك و تعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، و خبر ما بعدكم ، و حكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمة الله ، و من ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل

الله المتين ، ونوره المبين ، وذكره الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيف به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب منه الأراء ، ولا يشيع منه العلماء ، ولا يملأه الأتقياء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، لا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدى إلى الرشده ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم " . ولعظم شأن القرآن الكريم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على تلقينه وتلقيه من الروح الأمين جبريل عليه السلام ، فطمأنه ربه على جمعه في صدره وبيانه له في قوله تعالى في سورة القيامة : (لا تحرك به لسانك لتعجل به * إنا علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه) .

بداية الوحي :

فيما رواه الإمام الطبراني بسنده عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي عن بداية الوحي بالقرآن الكريم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به - إذا انصرف من جواره - الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعث فيها ، وذلك في شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء - كما كان يخرج لجواره - معه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسائله ورحم العباد بها ، جاءه جبريل بأمر الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءني وأنا تائم بنمط ١ من ديباج فيه كتاب ٢ فقال : اقرأ ، فقلت ما أقرأ ؟

١ - النمط وعاء كالسفط (سبت) والديباج الحرير .

٢ - وقال بعض المفسرين إن قوله تعالى في أول سورة البقرة : ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه) =

فغتنى^١ حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ماذا أقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود إلى بمنزل ما صنع بي ، قال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) . . إلى قوله : (علم الإنسان ما لم يعلم) ، قال فقراءته ، قال ثم انتهى ، ثم انصرف عني ، وهببت من نومي وكأنا كتب في قلبي كتاباً .
قال : ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إليّ من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون ، لا تحدث بما عني قريش أبداً ، لأعمدن^٢ إلى حالق من الجبل ، فلأطرحن نفسي منه ، فلأقتلنها ، فلأستريحن .

قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط من الجبل ، سمعت صوت من السماء يقول يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا جبرئيل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء ، يقول : يا محمد : أنت رسول الله ، وأنا جبرئيل ، قال فوفقت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيت كذا ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ، ولا أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ، ثم انصرف عني ، وانصرفت راجعاً إلى أهلي ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخدها مضيفاً^٢ ، فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت الرسل في طلبك ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ ، قال قلت لها : إن الأبعد شاعر أو مجنون ، فقالت : إعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ، ما كان الله ليصنع ذلك بك ما أعلم منك من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وحسن خلقك ، وصلة رحمك ، وما ذاك يا ابن عم ؟
لعلك رأيت

= يشير إلى الكتاب الذي جاء به جبريل في وعاء من حرير .

^١ - قل ابن الأثير : الغت والغط سواء ، كأنه أراد ، عصرتني عصراً ضديداً حتى وجدت منه المتقة ، كما يجد من يغمس في الماء قهراً .

^٢ - مضيفاً أي ملتصقاً بها مانلاً إليها .

شيئاً؟ قال: فقلت لها: نعم، ثم حدثتها بالذى رأيت، فقالت: أبشر يا بن عم واثبت، فو الذى نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قدوس، قدوس، و الذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر _ (يعنى به جبرئيل عليه السلام) الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بقول ورقة، فسهل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم، فلما قضى رسول الله صلواته عليه وسلم جواره، وانصرف، صنع ما كان يصنع، وبدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت، فقال يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ورقة: والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى، ولتكذبه ولتؤذينه ولتخرجنه، ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرون الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله.

شدة الوحي :

ولا تعجبوا من أن يبلغ تأثير رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول الوحي ما بلغ، فقد سمع بالوحي كلاماً لا عهد له به، ونقله إليه شخص لا يعرفه من قبل، ولقد ضمه إليه بقوة خارقة، ضغط بما ضغطاً تعب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة بدنه ورباطة جأشه، فمن أين جاء ذلك الشخص؟ وكيف تسلل إلى الغار، ليوقظ النائم فيه وحده؟ وكيف عرف مكانه في قمة الجبل؟ وكيف يقول للامى الذى لا يقرأ: أقرأ؟ وبأى سلطان يأمره أن يقرأ؟ فلما قال له: ماذا أقرأ؟ قدم له نمطاً ١ من ديباج فيه كتاب وقال له:

١ - النمط وعاء كالسفظ (السبت) والديباج الحرير.

(أقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) .

الله أكبر ، يقول له : (أقرأ باسم ربك) أى أغناك ربك فى قراءتك عن الأسباب والوسائط التى يحتاج إليها غيرك من البشر ، فهم يتعلمون على يد معلمهم بالقلم الظاهر ، وعلمك ربك بالسر الخفى والقدرة العلية لتقرأ باسمه ما شاء لك أن تقرأ ، ولتعلم بعطائه ما لم تكن تعلم ، فأغناك العليم الخبير عن المعلمين لتكون له فى ذلك آية كبرى ، لأنك سيد المرسلين ، ورحمته المهداة للعالمين .

وإذا كان الضياء يبهر البصر إذا أسفر فجأة ، فنور القرآن أحرى أن يبهر قلب الرسول الأكرم إذا غشيه فجأة ، وله صلى الله عليه وسلم كل العذر أن يهتز للأمر الذى عراه ، وكيف لا يهتز ويرجف فؤاده من كلام الله الذى تخشع الجبال من عظمته وتندك من هيئته ، فقد قال تعالى فى سورة الحشر :

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

فلا غرابة إذن أن يرتجف فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم من عظم الكلام والمتكلم ، فيقول لزوجه أم المؤمنين سيدتنا خديجة رضى الله عنها : زملوني ١ زملوني ، ولا عجب أن يرجف فؤاده الشريف كلما جاء الوحي بكلام رب العالمين ، فقد حدثت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها فقالت : رأيتهُ عليه الصلاة والسلام فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليرفض عرقاً . أقول وكيف لا يكون ذلك منه ، والله تعالى يقول فى سورة الزمل : (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) ، ولا يقدر ثقل القرآن إلا العلماء بالله ، وليس أعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى فى سورة فاطر : (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور * إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً

١ ضعوا على غطاء

وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور * والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير * ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) .

الإمام الباقلاني وإعجاز القرآن :

ومعجزة القرآن الكريم أخلد المعجزات على مر العصور والدهور ، وهى على الدوام تتحدى كل الأجيال بإعجازها ، وكما أعجزت الأولين أعجزت الآخرين وتعجز اللاحقين ، وهى دالة بذلك الإعجاز الدائم على صدق رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول فى هذا المقام الإمام أبو بكر الباقلاني (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) رضى الله عنه فى كتابه " إعجاز القرآن " :

" والقرآن كتاب دل على صدق متحمله ، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ، وبرهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين ، وبينه على طريقة من سلف من الأولين ، حيرهم فيه ، إذا كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ، فعرفوا عجزهم ، كما عرف قوم عيسى نقصهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب ، فجاءهم بما بجرهم من أحياء الموتى وإبراء الأكمنة والأبرص ، وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم ، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان الريح والطير والجن ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة وبدائع اللطف ، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والأخر وقوفاً واحداً ، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة " .

ويضيف رضى الله عنه قائلاً : " انظر وفقك الله لما هديناك إليه ، وفكر فى الذى دللناك عليه ، فالحق منهج واضح ، والدين ميزان راجح ، والجهل لا يزيد الأعمى إلا عمى ولا يورث إلا

ندماً ، قال تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) ١
فاحمد الله على ما رزقك من الفهم إن فهمت (وقل رب زدني علماً) ٢ ، وإن أنت علمت ف (قل رب أعوذ
بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك أن يحضرون) ٣ .

" . . ولا يوسوس إليك الشيطان بأنه كان ممن هو أعلم منك بالعربية ، وأدرب منك في الفصاحة أقوام وأى أقوام
، ورجال أى رجال ، فكذبوا وارتابوا ، لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم ، فكانوا بين
جاهل وجاحد ، وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالعجزات ، وحائد في النظر في
الدلالات ، وناقص في باب البحث ، ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستتهين بأمر الأديان ، وغاوا تحت حباله
الشيطان ، ومقذوف بخذلان الرحمن ، وأسباب الخذلان ، والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة .

" وهلا جعلت بإزاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن إسلامه ، وكعب بن زهير في صدق إيمانه ،
وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا ، على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر أو بحر
زاخر ، وقد بينا ألا اعتصام إلاً بمداية الله ، ولا توفيق إلاً بنعمة الله ، : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ٤

الروحانية الكامنة :

أقول : هذا وتقترن ببلاغة القرآن الظاهرة روحانية كامنة كاملة ، تمد بعلم اليقين ، بل بعلم اليقين ، بل بحق اليقين
، ذوى البصائر المؤمنة ، الذين يسارعون

١ - سورة الزمر الآية ٩ .

٢ - سورة طه الآية ١١٤ .

٣ - سورة المؤمنین الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

٤ - سورة الحديد الآية ٢١ .

في الخيرات وهم لها سابقون ، أما غمى القلوب فلا يحسون من ذلك شيئاً ولا يهتدون سبيلاً ، وما ذنب البستان إذا قصرت في جنى ثماره ، وما ذنب النهار إذا أغمضت العين عن شهود أنواره ، وهذا ما يفسر لك قوله تعالى في سورة البقرة : (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) .

وإذا أردت دليلاً عى تأثير أسلافك الأولين بروحانية القرآن الكريم ، فأقرأ قوله تعالى في سورة الزمر : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ومن يضل الله فما له من هاد) ، وكيف لا تتأثر الجلود والقلوب بالقرآن وهو روح ، به تحيا القلوب ، وبهداه تنتعش الأرواح وتزدهر ، وشاهدنا قوله تعالى في سورة الشورى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) ، كما أنه نور يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) ومن أراد الله هداه اهتدى (وأنتك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . وإذا أردت أن ترى بنفسك كيف تقشعر من القرآن الجلود ، فاقراه على مكث وروية ، وتدبر ، تقرؤه بعقلك وقلبك معاً ، ولا يغيب عنك فى سورة الشعراء قول الله تعالى : (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين) ولا يغيب عنك قوله تعالى فى سورة ق : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى

السمع وهو شهيد) ، وكيف لا تتأثر روحك بالقرآن و أنت من أهل الإيمان ، و قد تأثر بتلاوته روح الحيوان ، و إليك البيان ، فقد ورد في الصحاح أن الصحابي الجليل أسد بن حضير كان يقرأ القرآن من الليل ، و كانت بجواره فرسه ، و كان ابنه يجيى ينام قريبا منها ، فلما قرأ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ ، فجالت الفرس ، فخاف أن تصيب ابنه بسوء ، فحانت منه التفاتة إلى السماء ، فوجد أمثال السحب تزينها أمثال المصاييح تدنوا منه عند قراءته ، فعرف سر اضطراب الفرس ، و لكنه حار في تفسير الظاهرة حتى لقي رسول الله صلى الله عليه و سلم و سأله ، فقال له صلوات الله و سلامه عليه : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو أصبحت تقرأ لأصبح الناس ينظرون إليها و ما تتوارى منهم .

ثم انظر كيف كان تسبيح سيدنا داود عليه السلام ينفذ إلى صخور الجبال و إلى أحاسيس الطيور كما قال تعالى في سورة الأنبياء : (و سخرنا مع داود الجبال يسبحن و الطير و كنا فاعلين) . و سبحان من قدر فهدي ، و وفق كل كائن لغاية من فطرته ؛ ثم لاتنس أن الحصى سبحت في كف رسولنا الكريم صلى الله عليه و سلم ، و يرحم الله سيدي العارف بالله الشيخ أحمد الحلواني الكبير (والد شيخى العارف بالله سيدي عبد السلام الحلواني طيب الله ثراه) إذ يقول في تسبيح الحصى :

يدك الكريمة سبحت فيها الحصى هل كان ذلك تعجبا من ذا الكرم
أو من عماية من رميتهمو بها فنفرقوا رهبا و جمعهم انهم

بل لقد حن حنين الأطفال (كما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه) جذع النخلة لفراقه صلى الله عليه و سلم وقد كان يستند إليها وهو يخطب ، ثم تحول إلى المنبر حين صنعوه له ، و في ذلك يقول سيدي الشيخ أحمد الحلواني رضى الله عنه :

و الجذع حن و خار إذ فارقته فجبرته و خارته عندي نغم

فالمراء إن لم تعره لك هزة
أرواحنا حنانة و قلوبنا
كالجزع فهو مضلل أعمى أصم
أنانة لك والغرام بك اضرم

الإمام الباقلائي و فضائل القرآن :

و هذا القرآن المفحم بإعجازه اشتمل على أمور كثيرة أجملها الإمام الباقلائي في قوله :
" و أنت تتبين في كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على سمت شريف ، و مرقب منيف ، يبهر إذا أخذ في النوع
الرَّبِّي و الأمر الشرعي و الكلام الإلهي ، الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت ، و شرف الجبروت ، و ما
لا يبلغ الوهم مواقعه ، من حكمة و أحكام ، و احتجاج و تقرير ، و استشهاد و تقريع ، و اعتذار و إنذار ، و
تبشير و تحذير ، و تنبيه و تلويح ، و إشباع و تصريح ، و إشارة و دلالة ، و تعليم أخلاق زكية ، و أسباب رضية
، و سياسات جامعة ، و مواعظ نافعة ، و أوامر صادعة ، و قصص مفيدة ، و ثناء على الله عزو جل بما هو
أهله ، و أوصاف كما يستحقه ، و تمديد كما يستوجبه ، و أخبار عن كائنات في التأتى صدقت ، و أحاديث
عن المؤتلف^١ تحققت ، و نواة زاجرة عن القبائح و الفواحش ، و إباحة الطيبات ، و تحريم المضار و الخبائث ، و
حث على الجميل و الإحسان .

" تجد فيه الحكمة و فصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، و نظم أنيق ، و معرض رشيق ، غير معتاص
على الأسماع ، و لا مغلق على الأفهام ، و لا مستكره في اللفظ ، و لا مستوحش في المنظر ، غريب في الجنس ،
غير غريب في القبيل ، ممتلىء ماء و نضارة ، و لطف و غضارة ، يسرى في القلب كما يسرى السرور ، و يمر إلى
مواقعه كما يمر السهم ، و يضىء كما يضىء الفجر ، و يزخر كما يزخر البحر ، كالروح في البدن ، و النور
المستطير في الأفق ، و الغيث الشامل ، و الضياء الباهر (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من
حكيم حميد) .

^١ - الإتناف هو الإبتداء

علاقة السنة بالقرآن الكريم :

أقول ، و مع أن القرآن الكريم ميسر للذكر و قريب من الفكر ، فإن الأحكام فيه جاءت مجملة ، تحتاج لبيان و تفصيل ، فعهد الله إلى رسوله الكريم صلى الله عليه و سلم بذلك البيان و التفصيل في قوله تعالى في سورة النحل : (و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم و لعلهم يتفكرون) .

و قد صدق مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم بأمر ربه و بين لأصحابه رضوان الله عليهم ما أجمله القرآن ، فأخذوا عنه تفاصيل العبادات ، و أحكام الحلال و الحرام ، و أفنأهم فيما عرضه عليه من الحوادث ، و كانوا رضوان الله عليهم لا يسألونه إلا عما ينفعهم من الوقائع ، فلم يسألوه عن المسائل المفروضة التي لم تقع بالفعل ، لأن همهم كانت مقصورة على تنفيذ أوامر الله و اجتناب نواهيه سبحانه .

مسلك الصحابة في العلم و القضاء :

و عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ما رأيت قوم خير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ما سأله إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه و سلم ، كلهن في القرآن : يسألونك عن الحيض ، يسألونك عن الشهر الحرام ، يسألونك عن اليتامى ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم . قال أبو عمر : ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث ، و قال ابن القيم رضي الله عنه في كتابه " أعلام الموقعين " : و مراد ابن عباس بقوله : ما سأله إلا عن ثلاث عشرة مسألة من المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم ، و إلا فالمسائل التي سأله عنها و بين لهم أحكامها بالسنة لا تكاد تحصى ، ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات و الأغلوطات و عضل المسائل ، و لم يكونوا يشتغلون بتفريغ المسائل و توليدها .

أقول ، و لا عجب أن يسلك ساداتنا الصحابة في تعلمهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم هذا المسلك ، فقد روى ابن وهب قال : حدثني ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه و سلم : ذروني ما تركتكم ،

فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم . ويؤيد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم في إرشاده لهذا فإنه تعالى يقول في سورة الحشر : (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) ، وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن طاوس قال : قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر : أُحَرِّجُ^١ بالله على كل أمرئ سأل عن شيء لم يكن ، فإن الله قد بين ما هو كائن .

وقد حرص السادة الصحابة كل الحرص على إلتزام أحكام الكتاب والسنة ، وقال أبو عبيد في كتاب " القضاء " : حدثنا كثير بن هشام بن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به ، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ، فرمما قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سنة سنهها رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك ، فإن أعياه أن يجد ذلك في الكتاب والسنة سأل هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء فإن كان أبو بكر قضى فيه بقضاء قضى به وإلا جمع علماء الناس واستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به .

وروى ابن القيم بسنده عن أبي مليكة قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إن قلت فى آية من كتاب الله الله برأى أو بما لا أعلم . وروى بسنده عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبى بكر رضى الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب بما لا يعلم

^١ - أمنع .

من عمر رضى الله عنه ، وإن أبا بكر رضى الله عنه نزلت به قضية ، فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ، ولا في السنة أثراً ، فاجتهد برأيه ثم قال : هذا رأي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمضى وأستغفر الله ، وإن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر : يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً ، إن الله كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف ، وروى سفيان الثوري بسنده عن مسروق قال : كتب كاتب لعمر بن الخطاب : " هذا ما رأى الله ورأى عمر " . فقال عمر : " بئس ما قلت ، قل هذا ما رأى عمر ، فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمن عمر " .

ويشهد إمامنا الشافعي لسادتنا الصحابة بفضلهم في فهم الكتاب والسنة فيقول في رسالته " البغدادية " : وقد أتى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن والتوراة والأنجيل ، وسبق لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم ، فرحمهم الله ، وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء ، والصالحين ، أدوا إلينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه ، فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عاماً وخاصاً وعزماً وأرشاداً ، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا ، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل ، وأمر استدرك به علم واستنبط به ، وآرأؤهم لنا أحمد وأولى بنا من عند أنفسنا ، ولم نخرج عن أقاويلهم ، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله .

تعقيب الإمام ابن القيم :

" والمقصود إن أحدا ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم ، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقة ، كما رأى عمر في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقة ، ورأى أن تحجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن بموافقة ، ورأى أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى فنزل القرآن بموافقة ، وقال لنساء النبي صلى الله عليه وسلم

لما اجتمعن في الغيرة عليه : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات
تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً) . فنزل القرآن بموافقته . ولما توفي عبد الله بن أبي قحافة قام رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوبه فقال : يا رسول الله إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عليه : (ولا تصلى على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) .

وقد قال سعد بن معاذ لما حكّمه النبي صلى الله عليه وسلم في بني قريظة إني أرى أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبي
ذرياتهم ، وتغنم أموالهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات " .
ويضيف ابن القيم قائلاً : " وحقيق بما كانت آراؤهم بهذه المنزلة ، أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا ،
وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة تورا وإيماناً وحكمةً وعلماً ومعرفةً وفهماً عن الله ورسوله
ونصيحة للأمة ، وقلوبهم على قلب نبيهم ، ولا واسطة بينهم وبينه ، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة
غصاً طرياً لم يشبه إشكال ولم يشبه خلاف ، ولم تدنسه معارضة " .

أقول : وحقٌ للسادة الصحابة أن يتلقفوا العلم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل عناية ، فقد وثقوا
أن علمه كله إنما هو من عند الله ، وقد قال تعالى واصفاً علمه في سورة النجم : (وما ينطق عن الهوى * إن هو
إلا وحى يوحى) ، كما طمأنهم تعالى على أنه ينظر في الأمور بنور الله ، فقال تعالى في سورة النساء : (إنا أنزلنا
إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً) ، كما قال تعالى في السورة نفسها
: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً
) ، وقد أخرج الحاكم وصححه عن طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول

الله ، أتأذن لي فأكتب ما أسمع منك ؟ قال " نعم " ، قلت في الرضا والغضب قال : " نعم ، فإنه لا ينبغي أن أقول عند الرضا والغضب إلا حقاً " .

وأخرج الطبراني عن معاذ بن جبل قال : ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومه أو يقظته فهو حق ، وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رآني في المنام فقد رآني حقاً إن الشيطان لا يتمثل بي " .

فقد خص صلى الله عليه وسلم بأن رؤيته في المنام صحيحة ، ومنع الشيطان من أن يتصور في خلقته لنلا يكذب على لسانه في النوم ، كما منع أن يتصور في صورته في اليقظة إكراماً له صلى الله عليه وسلم ، وفي شرح " مسلم للنووي : لو رأى شخص النبي صلى الله عليه وسلم يأمره بفعل ما هو مندوب إليه ، أو ينهاه عن منهي عنه ، أو يرشده إلى فعل مصلحة ، فلا خلاف أنه يستحب له العمل بما أمر به .

ومع ما أتى الله نبيه الكريم من العلم وشهد له به في قوله تعالى في سورة النساء : (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) ، فإنه اختار له دعوة يدعو ربه بها فقال تعالى (وقل رب زدني علماً) ، ليرجع إلى ربه صلى الله عليه وسلم في الاستزادة من العلم الرباني الذي لا حد له ، وذلك ما يدلنا على أن علمه صلى الله عليه وسلم كان في زيادة على الدوام ، يشهد بما قوله تعالى : (وكان فضل الله عليك عظيماً) ، وكلمات الله التي يعلم بها أنبياءه وأصفياه ليس لها نهاية ، فقد قال تعالى في سورة الكهف : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) ، كما قال تعالى في سورة البقرة : (ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء) وقال سبحانه في سورة الجمعة ممتناً بعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على جيل الصحابة والأجيال التي تلتها في الأمة المحمدية : (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم

الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتبه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

مواقف السنة من القرآن :

هذا ولا تقف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تفسير القرآن وبيانه ، وإنما السنة مع القرآن - كما يقول الإمام ابن القيم في كتابه " أعلام الموقعين " - على ثلاثة أوجه :
أحداها : أن تكون موافقة له من كل وجه ، فيكون توارد القرآن مع السنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها .

الثاني : أن يكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له .

الثالث : أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه .
وقد أضاف رضى الله عنه يقول :

ولا تخرج السنة عن هذه الأقسام ، فلا تعارض القرآن بوجه ما ، فما كان منها زائداً على القرآن ، فهو تشريع مبتدأً من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته ، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله ، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته الخاصة به ، وقد قال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويزيدنا رضى الله عنه بياناً فيقول : وكيف يمكن أحد من أهل العلم ألا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله ، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب ، ولا حديث منع الحائض من الصوم والصلاة . . . وقد أخذ الناس بحديث : " لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر

لمسلم " ، وهوزائد على القرآن ، وأخذوا كلهم بحديث توريثه صلى الله عليه وسلم بنت الأبن السدس مع البنت ، وهو زائد على ما في القرآن ، وأخذوا بحديث : " من قتل قتيلاً فله سلبه " ، وهو زائد على ما في القرآن من قسمة الغنائم

وانتهى الإمام ابن القيم بعد التفصيل إلى قوله : فلو ساغ لنا رد كل سنة زائدة كانت على نص القرآن ، لبطلت سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها إلا سنة دل عليها القرآن ، وهذا هو الذى أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيقع ولا بد من وقوعه .

وهو يشير إلى حديث المقدم بن معديكرب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطعة مال المعاهد " ، وفي لفظ آخر : " يوشك أن يقعد الرجل على أريكته فيحدث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله " ، قال الترمذى : حديث حسن ، وقال البيهقى إسناده صحيح وقال صالح ابن موسى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض " .

البيان النبوى :

ويعلمنا الإمام ابن القيم رضى الله عنه أن البيان من النبي صلى الله عليه وسلم أقسام : أحدهما : بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفياً .

الثانى : بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك ، كما بين أن الظلم المذكور فى قوله تعالى : (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) هو الشرك ، وأن الحساب اليسير هو العرض ، وأن الخيط الأبيض والأسود

هو بياض النهار وسواد الليل ، وأن الذى رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى هو جبريل ، كما فسر قوله : (أو يأتى بعض آيات ربك) أنه طلوع الشمس من مغربها ، وكما فسر قوله تعالى : (ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة) - بأنها النخلة . . وكما فسر أدبار النجوم بأنه الركعتان قبل الفجر ، وأدبار السجود بأنه الركعتان بعد المغرب ونظائر ذلك .

الثالث : بيان بالفعل ، كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله .

الرابع : بيان ما سئل عنه من الأحكام التى ليست فى القرآن ، فنزل القرآن ببيانها ، كما سئل عن كذب الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره .

الخامس : بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآناً ، كما سئل عن رجل أحرم فى جبة بعدما تضمنخ بالخلوق ، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلق .

السادس : بيانه للأحكام بالسنة أبتدأ من غير سؤال ، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمنعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك .

السابع : بيانه للأمة جواز الشئ بفعله هو له ، وعدم نهيهم عن التأسى به .

الثامن : بيان جواز الشئ بإقراره لهم على فعله وهو يشاهده ، أو يعلمهم يفعلونه .

التاسع : بيانه إباحة الشئ عفواً باسكوت عن تحريمه ، وإن لم يأذن فيه نطقاً .

العاشر : أن يحكم القرآن بإيجاب شئ أو تحريمه أو أباحته ، ويكون لذلك الحكم

شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف ، فيحيل الرب

سبحانه وتعالى على رسوله فى بيانه كقوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلكم)

فأحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته

وأهلية الحل ، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشئ منه زائد على النص فيكون نسخاً له وأن كان رفعاً لظاهر إطلاقه .

حاجتنا إلى السنة النبوية :

أقول : ومما تقدم يبين أن الأمة ملزمة بأحكام الكتاب والسنة ، ولا تستطيع أن تكتفى بالكتاب دون السنة ، وإلا كانت عاصية لله الذي فرض عليها طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أو نهى عنه ، وجعل طاعته طاعة له (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، وجعل طاعته سبيل الاهتداء للحق ، فقال تعالى في سورة النور : (وإن تطيعوه تهتدوا) ، ويقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في سورة الجاثية : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين * هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) ويقول تعالى للمؤمنين في سورة الأعراف : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) .

كما يقول تعالى في سورة النساء : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) ، وأجمع العلماء على أن رد الأمر إلى الله تعالى هو الرد إلى أحكام كتابه الكريم ، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إليه نفسه في حياته الشريفة ، وإلى سنته بعد وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، كما بين العلماء أن الله تعالى أعاد الفعل في قوله سبحانه : (وأطيعوا الرسول) إعلماً للأمة بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب على المؤمنين استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر بأمر صلى الله عليه وسلم -وجبت طاعته مطلقاً ، سواء كان أمره في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه كما جاء في الحديث أوتى القرآن ومثله معه . وبين العلماء كذلك

أن إضافة أولى الأمر إلى الرسل دون إعادة فعل " وأطيعوا " ، يفيد أن طاعتهم في ضمن طاعة الرسول وليست مستقلة عنها ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بمعصية فلا سمع له ولا طاعة ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الطاعة في المعروف " وقال في ولاة الأمور : " من أمركم في معصية فلا سمع له ولا طاعة " . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها " أنهم لو دخلوا لما خرجوا منها " ، مع أنهم كانوا يدخلونها طاعة لأمرهم ، وظناً أن هذا واجب عليهم ، فقصرروا في الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم ، وحملوا عموم الطاعة على ما لم يردده شرع الله .

وقال العلماء كذلك في الآية السابقة تفيد أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان ، وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادة المؤمنين وأكملهم إيماناً ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم .

وقالوا أيضاً إن قوله تعالى : (فإن تنازعتم في شئ) نكرة في سياق الشرط ، تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين جليه وخافيه ، ولم لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافياً ، لم يأمر بالرد عليه إذ من الممتنع أن يأمر الله بالرد عند النزاع ، وقد جعل الله رد الأحكام إلى الله ورسوله من موجبات الإيمان ولوازمه ، وأنه خير للمؤمنين في عاجلهم وآجلهم ، وقد حظر الله على المؤمنين أن يختاروا قضاء غير قضاء الله ورسوله ، فقال تعالى في سورة الأحزاب : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضللاً مبيناً) ، وكيف لا تكون معصية الله ورسوله ضلالاً مبيناً وقد جعل الله رفع الصوت على صوته صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ، فقد قال تعالى

في سورة الحجرات : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وانتم لا تعلمون) .

وإحباط العمل هو الرد إلى الكفر ، الست تراه تعالى يقول في سورة الزمر : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) ، فإذا كان رفع الصوت في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ومؤدياً للكفر ، فكيف بتفضيل أهواء النفوس على أحكام الله ورسوله .

الشرع والقوانين الوضعية :

ومن فضل الله على البلاد الإسلامية ، أنها ما زالت تلتزم حدود الله في أحكام العبادات ، وفي جانب من أحكام المعاملات ، وبخاصة أحكام الأحوال الشخصية والمواريث ، ولكن المستعمرين تركوا فيهم تشريعات وضعية نقلها المستعمرون أيام الاستعمار عن بلادهم ، وهي تختلف عن شرع الله وتتفق مع أغراض المستعمرين وأهوائهم ، فبعض تلك التشريعات الوضعية مثلاً يبيح الزنا والخمر والإقراض بالربا . . . إلخ ، ويعاقب السارق بالحبس ولا يقطع يده كما هو في حكم الإسلام ، ولا يرحم الزاني المحصن أو يجلد غير المحصن ، ولا يقتل أو يصلب الذين يجاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، لا بل زاد المستعمرين الطين بلة وأقاموا أيام الإستعمار القضاء المختلط الذي ميزهم عن أهل البلاد ، وأذكر في هذه المناسبة بعض ما قاله شيخنا العارف بالله المرحوم الشيخ علي عقل (توفي ١٩٤٨) : وكان قد سئل أن يأتي ببعض أبيات فورية عن قول القائل :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالخبرة نيرا

فقال إلهاماً لوقته من فتح الله عليه ونقلناه عنه :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى وهذب بالإسلام نفسى وطهرا

أفاض على الدنيا السماحة والندا وطاف عليها بالسلام وبشرا
وشابحت الأرض السماء وضياء ألم تر أن الكون بالوحي نورا
ورقت بها الأرواح كالروض تزدهى صفاء من الإيمان بالحق أثمر
فلن نعبد الأصنام بعد محمد أتعبد والقرآن منه تفجرا
وبدد عنا الجهل والجهل خسة وشرفنا التوحيد سراً ومظهرا
فيا أمة الإسلام ماذا أصابكم أترضون الإسلام أن يتأخرا
تركتكم حدود الله وهي سلامة وأهملتوا آثار من هذبوا الورى
وفيكلم كتاب الله يشرق آية وفي حكمه منجى وفي هديه قرى
زعمتم أن الغرب فجر حضارة وما الغرب إلا بالمآتم قد جرى
أباح الربا جهراً وما حرم الزنا وقد حلل الصهباء^١ واستعمر الورى
إذا نحن قلنا ليس فى الغرب حكمة تقولون لولا الغرب لن تتحضرا
أرى الغرب لو للعدل قامت حروبه لما جال فى أفياننا وتبخترا
فوالله لا نرقى إلى أوج العلا ولا نرزق النصر الذى قد تأخرا
سوى باتباع الشرع فالشرع عزنا ونحن بهذا الشرع لن نتقهقرا
فنذكر عهد الأقدمين ومجدهم هدى الناس كانوا للحضارة مظهرا
ونذكر خير الخلق يهدى نفوسنا ويتلو كتاباً كالجرة نيرا

ولا خلاف فى أن ما شرعه الله للمسلمين من أحكام العبادات والمعاملات كفيل بصيانة الفرد والجماعة من الخلل ، كما أنه كفيل براحة الحاكم والمحكوم ، وضامن للمجتمع السلام والأمن ، كما ثبت ذلك بالتجربة العملية فى أجيال المسلمين الأولى ، حين عملوا بأحكام الله فى أيام سيادتهم وحريتهم ، وقد هذبت العبادات أكثرهم ، ومن لم تهذبه العبادات فتعدى حدود الله ، وطغى على حق غيره ، أخذ الحاكم منه الحق بالقصاص الشرعى ، وحمله بالقصاص على الإستقامة ، وكان فى القصاص ردع كافى لغيره ، فاستقام الكل طوعاً أو كرهاً ، وصدق سبحانه فى قوله الكريم فى سورة البقرة : (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) ، وهو قول صادق إلى الأبد لأنه قول العليم الحكيم .

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تعقيبه على تلك الآية الكريمة : هذا من الكلام البليغ الوجيز ، والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ،

^١ - الصهباء : الخمر

ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معا ، وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر ، حمى قبيلهما و تقاتلوا ، وكان ذلك داعيا إلى قتل لعدد الكثير ، فلما شرع الله القصاص ، قنع الكل ، و تركوا الاقتتال ، فلهم في ذلك حياة .

و يضيف الإمام القرطبي قائلا :

" اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان (أى الحاكم) ، و ليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، و إنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك ، و لهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدي الناس بعضهم عن بعض .

" و أجمع العلماء على أنه يجب على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من الرعية ، إذ هو واحد منهم ، و إنما له مزية النظر لهم كالوصى و الوكيل ، و ذلك لا يمنع القصاص ، و ليس بينهم و بين العامة فرق في أحكام الله لقوله عز وجل : (كتب عليكم القصاص في القتلى) " .

و روى النسائي عن أبي سعيد الخدري قال : بينا رسول الله صلى الله عليه و سلم يقسم شيئا إذ أكب عليه رجل ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرجون كان معه ، فصاح الرجل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم : " تعال فاستقد " قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلى أقره منه ، فقام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين لئن أدب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصنه منه ، قال : كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقص من نفسه ؟

و ختاماً أقول مفتخراً إن مصر - وطننا العزيز - عنيت من القديم ، و ازدادت عناية في العهد الحاضر ، بخدمة الكتاب و السنة و حفظ تراثهما الخالد ، و من ينكر على مصر رائدة المسلمين تلك الجهود القيمة التي بذلتها و يبذلها الأزهر الشريف ، و مجمع البحوث الإسلامية ، و المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، و مجمع اللغة العربية ، أو الدعوة إلى المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في السنين الأخيرة بالقاهرة ، و تشاورت في أمهات المسائل الإسلامية ، و في طليعتها تقنين الأحكام الشرعية ، لتطبيقها في البلاد الإسلامية التي استردت حريتها و عزتها ، و رفضت عن نفسها عار الإستعمار و حكم المستعمرين ، و استعادت سلطانها في حكم شعوبها بشرع الله القويم .

و إليكم ما أوصى به بالنسبة للتشريع الإسلامي المؤتمر الإسلامي الرابع الذي انعقد بالقاهرة ممثلاً لنحو ثلاثين دولة إسلامية في المدة من ١٧ من رجب إلى ٢ من شعبان ١٣٨٨ (الموافق ٩ - ٢٤ من أكتوبر ١٩٦٨) :

١ . يوصى المؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بتأليف لجنة من رجال الفقه الإسلامي و القانون الوضعي ، تضطلع بوضع الدراسات و مشروعات القوانين التي تيسر على المسؤولين في البلاد الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية في قوانين بلادها كقوانين العقوبات و التجارى و البحرى .

٢ . يدعو المؤتمر المجمع لدراسة القاعدة الإسلامية التي تقرر أنه لا يطل دم في الإسلام ، و أن من قتل ولم يعرف قاتله تدفع دينه من بيت المال .

يوصى المؤتمر بأن يعمل المجمع على التعريف في النطاق الدولى بأحكام العقوبات الإسلامية ، و الأسس التي قامت عليها ، النتائج المترتبة على تطبيقها .

أقول : وهذا الصبح الذى أسفر بعد ظلام ليل الاستعمار ، يبشرنا جميعا نحن المسلمين بنهار مشرق ، نرى الحق فيه واضحا جليا فيما شرع الله لنا من احكام ديننا الحنيف ، الذى أراد الله إسعادنا به في أمور ديننا و دنيانا ، و من علينا بكماله في قوله الكريم في سورة المائدة : (اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليك نعمتى و رضيت لكم الإسلام ديناً) .

و إليكم فقرات من نور وردت في رسالة بعث بها السيد الرئيس محمد أنور السادات إلى مؤتمر الدعوة الإسلامية المنعقد في طرابلس بليبيا ، كما جاءت في صحيفة الأهرام الصادرة في ١٦ من شوال ١٣٩٠ ، قال حفظه الله في تلك الرسالة التى

قرأها على المؤتمر السيد محمد توفيق عويضة رئيس وفد بلادنا إلى المؤتمر : أيها الأخوة ، إنكم تجتمعون للتفكير في أنجح الوسائل للدعوة إلى الإسلام ولتبصير الناس بما يكفله للبشر من حق وسعادة ، ترفرف أعلامها على الأفراد والأسر والعالم بأسره ، وهذا حق للإسلام وواجب عليكم ، لأن الإسلام دعوة عامة لا تنحصر في مجتمع ، ولا تحتبس في بيئة ، ولا تقتصر على جنس .

فالدعوة إليه واجب ، لا مندوحة للمسلمين أن يقوموا به أفراد وجماعات وحكومات ، معتمدين على الحكمة والموعظة الحسنة . . .

أيها الأخوة : اسمحوا لي أن أمد بصري إلى الماضي لأرى كثيراً من الدارسين حاولوا معرفة السر الذي نفخ في المسلمين الأولين تلك القوى المادية والنفسية ، التي نقلتهم في أقصر من قرن واحد من القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهالة إلى الحضارة ، فانتشروا في أرجاء الأرض هداة ودعاة وبنابيع للحق والخير والحرية والمساواة ، وسادة يذيعون العدل في الناس ويقضون في شئوهم بالقسطاس .

" ولكن هذه القوة التي حار الدارسون في الكشف عنها ، ليست سراً غامضاً ولا غيباً محجياً ، لأنها وليدة العقيدة ، وما تتضمنه العقيدة القوية الصحيحة من أعمال صالحة نافعة للفرد والأمة ، ومن أخلاق عظيمة رباهم الإسلام عليها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتهم في كل فضيلة ، فرتفعوا بالإسلام إلى الذروة بين الأمم التي عاصرتهم ، وإلى سيادة العالم سيادة عقيدة ولغة وعلوم وأخلاق وحضارة .

" وإذا كانت عوامل شتى من الاستعمار والجهل والتخلف والفرقة قد حجبت عنهم الرؤية حيناً من الدهر ، فإنهم اليوم قد نهضوا من رقادهم ، ومسحوا عن عيونهم ما غشاها ، فأيقنوا أن مجدهم مرهون بالأعتصام بدينهم ، وأن عزتهم مرتبطة بإعزاز عقيدتهم ، فجعلوا يتنادون إلى الإستمسك بالإسلام ، ويفكرون في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين .

أيها الأخوة ، لن تستطيع الدعوة إلى الإسلام أن تنفصل عن الدفاع عن حرمانه ومقدساته ، لأنها جزء من العقيدة لا يتجزأ ، ولقد صبر المسلمون طويلاً على عدوان إسرائيل حتى ضاق بهم الصبر ، وشكوا إلى العالم جرائمهم في فلسطين والأرض العربية المحتلة . . . أيها الأخوة ، أكرر تحيتي لكم وأدعوا الله وهو نعم المسؤول ونعم المحيب ، أن يكلل برعايته مؤتمركم ، وأن تنجلي اجتماعاتكم عن تخطيط سديد ورشيد لأعمال مجيدة يعتز بها الإسلام وفئات الملايين من المسلمين ، الذين يتطلعون إلى نتائج مؤتمرهم المبارك " .

أقول وبطالع القارئ الكريم في الباب التالي ، تاريخ الدعوة إلى الإسلام والجهاد في نشره ، فيتبين كيف صبر الرسول صلى الله عليه وسلم وصابر ، وكيف حمل هو وأصحابه أعباء الجهاد بالنفس والمال ، حتى أظهر الله الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون .

الباب الثالث الإسلام والجهاد فى نشره

بداية الإسلام :

ظهر الإسلام أول ما ظهر بمكة المكرمة ، حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليه بأمر ربه : (يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر) ، والمدثر أى المغطى بالغطاء والرجز هى الأوثان ، ودليله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ، وكان قومه يعبدونها من دون الله ، وكان هو يعاف بفطرته الطاهرة عبادتها ، ويخلو بربه كل عام فى غار حراء بعيداً عن مجتمعهم ، حتى أكرمه الله برسالته للناس كافة ، عربهم وعجمهم ، فكانت أعظم الرسالات وأشملها ، كما كانت خاتمة الشرائع السماوية .

معنى الشهادتين :

وأساس الإسلام كما بينا أنفاً الشهادتان : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " فينطق بها لسان المسلم ويعتقدها قلبه ، فيقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، ومعنى " أشهد " أى أتحقق وأجزم ، " ولا إله إلا الله " معناها لا معبود بحق إلا الله ، فالسلطان المطلق والسيادة كلها له وحده سبحانه ، ووحدانيته تقتضى ألا يكون له شريك ولا صاحبة ولا ولد ، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، فمن عبد غيره فقد كفر ، ومن أشرك معه أحد فقد ضل سواء السبيل ، ومن هنا نقول فى الفاتحة : (أياك نعبد) أى نخضع ونذل ونعترف بالعبودية لك وحدك ، والشهادة بأن محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول الله معناها إقرار

بأنه مرسل من ربه ، ويبلغ الناس شرع الله ، فأوامره هي أوامر الله ، ونواهيه هي نواهي الله ، كما قال تعالى في سورة النجم : (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى) ، والإقرار برسالته صلى الله عليه وسلم يقتضى طاعته فى تلك الأوامر والنواهي ، لأن طاعته هى طاعة الله الذى أرسله كما قال تعالى فى سورة النساء : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

التكبير :

وقد كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه كما أمره الله ، فكان انعقاد الصلاة بالتكبير ، فى قوله : " الله أكبر " ، ومعناه كما بينه السبط الكريم الإمام الحسين بن علىّ حين قال له ابن الأزرق : يا حسين صف لى إلهك الذى تعبد ، وكان ابن الأزرق على رأس الخوارج الأزارقة فأجابه الإمام الحسين رضى الله عنه : " يابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه ، أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو يدرك بالحواس ، قريب غير ملتصق ، بعيد غير مستقصى ، لا إله إلا هو الكبير المتعال " . فقال ابن الأزرق فى إعجابه بوصفه : قد نبأ الله عنكم أنكم قوم خصمون .

الأسوة الحسنة :

وتقتضى طاعته صلى الله عليه وسلم الإيمان بكل ما جاء به والتأسى به فى أقواله وأفعاله وأحواله كما قال تعالى فى سورة الأحزاب : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) ، فهو فى أقواله وأفعاله وأحواله السراج المنير للسالك على الصراط المستقيم ، فمن استنار به كان من أهل الهدى ، ومن خالفه ضل وغوى ، قال تعالى فى سورة الأحزاب : (يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) ، والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى توحيده سبحانه ،

ومكافحة الذين يصدون عن سبيله ، والسراج المنير استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه تعالى ، وقيل سراجاً أى : هادياً من ظلمات الضلالة ، فأنت كالمصباح المضى ، ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضىء ، وقيل معناها أنت ذو سراج منير أى كتاب نير ، وجاز أن يكون وتالياً كتاب الله ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ومعاذاً ، فبعثهما إلى اليمن وقال : " إذهبا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، فإنه قد أنزل علىّ (يأيها النبي إنا أرسلناك . . .) .

الفضل الكبير :

وفى قوله تعالى : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) ، يقول ابن عطية - كما جاء فى تفسير القرطبي - قال لنا أبى رضى الله عنه : يبشر المؤمنين أن لهم عنده فضلاً كبيراً ، وقد بين الله الفضل الكبير فى قوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير)^١ ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه : فالآية فى سورة الأحزاب خبر ، والتي فى سورة الشورى تفسير لها .

إنذار العشيرة :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين للإسلام فى بداية الدعوة تنفيذاً لقوله تعالى فى سورة الشعراء : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، وقد روى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخص فقال :

^١ - سورة الشورى الآية ٢٢ .

" يا بنى كعب بن لؤى ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى مسرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى بن عبد شمس ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد مناف ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة ؛ أنقذى نفسك من النار ، فأنى لأملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلاها (أى أصلكم صلة الرحم فى الدنيا ، ولا أغنى عنكم من الله شيئاً فى الآخرة إن بقيتم على الكفر) ، وبذلك لم يدع صلى الله عليه وسلم حجة لغير أهله فى التخلف عن إجابة الدعوة التى دعا إليها .

ويقول الأمام القرطبى رضى الله عنه : فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن بالكافر ، وإرشاده ونصيحته لقوله صلى الله عليه وسلم : " إن لكم رحماً سأبلها ببلاها " ، وقوله عز و جل فى سورة الممتحنة : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم و تقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

و ها أنت ذا تراه صلى الله عليه وسلم قد دعاهم إلى الإيمان بالحكمة و الموعظة الحسنة ، فنفذ فى دعوته أمر ربه فى سورة الأنعام : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) ، و قد نزلت الآية الكريمة بمكة ، فتلطف صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم و لم يخاشنهم ، وقال العلماء إنها محكمة فى جهة العصاة من المؤمنين ، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين ،

تطور الدعوة إلى الإسلام :

ويقول ابن أسحاق فى تطور الدعوة إلى الله كما جاء فى سيرة بن هشام : مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على ما يلقى من قومه من الخلاف و الأذى .

وآمنت به خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - وصدقت بما جاء من الله ، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكره من رد عليه ، وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقته وتهون عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالى .

ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شق ذلك عليه وأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحا : (والضحى واللليل إذا سجا * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * .و. أما بنعمة ربك فحدث) : فبشره بأنه ما جفاه منذ أن أحبه ، ووعد به بأن سيعطيه النصر فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة وذكره ما أبدأه به من الأكرام فى يتيمة وبحثه عن الهدى ، فأواه فى يتيمة ، وهداه لأعظم شريعة ، وأغناه من فضله ، فهو لا يتخلى عنه فى أى شأن من شؤون الدنيا والآخرة .

ويقول ابن إسحاق : حدثنى بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : افترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمها فى الحضر أربعاً ، وأقرأها فى السفر على فرضها الأول ركعتين ، وقال السهيلي : ذكر المزنى أن الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ويشهد لهذا القول قوله سبحانه : (وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) ، وقال يحيى بن سلام مثله ، وقال : كان الإسراء وفرض الصلوات الخمس قبل الهجرة بعام ، فعلى هذا يحتمل قول عائشة : " فزيد فى صلاة الحضر " أى زيد فيها حين أكملت خمس ، فتكون الزيادة فى الركعات وعدد الصلوات ، ويكون قولها : " فرضت الصلاة ركعتين " أى قبل الإسراء ، وقد قال بهذا طائفة من السلف ،

منهم ابن عباس ، ويجوز أن يكون معنى قولها : " فرضت الصلاة " أى ليلة الإسراء حين فرضت الخمس فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر بعد ذلك ، وهذا هو المروى عن بعض رواة الحديث المتقدم عن عائشة .

السابقون الكرام :

وذكر ابن إسحاق أوائل المسلمين ، فذكر منهم سادتنا على بن أبى طالب (وقال إنه أسلم وهو ابن عشر سنين) وزيد بن حارثة ، وأبا بكر الصديق ، ثم قال : فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله ، وكان رجلاً مؤلفاً لقومه ، محبباً سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلق معروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته ، فجعل يدعوا إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه . قال : فأسلم بدعائه فيما بلغنى : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبد الله ، وقال ابن إسحاق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام ، فصلوا وصدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاء من الله ، ثم أسلم أبو غبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وغبيدة بن الحارثة ، وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب ، وأسماء بنت أبى بكر ، وأختها عائشة وهى يومئذ صغيرة ، وخباب بن الأرت ، وعمير بن وقاص ، (أخو سعد) ، وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القارى .

وذكر ابن إسحاق بقية هؤلاء السابقين بأسمائهم ، فليرجع إليهم من شاء فى سيرة " ابن هشام " ، ثم أضاف يقول :

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء ، حنى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدثوا به ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغنى من بعثه ، ثم قال الله

تعالى : (فاصدع بما تأمر وأعرض عن المشركين)^١ ، وقال تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقرين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)^٢ ، (وقل أنى أنا النذير المبين)^٣ قال ابن هشام : اصدع أى أفرق بين الحق والباطل ، وقال ابن إسحاق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم ، ولما بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وذاكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدث على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه (أى حماه) وقام دونه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهراً لأمره لا يردده عنه شئ .

فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاد ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وأما أن تخرى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فاتصرفوا .

العزم المؤكد :

وحين قالت قريش لأبى طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا ، فأبقى علىّ وعلى نفسك ، ولا تجملنى من الأمر ما لا أطيق ، قال فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بدا لعمه فيد بندا (أى ظهر له فيه رأى) أنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف على نصرته والقيام معه ،

١ - سورة الحجر آية ٩٤ .
٢ - سورة الشعراء ، الآيتان ٢١٤ ، ٢١٥ .
٣ - سورة الحجر ، الآية ٨٩ .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فبكى ، ثم قام - فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أختى ، قال فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقال : أذهب يا بن أختى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

أقول ، فما أعظم العزم من سيد أولى العزم من الرسل ، و كيف لا يكون من مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم العزم و المضاء اللذان تصاغر أمامهما فى عينه كل من الشمس و القمر ، و التمسك بالدعوة إلى دين الله ، حتى يظهره الله أو يهلك دونه . أما عبراته التى انسكبت ، فهى ليست جزعا و لا خوفا ، ولكنها انسكبت أسفا على قومه أن يصموا آذنه عن دعوة الحق فى إصرار و استكبار ، و يشهد لذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) أى مهلك نفسك بحزنك عليهم ، حين فاتهم ما كان يرجو لهم من الإيمان و هو حياة الروح ، و أصروا على الكفر وهو موتها ، أأست تراه تعالى يقول فى المفارقة بين المؤمن و الكافر فى سورة الأنعام : (أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) ، نزلت فى المقارنة بين سيدنا حمزة بن عبد المطلب و هو المؤمن ، و أبى جهل الكافر ، و حقا ما يقول الشاعر الحكيم :

و فى الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

و إن امرأ لم يحيى بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

و النور فى الآية الكريمة عبارة عن الهدى و الإيمان ، و قال الحسن هو القرآن ، و قيل الحكمة ، و قيل هو النور الوارد فى قوله تعالى : (يوم ترى

المؤمنين و المؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم . .)
و صدق الله العظيم إذ يقول فى سورة الأنعام : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام
و من يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس
على الذين لا يؤمنون) .

فضيلة الإيمان :

و لا يخفى على القارئ العزيز أن فضيلة الإنسان كامنة فى روحه التى بين جنبيه ، فإذا فاتته
أن تتحلى روحه الإيمان ، فقد فاتته الفضيلة كلها ، وصار حيوانيته البهيمية أضعف من
الأسد ، بل من الفيل ، بل من الثور ، بل من الذئب ، و لكنه إذا تحلى بالإيمان و قويت
روحه فى جنب الله ، باهى الله به ملائكة السماء ، والإنسان مركب من ملك و ملكوت ،
فجسده حيواني من عالم الملك المظلم ، و روحه من عالم الملكوت النوراني الذى خلق الله
منه الملائكة ، فإذا قويت غرائزه البشرية الشهوانية كان حيوانا مظلما ، و إذا قويت إشراقات
روحه قاومت شهواته البشرية الظاهرة منها و الخفية فانصبغ بصبغة العالم الأسنى - وهو
عالم الملكوت - فصار عرشيا جسمه بين الخلق يسعى ، و روحه فى الملكوت ترعى ، و تميز
فى إنسانيته عن بن جنسه كما قيل :

يا خادم الجسم كما تسعى لخدمته أتطلب الريح مما فيه خسران

أقبل على النفس و استكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وانظر كيف صور الله تعالى حياة الشهداء فى قبورهم مع موت أجسادهم أمام أعيننا حيث
يقول تعالى فى سورة آل عمران : (و لاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء
عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من
خلفهم ألا خوف عليهم و لا هم يحزنون) ، فى حين يقول سبحانه فى شأن الكافرين فى
سورة النمل : (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين *)

وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ، فتدبر كيف عبر القرآن الكريم عنهم بالموتى و إن تحركت أجسادهم حركة الحياة الظاهرة ، و استمعت آذانهم إلى صوته صلى الله عليه و سلم ، لأنه كان استماعا لاهيا عن التدبر و الاتعاظ كما يقول تعالى فى سورة محمد : (و منهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم و اتبعوا أهواءهم) ، فالحياة الحقّة إذن هى حياة الروح بنور الهدى و لومات الجسد ، و الموت موت الروح بظلمة الكفر و لو عاش الجسد .

فاين استماعهم الصوتى من استماع المؤمنين الروحى الذى قال تعالى واصفا إياه فى سورة الزمر : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء و من يضل الله فما له من هاد) ، و أحسن الحديث هو القرآن الكريم ، قال سعد بن أبى وقاص : قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل : (الله نزل أحسن الحديث) ، فقالوا لوقصصت علينا ، فنزل فى سورة يوسف : (نحن نقص عليك أحسن القصص) . فقالوا : لو ذكرتنا ، فنزل فى سورة الحديد : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ، والمتشابه أى يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً ، وثنى للتلاوة فلا يمل القارئ من تكراره ، وتقشعر أى تضطرب وتتحرك مما فيه من الوعيد بلإنذار ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أى عند آية الرحمة ، وقيل إلى العمل

بكتاب الله والتصديق به ، وقيل إلى ذكر الله يعنى الإسلام .

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله ، تحاتت عنه خطاياهم كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها " ، أى سقطت عنه الذنوب كما تسقط أوراق الشجر فى الخريف ، وعن ابن عباس رضاه الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار " ، وعن ثابت البنانى رضى الله عنه قال قال فلان : إني أعلم متى يستجاب لى ، قالوا ومن أين تعلم ذلك ؟ قال إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لى .

* * *

ونعود لما كنا فيه من تطور الدعوة إلى الإسلام :

قال ابن إسحاق : ثم إن قريش تذا مروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبى طالب .

وقد حاول طغاة الكفار أن يجدوا مغزاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعياهم البحث عن مغز فيه ، ثم اجتمعوا على باطل من تفكيرهم فأحبط الله كيدهم ، وإليك ما يحكيه ابن إسحاق :

" ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً .

" قالوا : فأنت يا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، قال بل أنتم فقولوا أسمع ،

" قالوا : نقول كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ،

فما هو بزمنة الكاهن^١ ولا سجعه .

" قالوا : فنقول : مجنون ، قال ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ،

" قالوا : فنقول : شاعر ، قال ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ،

" قالوا : فنقول ساحر ، قال ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم^٢ " قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق^٣ ، وإن قرعه لجناة ، وما انتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك .

" فجعلوا يجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ،

" فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة قوله تعالى فى سورة المدثر : (ذرنى ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبصر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول بشر * سأصليه سقر) .

قال ابن اسحاق : " وأنزل الله تعالى فى النفر الذين كانوا معه يصنفون

١ - الزممة هى الكلام الخفى لاذى لا يسمح .

٢ - إشارة إلى ما كان يفعله الساحر ، بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه ، ويشير إليه قوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) .

٣ - العذق ، بالفتح النخلة ، يشبهه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى .

القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى : (كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوريك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون)^١ قال ابن هشام واحدة العضيين عضة يقول عضوه أى فرقوه .

قال ابن إسحاق : " فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا فى الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها " .

أقول وصدق الشاعر الحكيم فى قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لسان حسود

قال ابن إسحاق : " فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العرب وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ولم يكن حى من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر ، وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم فى بلادهم .

ثم إن قريش اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فاغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، معادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

أقول : وكيف يعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذاهم واستهزأهم وقد قال ربه فى سورة المدثر : (ولربك فاصبر) كما قال له فى سورة الأحزاب : (ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) ، وإذا أردت أن ترى مثلاً من ثباته وشجاعته فاستمع إلى ما يحكيه ابن إسحاق عن يحيى بن عروة ابن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

^١ - سورة الحجر : الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

" قلت له ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرهون من عداوته ؟ قال حضرتهم وقد اجمع أشرافهم يوماً فالحجر^١ فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا ،

" فبينما هم ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه^٢ ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

" أستمعون يا معشر قريش ، أما و الذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح " قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة (أى وصية) قبل ذلك ليرفؤه (يهدئه و يسكنه) بأحسن ما يجد فى القول ، حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم فو الله ما كنت جهولاً .

" قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر و أنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبيناهم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبه رجل واحد و أحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا و كذا ، لما كان يقول فى عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم ، أنا الذى اقول ذلك " ، قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه - قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط .

^١ - أى حجر إسماعيل بالكعبة .

^٢ - أى طعنوا فيه .

ويقول ابن إسحاق : " فلما أسلم حمزة^١ عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه " . وأقول وهاك أبيات فى الشعر قالها سيدنا حمزة رضى الله عنه معتزلاً بإسلامه حين أسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادى
إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز
خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا
تحدر دمع ذى اللب الحنيف

روعة القرآن :

قال ابن إسحاق :

" حدثت أبى عتبة بن ربيعة - وكان سيداً - قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ، فقالوا بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه :

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا بن أخى إنك منا حيث علمت من السطة^٢ فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

^١ - هو سيدنا حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كما وصفوه أعز فتى فى قريش وأشدهم بأساً .
^٢ - أى شرف .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أبا الوليد ، اسمع " قال يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رئياً^١ تره لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع^٢ على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

" أقد فرغت أبا الوليد ؟ قال نعم ، قال " فاسمع منى " ، قال : افعل ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة فصلت) : (بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً وتذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل أننا عاملون * قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليه أنما إلهكم إلهٌ واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويلٌ للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت إليه ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، وهى قوله تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم آياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل

^١ - ما يتراءى للإنسان من الجن .

^٢ - أى الذى يتبع الناس من الجن .

والنهار وهم لا يسأمون) فسجد وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت ذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نلطف بالله لقد جاءكم الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما ورأك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لقوله الذى سمعت منه نبأً عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيت فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم " .
قال ابن إسحاق : " ثم إن الإسلام جعل يفشوا بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من اسنطاعت فتنه من المسلمين " .

التحدى بالأسئلة :

أقول ملخصاً مما رواه ابن إسحاق بسنده : وبلغ من تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أرسلوا وفداً من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فلما جاء الوفد إلى أحبار اليهود قالوا : إنكم أهل التوراة ، وقد جنناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فإنه نبيّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فرجع الوفد إلى مكة ، وجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن تلك المسائل فنزلت في إجابتهم سورة الكهف ، فتعرضت لقصة أهل الكهف ، ولقصة ذى القرنين تفصيلاً ، وقال تعالى في سورة الأسراء عن الروح : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن ابن عباس رضى الله عنهما - أنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قالت أحنبار اليهود : يا محمد أرايت قولك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً إيانا تريد ؟ أم قومك ؟ قال كلاً ، قالوا فإنك تتلوا فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شئ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها في علم الله قليل ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقتموه .

قال فأنزل الله تعالى فيما سأله عنه من ذلك في سورة لقمان : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) .

معرفة الله تعالى :

أقول : والروح - كما عرفنا الله - هى سر من أسرار الله ، وهى من أمره ، يودعها الله أجسادنا بقدرته ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا ، ويتكلم عن بعض خواصها - دون ذاتها - سيدى ابن عطاء الله السكندرى فيقول رضى الله عنه :

" إن معرفة الله فطرية فى النفس ، ويستند فى ذلك كما سلف القول إلى قوله تعالى فى سورة الأعراف : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا لغافلين) .

ويستطرد قائلاً :

" فلما هبطت الأرواح فى الأبدان ، احتجبت المعرفة الفطرية بالله بحجاب البشرية الكثيف ، فستر الله بذلك سر خصوصيته ، وجاء فى حكمه رضى الله عنه : سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العباد " .

ثم أضاف رضى الله عنه يقول : " ومن هنا كانت المعرفة بالله أعسر المعارف ، فإنه لا مثل لله (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) ، ومع هذا فرض الله على عباده جميعاً معرفة ذاته وأسمائه وصفاته ، ويفصل ذلك فيقول :

" والمعرفة بالله قد تكون إثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين ، وهى مفروضة عليهم وتسمى بالمعرفة العامة ،

((وقد تكون حالاً يحدث من شهود ذوقى ، و يكون العارف هو من أشهده الله ذاته و صفاته و أسماءه و أفعاله ، و تسمى هذه المعرفة المعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية التى لا تستند إلى العقل و إنما تستند إلى الذوق)) .

و يقول رضى الله عنه : ((و لما كانت المعرفة الفطرية قبساً من نوره أودعه قلوب أوليائه ، فإنها لن تأفل أبداً ، وليست كذلك المعرفة التى تأتى عن طريق النظر فى الآثار فهى تأفل بأفول الآثار)) .

و يرى سيدي ابن عطاء الله رضى الله عنه أن القلب كلما زهد فى الدنيا (بمعنى طرحها من قلبه لا من يده) و انعدم منه الهوى و الحرص و الأمل ، و ازداد إيمانه ، ثم توحيده ، امتلاً بالتوحيد فصار عرشياً ، وتنزه عن الأوصاف البشرية تماماً ، و شرفت فى الملاً الأعلى صفاته ، و علت و سمت فى الملاً الأسفل و اكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، و تخلق بأخلاق الله (أى على قدر بشريته فيكون مثلاً رؤوفاً أو رحيماً على قدره كما شاء له الله من الرأفة و الرحمة ،

أما الصفات القديمة الأزلية فله وحده سبحانه) ، و صارت الأسماء الحسنى وصفه و نعته ، و صار محققاً مستبصراً فانياً فى شهود المذكور عن ذكره . و يضيف رضى الله عنه قائلاً : و فى القلب ورد فى الحديث القدسى لا يسعنى عرشى و لا كرسى و لا سمائى و وسعنى قلب عبدى)) .

و يعلمنا رضى الله عنه معنى الحديث المتقدم فيقول فى روعة ظاهرة : ((إن قلب الإنسان لا يسع الله مساحة ، ولا خيالاً ، و لا حلولاً ، و لا حساً ، و لا حكماً ، و إنما يسعه توحيداً ، و إيماناً ، و علماً ، و معرفة ، و يقيناً ، و محبة ، و إخلاصاً ، فضلاً من الله و تخصيصاً)) .

و يقول شيخى و سيدى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه ، فيما نقلناه عنه من حكمه الملهمة لوقتها دون إعمال فكر مما يعطيه الله خواص أوليائه :

واكتحال العيون أيسر شىء واكتمال القلوب صعب المنال
هو ذكرٌ و رغبةٌ و شهوٌ ووفاءٌ للخالق الفعّال

ومن ذلك نرى أنه لابد من صبر و مصابرة ، و جهد و مجاهدة للوصول إلى معرفة الله جل جلاله ، و ليس بينك و بينه تعالى مسافة تقطعها حتى تصل إليه ، و إنما الوصول هو أن تصل إلى حضرة تشهد فيها بمذاقك أن لا فاعل إلا الله ، لأنه لا إله سواه ، و الكل مهما علوا فهم فى قبضة عزته ، ليس لهم من أمورهم إلا ما شاء الله و قضاه ، كما يقول امير الشعراء شوقى رحمه الله :

سبحانه الملك إليه وله يؤتية أو ينزعه ممن يشا

الروح و المادة :

وما دنا فى وادى الروح وما حباها الله به ، فلنقرأ روائع جادت بها قريحة شاعر المسلمين العبرى السيد محمد إقبال الباكستانى رحمه الله ، و قد ترجم كلامه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان مد الله فى عمره :

ودنيا الروح سكر بالمعانى وصحو بالرقى و بالمعالى

فغش للروح فى دنيا وأخرى
وإن أمسيت للأموال عدأ
وإن أصبحت فى الأكوان حرأ
وكسب المال للمخلوق حق
وإن المال قد يأتى ويمضى
وأنت وما ملكت إلى ارتحال
تغز بالعالمين بلا زوال
فقدتهما معاً فى كل حال
فأنت من الكمال إلى كمال
ولكن لاتبع شرفاً بمال
وأنت وما ملكت إلى ارتحال

و إن أردت كيف يشهد الأولياء ربهم فتتعلق به أرواحهم فى جميع أوقاتهم ، فتسعد بذلك
الشهود السعادة الحقة ، فاستمع إلى ما قاله إلهاماً لوقتة سيدي وشيخي الشيخ على عقل ،
نور الله ضريحه ، ونقلناه عنه ، وهو يريك كيف تعلق بربه واتجه إليه فى كل أوقاته :

قبلتى فى الصلاة ساعة وقت
إنما قبلتى جميع حياتى
فمسائى مع اليقين نهار
طاف بى النور فالمعارف بحرى
وارتقاء الأرواح فى مورد العلم
وانعدام الأهواء والحس منها
ياسرورى بقوله يا عبادى
كم مصل بعد الصلاة تلاهى
هى ذات الإله لن أنساها
و نهارى سعادة برضاها
تلفظ الدر وهلا تتناهى
يصفى الأرواح من دنياها
هو معنى السمو فى مسراها
أنا فى سمعها أنال رضاها

وما دامت العناية الإهية قد أسعدتك بالإيمان بالله قبل أن يكون منك عمل ، فلماذا لا تسأل الله
المزيد من فضله كما فعل سيدي ابن عطاء الله فى مناجاته :

((إلهى ، هذا نلى ظاهر بين يديك ، و هذا حالى لا يخفى عليك ، أطلب الوصول إليك ، وبك
أستدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، و أقمنى بصدق العبودية بين يديك .
((إلهى : أغننى بتدبيرك عن تدبيرى ، و بختيارك عن اختياري ، وأوقفنى على مراكز
اضطرارى ،

((إلهى : بك أستنصر فانصرنى ، و عليك أتوكل فلا تكنى ، و إياك أسأل

فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، و لجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى ،

((أنت الذى أشرفت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك و وحدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، و لم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤمنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى أستبانتم لهم المعالم ،
((ماذا وجد من فقدك ؟ و ما الذى فقد من وجدك ؟ لقد خسر من بغى عنك متحولا ، و قد خاب من رضى دونك بدلا ، كيف يرجى سواك و أنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك و أنت ما بدلت عادة الامتنان .

و إذا أردت أن تصدق فى عبوديتك لله ، فاستمع إلى ما ينصحك به رضى الله عنه فى قوله :
((تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزته ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ،

((كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته (أى أعطى المادة كل اهتمامه و تجاهل أمر الروح) أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته)) .
ثم انظر كيف اشتغل سیدی و شیخی الشیخ على عقل عن الناس و عيوبهم بحب ربه الأعلى ، فقال رضى الله عنه فى إلهامه الفورى :

أملى فى الله يقبلنى	فسوى الرحمن لم أرم
أنا من حبى لحضرتة	تارك للناس كلهم
أنا من حبى لحضرتة	لم أفق من لذة النغم
لم أزل فى حبى حضرتة	مرتعا للعلم و الحكم
وفؤادى من هدايته	يرتوى من مورد الكرم
وبقلبى من محبته	همة من أعظم الهمم

هاجنى وجدى وبه حرق
لم تكن من شهدة الضرم
بل هى الأنوار يقذفها
فسرت فى مهجتي ودمى
و إذا أردت أن تعرف كيف اغتنى بربه تعالى و استغنى عن الناس فاستمع إلى قوله :
فتشت كل الخلق عن علم فلم
أر لى سوى رب السما من وال
فتركت كل العالمين وجئته
وجعلت ذكرى ذاته منوالى

آفات النفس :

وهو بعد ذلك يشرح لنا كيف نحذر أنفسنا و نجاهدها فى تزكية أرواحنا ، مصداقا لقوله تعالى فى سورة النازعات : (و أما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى) ، فيقول رضى الله عنه وكان أحد الحاضرين سأله أن يأتى له بأبيات من إلهامه الفورى على وزن البيت الآتى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
دون الذى تعلق به فى ذاتها

فكان مما قاله فوراً من إلهامه المتدفق ونقلناه عنه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
كم عالم قد زال من نزعاتها
تنأى عن الإصلاح طول حياتها
وتواصل الإقبال فى شهواتها
تدعى لتأدية الصلاة وإنما
شغلت بغير الله حين صلاتها
وقفت على الدينار حسن بلائها
فأما لها من هديها وهاداتها
قد رحبت بالسيئات مرضية
وتضح إن دعيت إلى حسناتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى
كم تكثر الدعوى على قرباتها
ضحكت على جهالها فتوهموا
أن العلا والفوز فى نزواتها
ظنوا بنفسهمو الكمال وإنما
تتوافق الجهلاء فى غاياتها
فنحنا مسيلمة النبوة وانتهى
فرعون للتأليه من عثراتها
والنفس ما برحت تضل وما بها
نور يريح النفس من ظلماتها
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها
قد ترزق الأنوار فى سبحاتها
ترضى تسفلها لكل نقيصة
دون الذى تعلق به فى ذاتها

تعنت الكفار :

و إذا أردت أن ترى كيف جمحت بالكفار نفوسهم ، ونأت في جموحها عن اتباع دعوة الحق ، فاقراً ما وصف به الله تعالى موقفهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الكريم في سورة الفرقان :

(و قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً * تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار و يجعل لك قصوراً) .

فانظر كيف عموا بالحس و المادة عن الروح و أنوارها ، فإن خصوصية الرسل عليهم صلوات الله و سلامه فى بواطنهم و إن شاركونا فى بشريتهم ، قال تعالى فى سورة الكهف : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد) فهو إن كان بشر مثلنا من حيث جنسه ، فإنه تميز عنا بوحى يوحى إليه ربه ، ليبلغه إلينا بأمره سبحانه ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة المائدة : (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين) .

و قد رد الله تعالى على قولهم المتقدم فقال تعالى فى سورة الفرقان : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق و جعلنا لبعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً) ، و فذلك دفاع قوى عن رسول الله ، و تسلية له صلى الله عليه و سلم .

واقراً مرة أخرى ما حكاه الله عن عنادهم و جحودهم وأصرارهم فى قوله تعالى فى سورة الإسراء :

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل و عنب
فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله و
الملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل
علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً) .

ولو أنهم رشدوا لاكتفوا بمعجزة القرآن التى تحدى بها الله تعالى الإنس و الجن ، وقال فى
تحديه لهم فى سورة الإسراء : (قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً * ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل
مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) . ولكنهم تجاهلوا الحق ، و جادلوا الباطل ليدحضوا به الحق
؛ و سفهت عقولهم فيما طلبوا ، فإنهم طلبوا فيما طلبوا كما رأيت تدمير الكون فى قولهم :
أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً) ، أى قطعاً ، ولو سقطت عليهم لهلكوا جاحدين ،
وقد من الله على الناس بإمساكه السماء أن تقع على الأرض فى قوله تعالى فى سورة الحج :
(ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) وبلغ بهم الجحود أن يقولوا . . . (. . . أو
تأتى بالله و الملائكة قبيلاً) ، أى كفيلاً وشاهداً على صدق ما تدعيه .

و قد ذكرنى تحديهم العنيد بنكته طريفة وقعت بين معاوية بن أبى سفيان و رجل يمنى ، فقد
دخل اليمنى على معاوية ، فقال معاوية مازحاً معه : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم
امراً (يقصد بها بلقيس ملكة سبأ) فرد الرجل عليه فى نكاء واضح قائلاً : أجهل من قومى
قومك الذين حكى

الله عنهم فقال تعالى في سورة الأنفال : (و إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) . فهلا قالوا : فاهدنا إليه .
و نعود إلى ما يحكيه ابن إسحاق :

((فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد بينهم وبين اتباعه و تصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

(لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)^١ ، أى أجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبون بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصتموه يوماً غلبكم فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استرق السمع دونهم فرقا^٢ منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، و إن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، فظن الذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته ، وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له يستمع منه)) .

و أضاف ابن إسحاق يقول :

حدثنى داود بن الحصين مولى عمرو بن عثمان ، أن عكرمة مولى ابن عباس حدثهم أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حدثهم : إنما أنزلت هذه الآية : (ولا تجهر بصلاتك و لا تخافت بها و ابتغ بين ذلك سبيلاً)^٣ من أجل أولئك النفر ، يقول : لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ، و لا تخافت بها فلا يسمعها من يجب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

^١ - سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

^٢ - خوفاً

^٣ - سورة الإسراء ، الآية ١١٠ .

قال ابن إسحق :

((وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب و أبا جهل بن هشام و الأحنس بن شريق الثقفي ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو يصلى فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، كل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا (لام بعضهم بعضاً) و قال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .
((حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

((فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة : و الله لقد سمعت أشياء أعرفها و أعرف ما يراد بها ، و سمعت أشياء ما عرفت معناها ولا يراد بها ، قال الأحنس و أنا والذى حلفت به كذلك .

((قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، و حملوا فحملنا ، و أعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، و كنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، و الله لا نؤمن بـه أبداً ولا نصـدقه ، قـال :

١ - أى جلسنا ، والحاذى والجائى سواء .

قال ابن إسحاق " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا : يهزءون به - (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) لا نفقه ما تقول ، (وفى آذانهم وقر) ، لا نسمع ما تقول : (ومن بيننا وبينك حجاب) ، أى ساتر قد حال بيننا وبينك ، (فاعمل) بما أنت عليه (إنا عاملون)^١ بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئاً ، فأنزل الله عليه فى ذلك قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولو على أدبارهم نفوراً * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً وقالوا أئذا كنا عظماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً * قل كونوا حجارة أو حديد أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسینگضون إليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً * يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً)^٢ .

أقول : فانظر كيف نفروا من توحيد الله حيث أصروا عناداً على الكفر ، والحظ كيف غابت عقولهم عن آية الله فى إجادهم ، فاستبعدوا أن يعيدهم بقدرته فى الآخرة ، ولو فكروا تفكيراً سليماً فى الرد على سؤالهم : (من يعيدنا) ، وهو قوله تعالى : (قل الذى فطركم أول مرة) لرشدوا ، ولكنهم بدل أن

^١ - سورة فصلت الآية ٥ .

^٢ - سورة الإسراء ، الآيات من ٤٥ إلى ٥٢ .

يتفكرون لووا رءوسهم تعجباً واستهزاء من أمر البعث بعد الموت ، فكانوا من أصحاب النار ، والعياذ بالله .

وما أروع ما يقول إمامنا على بن أبي طالب : عجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن شك في الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك في النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء .

البحث عن الحق :

ويتكلم سيدي الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في كتاب " الفتوحات " عن المفكرين الباحثين عن الحق من غير هوى في نفوسهم ، فيقول في الباب السادس والستين :

بحثوا عن حقائق نفوسهم لما رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائهم شيء ، فعلموا أن المدرك والمحرك لهذا الجسد إنما هو أمر آخر زائد عليه ، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد فعرفوا نفوسهم ، ثم رأوا أنها تعلم بعدما كانت تجهل ، فعلموا أنها إن كانت أشرف من أجسادها فإن الفقر والفاقة يصحبها ، فاعتلوا بالنظر من شيء إلى شيء ، وكلما وصلوا إلى شيء رأوه مفتقراً إلى شيء آخر ،

حتى إنتهى بهم النظر إلى شيء لا يفتقر إلى شيء ، ولا مثله شيء ، ولا يشبه شيئاً ، ولا يشبه شيء ، فوقفوا عنده وقالوا : هو الأول ، وينبغي أن يكون واحداً لذاته من حيث ذاته ، وأن أوليته لا تقبل الثاني ، ولا أحديته ، لأنه لا شبه له ولا مناسب ، فوحدوه توحيد وجود ،

ثم لما رأوا أن الممكنات لأنفسهم لا تترجح لذاتها ، علموا أن هذا الواحد أفادهم الوجود ، فافتقرت إليه وعظمته بأن سلبت عنه جميع ما تصف ذواتها به ، فهذا حد العقل ، فبينما هو كذلك ، إذ قام شخص من جنسهم لم يكن عندهم من المكانة في العلم ، بحيث أن يعتقدوا فيه أنه ذو فكر صحيح ونظر صائب ، فقال لهم : أنا رسول الله إليكم ، فقالوا : الإنصاف أولى ، انظروا في نفس دعواه ، هل ادعى

ما هو ممكن أو ادعى ما هو محال ؟ فقالوا أنه ثبت عندنا بالدليل أن الله فيضاً إلهياً يجوز أن يمنحه من يشاء ، كما افاض ذلك على أرواح هذه الأفلاك ، وهذه العقول ، والكل قد اشتركوا في الإمكان ، وليس بعض الممكنات بأولى من بعض ، فيما هو ممكن ، فما بقي لنا نظر إلا في صدق هذا المدعى أو كذبه ، ولا نقدم على شئ من هذين الحكمين بغير دليل فإنه سوء أدب مع علمنا ،

فقالوا : هل لك دليل على صدق ما تدعيه ؟ فجاءهم بالدلائل ، فنظروا في دلالاته ، ونظروا أن هذا الشخص ما عنده خبر مما تنتجه الأفكار ولا عرف منه ، فعلموا أن الذي أوحى في كل سماء أمرها كان مما أوحاه في كل سماء وجود هذا الشخص وما جاء به ، فأسرعوا إليه بالإيمان وصدقوه وعلموا ان الله قد أطلعه على ما أودعه في العالم العلوى من المعارف ما لم تصل إليه أفكارهم ، ثم أعطاه من المعرفة بالله ما لم يكن عندهم ، ورأوا نزله في المعارف بالله إلى العامى الضعيف^١ الرأى بما يصلح لعقله في ذلك ، وإلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح لعقله في ذلك ، فعلموا أن الرجل عنده من الفيض الإلهى ما هو وراء طور العقل، وأن الله قد أعطاه من العلم به والقدرة عليه ما لم يعطه إياهم ، فقالوا بفضلته وتقدموا عليهم ، وآمنوا به وصدقوه واتبعوه ، فعين لهم الأفعال المقربة إلى الله تعالى ، وأعلمهم بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عنهم ، وما يكون منه سبحانه فيهم في المستقبل وجاءهم بالبعث والنشور والحشر والجنة والنار ،

ثم تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال ، وكل واحد منهم يصدق صاحبه ، ما اختلفوا قط في الأصول التى أستندوا إليها وعبروا عنها وإن اختلفت

^١ - ولذلك ترى القرآن الكريم يخاطب الناس على قدر عقولهم ، فخاطب العوام بالمحسوسات كما بينا من قبل : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت (ويخاطب العلماء بالعلم فيقول تعالى : أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً) . ويخاطب الأنبياء فى أنفسهم فيقول تعالى لنبيينا عليه الصلاة والسلام : (وكذلك أوحينا إليك روحاً وم أمرنا) .

الأحكام فتنزلت الشرائع ونزلت الأحكام ، وكان الحكم بحسب الزمان و الحال كما قال تعالى :
(لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً)^١ ، فاتفقت أصولهم من غير خلاف فى شىء من ذلك ،
وفرقوا فى هذه السياسات النبوية المشروعة من عند الله ، بينها وبين ما وضعت الحكماء
من السياسات الحكيمية التى اقتضاها نظرهم ، وعلموا أن هذا الأمر أتم ، وأنه من عند الله بلا
شك ، فقبلوا ما أعلمهم به من الغيوب و آمنوا بالرسول ، وما عاند أحد منهم إلا من لم ينصح
نفسه فى علمه واتبع هواه ، و طلب الرياسة عن أبناء جنسه ، وجهل نفسه و قدرها ، و
جهل ربه ، فكان أصل وضع الشريعة فى العالم وسببها طلب صلاح العالم ، و معرفة ما جهل
من الله مما لا يستقل به العقل من حيث نظره ، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزلة ، ونطقت
بها ألسنة الرسل و الأنبياء عليهم السلام ، فعلت العقلاء عند ذلك أنه نقصها من العلم بالله
أمور تمتتها لهم الرسل .

وهو كلام نفيس ، فليحرص القارئ الكريم على تفهمه و الانتفاع به .
ونعود لتاريخ الدعوة للإسلام فنقول :

اشتداد الأذى :

قال ابن إسحق : ((ثم إنهم عدوا على من أسلم و اتبع رسول الله صلى الله عليه و سلم من
أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم
بالضرب والجوع والعطش ، و برمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم
عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم و يعصمه
الله منهم .

الهجرة إلى الحبشة :

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، و ما هو فيه من
العافية بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، و أنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من
البلاء قال لهم :

^١ - سورة المائدة ، الآية ٤٨ ،

((لوخرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنت فيه)) ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام .

أقول : وكان ممن هاجر الهجرة الأولى للحبشة سيدنا عثمان بن عفان و زوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وسيدنا الزبير بن العوام ، وسيدنا مصعب بن عمير ، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وسيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد و زوجته السيدة أم سلمة ، وسيدنا عثمان بن مظعون ، و سيدنا جعفر ابن أبي طالب و زوجته السيدة أسماء بنت عميس ، رضى الله عن جميعهم و عن سائر المهاجرين .

و يقول ابن إسحق : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، و هاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلاً .
ائتمار قريش بمهاجري الحبشة :

حدث ابن إسحق بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، و عبدنا الله تعالى ، لا نوذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، و أن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، و كان أعجب ما يأتيه منها الأدم (الجلد) فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقه بطريقاً إلا أهدوا له هدية ،

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة و عمرو بن العاص (أى قبل اعتناق الإسلام) و أمرهما بأمرهم و قالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي و نحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي ، وقالوا

لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى (لجأ) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم و جاءو بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا (أى أدرى بهم) و أعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، و لم يدخلوا فى دينك ، و جاءو بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم و أعمامهم و عشائهم لتردهم إليهم فهم ، أعلى بهم عينا ، و أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوه فىه .

قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة و عمرو بن العاص من ان يسمع كلامهم النجاشى ؛ قالت : فقالت بطارقتة حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، و أعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .
قالت : فغضب النجاشى ثم قال : لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ، و نزلوا بلادى ، و اختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما و رددتهم إلى قومهم ، و إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسننت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه و سلم كائنا ما هو كائن .

فلما جاءو ، و قد دعا النجاشى أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

جعفر يشيد بالإسلام :

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال له : ((أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، و يأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده و نعبده ، و نخلع ما كنا نعبد نحن و آبائنا من دونه من الحجارة و الأوثان ،

((و أمرنا بصدق الحديث ، و أداء الأمانة ، و صلة الرحم ، و حسن الجوار ، والكف عن المحرم و الدماء ، و نهانا عن الفحشاء ، و قول الزور ، و أكل مال اليتيم ، و قذف المحصنات ،

((و أمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، و أمرنا بالصلاة و الزكاة و الصيام ، قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدقناه و آمنا به ، و اتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، و حرمنا ما حرم علينا ، و أحلنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، و فتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، و أن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا و ظلمونا و ضيقوا علينا ، و حالوا بيننا و بين ديننا ، خرجنا إلى بلادك و اخترناك على من سواك ، و رغبتنا فى جوارك ، و رجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قلت : فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشى : فاقرأه على ، قالت : فقرأ عليه صدرأ من كهيعص .

قالت : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت (ابتلت) لحيته ، و بكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلاه عليهم ، ثم قال لهم النجاشى : إن هذا الذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم

بما أستأصل خضراءهم ، قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا . لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ،

قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائناً في ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، قالت : فضرب النجاشي بيده الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود (أى بمقدار هذا العود) قالت : فتنافرت بطارقه حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى . والشيوم الآمنون . من سبكم غرم ، ثم قال من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم (و الدبر بلسان الحبش أى الجبل) ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على^١ ملكى ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه . قالت : فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جارحتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة .

^١ - كان قد نازعه رجل فى ملكه ، فدعا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشى با النصر على عدوه والتمكين له فى البلاد ، فاستجاب الله دعوتهم ، وانتصر النجاشى ، وأهلك الله عدوه ، وقالت السيدة أم سلمة عندما علم الصحابة بنصره ، فوالله ما علمتنا فرحنا فحة قط مثلها .

تعقيب :

أقول : رأيت أيها القارئ العزيز مما قصته علينا السيدة أم سلمة رضی الله عنها كيف اضطرع الحق و الباطل ، وكيف استمسك سادتنا المهاجرون بالحق ، وكيف تحملوا في سبيله من الأذى ، فإن الكفار لم يكتفوا بإيذائهم في مكة ، بل أرسلوا من ورائهم من يكيد لهم بالحبشة عند النجاشي ، ولكن الله أحبط كيدهم ، فكان النجاشي باهراً في موقفه ، عظيماً في مسلكه ، كريماً في دينه وكرمه وخلقه ، عفيفاً ألبياً ، صادقاً وفاقاً ، حمى نزيله ، و أكرم جاره ، وانتصر للحق وكان في كل ذلك على نور من ربه ، فلا تعجب بعد ذلك أن يكون وكيلاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في زواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان التي تنصر زوجها في الحبشة بعد أن كان مسلمً ، ففارقته بعد أن نصحت له ، وخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتنها أبوها أبو سفيان بن حرب لو عادت إليه بمكة (وكان حينئذ على كفره) وهي مسلمة ، فتزوجها ، ووكل النجاشي في العقد عليها ، فحمى صلى الله عليه وسلم عقيدتها بهذا الزواج الذي أسعدها الله به في الدنيا و الآخرة .

كذلك لا تعجب إذا علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إلى أصحابه بالمدينة المنورة النجاشي حين أعلمه الله بموته (في رجب سنة تسع من الهجرة) ، و صلى صلاة الغائب في البقيع ، وكانت تلك أول صلاة صليت في الإسلام على الغائب ، رفع إليه سريره وهو بالحبشة حتى رآه وهو بالمدينة ، فصلى عليه ، واستغفر له ، وتكلم المنافقون ، فقالوا : انظروا إلى هذا ، يصلى على علق نصراني لم يراه قط ، فأنزل الله تعالى في سورة آل عمران : (و إن من أهل الكتاب من يؤمن بالله و ما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) .

قال ابن إسحق :

وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما مات النجاشى كان يُتحدَّث أنه لا يزال يرى على قبره نور .

مناقب جعفر وابنه عبد الله :

وأقول : أرأيت كيف تكلم سيدنا جعفر بن أبى طالب عن الإسلام ودعوته ، وكيف وصف ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد إسلامهم ، وكيف صرح النجاشى بعقيدة المسلمين فى غير مجاملة أو مواربة ، إرضاء لله ورسوله كائنة ما كانت العاقبة ، ولقد خاف الله من فوقه ، فأمنهم الله جميعاً بما قال صادقاً ، فعاشوا كما قالت سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها خير دار مع خير جار ، أما فصاحة ما تكلم به سيدنا جعفر وجزالته فلا تعجب لها ، فإنه من رؤساء بنى هاشم وساداتهم ، وبنو هاشم كما تعلم من فصاحتهم جميعاً إنما يعرفون من بحر الفيض الذى ليس له قرار ، وهم كما وصفهم الجاحظ ملح الأرض (أى لا تصلح إلا بهم كما لا يصلح الطعام إلا بالملح) وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

إنه والله جعفر الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه وقال : لست أدرى بأيهما أنا أشد فرحاً ، بلقاء جعفر أم بفتح خيبر ، وكان صلى الله عليه وسلم قد انتصر على اليهود فى خيبر حين لقيه جعفر عائداً من الحبشة .

وهو والله جعفر الذى فدى الإسلام بروحه ، فبذلها دفاعاً عنه فى مؤتة ، وكان يومئذ صاحب اللواء بعد أن استشهد زيد بن حارثة ، فلما ضرب الأعداء جعفرأً وقطعوا يمينه ، أمسك الراية بيساره ، فقطعوا بيساره ، فأمسك الراية بين ذراعيه بعد أن قطعوا يديه حتى أخذها عبد الله بن رواحة ، فاستشهد كما استشهد من قبله زيد و جعفر ، ألا رضى الله عن أسود الشرى وسيوف الإسلام ، فكم نحن مدينون لهؤلاء الأبطال فى الحفاظ على دين الإسلام حتى وصل إلينا بسلام .

وهو والله جعفر الذى بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته السيدة أسماء بنت عميس رضى الله عنها بأن الله أبدله بيديه المقطوعتين جناحين يطير بهما فى الجنة ، فسمى " ذا الجناحين " ، كما سمي " الطيار " ، إنه آمن بالله أيمان الصادقين ، ومات فى سبيله ميتة الصديقين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاعتزاز به : " أما جعفر فلا بواكى له " ، وهو أبو عبد الله بن جعفر الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " اللهم بارك لعبد الله فى صفقة يمينه " وكان عبد الله لسخائه يسمى قطب السخاء ، وقد تغنى بسخائه الشعراء فقالوا :

إنك يا بن جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارق إذا أتى
ورب ضيف طرق الحى سرى صادف زاداً وحديثاً ما انتهى

كما قالوا فيه :

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا
وعبد الله هو زوج السيدة زينب بنت عمه الإمام على بن أبى طالب ، التى بوركت بلادنا بمشهدها الأنور ، وهو أول مولود ولد للمسلمين فى الحبشة ، وأمه هى السيدة أسماء بنت عميس ، التى افتخر عليها سيدنا عمر بالهجرة إلى المدينة المنورة حين كانت بالحبشة ، فقالت له : لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم ، وكنا فى بلاد غريبة نعانى ما نعانى من ألم الجوع والعطش ، ثم شكته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : وماذا قلت له ، فقالت : قلت له لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم ... فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مطيباً خاطرها : " له ولأصحابه هجرة ، ولكم أهل السفينة هجرتان " .
إنها والله تضحيات عزيزة ، ولكنهم أرخصوها فى سبيل الله حتى تغنى حاديهم وهم مهاجرون إلى الحبشة :

الأهل و الأوطان فراقهم صعب
لكنه الإيمان فداؤه القلب
والروح والأبدان فليقبل الرب
فليقبل الرب

قال ابن إسحق :

ولما لم ينالوا من مهاجري الحبشة ما أرادوا ، وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلاً ذا شكيمة ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبجمزة حتى عازوا (غلبوا) قريشاً ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

وهو عمر الذي قال فيه ابن مسعود رضى الله عنهما : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، فليستمع القارئ الكريم إلى حديث عجب في إسلامه رضى الله عنه ، ليرى أثر الإسلام فيه ، وأثر عمر في الإسلام .

إسلام عمر :

روى ابن إسحق في إسلام عمر روايات مختلفة ، ومما روى بسنده عن عطاء ومجاهد أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول :

" كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، أحبها وأسّر بها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال بالحزورة (سوق مكة) ، قال فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك ، قال فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت لو أنى جئت فلاناً الخمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلى أجد عنده خمرأ فأشرب منها .

" قال : فخرجت فجئته فلم أجد ، قال : فقلت لو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ، قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى ، فقال : فقلت حين رأيته ، والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، قال : فقلت لو دنوت منه لأروعه ، فجئت من قبل الحجر ، فدخلت تحت ثيابها (الكعبة) فجعلت أمشى رويداً ، ورسول الله صلى الله

عليه وسلم قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبلة ، ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة .

" قال : فلما سمعت القرآن رِقّ له قلبى ، فبكيت ودخلت فى الإسلام ، فلم أزل قائماً فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع (يقطع) المسعى ، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب ، وبين دار ابن أزهري ، ثم دار الأحنس حتى يدخل بيته .

وكان مسكنه صلى الله عليه وسلم فى الدار الرقطاء (التى فيها ألوان) ، قال عمر : فتبعته حتى إذا دخل دار عباس ودار ابن أزهري أدركته ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسى عرفنى ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى إنما تبعته لأوذيته ، فنهمنى (زجرنى) ثم قال : ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة ؟

" قال : قلت جئت لأؤمن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله : فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد هداك الله يا عمر ، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

رواية أخرى فى إسلام عمر رضى الله عنه :

وفى الروض الأنف رواية أخرى ، جاء فيها :

ذكر ابن سنجر قال : حدثنا أبو المغيرة قال بسنده : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن : قال : قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : (إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون) قال : قلت : كاهن علم ما فى نفسى ، فقال : (ولا بقول

كاهنٍ قليلاً ما تذكرون) إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام فى قلبى كما وقع ، ويذكرون
أن عمر قال شعراً حين أسلم :

الحمد لله نى المن الذى وجبت له علينا أياذ ماله غير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا صدق الحديث نبى عنده الخير
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ربه عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاہدة والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها فكاد تسبقنى من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبى صدق أتى بالحق من ثقة وافى الأمانة ما فى عوده ضرر

أقول : ولعل هذه الأبيات ، كما يظهر منها ، تشير إلى رواية أخرى فى إسلامه رضى الله
عنه غير الروایتين السابقتين ، وقد حدّث بها ابن إسحق ، وقال فيها :

وكان إسلام عمر فيما بلغنى ، أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد ابن زيد ،
وكانت أسلمت وأسلم زوجها سعيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد
الله من بنى عدى قد أسلم : وكان يستخفى بإسلامه خوفاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت¹
يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوحشاً سيفه يريد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ،
وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة
بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعلّى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله
عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ - خباب بن الأرت من السابقين الأولين فى الإسلام ، الذين صبروا على ما أوتوا ، وقد سألته أمير المؤمنين عمر عما لقى فى ذات
الله ، فكشف ظهره ، فقال سيدنا عمر : ما رأيت كاليوم ، فقال : يا أمير المؤمنين : لقد أرقدت لى النار فما أطفأها إلا شحمى .

بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقية نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرّق أمر قريش ، وسقّه أحلامهما ، وعاب دينها ، وسب آلها ، فأقتله .

" فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً !! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتي ؟ قال خنتك (صهرك) وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما .

" قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه¹ ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (صوت كلام لا يفهم) التى سمعت ؟ قال له : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها .

" فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى (رجع) وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسه إلا طاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها ،

¹ - زوج أخته .

فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر .

" فقال له عند ذلك عمر : فدلتنى يا خباب على محمد حتى آتته فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوحشه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوحشاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوحشاً بالسيف ، فقال حمزة ابن عبد المطلب فأذن له ، فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيدن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته (موضع شد الإزار أى وسطه) أو بمجمع رداءه ، ثم جبذه به جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، قال فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم " .

قال ابن إسحق :

فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتصفون بهما من عدوهم ، فهذا الحديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم " .

تعقيب :

أقول : وأنا أقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم عمر : " الله أكبر " فقد جاءه عمر المعروف في مكة بشكيمته وشراسته وفتوته طائعا مختاراً حين أشرفت عليه أنوار القرآن الكريم ، فامحت بإشراقها ظلمات الجهالة ، وتحول عمر من الضد إلى الضد ، فلان بعد قسوة ، وصاحب بعد عداوة ، وتاب بعد ذنوب ، واستقام بعد عوج ، ورق بعد شدة ، وراق بعد كدورة ، وصار جيشاً في جنب الله بعد أن كان جيشاً في حزب الشيطان .

" الله أكبر " فقد تحول عمر بقدرة الله من حال إلى حال ، وسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء ، سبحانه من إله فعّال يقول للشيء كن فيكون .

" الله أكبر " فقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنصره وبالمؤمنين ، وقد سعد عمر بالإسلام ، وسعد الأسلام بعمر ، وقد كتب الله الإسلام لعمر قبل أن يكون من عمر عمل صالح ، فهو قضاؤه الذى قضاه بإيمان عمر ، وحقاً ما قال العارفون : ليس بالإيمان ما يتزين به العبد من الأقوال والأفعال ولكنه جرى السعادة فى سوابق الأزل .

وإنى لا أقلل بذلك من قيمة العمل الصالح ، وكيف لى بذلك والعمل ولاء وامتنال للآمر به سبحانه (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) كما هو إقرار بفضل الله ورمز لشكره على ما أولاه : (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) .

وقد سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل فقال له : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قول الله تعالى : (وقليل من عبادى الشكور) ، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر !! ويرى القارىء الكريم من ذلك أن الرجل سأل ربه أن

يوقفه للعمل الصالح الذى يقربه إلى الله عز وجل ، فيكون من الشاكرين وهم قليل
وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يقوم من الليل حتى تتفطر (تتشقق) قدماه ، فقالت عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد
غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً .
ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره : فظاهر القرآن والسنة أن يكون الشكر بعمل الأبدان
دون الاقتصار على عمل اللسان ، فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل
اللسان .

أقول : وهناك شكر بالجنان ، وهو أن يوقن العبد بقلبه أن كل نعمة جرت أو تجرى عليه
فإنما تجرى عليه فإنما هى من فضل الله تعالى وعطائه ، كما قال تعالى فى سورة النحل : (وما
بكم من نعمة فمن الله) ، اللهم اجعلنا من الشاكرين بالأركان وباللسان وبالجنان يا رب
العالمين .

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وأحينا عليه ، وأممتنا عليه ، وابعثنا عليه ،
مع الآمين من الفرع الأكبر يوم القيامة ، ووقفنا للعمل الصالح الذى يرضيك عنا برحمتك يا
أرحم الراحمين ، وبجودك يا أجود الأجودين ، سبحانه لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت
على نفسك ، يا من قلت فى سورة الحجرات وقولك الحق : (واعلموا أن فيكم رسول الله لو
يطيعكم فى كثيرٍ من الأمرٍ لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم
الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلاً من الله ونعمةً والله عليم حكيم) .

ونعود لما كنا فيه :

الصحيفة الظالمة :

قال ابن إسحق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً

أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو و حمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل - اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنوهاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه ، واجتمعوا إليه ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس .

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمماً ثم يسبونه ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول : ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش ، يسبون ويهجون مذمماً وأنا محمد ، أقول ما أصبرك يا سيدي يا رسول الله ، وما أحلمك ، وما أُرشدك .
الكفار يقترحون :

واعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة فيما بلغنى الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأممية بن خلف ، والعاصي بن وائل السهمي ، وكانوا ذوى أسنان في قومهم ، فقالوا: يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : (قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين) .

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما كانوا يتحدثون به من إسلام أهل مكة كان باطلاً ، فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفياً ، فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ٣٣ رجلاً ، وكان ممن دخل منهم بجوار ، عثمان بن مظعون الجمحي ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة .
عثمان بن مظعون :

قال ابن إسحق يحكى موقفاً نبيلاً رائعاً من مواقف عثمان بن مظعون رضى الله عنه : لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غدوى ورواحى آمنأ بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : يا بن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى ، قال لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره ، قال : فانطلق إلى المسجد ، فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية .

قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان ، قد جاء يرد على جوارى ، قال : صدق ، وقد وجدته وفيأ كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ، ثم انصرف عثمان ولييد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لييد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

قال عثمان : صدقت

قال لييد :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ، قال لييد : معشر قريش ، والله ما كان

يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن

هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شرى (أى زاد) أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فحضرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : أما والله يا بن أخی إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة .

قال : يقول عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإنى لفي جوار من هو أعز منك وأقدر منك يا أبا عبد شمس ، فقال الوليد : هلم يا ابن أخی إن شئت فعد إلى جوارك ، فقال : لا .

أقول : فما أعظم هذه النفوس المؤمنة الأبية ، فقد اعتز عثمان بن مظعون بربه واحتمى فيه ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . وكيف لا يفعل وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من سلفنا الصالح ، وذلك حين دفن إلى جواره في البقيع ابنه الطفل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، الذي كان له من مارية عليها السلام ، وقال يخاطب وليده : الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ، وكان عثمان رضى الله عنه أول من دفن في البقيع من المهاجرين الكرام ، رضى الله عنهم وعن الأنصار أجمعين وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين .

الصديق يرد الجوار :

وانظر إلى موقف الكفار من سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد كان له مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، وكان رضى الله عنه إذا قرأ القرآن استبكى ، قالت السيدة عائشة فكان يقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، قالت : فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة - وكان قد أجاره - فقالوا له : يا بن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل لتؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فآته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء .

فمشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى ، قال : رددته عليك ، فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ،

إن ابن قحافة قد ردّ على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

قال ابن إسحق فحدثوني أن سفيهاً من سفهاء قريش لقي أبا بكر وهو عامد إلى الكعبة ، فحنا على رأسه تراباً ، فمرّ أبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل ، فقال له أبو بكر ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، قال وهو يقول : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك !

معجزة فى شأن الصحيفة الظالمة :

وقد مر عليك خبر الصحيفة الظالمة التى تعاهد فيه الكفار على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب وأودعوها الكعبة ، وإليك ما كان من شأنها بعد ذلك :
فقد جهد المسلمون من ضيق الحصار حتى أكلوا ورق الشجر ، ولقد قال سيدنا سعد بن أبى وقاص : جعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعتة فى فمى وبلغته ، وما أدرى ما هو إلى الآن .

وقد كشف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الأرضة أكلت الصحيفة الظالمة ، فقال لعنه أبى طالب : يا عم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهاوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخى ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شراً .

ولكن قام رجال منهم فعملوا على نقض الصحيفة وقال قائلهم : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق تلك الصحيفة القاطعة الظالمة ، وقام المطعم بن عدى ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا " باسمك اللهم " كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش حين منعه الله منهم ، يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المسجد ، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق !! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله به دوننا .

فأنزل الله تعالى في سورة الأنعام : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى ، كثيراً ما يجلس عند المروة إلى بيعة غلام نصراني يقال له جبر ، عبد لبنى الحضرمي ، فكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم في سورة النحل : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلّمه بشر لسان الذي يلحدون^١ إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) .

^١ - يلحدون أى يميلون إليه ، والإلحاد هو الميل عن الحق .

وكان العاصي بن وائل السهمي فيما بلغني إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبتّر لا عقب له ، فأنزل الله في ذلك سورة الكوثر : (إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك^١ هو الأبتّر) . والكوثر الخير الكثير ، وقيل نهر كبير في الجنة ، من شرب منه لا يظمأ أبداً .

موت السيدة خديجة وأبي طالب :

قال ابن إسحق :

" ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب ماتا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموت خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام وبموت عمه أبي طالب ، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصرراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب .

مفاوضة الكفار :

قال ابن إسحق :

ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ على ابن أخيه وليعطيه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

قال : فمشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأممية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب : إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك .

^١ - شانئك : مبغضك .

فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال :

يا بن أخي هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، قال : فقال أبو جهل : نعم ، وأبيك ، وعشر كلمات ، قال : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، قال فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا :

أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرك لعجب ! قال : ثم قال بعضهم لبعض ، إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، قال : ثم تفرقوا ، وأنزل الله فى سورة ص : (ص والقرآن ذى الذكر * بل الذين كفروا فى عزّة وشقاقٍ * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناصٍ * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشىء عجاب * وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشىء يراد * ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) .

خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف :
قال ابن إسحق :

ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياته ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم من الله عز وجل ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم من نصرته على الإسلام ،

^١ - يعنون النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

والقيام معه على من خالفه من قومه ، فردوا عليه رداً قبيحاً ، فقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى .

وقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، فتحركت له رحمهما وأرسلا له قطفاً من العنب مع غلام نصرانى لهما يقال له عداس .

سعادة عداس :

فأقبل عداس بطبق فيه القطف ، ووضع بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ، ثم أكل .

فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قربة الرجل الصالح يونس بن متى ، فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبي ، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالوا له : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالوا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه ، أقول : وقد أخلص عداس دينه لله ، فساق الله له السعادة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، والله العزة ولسوله وللمؤمنين .

تضرع نبوى :

وقد توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه بالشكوى ، ودعا دعاءه المشهور فقال وهو بالطائف :

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني (أى يستقبلني بوجه كراهه) ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك " .

قال ابن إسحق :

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه ووفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبيّ مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به .

وقد فشا الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ، ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كيف شاء الله سبحانه ليديه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد ، وكان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص لمن آمن بالرسالة وصدق بها على يقين - أقول وستأتيك قصة الإسراء والمعراج كاملة فى باب لاحق من أبواب الكتاب إن شاء الله.

اللقاء الأول مع الأنصار :

قال ابن إسحق :

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ،

وأجاز مواعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه
النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم .
فبينما هو عند العقبة (فى منى) لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم :
من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا
تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى !

" فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم
القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ،
وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ،
فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه
قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم
لبعض : يا قوم ، تعلمون والله أنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ،
فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا :
إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ،
فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أحببناك إليه من هذا الدين ، فإن
يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

" قال فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اللقاء الثانى بالأنصار :

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة الأولى ، فبايعوه على بيعة النساء¹ ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب .

أول سفير فى الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين .

أقول ، فكان سيدنا مصعب بن عمير ، رضى الله عنه أول سفير فى الإسلام ، وقد أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما ، وهما يومئذ كبيرى بنى عبد الأشهل وتبعهما قومهما .

اللقاء الثالث بالأنصار :

ثم إن مصعب بن عمير رضى الله عنه رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من مسلمى الأنصار إلى موسم الحج مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فواعد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى أوسط أيام التشريق ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين . يقول كعب بن مالك رضى الله عنه : فمنا تلك الليلة مع قومنا فى

¹ - وهى المذكورة فى قوله تعالى فى سورة الممتحنة : (يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) .

رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا نتسلل القطا مستخفين (القطا طائر صغير) حتى اجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يا معشر الخزرج ، خزرجها وأوسها ، إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعته فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحقوكم بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

بيعة العقبة :

قالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، قال : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معمر رضى الله عنه بيده وقال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح) ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال حبالا وإننا قاطعوها - يعنى أهل مكة واليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم (أى ما هدمتم من الدماء هدمناه) أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم .

أقول : وجاء فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : معاذ الله ، المحيا محياكم
والممات ممكاتكم ، ففرحوا وقالوا : هذه أيدينا فخذ لربك ولنفسك ما أحببت ، فبايعهم وقال :
أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا تسعة من
الخرج وثلاثة من الأوس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء : أنتم على
قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي - يعنى
المسلمين - قالوا : نعم .

الباب الرابع

الإسراء والمعراج

شرف الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقال تعالى فى سورة الإسراء منوهاً بقدرته على كل ممكن ، وبحكمته فى ذلك الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) ، وكان الإسراء قبل الهجرة إلى المدينة بسنة . ولا شك أن ما رآه صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى صرف عنه الآلام الشداد التى تتابعت وصبر عليها ، من موت السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، إلى موت عمه أبى طالب ، إلى عداوة قومه ، إلى خذلان أهل الطائف الذين كان يأمل فى نصرتهم على أهل مكة .

وقد جاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب بعد صلاة العشاء ، فأسرى به ورجع من ليلته ، وقصّ القصة عليها ، وقال : مثل لى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً ، فتعجبوا منه لاستحاله فى ظنهم وارتد ناس ممن آمن به ، وسعى رجال إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقال : إن كان لقد صدق ، فقالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال : إني لأصدقه على أبعد من ذلك ، فسمى " الصديق " واستنعتة صلى الله عليه وسلم طائفة ممن سافروا إلى بيت المقدس ، فجلاه الله له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها

جمل أورك^١ ، فخرجوا يشهدون إلى الثنية ، فصادفوا العير كما أخبرهم ، ثم لم يؤمنوا ، وقالوا ما هذا إلا سحر مبين .

الإسراء بالجسد :

ويقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره : دل قوله تعالى (بعبده) على أن الإسراء كان بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العبد اسم للجسد والروح ، قال تعالى : (أرايت الذى ينهى عبداً إذا صلى) ، وقال القاضى عياض : وهو الحق ، وعليه تدل الآية نصاً ، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تؤذن بتأويل ، إذ لو كان مناماً لقال : سبحان الذى أسرى بروح عبده ولم يقل " بعبده " ، والعبد حقيقة هو الروح والجسد ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) أى ما عدل عن رؤية ما أمر برؤيته من عجائب الملكوت ، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة تورث صدقه ، وأيضاً لو كان مناماً لما استبعده الكفار ولا كذبوه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلموا وافتتنوا به ، لبعده عن العادة .

وقد روى البخارى رضى الله عنه فى باب الإسراء فى صحيحه ، وسعيد بن منصور فى سننه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس) هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، زاد سعيد وليست رؤيا منام ، وقال الحافظ بن حجر رضى الله عنه : إضافة الرؤيا للعين للاحتراز عن رؤيا القلب وقد أثبت الله رؤيا القلب فى القرآن بقوله تعالى : (ما كذب الفؤاد وما رأى) ، وأثبت رؤيا العين بقوله تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) وجزم بما قاله ابن عباس إنها رؤيا عين ليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد وهو

^١ - الجمل الأورق لونه كلون الرماد .

الصحيح . أقول والآيتان السابقتان خاصتان بمعراجه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وسيأتيك التفصيل .

وجاء في كتاب " جواهر البحار " لسيدى الشيخ النبهانى رضى الله عنه ما رد به سيدى الحافظ الشامى (تلميذ الإمام السيوطى) على من أنكروا الإسراء والمعراج بالجسد ، وخلصته :

١- إن الذى عنده علم من الكتاب أحضر كرسي بلقيس من أقصى اليمن إلى أرض الشام فى مقدار لمح البصر .

٢- إنه إذا استبعدوا صعود الجسم الكثيف ، استبعدوا بالمثل نزول الجسم اللطيف الروحانى من العرش إلى مركز العالم ، فإن كان القول بمعراج النبى صلى الله عليه وسلم فى الليلة الواحدة ممتنعاً فى القبول ، كان القول بنزول جبريل عليه السلام من العرش إلى مكة فى اللحظة الواحدة ممتنعاً ، ولو حكمتنا بهذا الأمتناع كان ذلك طعناً فى نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقول بثبوت المعراج فرع عن تسليم جواز النبوة ، فيلزم القائل بامتناع حصول هذه الحركة امتناع نزول جبريل عليه السلام ، ولما كان ذلك باطلاً كان ما ذكره باطلاً ، وقد قال تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك إلا فتنة للناس) ، فالذين آمنوا ازدادوا إيماناً بالغيب ، أما الذين كفروا فقد أراهم النبى صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر فقالوا : هذا سحر مستمر .

٣- إنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء فى بيت المقدس وأمهم على الهيئة البشرية ، ثم لما وصل إلى الملكوت العلوى لم يجدهم على تلك الحالة التى شاهدتهم عليها فى الأرض ، وإنما هم على صفات روحانية شكل الله لهم أشكالاً لائقة بالملكوت العلوى تكريماً له صلى الله عليه وسلم ، وتعظيماً للقدرة الإلهية ، حيث شاهدتهم تلك الساعة فى الأرض ، ثم رأهم فى منازلهم فى السماء ، فلذلك سأل عنهم استيثاقاً لا تعجباً ، فإنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله

تعالى الذى أصعده إلى هذا المكان فى لحظة ، قادر على نقلهم إلى السموات فى أسرع من طرفة عين ، سبحانه وتعالى .

وما أروع ما يقوله الحافظ رضى الله عنه :

لا تتوهم مما تسمعه فى قصة المعراج من الصعود والهبوط أن بين العبد وربّه مسافة ، فإن ذلك كفر ، نعوذ بالله من ذلك ، وإنما هذا الصعود والهبوط بالنسبة إلى العبد لا إلى الرب ، والنبى صلى الله عليه وسلم مع انتهائه ليلة الإسراء إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى ، لم يجاوز مقام العبودية ، وكان سواء هو ونبى الله يونس بن متى عليه السلام إذ التقمه الحوت ، وذهب به فى البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فى مباينة الله تعالى خلقه وعدم الجهة والتحيز والحد والإحاطة .

ويقول كذلك رضى الله عنه ، نسبة الدنو والقرب إليه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى) كناية عن جزيل فوائده إليه وجميل عوائده عليه . ويقول الواسطى رضى الله عنه : من توهم أنه سبحانه وتعالى بنفسه دنا ، فقد جعل ثمّ مسافة ولا مسافة لاستحالتها ، وقوله تعالى : (فإنى قريب) تمثيل لكمال علمه وإجابته ، لتعالیه عن القرب مكاناً ، ويتأول فى الدنو ما يتأول فى قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه البخارى حكاية عن ربه تبارك وتعالى : " من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً " وهو تمثيل يقرب المعنى للأفهام ، أى من تقرب إلى بطاعتي ، جازيته بأضعاف ما تقرب إلى ، " ومن أتانى يمشى أتيته هرولة " أى سبقته بجرائه ، فهو قرب بالأجابة والقبول وإتيان بالإحسان ، وقد سلك به طريق المشاكلة فسماه تقريباً .

ويقول العارف بالله سيدى الشيخ إسماعيل حقى فى تفسيره (روح البيان) : " وكان العبد فى المكان والرب فى اللامكان ، وهذا غاية فى كمال تنزيهه وعظيم لطفه ، إذ تتجلى نفسه لقلب عبده وهو فى اللامكان والعبد فى مكان ، والعقل ههنا مضمحل

والعلم متلاشٍ ، لأن العقول عاجزة ، والأوهام متحيرة ، والقلوب والهة ، والأرواح حائرة ، والأسرار فانية " .

وأضاف رضى الله عنه : إذا علمت ذلك ، فالمراد بترقيه صلى الله عليه وسلم وقطع هذه المسافات ، إظهار مكانته عند أهل السموات ، وأنه أفضل المخلوقات - ويقوى هذا المراد كونه تعالى أركبه البراق ، ونصب له المعراج ، وجعله إماماً للنبيين والملائكة ، مع أنه تعالى قادر على أن يرفعه بدون البراق والمعراج .
ويقول أيضاً رضى الله عنه :

والحكمة فى تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء ، أنه صلى الله عليه وسلم لما عرج به تلك الليلة ، رأى تعبد الملائكة ، وأن منهم القائم فلا يقعد ، والراكع فلا يسجد ، والساجد فلا يقعد ، فجمع الله له ولأئمة تلك العبادات كلها فى ركعة واحدة ، يصلحها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص .

وفى نفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه عند قوله تعالى : (والنجم إذا هوى) قال الإمام جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم (والنجم) يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم (إذا هوى) إذا نزل من السماء ليلة المعراج .

وعند قوله تعالى : (ما كذب الفؤاد ما رأى) : روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وعند قوله تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) قال ابن عباس : ما عدل يميناً ولا شمال ولا تجاوز الحد الذى رأى ، وقيل لم يمد بصره إلى غيره ما رأى من الآيات ، وهذا وصف أدب للنبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك المقام ، إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً . وعند قوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قيل هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه ودليله (لنريه من آياتنا) .

أقول : ولست أدرى كيف يستبعد مؤمن بالله قدرته تعالى على خرق النواميس الطبيعیه التى تقيدنا ولا نقيده سبحانه ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول فى نهج البردة :

ركوبة لك من عز ومن شرف لا فى الجياد ولا فى الأيئق الرسم
مشيئة الخالق البارى وصنعتة وقدرة الله فوق الشك والتهم

إن الإيمان بالغيب يستتبع الإيمان بالمعجزات ومنها الإسراء والمعراج ، والإيمان من كسب القلوب والأرواح ، فلا يقيدته العقل بأفقه المحدود الذى لا يتعدى عالم المحسوسات ، وإذا لم نسلم إلا بالمحسوسات أنكرنا الله ، وما ينبى على الإيمان به سبحانه من سائر المعتقدات من الرسل والملائكة ، والبعث بعد الموت ، والجنة ، والنار ، وكنا فى هذا الضلال متشبهين بنى إسرائيل الذين حكى الله عنهم فى سورة البقرة : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) .

ويعجبنى ما يقوله السادة الصوفية حين يقولون : العقل يجول حول الكون ، فإذا نظر إلى المكون ذاب ، وحين يقولون : العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عرّف ، وليس بألة للإشراف على الربوبية .

إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها آيات بينات ، فهو الأمى الذى علم العلماء ، وهو الذى نشأ يتيماً فكفل الناس أجمعين ، وهو صاحب القرآن الذى بقى من بعده دون سائر ما أيد الله به الرسل الكرام من المعجزات ، وهو الذى ظهر برسالته أخيراً فتقدم على الرسل الأولى ، فكان كالعنوان يكتب آخرًا ويقرأ أولاً ، حاربه أعداؤه سفهاً فانكسروا ، وأيده أصحابه إيماناً فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وتركهم قلة لا يجاوزن المائة ألف إلا قليلاً فورثوا من بعدهم الإيمان فدان بالإسلام الملايين والبلايين على خلاف ما وقع للأديان السابقة من تراجع واضمحلال وتغيير وتبديل .

إن الله تعالى قص علينا من آياته قصة أهل الكهف ، فقال سبحانه : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) ، فى حين أنه قال أيضاً (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) . والذى قدر على إحيائهم دون طعام أو شراب وقال فى رقاهم :

(وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) ، ثم طوى لهم الوقت الطويل إلى أن ظنوه يوماً أو بعض يوم خلافاً للعادة ، يقدر على طي المسافات لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج ، وأين أصحاب أهل الكهف من ذلك الرسول الأعظم ، بل أين منه النبيون والمرسلون ، صلوات الله عليهم ، الذين دانوا بزعامته عليهم .

الإيمان كل لا يتجزأ ، فإما إيمان لا يلابسه شك ، وإما زعزعة لا يلابسها يقين ، (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، نعوذ بالله من الشك والنفاق وسوء الأخلاق وشتات الأمر ، اللهم توفنا يا إلهى بكرمك مسلمين مؤمنين موحدين ، وألحقنا بالصالحين آمين .

وإليك تفصيل قصة الإسراء والمعراج لتزداد بها إيماناً مع إيمانك و يقيناً مع يقينك .

تفصيل قصة الإسراء والمعراج :

وهاك قصة الإسراء والمعراج مفصلة كما رتبها من أقوال الصحابة (وقد رواها أكثر من ٢٦ صحابياً) بعد أن أدخل بعضها فى بعض سيدى الحافظ الشامى المتوفى سنة ٩٤٢ هجرية ، وهو صاحب السيرة الشامية ، وقد استحسنت نقلها لما تتضمنه من دعائم التربية فى الإيمان والسلوك ، فضلا عن أن الإسراء والمعراج مما خص به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التكريم الشريف ، ورضى الله عن سيدى العرف بالله أحمد الحلوانى الخليجى إذ يقول فى ذلك التكريم الخاص :

فالعين فلتنعم بهاتيك النعم	بالعين قد شاهدته متفرداً
مخبوءة لك يا مقرب فى القدم	أكرومة لك لا تضاهى رفعة
ألا هنيئاً ذلك الشرف الأتم	خاطبته إذ لا حجاب لدى الخطاب
والمنعم الأعلى بذاك هو الحكم	ومقام أو أدنى بذلك شاهد

قال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه :

بينما النبى صلى الله عليه وسلم عند البيت فى الحجر (أى حجر إسماعيل الملاصق للكعبة المشرفة) إذ أتاه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرههم حتى كانت ليلة أخرى فقال الأول : هو هو ؟ فقال الأوسط : نعم ، وقال الآخر : خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين ، فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم ، فاستقلوه على ظهره فتولاه منهم جبريل ، وفى رواية : فرج سقف بيتى ، فنزل جبريل فشق من ثغره نحره (الموضع المنخفض بين الترقوتين) إلى أسفل بطنه ، ثم قال جبريل لميكائيل ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح صدره ، فاستخرج قلبه ، فغسله ثلاث مرات ، ونزع ما كان فيه من أذى ، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسوت من ماء زمزم ، ثم أتى بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدره ، وملاه وحلماً ويقيناً وإسلاماً ، ثم أطبقه ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة .

ثم أتى بالبراق مسرجاً ملجماً ، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، مضطرب الأذنين (أى طويلهما) إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه ، وإذا هبط ارتفعت يداه ، له جناحان فى فخديه يحفز (يحث) بهما رجليه ، فاستصعب عليه فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال : ألا تستحى يا براق ؟ فوالله ماركبك ، وفى رواية عبد الله " قط " أكرم على الله منه ، فاستحيا حتى ارفض عرقاً - (أى سال) وقرّ حتى ركبته ، فانطلق به جبريل ، فكان الآخذ بركابه جبريل وبزمام البراق ميكائيل^٢ فساروا حتى بلغوا أرضاً ذات نخل فقال له : انزل فصلّ هنا ، ففعل ، ثم ركب فقال : أتدرى أين صليت ؟ قال : لا ، قال : صليت بطيبة^٣ وإليها المهاجر .

^١ - وفى رواية : وكانت الأنبياء تركبها قبلى ، وقال أنس بن مالك كانت الأنبياء تركبها قبلى . وقال سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن : وهى دابة إبراهيم التى كان يزور عليها البيت الحرام .

^٢ - وفى رواية : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره .

^٣ - طيبة هى المدينة المنورة .

فانطلق البراق يهوى (يسرع) به ، يضع حافره حيث أدرك طرفه ، فقال له جبريل : انزل فصلًا ، ففعل ثم ركب ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ قال : لا ، قال : صليت بطور سيناء (جبل بيت المقدس) حيث كلم الله موسى .

ثم بلغ أرضاً بدت له قصور ، فقال له جبريل : انزل فصلًا ، ففعل ، ثم ركب وانطلق البراق يهوى به ، فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟ قال : لا ، قال : صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى .

فبينما هو يسير على البراق إذ رأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رآه ، فقال له جبريل : ألا أعلمك كلمات تقولهن إذ قلتهم انطفئت شعلته وخرّ لفيه ؟ فقال رسول الله : بلى ، فقال جبريل : قل أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات (أى الكاملة فلا يعترها نقص) التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ (أى خلق) فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق (أى حوادث) الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن ، فانكبت لفيه وانطفئت شعلته فساروا .

وأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال يا جبريل ما هذا ؟ فقال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنه بتسعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه .

ووجد ريحاً طيبة فقال : يا جبريل ، ما هذه الرائحة ؟ قال : هذه رائحة ماشطة فرعون وأولادها ، بينما هى تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط ، فقالت : باسم الله تعس فرعون ، فقالت ابنة فرعون : أو لك رب غير أبى ؟ قالت : نعم ربى وربك الله ، وكان للمرأة أبناء وزوج ، فأرسل إليهم ، فراود (أى راجع) المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فقال : إنى قاتلكما ، فقال : إحسان منك إلينا إن قتلنا أن تجعلنا فى بيت ، وفى رواية : قال : إن لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قالت : تجمع عظامى بعظام ولدى فتدفننا جميعاً ، قال : ذاك لك بمالك علينا من الحق ، فأمر ببقرة من نحاس ، فأحميت ، ثم أمر بها لتلقى هى

وأولادها ، فألقوا واحداً بعد واحد حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم ، فقال : يا أمه : قعى ولا تقاعسى (أى لا تتأخرى) فإنك على الحق ، فألقيت هى وأولادها ، قال : وتكلم أربعة وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم .

ثم أتى على قوم ترضخ (أى تكسر) رءوسهم كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر (أى لا يسكن) عنهم من ذلك شيء ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين تتناقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ، ويأكلون الضريع (أى الشوك اليابس) والزقوم (ثمر شجر كرية الطعم) ورضف جهنم (أى الحجارة المحمأة) وحجارتها فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئاً .

ثم أتى قوماً بين أيديهم لحم نضيج فى قدور ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى الصباح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ولا شيء إلا خرقتة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، وتلا (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) .

ورأى رجلاً يسبح فى نهر من دم يلحم الحجارة ، فقال : من هذا ؟ فقال : هذا آكل الربا . ثم أتى على رجل قد جمع حزمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك يكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها ويريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة ، خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون .

ومر يقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم .

وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج فلا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردّها .

وأتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة وريح المسك وسمع صوتاً ، فقال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا صوت الجنة تقول يا رب آتني ما وعدتني فقد كثرت غرفى وإستبرقى وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلئى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى ومراكبى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى ، قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألتنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل على كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، قالت : قد رضيت .

وأتى على واد ، فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يا رب آتني ما وعدتني فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى ، وقد بعد قعرى واشتد حرى فآتني ما وعدتني ، فقال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ، لا رؤيا منام ، فقيل يا رسول الله كيف رأيتّه ؟ قال : فَيْلْمَانِيَا (أى عظيم الجثة) ، وهو أحمر هجان (أى شديد البياض) ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى كأن شعره أغصان شجرة ، شبهه بعبد العزى بن قطن (هلك فى الجاهلية) .

ورأى عموداً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة فقال : ما تحملون ؟ قالوا عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام .

وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن يمينه : يا محمد ، انظرنى أسألك ، فلم

يجيبه ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا داعى اليهود ، أما إنك لو أجبتة لتهودت أمتك .
وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن شمال ، فقال : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يجبه ،
فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا داعى النصارى ، أما إنك لو أجبتة لتنصرت أمتك .

وبينما هو يسير إذا بامرأة حاسرة عن ذراعها ، وعليها من كل زينة خلقها الله ، فقالت :
يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يلتفت إليها ، فقال : من هذه يا جبريل ؟ قال تلك الدنيا ، أما
إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

وبينما هو يسير إذا هو بشيء يدعو متنجياً عن الطريق يقول : هلم يا محمد ، فقال
جبريل : سر يا محمد ، فقال : من هذا ؟ قال : عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه .
وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقالت : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يلتفت
إليها ، فقال : من هذه يا جبريل ، قال : إنه لم يبق من عمر الدنيا إلا ما بقى من عمر تلك
العجوز .

وبينما هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله ، فقالوا : السلام عليك يا آخر ، السلام عليك
يا حاشر ، فقال له جبريل : اردد السلام فرد ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم لقيه
الثالثة فقال مثل ذلك ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : إبراهيم وموسى وعيسى .

ومرا على موسى وهو يصلى فى قبره عند الكثيب (أى التل) الأحمر رجل طوال (أى
طويل) سبط (مسترسل الشعر) آدم (أسمر) كأنه من رجال شنوءة (قبيلة من اليمن)
وهو يقول يرفع صوته أكرمه وفضلته ، فرفع إليه فسلم عليه ، فرد عليه السلام وقال : من
هذا معك يا جبريل ؟

قال : هذا أحمد ، فقال : مرحباً بالنبي العربي الذى نصح لأمتة ودعا له بالبركة ، وقال :
سل لأمتك اليسر فساروا ، فقال : يا جبريل ، من هذا ؟ قال :

هذا موسى بن عمران ، قال : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه قال : ويرفع صوته على ربه ؟ قال : إن الله تعالى قد عرف له حدته .

ومرّ على شجرة كأن ثمرها السرج تحتها شيخ وعياله ، فرأى مصابيح وضوءاً ، فقال : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا ابنك أحمد ، فقال مرحباً بالنبى العربى الأُمى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأُمته ، يا بنى إنك لاقى ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو كلها فى أمتك فافعل ، ودعا له بالبركة .

فسار حتى أتى الوادى الذى بالمدينة يعنى بيت المقدس ، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابى (البساط) فقيل : يا رسول الله ، كيف وجدتها ؟ قال : مثل الحممة (بحاء مضمومة أى الفحمة) .

ثم سار حتى انتهى إلى المدينة فدخلها من بابها اليمانى ، وإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان ، فقال : يا جبريل ، ما هذان النوران ؟ قال : أما الذى عن يمينك فمحراب أخيك داود ، وأما الذى عن يسارك فعلى قبر أختك مريم ، فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر ، وأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها ، فشد بها البراق ، وفى رواية مسلم فربطه بالحلقة التى تربط بها الأنبياء .

فلما استوى النبى صلى الله عليه وسلم فى صخرة المسجد ، قال جبريل : يا محمد ، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ قال : نعم ، قال جبريل : فانطلق إلى تلك النسوة فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، فانتهى إليهن فسلم عليهن فرددن السلام ، فقال : من أنتن ؟ فقلن : خيرات حسان ، نساء قوم أبرار ، نقوا فلم يدرنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخذلوا فلم يموتوا .

ثم صلى هو وجبريل كل واحد ركعتين ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير ، فعرف النبیین من بين قائم وراكع وساجد ، ثم أذن مؤذّن وأقيمت الصلاة ، فقاموا صفوفاً ينتظرون من يؤمهم ، فأخذه جبريل بيده فقدمه فصلى بهم ركعتين .

وفى حديث أبى هريرة عند الحاكم وصححه والبيهقى : فلقى أرواح الأنبياء فأتوا على ربهم فقال إبراهيم : الحمد لله الذى اتخذنى خليلاً ، وأعطانى ملكاً عظيماً ، وجعلنى أمة قانتاً يؤتم بى ، وأنقذنى من النار وجعلها على برداً وسلاماً

ثم أن موسى أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليماً ، وجعل هلاك فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى ، وجعل من أمتى قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون .

ثم أن داود أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لى ملكاً عظيماً ، وعلمنى الزبور ، وألان لى الحديد وسخر لى الجبال يسبحن والطير ، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

ثم أن سليمان أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لى الرياح ، وسخر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وثمائل وجفان (القصعة الكبيرة) كالجوابى (الحوض الكبير) وقدور راسيات ، وعلمنى منطق الطير ، وآتانى من كل شىء فضلاً ، وسخر لى جنوداً الشياطين والطير ، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدى ، وجعل ملكى ملكاً طيباً ليس فيه حساب ولا عقاب .

ثم إن عيسى بن مريم أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال : الحمد لله الذى جعلنى كلمته ، وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلنى أبرئ الأكمه (الذى يولد أعمى) والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، ورفعنى وطهرنى وأعادنى وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كلكم أثنى على ربه ، وأنا مثن على ربي :

الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة الناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شىء ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى وسطاً (أى خياراً عدولاً) وجعل أمتى هم الأولون (أى فى دخول الجنة)

والآخرون (أى فى الوجود) وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع ذكرى ، وجعلنى فاتحاً (أى لأبواب الإيمان) خاتماً (أى خاتماً به الشرائع) .

فقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم : بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم تذكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال : أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله ، وفيما عهد إلى أن الدجال خارج ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، فيهلكه الله تعالى إذا رآنى ، حتى إن الحجر ليقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله ، فيهلكهم الله تعالى ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم واطوانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطوون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، حتى يرجع الناس يشكونهم إلى ، فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من ريحهم ، فينزل الله تعالى المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ، ففيما عهد إلى ربي أن ذلك إذا كان كذلك ، إن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم من العطش أشد ما أخذه ، فأتى بقدين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل ، وفى رواية أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهاها ، فأتى بإناء منها فيه ماء فشرب منه قليلاً ، وفى لفظ أنه لم يشرب منه شيئاً ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن فشرب منه حتى روى ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له اشرب فقال : لا أريده قد رويت ، فقال جبريل : أما إنها ستحرم على أمتك ، وفى رواية فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، وفى رواية العسل بدل اللبن ، فشرب من العسل قليلاً وتناول اللبن فشرب منه حتى روى ، فضرب جبريل على منكبه وقال : أصبت الفطرة وإنك لمهدى .

ثم أتى بالمعراج^١ الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم فلم تر الخلائق أحسن من

^١ - السلم .

المعراج ، له مرقاة^١ من فضة ومرقاة من ذهب ، وفي رواية لأبي سعيد في شرف المصطفى أنه أتى بالمعراج من جنة الفردوس منضداً باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة ، فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا يقال له باب الحفظة وعليه ملك يقال له إسماعيل ، وهو صاحب سماء الدنيا ، وفي حديث جعفر بن محمد عند البيهقي يسكن الهواء ، لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض قط إلا يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين يديه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك جنده مائة ألف ، فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل : ومن معك ، قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال : مرحباً به وأهلاً ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما .

فلما خلاصاً فإذا آدم كهينته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين (أعلى الجنة) ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين (موضع فيه كتاب الفجار) ، وعن يمينه أسودة (جمع سواد ويجمع على أساود وهو الشخص) وباب يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله أسودة وباب يخرج منه ريح خبيثة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك واستبشر ، وإذا نظر قبل شماله حزن وبكى ، فسلم عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فرد السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أبوك آدم ، وهذه الأسودة نسمة بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، وأهل الشمال منهم أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة إذا نظر من يدخله من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذي عن شماله باب جهنم إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن .

ثم مضى صلى الله عليه وسلم هنيهة فإذا نظر هو بأخونة عليها لحم يشرح ليس بقربه أحد ، وإذا بأخونة عليها لحم قد أروح وأنتن عندها ناس يأكلون منها ،

^١-درجة .

فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال هؤلاء من أمتك قوم يتركون الحلال ويأتون الحرام ، وفى لفظ : فإذا بأقوام على مائدة عليها لحم يشوى كاحسن مما رأى من اللحم وإذا حوله جيف فجعوا يقبلون على الجيف يأكلون منها ويدعون اللحم ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء الزناة يطلون ما حرم الله عليهم ويتركون ما أحلّ لهم .

ثم مضى هنيهة فإذا بأقوام بطونهم كامثال البيوت ، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، كلما نهض أحدهم خرّ يقول : اللهم لا تقم الساعة وهم على سابلة آل فرعون ، فتجىء الساعة (أبناء السبيل) فتطوهم ، فسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، فقال : يا جبريل : من هؤلاء ، قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس (الجنون) .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام مشافهم الإبل (كالشفة من الإنسان) ، ففتح أفواههم ويلقمون حجراً ، وفى رواية : يجعل فى أفواههم صخر من جهنم ثم يخرج من أسافلهم فسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بنساء معلقات بثديهن ، ونساء منكسات بأرجلهن ، فسمعهن يضجن إلى الله تعالى ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء الذين يزينن ويقتلن أولادهم .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون ، فيقال له : كل كما كنت تأكل لحم أخيك ، فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون¹ .

ثم صعد إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ، قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به وأهلاً ، حياها الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما ، فلما خلاصا فإذا هو بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى

1- الهمازون : هم الذين يغتربون الناس فى غيبتهم ، واللمازون : العيايون .

ابن زكريا ، شبيه أحدهما بصاحبه ثيابهما وشعرهما ، ومعهما نفر من قومهما ، وإذا عيسى جعد (مجموع الجسم) مربع الحلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس (مسترسل الشعر) كأنما خرج من ديماس (أى حمام) شبيهه بعروة ابن مسعود الثقفى (أحد الصحابة الكرام) ، فسلم عليهما فردا عليه السلام ، ثم قالوا : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ودعوا له بخير . ثم صعدا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل قيل : من هذا ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به وأهلاً ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعّم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجرىء جاء ، ففتح ، فلما خلاصاً فإذا هو بيوسف ومعه نفر من قومه ، فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ودعا له بخير ، وإذا هو أعطى شطر الحسن ، وفى رواية أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف .

ثم صعد إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به وأهلاً ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعّم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجرىء جاء ، ففتح لهما ، فلما خلاصاً فإذا هو بإدريس رفعه الله مكاناً علياً ، فسلم عليه فرد السلام ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم دعا له بخير .

ثم صعد إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به وأهلاً ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعّم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجرىء جاء ، ففتح لهما فلما خلاصاً فإذا هو بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء تكاد تضرب إلى سرتة من طولها ، وحوله قوم من بنى إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وهو يقص عليهم ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم دعا له بخير ، فقال : يا جبريل ، من

هذا؟ قال هذا الرجل المحبب في قومه هارون بن عمران .

ثم صعد إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به وأهلاً ، حياها الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما فجعل يمر بالنبي والنبيين معهم الرهط والنبي والنبيين ليس معهم أحد ثم مر بسواد عظيم ، فقال : من هذا ؟ قيل : موسى وقومه ، ولكن ارفع رأسك ، فإذا بسواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب ، فقيل : هؤلاء أمتك ، وسوى هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، فلما خلاصاً فإذا بموسى بن عمران رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر دونهما ، فسلم عليه النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم دعا له بخير ، وقال : يزعم الناس أني أكرم على الله من هذا ، بل هذا أكرم على الله مني ، فلما جاوزه النبي صلى الله عليه وسلم بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلاماً بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل الجنة من أمتي ، يزعم بنو إسرائيل أني أكرم بنى آدم على الله ، وهذا رجل من بنى آدم خلفني في دنيا ، وأنا في أخرى ، فلو أنه في نفسه لم أبال ولكن مع كل نبي أمته .

ثم صعدا ، فلما انتهيا إلى السماء السابعة رأى فوقه رعداً وبرقاً وصواعق ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به وأهلاً ، حياها الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما ، فسمع تسبيحاً في السموات العلاء مع نسبيح كثير سبّحت السموات العلاء من ذى المهابة مشفقات من ذى العلاء بما علا ، سبحن العلى الأعلى سبحانه وتعالى ، فلما خلاصاً فإذا النبي صلى الله عليه وسلم بإبراهيم الخليل رجل شمت جالس عند باب الجنة على كرسي مسند ظهره إلى البيت المعمور ومعه نفر من قومه ، فسلم عليه النبي صلى الله عليه وسلم فرد السلام ، ثم قال مرحباً بالأبن الصالح والنبي الصالح ، وقال : مر أمتك فليكثر من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها

واسعة فقال : وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وفى رواية : أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهو أشبه ولده به ، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس (القراطيس ما يكتب فيه) ، وقوم فى ألوانهم شىء ، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خالص من ألوانهم شىء ، ثم دخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خالصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم ، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه ؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء ؟ وما هذه الأنهار التى دخلوها ؟ فقال : أما هؤلاء البيض الوجوه ، فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم (أى بشرك) وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما هذه الأنهار فأولها رحمة الله ، والثانى نعمة الله ، والثالث سقايم ربهم شراباً طهوراً .

وقيل له : هذا مكانك ومكان أمتك ، وإذا هو بأتمته شطران : شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس ، وشطر عليهم ثياب رمد ، فدخل البيت المعمور ودخل معه الذين عليهم الثياب البيض ، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد (فى لون الرماد) وهم على خير ، فصلى ومن معه من المؤمنين فى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ثم خرج ومن معه صلى الله عليه وسلم .

ثم رفع إلى سدره (شجرة) المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسین (غير متغير) ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لا يقطعها ، وإذا نبعها مثل قلال هجر ، وإذا كآذان الفيلة تكاد الورقة تغطى هذه الأمة .

ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام ، ورأى رجلاً مغيباً فى

نور العرش فقال : من هذا ؟ أملك ؟ قيل : لا ، قال : أنبي ؟ قيل : لا ، قال : من هو ؟ قيل : هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب بذكر الله وقلبه معلق بالمساجد ولم يستسب لوالديه قط .

فرأى ربه سبحانه وتعالى ، فخر النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً ، وكلمه ربه تعالى عند ذلك فقال له : يا محمد ، قال : لبيك ربى ، فقال : سل ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى تكليماً ، وأعطيت داود ملكاً عظيماً ، وأنت له الحديد وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً وسخرت له الرياح وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك ، وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل .

فقال سبحانه وتعالى : قد اتخذتك حبيباً (قال الراوى : وهو مكتوب فى التوراة حبيب الله) ، وأرسلتك للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفع لك ذكرك ، لا أذكر إلا ذكرت معى ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطاً ، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم ، وجعلت أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعاً من المثانى لم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة والصلاة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت

¹ - رؤية بلا كيف ، وقد جعل الله له الرؤية فى الدنيا قبل سائر المؤمنين الذين يتجلى عليهم سبحانه بالرؤية فى الآخرة مصداقاً لقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة) . ويعاقب الله يوم القيامة أهل الكفر بالحجاب فلا يرونه مصداقاً لقوله تعالى : (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم) .

عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك .

قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضلنى ربي ، أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وألقى فى قلب عدوى الرعب من مسيرة شهر ، وأحلّ لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وظهوراً ، وأعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعرضت على أمتى فلم يخف علىّ التابع والمتبوع ، ورأيتهم أتوا على قوم ينتعلون بالشعر ، ورأيتهم أتوا على قوم عراض الوجوه صغار الأعين كأنما خرزت أعينهم بالمخيط ، فلم يخف علىّ ما هم لاقون من بعدى ، وأمرت بخمسين صلاة ، وأعطى ثلاثاً : أنه سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين .

وفى حديث ابن مسعود : وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمة شيئاً المقحّمات ، ثم انجلت عنه السحابة ، وأخذ بيده جبريل فأنصرف سريعاً ، فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئاً ، ثم أتى على موسى قال ونعم الصاحب كان لكم فقال : ما صنعت يا محمد ، ما فرض ربك عليك وعلى أمتك ؟ قال : فرض علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة كل يوم وليلة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإنى قد خبرت الناس قبلك ، وبلوت بنى إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه ، وأمتك أضعف أجساداً وأبداناً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل يستشيره ، فأشار جبريل أن نعم إن شئت ، فرجع سريعاً حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة وخرّ ساجداً وقال : رب خفف عنّا ، وفى لفظ عن أمتى ، فإنها أضعف الأمم ، قال : قد وضعت عنكم خمساً ، ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى فقال : وضع عنى خمساً ، فقال : ارجع إلى ربك واسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه يحط عنه خمساً خمساً حتى قال : يا محمد : قال : لبيك وسعديك ، قال : هن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة لا يبدل القول لى ولا ينسخ كتابى تخفيفاً عنك كتخفيف خمس صلوات ،

ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرًا ، ومن هم بسيئة فلم يعلمها لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزل حتى انتهى إلى موسى فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال : قد راجعت ربي حتى استحيت منه ، ولكن أرضى وأسلم ، فنادى مناد أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي فقال له موسى : اهبط باسم الله .

وما أرق ما قال سيدي ابن وفا رضى الله عنه : إنما كان ترجيع موسى عليه الصلاة والسلام للنبي صلى الله عليه وسلم فى شأن الصلوات لتكرر مشاهدة أنوار المرات ومما قاله شعراً :

والسر فى قول موسى إذ يراجعه ليجتلى النور فيه حيث يشهده
يبدو سناه على وجه الرسول فيا لله حسن رسول إذ يردده

ثم ركب منصرفاً ، فمر بغير قريش بمكان كذا وكذا منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى العير نفرت واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ومر بغير قد أضلوا بغيراً لهم قد جمعه فلان ، فسلم عليهم فقال بعضهم : هذا صوت محمد ، ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة ، فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تكذبه ، فقعد حزيناً ، فمر به عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزىء : هل كان من شىء ؟ قال : نعم ، قال : ما هو ؟ قال : أسرى بى الليلة ، فقال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجده الحديث إن دعا قومه إليه ، قال : رأيت إن دعوت قومك أحدثهم بما حدثنى ؟ قال : نعم ، قال : يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما ، فقال : حدث قومك بما حدثتنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أسرى الليلة بى ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً ، وضجوا وأعظموا ذلك .

فقال : المطعم بن عدى : كل أمرك كان قبل اليوم أمماً غير قولك اليوم ، أنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدرأ شهراً ، تزعم أنك أتيت في ليلة ، واللات والعزى لا أصدقك ، فقال أبو بكر : يا مطعم بئس ما قلت لبني أخيك ، جبهته وكذبتة ، أنا أشهد أنه صادق ، فقالوا : يا محمد صف لنا بيت المقدس ، كيف بناؤه ، وكيف هيئته ، وكيف قربه من الجبل ، ومن القوم من سافر إليه ، فذهب ينعت لهم : بناؤه كذا وهيئته كذا ، وقربه من الجبل كذا ، فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت ، فكرب كرباً ما كرب مثله ، فجاء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال ، فقالوا : كم للمسجد من باب ؟ ولم يكن عدها ، فجعل ينظر إليه ويعدها باباً باباً ويعلمهم ، وأبو بكر يقول : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، فقال القوم : أما النعت فو الله لقد أصاب .

ثم قالوا لأبي بكر : أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقته بخبر السماء في غدوة ورواحه ، فبذلك سمى أبا بكر الصديق .

ثم قالوا : يا محمد ، أخبرنا عن عيرنا ، فقال : أتيت على عير فلان بالروحاء قد أضلوا ناقة لهم ، فانطلقوا لهم ، فانطلقوا في طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم فليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء فشربت منه ، ثم انتهيت إلى عير بني فلان بمكان كذا وكذا فيها جمل أحمر عليه غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذيت العير نفرت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان وها هي ذى تطلع عليكم من الثنية ، قالوا : فمتى تجيء ؟ قال : يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولى النهار ولم تجيء ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم فزيد له في النهار ساعة ، وحبست عليه الشمس حتى دخلت العير ، فاستقبلوا الإبل فقالوا : هل ضل لكم بعير ؟ قالوا : نعم ، فسألوا العير الآخر فقالوا : هل انكسر لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فهل كان عندكم قصعة من ماء ؟ فقال رجل أنا والله وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريق في الأرض ، فرموه بالسحر وقالوا : صدق الوليد .

فأنزل الله تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) .

هذا ، ولبعض العلماء الأجلاء تعقيبات طريفة على تلك القصة ومن ذلك :

١- قال سيدى ابن المنير رضى الله عنه : كانت كرامته صلى الله عليه وسلم المناجاة على سبيل المفاجأة كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم فى قوله بينما أنا ... ، وفى حق موسى عليه السلام عن ميعاد واستعداد ، فحمل عنه صلى الله عليه وسلم ألم الانتظار ، ويؤخذ من ذلك أن مقام النبى صلى الله عليه وسلم مقام المراد (المطلوب) وهو أرفع بالنسبة إلى مقام المرید (الطالب) .

٢- وقال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه : قول خازن السماء : " أوقد أرسل إليه ؟ " إنما هو سؤال تعجب من نعمة الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم بذلك واستبشار به ، وقول الخازن : " مرجباً به " يدل على أن الحاشية إذا فهموا من سيدهم عزماً لإكرام واحد أن يبشروه بذلك وإن لم يأذن لهم فيه .

٣- لا خلاف أن النبوة أعلى من صلاح الصالحين من الأمم ، فقول الأنبياء مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح يحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم ، وصلاح الأنبياء صلاح كامل ، لأنهم يزول بهم كل فساد ، فهم كل صلاح ، ومن دونهم الأمثل فالأمثل ، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أو منه من الفساد ، وكرروا وصفه صلى الله عليه وسلم بالصلاح ، لأن الصالح هو الذى يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد ، فمن ثم كانت كلمته جامعة مانعة شاملة لسائر الخلال المحمودة ، ولم يقل أحد منهم مرحباً بالنبى الأمين لأن الصلاح شامل لسائر أنواع الخير .

٤- لم يكن بكاء موسى عليه السلام حسداً للنبى صلى الله عليه وسلم ، معاذ الله ، فإن الحسد فى ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين ، فكيف من اصطفاه الله تعالى ، بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذى يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزمة

لتنقيص أجره ، لأن لكل نبي مثل أجر من تبعه ، ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا صلى الله عليه وسلم مع طول مدتهم بالنسبة إلى مدة هذه الأمة

٥- قول موسى عليه السلام " غلام " ليس على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله تعالى وعظيم كرمه ، إذ أعطاه صلى الله عليه وسلم في ذلك السن ما لم يعط أحداً قبله ممن هو أسن منه ، وقال الخطابي : العرب تسمى الرجل المستجمع السن غلاماً ما دامت فيه بقية من القوة ، وقال الحافظ ابن حجر : ويظهر أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا صلى الله عليه وسلم من استمرار القوة من الكهولة ، وإلى أنه دخل في سن الشيخوخة ، ولم يدخل في بدنه هرم ولا عرا قوته نقص ، حتى إن الناس لما رأوه صلى الله عليه وسلم مردفاً لأبي بكر عند قدومه المدينة أطلقوا عليه أسم " الشاب " وعلى أبي بكر اسم " الشيخ " مع كونه صلى الله عليه وسلم في العمر أسن من أبي بكر .

٦- وقال ابن بطال : قول موسى عليه السلام : " رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً " فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى بقوله : (إني اصطفتك على الناس بكلامي) أن المراد بالناس هنا البشر كلهم ، وأنه استحق بذلك ألا يرفع عليه أحداً ، فلما فضل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أعطاه من المقام المحمود وغيره ارتفع على موسى وغيره .

٧- قوله فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله : المراد تشريف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر ، أي لو كان له ذنوب لغفرت ولم يكن له ذنب ألبتة ، وقال سيدي القاضي عياض رضي الله عنه : المقصد ، أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان ، وقال سيدي ابن عطية رضي الله عنه : المعنى تشريف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم ولم تكن ذنوب ألبتة .

٨- وقال سيدي ابن دحية رضي الله عنه : في عرض الجنة عليه صلى الله عليه وسلم كرامة عظيمة لأنه كان يعرض الجنة على أمته ليشتروها كما قال عن ربه تبارك

وتعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ، فأراد الله تعالى أن يعاين النبي صلى الله عليه وسلم ما يعرضه على أمته ليكون وصفه إياها عن مشاهدة ، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى الجنة وهي الدار التي هيأها الله لضيافة عباده المؤمنين ، ويحتمل أنه أراه إياها ليعلم خسة الدنيا في جنب ما رآه فيكون في الدنيا أزهده وعلى الشدائد أصبر .

٩- وقال أيضاً رضى الله عنه : إنما عرضت عليه صلى الله عليه وسلم النار ليكون في القيامة إذا قال سائر الأنبياء : نفسى نفسى يقول صلى الله عليه وسلم : أمتى أمتى ، وذلك حين تسجر جهنم ، ولذلك أمن الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال عز من قائل : (يوم لا يخزى الله النبي) ، والحكمة في ذلك أن يفرغ إلى شفاعته أمته صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يؤمنه لكان مشغولاً بنفسه كغيره من الأنبياء ، لأنهم لم يروا قبل يوم القيامة شيئاً منها ، فإذا رأوها فرزعوا ، وكفت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هولها ، وشغلتهم أنفسهم عن أمهم ، وهو صلى الله عليه وسلم قد رأى ذلك فلا يفرغ منها مثلما فرزعوا ، فقدر على الخطبة والشفاعة .

١٠- وقال رضى الله عنه : خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤية والمكالمة لأنه صاحب الشفاعته في القيامة ، فحصل له ذلك قبلها لتلايق له حشمة البديهة كما يقع لغيره من الأنبياء .

١١- وقال سيدى السهيلي رضى الله عنه : فرضت الصلاة ليلة المعراج للتنبيه على فضلها ، حيث لم تفرض إلا في الحضرة المقدسة المطهرة ، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها ، والتنبيه على أنها مناجاة الرب ، وأن الرب تبارك وتعالى مقبل بوجهه على المصلى يناجيه ويقول : حمدنى عبدى ، أثنى على عبدى إلى آخر سورة الفاتحة .

١٢- وقال سيدى ابن أبى حمزة : الحكمة في كون إبراهيم عليه السلام لم يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب التخفيف ، أن مقام الخلعة إنما هو الرضا والتسليم ، والكلام في هذا الشأن ينافى ذلك المقام ، وموسى هو الكليم ، والكليم أعطى الإدلال والانبساط .

١٣ - وقال بعض أهل الإشارات : لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى عليه السلام ، أضاءت له أنوار نور الطور ، فأسره إليها ليقتبس فاحتبس ، فلما نودي للمنادى اشتاق إلى المنادى ، فكان يطوف في بني إسرائيل يقول من يحتملى رسالة إلى ربي ، مراده بذلك أن تطول المناجاة مع الحبيب ، فلما مر عليه نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج رده في أمر الصلاة ليستفيد رؤية حبيب الحبيب ، ويرى من رأى كما قيل :

وأستنشق الرواح من نحو أرضكم لعلى اراكم أو أرى من يراكم
فأنتم حياتى إن حييت وإن أمت فياحبذا إن مت عبد هواكم

٤١ - وقال سيدى ابن أبى حمزة رضى الله عنه : فى امتناع النبى صلى الله عليه وسلم فى المرة العاشرة من طلب التخفيف دليل على أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أسعاد عبد حصر اختياره فى مرضاة ربه وهو فرض الصلوات الخمس ، وذلك تكريم له صلى الله عليه وسلم وترفيه ، لأنه لو رجع صلى الله عليه وسلم وطلب التخفيف فلم يخفف الله كما خفف أولاً ، لكان اختياره صلى الله عليه وسلم مخالفاً للمقدور ، وقال آخر : إنه لو طلب التخفيف وخفف فى المرة الأخيرة لحرمت أمته من الصلاة ، فقد حط الله فى كل مرة خمساً خمساً ، فلم يبق إلا الخمس الأخيرة ، فلم يرد أن يحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من شرف مناجاة الله فى اليوم والليلة فى الصلوات الخمس ، أقول : وما أكرم ربى حين خلى بين عباده المؤمنين وبين محراب الصلاة فرضاً ونفلاً ، فشرفهم بذلك أيما تشريف ، والله الحمد والمنة عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ، فالصلاة صلة قوية بين العبد وربيه ، يناجى ربه فيها ويناجيه ربه ، ولذلك قال بعض العرفين : إذا وقفت فى الصلاة لا يهمنى منها إلا ما أقوله أو يقال لى .

١٥ - فى قوله تعالى : (ثمّ دنا فتدلى) قال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه : نسبة الدنو والتدلى ليست إلى الله تعالى ، وإنما الدنو والقرب من الله تعالى إليه صلى الله عليه وسلم كناية عن جزيل فوائده إليه ، وجميل عوائده عليه ، وتأنيس لاستيحاشه بانقطاع الأصوات عنه ، وبسط بالمكالمة وإكرام بشرائف منه ،

ويتأول في دنوّه تعالى منه ما يتأول به قوله صلى الله عليه وسلم : " ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر " على أحد الوجوه من أن نزوله تعالى إنما هو دنو إفضال و إجمال ، وقبول توبة ، وإحسان بمغفرة وإشفاق .

ويرحم الله الإمام البوصيري إذ يقول في همزيته :
وترقى به إلى قاب قوسين تلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراء هن وراء

١٦ - وأود أن أضيف إلى ما تقدم أن ثبات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام (ثم دنا قتلّى * فكان قاب قوسين أو أدنى) إنما هو اختصاص اختصاصه به رب العزة الذى دعاه ليريه من آياته ، وهو اختصاص عظيم ، يدلك على عظمته أن جبل الطور اندك من هيبة المتجلى حين تجلى سبحانه للجبل كما بين ذلك قوله تعالى : (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخزّ موسى صعقاً) وقد قال العلماء : لو لم يدرك الله تعالى برحمته كليمه موسى عليه السلام ما قام من صعقته ، فإذا قارنت بين ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم وبين دكة الجبل ، بان لك فضل الله العظيم واختصاصه الكبير الذى ناله أحب أحبائه وأصفى أصفياؤه صلى الله عليه وسلم ، ولا تستكثر الفضل على ربك فى هذا المقام ، فقد كان سيدنا موسى ضيفاً وكان رسولنا المستضاف ، ومستضاف الكرم أولى بالتكريم من ضيف الكرم ، والمحبوب أكثر رعاية من المحب ، وإن كانا معاً مكرمين فى ساحة المجد ، وعلى بساط القرب ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد قال سيدنا موسى عليه السلام داعياً : (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) ، وقيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك) ، وقال سيدنا موسى عليه السلام فى دعوته (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) ، وقيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً) ، وقال سيدنا

موسى عليه السلام : (إن معى ربي سيهدين) فضلت أمته ولم تثبت معه على الإيمان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله معنا) فتضاعف المؤمنون من بعده صلى الله عليه وسلم .

وأكرم الله المؤمنين بمتابعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاهد من قوله تعالى فى سورة التحريم (... يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) .

وقوله تعالى فى سورة الحديد : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) .

وكانت الجنة جزاء المطيعين لرسوله صلى الله عليه وسلم لأنه تعالى قال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، وقال سبحانه : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) ، وسيكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته نصف الجنة أو أكثر ، لأن أمته أعظم الأمم ، ولأنه صلوات الله وسلامه عليه أكثر النبيين تبعاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

الباب الخامس

الهجرة النبوية الميمونة

الإذن الإلهي بالقتال :

قال ابن إسحاق :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء ، وإنما يؤمر بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضهدت من اتبعه من المهاجرين ، حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم ، فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت^١ قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما ردهم به من الكرامة وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عبَدَ الله وحده ، وصدق نبيه واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليه ، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قوله تبارك وتعالى فى سورة الحج :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم

^١ - عتت : تجبرت وازدادت كفراً .

فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عقبه الأمور) ،
أى إنى أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن
يعبدوا الله ، ويعنى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين ، ثم أنزل الله
تبارك وتعالى عليه فى سورة البقرة : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) ، حتى لا
يفتن مؤمن عن دينه ، ويعبد الله وحده فلا يعبد معه غيره .

انتشار الإسلام بالمدينة :

ولما عاد أهل بيعة العقبة من الأنصار إلى المدينة ، أظهروا الإسلام بها ، ثم أخذ المسلمون
يهاجرون سراً من مكة إلى المدينة ، ولم يبق بمكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا
اثنان من السابقين الأولين هما سيدنا أبو بكر وسيدنا على رضى الله عنهم .

هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة :

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وباعه هذا الحى من الأنصار على
الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه
وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة
والهجرة إليها والحقوق بإخوانهم من الأنصار وقال : " إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً
وداراً تأمنون بها " .

قال ابن إسحاق :

فخرجوا إرسالاً (جماعة بعدها جماعة) ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر
أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

أبو سلمة أول المهاجرين إلى المدينة :

قال ابن إسحاق :

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من

المهاجرين من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله (وهو بن عمه رسول الله - برة بنت عبد المطلب - وأخوه من الرضاعة) هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنه ، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته عقبة بسنه ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً ، وقد حضر بدرًا ، وجرح في غزوة أحد والتأم جرحه ، ثم عاد ونغر عليه^١ ومات به ، وقد كبر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع تكبيرات فقالوا : يارسول الله أسهوت أم نسيت ؟ فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على ابوسلمة ألفاً كان أهلاً لذاك .

هجرة السيدة أم سلمة رضی الله عنها :

واقراً في عجب وإعجاب ما كان في هجرة زوجته السيدة أم سلمة ، التي أسعدها الله بزواجها برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استشهاد زوجها أبي سلمة .

فقد قالت فيما رواه بسنده ابن إسحاق :

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل^٢ لي بغيره ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجرى ، ثم خرج بي يقود بغيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذا نفسك غلبتنا عليها ، أ رأيت صاحبك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله ، لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبها (أى زوجها) ، قالت : فتجاذبوا بئى " سلمة " بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلقوا به بنى عبد الأسد ، وحبسنى بنى المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبوا سلمة إلى المدينة ، قالت ففرق بينى وبين زوجى وبين ابني ، قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس فى الأبطح ، فما زال أبكى

^١ - نغر عليه : عاوده ألم الجرح .

^٢ - جهز البعير للسفر .

حتى أمسى سنة أو قريب منها ، حتى مر بي رجل من بنى عمى - أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقم بينها وبين زوجها وبين ابنها .

قالت فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت ، قالت : ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى ، قالت : فارتحلت ببعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعتة فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، قالت : وما معى أحد من خلق الله ، فقلت : أتبلغ^١ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم (من ضواحي مكة) لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أخوا بنى عبد الدار ، فقال لى : إلى أين يا بنت بنى أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله إلا الله وبنى هذا .

أيها القارئ الكريم : ألا يشير ذلك أعجابك من يقينها وعزمها وتضحياتها فى سبيل الله ، وكيف لا يثير أعجابك أن ترى سيدة تركب ناقتها مع طفلها الصغير نحواً من أسبوعين فى صحراء شاسعة حتى تبلغ المدينة ، وليس معها من يعينها على مشقة الرحلة الطويلة على ظهر الإبل ، مع ما تحتاج إليه من إناخة الدابة ، وإنزال الرحل والعلف ثم شد الحمل عليها ، فضلاً عن رعية طفلها الكسير !!

لا شك أنه موقف يثير عطفك وإشفاقك ، ولكن الله أرحم بها منى ومنك ، فانظر كيف دبر الله لها أمرها على غير ترتيب منها ، فسخر لها رجلاً ذا مروءة عربية فطرية ، فأعانها ويسر أمرها حتى أبلغها المدينة واستمع إليها وهى تحكى ما كان منه :

قالت رضى الله عنها : قال عثمان : والله ما لك من متّرك^٢ ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان اذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر

^١ - أستعين .
^٢ - لا يجوز أن أتركك وحدك .

ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده إلى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى الشجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا
دنى الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى ، وقال اركبى ، فإذا ركبت واستويت
على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى
المدينة ، فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك فى هذه القرية - وكان أبو
سلمة بها نازلاً - فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما
رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

أقول : وكان عثمان يوم هجرته بأمر سلمة على الكفر ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر
قبل الفتح مع خالد بن الوليد ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وإلى عمه شيبه بن
عثمان مفاتيح الكعبة فى عام الفتح . وقد قتل عثمان بن طلحة شهيداً بأجنادين فى أول
خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قال ابن إسحق :

و أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يأذن له
فيها بالهجرة ، وام يتخلف معه أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، وإلا على بن أبى
طالب و أبو بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى
الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تعجل ، لعل الله
يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

مؤامرة يكشفها الله تعالى :

قال ابن إسحق :

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار له شيعه وأصحاب من غيرهم ،
بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا
منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله

صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار كانت لقصى ابن كلاب ، فكانت قريش لاتقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه .

أقول : وأطلع الله على ما تشاوروا فيه بقوله تعالى فى سورة الأنفال : (و إذ يمكرالذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ، فقد اختلفت آرائهم بين حبسه فى بيت يغلقونه عليه ، فخافوا أن يقاتلهم أهله بدافع العصبية ، ويخلصوه من أيديهم ، وبين أن يخرجوه من مكة ، فخافوا أن يجتمع الناس عليه لحلاوة منطقته فيقاتلهم بهم ، وبين أن يختاروا من كل بطن من بطون قبائلهم شاباً جلدأ ليقتلوه قتلاً جماعياً فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حربهم ، فإذا طلبوا الدية قدموها لهم ، وهذا الرأى الأخير هو الذى أستحسنوه بعد التشاور فى دار الندوة .

الإمام على يفدى الرسول بنفسه :

يقول ابن إسحق :

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبئت عليه ؛ ثم يقول ابن إسحق : فلما كانت عتمة من الليل ، اجتمعوا على بابهِ يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشى وتسج^(١) ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فتم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شئء تكرهه منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام .

خروج الرسول وهم لايشعرون :

وخرج عليهم سول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤسهم

(١) تسج ببردى : اجعل ثوبى غطاء لك .

وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس :

(يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات لم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قال ابن إسحق : فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ قال ابن إسحق : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مستجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا محمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .
قال ابن إسحق :

حدثنى من لا أتهم ، عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة و إما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة خروج من مكة بين ظهري قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها .

الإذن بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث ، قالت : فلما دخل ، تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنى من عندك ، فقال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك ؟ فذاك أبى و أمى ، فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج و الهجرة ، قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال الصحبة ، قالت : فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ، ثم قال : يا نبى الله : إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا ، فاستأجر عبد الله بن أريقط - وكان مشركاً - يدلهما على الطريق ، فدعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحق :

ولم يعلم - فيما بلغنى - بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا على بن أبى طالب ، و أبو بكر الصديق ، وآل أبى بكر ، أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم ، أقول : فانظر إلى غرابة موقفهم منه ، فإنهم كانوا واثقين من صدقه وأمانته حتى ائتمنوه على نفائسهم ، حتى إذا دعاهم إلى الله كذبوه ، مع إنهم لم يجربوا عليه كذباً من قبل ، بل وثقوا بصدقه كل الوثوق ، وصدق الله سبحانه إذ يقول فى سورة الحج :

(فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

الاختباء فى الغار :

قال ابن إسحق :

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة ، فخرجا من خوذة الأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بثور^٢ فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما ما يقول الناس فيهما نهائاً ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، و أمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهارة ثم يريهما^٣ عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسى بما يصلحهما .

وفاء أبى بكر :

قال ابن هشام :

وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال:

انتحى رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية يقى رسول الله عليه وسلم بنفسه .

أقول : رأيت كيف كان الصديق رضى الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يفنديه بنفسه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حب لله ، وما دام الصديق رضى الله عنه قد بلغ الذروة فى حب ربه الأعظم ، فكان المؤمن الأول فى هذه الأمة بين المؤمنين وقد بلغ عددهم الملايين ، وأثبت الله له الصحبة فى كتابه الكريم فى قوله تعالى : (إلتصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) ، فمن أنكر صحبة

١ - باب صغير

٢ - جبل بأسفل مكة

٣ - يرجع بالغنم بعد أن ترعى إلى الغار لتضيق آثار المتضلين بالرسول وصاحبه .

أبى بكر فقد كفر ، لأنه يكذب كلام الله .

وحق لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يغبط الصديق على تلك الصحابة فى الغار ، فقد كان يقول منوهاً بفضل الصديق رضى الله عنه : كنت أحب أن يكون لى يومان من أيام أبى بكر بحياتى كلها ، يوم أن صحب الرسول فى الغار ، ويوم أن خالفنا فى حرب أهل الردة^١ . كما كان يقول رحم الله أبابكر ، إنه كان سيدنا وأعتق سيدنا (يشير إلى بلال ويلقبه بالسيادة ، فإن بلال رضى الله عنه عذب فى الله ، فاشتره الصديق من أمية بن خلف وأعتقه ، فما أعظم ديننا الذى ساد به العبيد ، ولا فضل فيه لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) . وما أعجب أمر سيدنا أبا بكر ، فقد كان ثانى اثنين فى الإيمان ، وثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى أمانة الحج (أول أمير للحج هو سيدنا عتاب بن أسيد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الفتح ، كما ولاه إمارة الحج) ، وثانى اثنين فى الخلافة ، وثانى اثنين فى الروضة الشريفة حيث مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأترون به ، وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتهم إذ أمسى فيخبرهم الخبر .

وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهم غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا عبد الله بن أبى بكر غداً عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهم الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه

^١ - وهم الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، فحاربهم عليها الصديق رضى الله عنه ، وكان الصحابة يتخوفون من حربهم وهم كثرة ، ولكنه رضى الله عنه حاربهم لياخذ منهم حق الله ، وقال قولته المشهورة : " والله لو منعونى عقار بعير كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لفاتلتهم عليه ، أينقص الين وأنا حى ؟ " وتغلب رضى الله عنه على أهل الردة ، وحفظ الله الإسلام على يديه فجزاه الله عنا كل خير

ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما بسفرتيهما ، ونسيت أن نجعل لهما عصاماً (حبلاً ترط به) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصاماً ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر: ذات النطاق لذلك ، قال ابن هشام وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين ، وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها اثنتين فعلقت السفرة بواحد وانتظت بالآخر .

فلما قرب أبو بكر رضى الله عنه الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما ثم قال : اركب فداك أبى وأمى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بغيراً ليس لى قال : فهى لك يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال كذا وكذا ، قال قد أخذتها به ، قال : هى لك يارسول الله ، فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق .

أقول : رأيت كيف علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أكثر ما علمنا ، أن نجاهد فى الله بأموالنا ، كما نجاهده فيه بأنفسنا ، فقد أبى أن يقبل الناقة هدية من صاحبه ، مع وثوقه فى صدقه وأخلاقه فى تقديمها هدية ، ولكنه أبى إلا أن تكون بالثمن ليتحمل النفقة فى سبيل الله عز وجل !! . وكيف لا يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وكيف لا نتأسى به ونجاهد فى سبيل الله بأموالنا وأنفسنا وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى فى سورة الصف :

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذالكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم *

وأخرى تحبونها نصرًا من الله وفتحٌ قريبٌ وبشر المؤمنين) . وما أروع آيات الله لمن تدبرها وعقلها .

قال ابن إسحاق :

حدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه ، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي ؟ قالت فرفع أبوجهل يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فاطم خدى لظمة أطرح منها قرطى . أقول : رأيت إلى القسوة التى طمست على قلبه بكفره ، فحملته على أن يضرب فتاة صغيرة فى سن الطفولة ، وهوشىخ كبير لا يرى فى ذلك عار ، مع إن بعض الحيوان يأبى لنفسه أن يعتدى على امرأة ، وأعلم من ذلك الأسد والجمل ، لأن كلا منهما يسنضعفها بإلهامه الفطرى ، ويراهما أضعف من أن يعتدى عليها ، فما أتعسه من إنسان فقد المروءة التى تحلى بها بعض الحيوان .

قالت ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندري أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر غناء العرب ، وإن الناس

ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أهل مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروحا فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليهن^١ بنى كعب مكان فتاتهم ومقعدهما للمؤمنين بمرصد

ويروى أن حسان بن ثابت لما بلغه شعر الجنى وما هتف به فى مكة قال أبيات مطلعها :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم وقد سُرَّ من يسرى إليهم ويغدى

^١ - هنيئا لبنى كعب .

قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و أن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .
معجزة نبوية :

واسم أم معبد المشار إليه فى الأبيات المتقدمة ، عاتكة بنت خالد ، وهى امرأة من بنى كعب من خزاعة ، وقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وكانت سيدة برزة^١ جلدة تسقى وتطعم ، فسألوها لحمًا وتمراً يشترونه منها ، وكانوا جياعا ، فلم يجدوا عندها شيئاً ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة ، فقال ما هذا الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت هى أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبا فاحلبها ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها ، فسمى الله تعالى ، ودعائها فى شأنها ، فتفاجت^٢ عليه ودرت واجترت ، ودعا بإناء فحلب فيه ثجا^٣ حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى روى ، وشرب آخرهم ، ثم صب فيه ثانياً بعد بدء حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها ؛ ثم بايعها على الإسلام ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ، والشاة عازب حيال^٤ ، ولا حلوب فى البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا ، و وصفته له فى كلام طويل كله حق ، قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى نكر

١ - المرأة البرزة هى العفيفة التى تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهى المرأة التى أسنت وخرجت عن حد المحجوبات .

٢ - أفسحت له ليتمكن من الضرع .

٣ - مال بكثرة .

٤ - لم تحمل .

لنا من أمره ما ذكر بمكة ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .
فطنة أسماء :

قالت أسماء رضى الله عنها : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه ،
احتمل أبو بكر ماله كله ، وكان خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه ، قالت :
فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ،
قالت : قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، قالت فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة (
بطاقة) فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ،
فقلت يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان قد
ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ؛ ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن
أسكن الشيخ بذلك .

أقول وما أعجب أثر الهدى فى سلوك أهل الإيمان حتى الأطفال منهم ، وما أعظم سيدنا أبا
بكر فى إثارة الله على أهله وماله ، وما أسعده بصحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة !
جزع بنى هاشم :

وقد جزعت بنو هاشم لخروجه صلى الله عليه وسلم من بينهم ، حتى لقد قالت عمته عاتكة
بنت عبد المطلب فى أسفها على خروجه ، مع أنها كانت لا تزال على دين قومها :
أعينى جودى بالدموع السواجم على المرتضى كالبدر من آل هاشم
على المرتضى للبر والعدل والتقوى وللدن والدينيا بهيج المعالم
على الصادق الميمون ذى الحلم والنهى وللفضل والداعى لخير التراحم

مائة ناقة لمن يرّد الرسول على قريش :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم ؛ قال سراقه بن مالك : فبينما أنا جالس في نادى قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفاً ، إنى لأراهم محمداً وأصحابه

قال سراقه : فأومأت إليه بعيني : أن اسكت ، ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت فدخلت بيتي ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى (درعى) ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره ((لا يضره))^٢

معجزة أخرى نبوية :

ثم مضى سراقه يقول :

فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينما فرسى يشد بي عشر بي فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره ((لا يضره)) ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عشر بي فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم أنتزع يده من الأرض وتبعهما دخان الإعصار .

أرأيت أيها القارئ العزيز كيف عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع سراقه أن يمسه بسوء ، اللهم احمنا بحماك ، واهدنا بهداك .

قال سراقه : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر ، قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقه أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أرىكم ، ولا يأتىكم منى شىء تكرهونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

^١ - بينما .

^٢ - أى السهم المكتوب فى هذه الكلمة ، أى ان تتمكن من الإضرار به .

قل له وما تبتغى منا ، فقال ذلك أبو بكر ، قال سراقه قلت : تكتبون لى كتاباً يكون آية بينى وبينك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب له يا أبا بكر ، قال سراقه : فكتب لى كتاباً فى عظم أو رقعة ثم ألقاه لى ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ثم رجعت ، فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة (ماء بين الطائف ومكة) قال فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار .
إسلام سراقه رضى الله عنه :

قال سراقه : فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إلك إلك ، ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه (ركابه) كأنها جُمارة^١ ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى ، أنا سراقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه ، قال : فدنوت منه فأسلمت ، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله الضالة من الأبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى^٢ ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : نعم فى كل ذات كبد حرّى^٣ أجر ، قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى (يريد زكاة ماله) .

وقد قالوا أن أبا جهل لام سراقه حين رجع مكة بلا شيء ، فقال سراقه رداً عليه :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً
لأمر جوادى إذ توسخ قوائمه
علمت ولم تشك بأن محمداً
رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

١ - شديد البياض كجمارة النحل .

٢ - إبل الغير تاتى لتشرب من الحوض الذى يسقى من إبله .

٣ - عطشى .

عليك بكف القوم عنه فإننى
أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم
بأن جميع الناس طراً يسالمة

الوصول إلى قباء :

قال ابن إسحق :

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء ، ونزل على بنى عمرو ابن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحا وكادت الشمس تعتدل .

ويحدث ابن إسحق بسنده عن بعض الصحابة قالوا :

فلما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكلنا (انتظرنا) قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتْنَا^١ ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وإنما ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته :

يا بنى قَيْلَةَ (هم الأنصار ، وقيلة جدهم) : هذا جدكم (حظكم السعيد) قد جاء ، قال : فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

أقول : فالله ما أوفاك أيها الصديق الأكبر والعلم الأشهر ، فقد علمت المؤمنين

^١ - الحرة : هى أرض ذات حجارة سود .

كيف يكون حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أسعد من قلبك وأخذ عنك ذلك الحب الخالص .

يوم الأثنين :

وكان وصوله إلى قباء في يوم الأثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول حين اشتد الضحا ، وما أعجب يوم الأثنين في تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ولد يوم الأثنين ، ونبئ يوم الأثنين وخرج من مكة يوم الأثنين ، ووصل إلى ضواحي المدينة (قباء) يوم الأثنين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الأثنين ، فما أبرك يوم الأثنين . وقد كنت في طفولتي آنس بيوم الأثنين ولا أدري سر ذلك الأنا ، فلم كبرت ووقفت على السيرة النبوية العطرة انكشفت لي ما كان خافياً على ، والله في خلقه شؤون ، وما أرادته يكون .

في قباء :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس و أسس مسجد قباء .

أقول : وهو أول مسجد بني في الإسلام ، وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من وضع حجراً في قبلته ، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً إلى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ الناس في البنين .

قال ابن إسحق :

ثم خرج صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف ، فصلاه في المسجد الذي في بطن الوادي^١ فكانت بالمدينة . أول جمعة صلاها

^١ - سمي هذا المكان مسجدا باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه وسجد .

الأنصار يرحبون :

وكانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بإذن ربه كما علمت ، وقد وصل إليها في رعاية الله سالماً غانماً ، فتلقاه أهلها بالفرح الغامر ، وغنت بنات النجار بين يديه الأغنية المباركة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكانت بيوتات الأنصار يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة ، ويمسكون بزمام الناقة التي يركبها صلى الله عليه وسلم ، فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى أتت إلى دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ مربد (موضع يجفف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بنى النجار .

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رَحَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يارَسُولَ اللَّهِ لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان لى وسأرضيهما فيه فاتَّخَذَهُ مسجداً .

المسجد النبوي :

قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجداً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومسакنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم بينونه يقولون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

قال ابن إسحق : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

معجزة نبوية :

قال ابن إسحق : فدخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن ، فقال : يا رسول الله قتلوني ، يحملون على ما لا يحملون ، قالت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفذ وفرته (شعر رأسه) بيده ، وكان رجلاً جعداً^١ وهو يقول : ويح ابن سميّة ! ليسوا بالذى يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية .

أقول : وقد قتله فئة معاوية في صفين ، فقال إمامنا على كرم الله وجهه : الحمد لله الذى أرانى أنى على حق . فانظر كيف تحققت المعجزة بعد أربعين سنة ، وصلوات الله على صاحب المعجزات .

قال ابن إسحق :

وارتجز على بن أبى طالب يومئذ :

لايستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا^٢

أدب الأنصار :

قال ابن إسحق يحدث بسنده عن أبى أيوب الأنصارى قال :

لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السفلى (الدور الأول) و أنام و أم أيوب فى العلو ، فقلت له :

يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى . إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون

^١ - الشعر الجعد هو الملتوى ، وهو شعر عمار رضى الله عنه .

^٢ - يبعد التراب عن نفسه .

تحتى ، فأظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفلى .
فقال يا أبا أيوب : أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفلى البيت .
أقول : رأيت كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رأفته بمن يأتيه من المؤمنين ، و
كيف كان يشق عليه تعبهم ، ولم لا وقد حلاه ربه بوصفه الخالد : (لقد جاءكم رسول من
أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .
و استمع إلى بقية ما حدث به سيدنا أبو أيوب ، لترى ما كان من أدبه مع النبى صلى الله
عليه و سلم :

قال أبو أيوب رضى الله عنه : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفلى المسكن و كنا
فى علوه ، قلقد انكسر حب (إناء كبير) لنا فيه ماء ، فقامت أنا و أم أيوب بقطيفة لنا ، ما
لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه
شئ فيؤذيه .

أول خطبة خطبها رسول الله :

قال ابن إسحق :

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون
أو محبوس ، واستجمع له إسلام الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها
وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى :

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن
والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا
حاجب يحجبه من دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت
لنفسك ؟ فلينظرن يميناً و شمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن
استطاع أن يلقى وجهه من النصار

ولو بشق من تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

قال ابن إسحق :

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم ؛ وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين و الأنصار فقال . فيما بلغنا عنه ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل . تأخوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى .

أقول : ولاحظ القارئ الكريم الشرف الكبير الذى خص به إمامنا على ابن أبي طالب بهذا الإخاء الذى شرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حكمة المؤاخاة :

قال السهيلي : أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشير ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه فى سورة الأنفال : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) ، يعنى فى الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم أخوة ، فقال تعالى فى سورة الحجرات : (إنما المؤمنون إخوة) ، يعنى فى التوادد وشمول الدعوة .
الأذان للصلاة واستحكام الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه أصحابه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحکم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ،

الإسلام ، وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فصار المسلمون يداً واحدة على أعدائهم ، وقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بعون الله وقوته من نصر إلى نصر .

وكانت بداية النصر المبين غزوة بدر الكبرى ، وهى التى ظهرت وتجسمت فيها شخصية المسلمين ولو كره الكافرون ، ففى هذه الغزوة كتب الله للمسلمين أول انتصار حربي وأروعه على كفار مكة الذين كادوا السنوات الطوال للإسلام وأهله واضطروا المسلمين أن يخرجوا من ديارهم لا لذنوب إلا أن يقولوا ربنا الله .

وقام القتال بين المسلمين وأعدائهم فى بدر بغير ميعاد سابق ، ولا باستعداد مدير ، وكان الله تعالى أراد أن يكافئ المسلمين على التأخى الصادق ، فأتهم النصر العزيز المفاجئ ، ليكون بداية سعيدة تقودهم من نصر إلى نصر فى الغزوات اللاحقة .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان مقبلاً من الشام فى عير عظيمة لقريش ، تحمل أمواله وتجارتهم ، فقال لأصحابه : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فخرج بعض الصحابة وتخلف البعض حيث لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً .

ولما علم أبو سفيان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقر أصحابه أن يأخذوا العير ، اتصل بأهل مكة واستنفرهم ليدافعوا عن العير ، وقد أفلتت العير ، ولم يتمكن المسلمون من وضع يدهم عليها ، وجاءت قوات قريش وعلمت بأن العير أفلتت ، ورأى بعضهم أن يرجعوا إلى مكة من غير قتال ، ولكن أبا جهل أبى وقال : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ (وكانت بدر من مواسم العرب) فنقيم عندها ، ثلاثاً وتنحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان (الجوارى) ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون بها بوننا أبداً بعدها فأمضوا رأيهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة لبضع ليال مضت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وأتاه الخبر بأن قريشاً خرجوا من مكة

ليمنعوا غيرهم ، فاستشار أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فأحسنوا القول وأظهروا الطاعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يسأل القارئ نفسه : ولماذا يستشير الرسول أصحابه ، وهو المطاع أمره بلا تعقيب ؟ والجواب أن الله تعالى قال له : (وشاورهم فى الأمر) .

وقال فى المؤمنين : (وأمرهم شورى بينهم) ، فسن لنا صلى الله عليه وسلم الشورى فى الأمور العامة ، وسبقنا بذلك كل الأمم ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فإن بيعة العقبة قامت على أن يحمى الأنصار الإسلام فى المدينة ، وكانت بدر خارج المدينة وبينها وبين المدينة ١٥٠ كيلو متر .

ولما رأى رسول الله قوات قريشاً قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم أحسنهم (أهلكهم) الغداة!

وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يمكنه من أعدائه ، إما بالاستيلاء على غير أبى سفيان أو بالنصر على جيش قريش . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) .

وقد أراد الله أن يقع القتال بعد أن أفلتت العير فكانت الحرب ذات الشوكة ، وقد كانت معنويات الصحابة قوية على الرغم من أنهم حين خرجوا من المدينة لم يكن فى حسابهم قيام الحرب مع أعدائهم ، ولترى صورة مشرقة لشجاعة الصحابة ومعنوياتهم القوية فى لقاء أعدائهم الكافرين أقرأ ما قاله عندما شاورهم الرسول فى القتال كل من سيدنا المقداد بن عمرو وسيدنا سعد بن معاذ : فقد قال الأول : يارسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا

قاعدون) ، ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون .
وقال الثاني : قد أمانا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .
فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .
وسعد بن معاذ – رضى الله عنه – هو رئيس الأوس من الأنصار ، وهو الذى أشار ببناء عريش يستظل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فى إبداء رأيه هذا : يارسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام – ياتى الله – ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصرونك ، ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ثم بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً فكان فيه) .
وعلى الرغم من أن عدد مقاتلى مكة كان ثلاثة أمثال عدد المقاتلين من الصحابة فإن الله تعالى قد نصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة ، وقد شاء الله أن يقتل فى تلك الغزوة صناديد قريش ورعوس الكفر ، وعلى رأسهم أبو جهل أعدى أعداء الإسلام .
وقد رأيت صوراً مشرفة من كلام أسلافك الغر الميامين قبل المعركة ، فانظر إلى صورة مشرفة من أفعالهم فى المعركة ، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على القتال ويتوسل : والذى نفس محمد بيده : لا يقاتلهم اليوم رجل

فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال سيدنا عمير بن الحمام من بنى سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ (كلمة أعجاب) أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل ، رضى الله عنه .

وقد خفق رسول الله خفقة بعد أن دعا ربه بالنصر ، ثم انتبه من خفقته ، وقال لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وكان معه فى العريش الذى يشرف منه على المعركة : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثنياه النقع (الغبار) . وكان النصر للمؤمنين ، وقتل من الكافرين سبعون ، فى حين لم يزد عدد شهداء المسلمين على أربعة عشر رجلاً ، وكانت واقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

الملائكة فى غزوة بدر الكبرى :

ويحكى القرآن الكريم ما كان من عون الله للمسلمين فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) ، فانظر كيف تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمدهم الله بثلاثة آلاف ، فأمدهم بخمسة آلاف ، وكيف قاتلت الملائكة فى صفوف المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بقتالهم ، فعلمهم الله بقوله الكريم فى سورة الأنفال : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فنبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق

الأعناق واضربوا منهم كل بنان* ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب* ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) ، فعلمهم ضرب الأعناق وضرب الأطراف التي يصيبون بها المقاتل ، والله جنود السموات والأرض ، وقد قال ابن عباس : لم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا فيما سواه عدداً ومدداً لا يضربون .
أقول ولك أن تعجب بأمر تلك الهجرة الميمونة ، التي جعل الله بها من الغربة وطناً ، ومن الضعف قوة ، ومن الخوف أمناً ، ومن البعيد عوناً على القريب ، والله يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

الأنصار يتحدثون بنعمة الله :

قال ابن إسحاق :

" وقال أبو قيس صرمة بن أبي قيس (من بني النجار) يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام ، وما خصهم الله به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى في قريش بضع عشر حجة	يُذَكِّرُ لو يلقى صديقاً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم يرى من يؤوى ولم ير داعياً
فلما أتانا أظهر الله دينه	فأصبح مسروراً بطيبة راضياً
وألقى صديقاً واطمأنت به النوى	وكان له عوناً من الله بادياً
يقص لنا ما قال نوح لقومه	وما قال موسى إذ أجاب المنادياً
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً	قريباً ولا يخشى من الناس نائياً
بذلنا له الأموال من حل مالنا	وأنفسنا عند الوغى والتأسياء
نعادى الذى عاد من الناس كلهم	جميعاً وإن كان الحبيب المصافياً
فوالله ما يدرى الفتى كيف يتقى	إذ هو لم يجعل الله له واقياً

عداوة اليهود والمنافقين :

قال ابن إسحاق :

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغياً وحسداً وضغناً ، واستتر بالإسلام بعض العرب ، واتخذوه وقاية من القتل ، ونافقوا فى السر وكان هواهم مع اليهود .

ولما أصاب الله عز وجل قريشاً يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود فى سوق بنى قينقاع حين قدم المدينة ، (أى بعد معركة بدر) فقال يامعشر اليهود : أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب به قريشاً ، فقالوا له يا محمد ، لا يغرنك من تفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنت لم تلق مثلنا ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن إسحاق :

وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالماً ، قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته ، واسمه ، وزمانه الذى كنا نتوكف (نترقب) له ، فكنت مسراً لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبره بقدمه ، وأنا فى رأس نخلة أعمل فيها ، وعمتى خالدة

ابنة الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت

فقلت لها أى عمّة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، على دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت أى أين أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه بعث مع نفس الساعة (أى رسالته علامة على قرب القيامة) ؟ فقلت : لها نعم ، فقالت فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له يا رسول الله : إن يهود قوم بهت (على الباطل) ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .

فأخذنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم يا معشر يهود ، اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فأنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ، فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث ، فحسن إسلامها .

قال ايت إسحاق :

وفى أحبار اليهود الذين لم يسلموا ، وفى المنافقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها ، وقال الله للفریقین : (يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل

لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) . أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه ، ثم قال تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) .
قال ابن غسحاق :

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه : قال : قالوا : فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) . قال : كنا قد علوناهم ظهراً فى الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش فاتبعناه كفروا به .

كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر :

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى : ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر

السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الأنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) ، وإنى أنشدكم بالله ، وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم أسباط المن و السلوى ، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لأبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، إلا أخبرتمونى : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم (قد تبين الرشد من الغى) فادعوكم إلى الله ونبيه .
قال ابن إسحق :

وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضبا لربه ، قال فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه ، فقال : خفض عليك يا محمد ، وجاءهم من الله بجواب ما سأله عنه (قل هو الله أحد * الله الصمد ^(١) * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) . فلما تلاها عليهم ، فقالوا : فصف لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم ، فاتاه جبريل عليه السلام فقال له مثل ما قال له أول مرة وجاءه من الله بجواب ما سأله ، يقول الله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

(١) الصمد أي الذى يلجأ الناس إليه .

قال ابن إسحق :

وقد دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه ، وحذرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خراجه و مالك بن عوف : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيراً منا ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما : (و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا على آباءنا أولو كان أبؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) . (!

و أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض اليهود وقالوا له : يا محمد ، أما تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو ، فأنزل الله فيهم وفى قولهم فى سورة الأنعام : (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برئ مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) .

وأتى رسول الله جماعة من اليهود فقالوا : أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به الحق من عند الله ؟ فإننا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة ، ولو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به ، فقالوا عند ذلك : يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله : تجدون ذلك مكتوباً فى التوراة ، فقالوا : يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا

جنناك بمثل ما تأتي به ، فأُنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

بين الرسول والمسيحيين

قال ابن إسحق :

وقد ذكر الله أمر عيسى ردا على من اختلفوا في أمره ثم قال تعالى : (أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين) فإن قالوا خلق عيسى من غير ذكر ، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة ، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا .

ثم قال تعالى : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) ، أي بعد ما قصصت عليك من خبره ، وكيف كان أمره ، (فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) .

وقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الملاعة فقالوا : دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فأنصرفوا عنه ، وخلصوا ((بالعاقب)) وكان ذا رأى فيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمداً نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لآعن قوم نبى قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وأنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، و نرجع على ديننا .

أقول : وللقارئ أن يعجب من هؤلاء الذين رأوا الحق بأنفسهم و جحدوه ولم يتبعوه ، فحرموا أنفسهم من سعادة لا شقاء بعدها ، وسبحان من بيده ملكوت كل شيء (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

الغزوات والبعوث و السرايا :

وفى أثناء إقامته بالمدينة جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه من المهاجرين و الأنصار أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين ، عربهم ويهودهم ، وكان جهاده لأعداء الدين جهاداً كبيراً ، قابل فيه المسلمون الشدائد بعزم مؤكد ، وهو عزم أهل اليقين الذين تهون عليهم كل تضحية فى سبيل الدين ، ولا تعجب أن يكون ذلك شأنهم ، وقاندهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يتقون به إذا حمى الوطيس ، كما حدث إمامنا على بن أبى طالب ، فقد قال كرم الله وجهه : ((كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو)) ، وكانت للمسلمين بعون الله الغلبة الفائقة على أعدائهم ، ورضى الله عن إمامنا البوصيرى إذ يقول فى برده المباركة بروحه الملهمة :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة^١ أجفلت غفلاً^٢ من الغنم
ما زال يلقاهم فى كل معترك حتى حكوا بالقنالحمأ^٣ على وضم^٣
يجر بحر خميس^٤ فوق سابع يرمى بموج من الأبطال ملتطم

^١ - النبأة : أى الصرخة الشديدة .

^٢ - الغفل : أى البليد .

^٣ - الوضم : ما يضع عليه الجزار اللحم .

^٤ - الخميس : الجيش الكبير .

من كل منتدب لله محتسب
حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم
مكفولة أبداً منهم بخير أب
هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
وسل حنيئاً وسل بدراً وسل أحداً
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم
كانهم في ظهور الخيل نبت ربا
ومن تكن برسول الله نصرته
أحل أمته في حرز ملته

يسطو بمستأصل للكفر مصطلم^١
من بعد غربتها موصولة الرحم
وخير بعل فلم تيتم ولم تتم
ماذا رأى منهمو في كل مصطدم^٢
فصول حتف^٣ لهم أدهى من الوخم^٤
والورد يمتاز بالسيما من السلم^٤
من شدة الحزم لا من شدة الحزم
إن تلقه الأسد في آجامها تجم
كالليث حل مع الأشبال غى أجم

قال ابن إسحق :

وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين غزوة هي : غزوة ودان أو غزوة الأبواء ، ثم غزوة بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى التي قتل فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بنى سليم ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان أو ذي أمر ، ثم غزوة بحران ، ثم غزوة قينقاع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع ، ثم غزوة بدر الآخرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى الحيان ، ثم غزوة ذي قرد ، ثم غزوة الفتح ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك .
وقد قاتل صلى الله عليه وسلم منها في تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، وحنين ، والفتح ، والطائف .
وكانت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية .

^١ - مصطلم : أى مهلك .

^٢ - الحتف : هو الموت .

^٣ - الوخم : هو الوباء .

^٤ - السلم : شجر له شوك يشبه شجر الورد .

فرض الهجرة :

خرج المسلمون مهاجرين بعد ثلاثة عشر عاماً من بعثته صلى الله عليه وسلم ، ثم عادوا إلى مكة في السنة الثامنة من الهجرة فاتحين ، وكانت الهجرة فرضاً على المسلمين قبل فتح مكة ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة مفروضة ، لكن جهاد و نية ، ولهذا قال تعالى في سورة النساء أمراً بالهجرة و حاضاً عليها ، و منذراً المتخلفين عنها قبل الفتح : (إن الذين توفاهم الملا نكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً) .

أصحاب الأعدار :

وقد عذر الله المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لم تتهبأ لهم أسباب التخلص والزاد والراحلة حتى يهاجروا للحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وحين نزل قوله تعالى : (إن الذين توفاهم الملا نكة ظالمي أنفسهم) قال رجل من المسلمين وهو مريض ، وقيل اسمه ضمرة بن جندب ، والله مالى من عذر ، إنى لدليل فى الطريق ، وإنى لموسر ، فاحملونى فحملوه فأدرکه الموت فى الطريق ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو بلغ إلينا لتم أجره ، وقد مات فى التنعيم^١ . وجاء بنوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم و أخبروه بالقصة ، فنزلت الآية الكريمة : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً) .

^١ - مكان خارج مكة ببضعة كيلومترات ، ويحرم منه العمرة ويقال له مسجد عائشة .

وقال الإمام البيضاوى فى تفسيره : أن ذلك المهاجر التّقاشرف على الموت ، فصفق بيمينه على شماله فقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ؛ وتفيد الآية أن أجره ثبت عند الله ، والمراغم هو المتحول ، وهو من الرغام أى التراب ، وقيل يجد طريقا يراغم بسلوكه قومه ، ويفارقهم على رغم أنوفهم ، وهو أيضاً من الرغام .

الفرار بالدين :

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى : قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول المراغم الذاهب فى الأرض ، وقال الإمام مالك أيضاً : هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسب فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق ، والهجرة التى كانت فرضاً فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم وانقطعت بفتح مكة هى القصد إليه صلى الله عليه وسلم ، أما الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام فهى باقية مفروضة إلى يوم القيامة .

نصيحة :

أقول : فانظر كم تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكم تحمل أصحابه ، وكم قاسوا الشدائد واقتحموا الصعاب فى توطيد دعوة الحق ، فلا تستهن أيها المسلم بدعوة الإسلام التى أنتك بيضاء كاللبن من بين فرث ودم ، وشد يدك على دينك ، واعتز به ، واحمد الله على هداك ، وانو الجهاد بنفسك ومالك إن دعيت للجهاد فى سبيل الله ، وجاهد نفسك التى بين جنبيك وألزمها آداب الإسلام ظاهرها وخافئها ، فالآداب الظاهرة حظ الجوارح ، والآداب الخافية حظ القلوب والأرواح ، ولا خير فى ظاهر لايتفق معه الباطن ، وقد تعبد الله الجوارح بالأفعال ، وتعبد القلوب بالنيات ، واجتنب الفواحش الباطنة ، والأخلاق الشيطانية السيئة من الرياء والنفاق والحقد والحسد ، والتبرم بالمقدور ، والكبرياء والعجب والخيلاء وما إلى ذلك . ولتعلم أيها الأخ المؤمن أن أسلافك الشجعان الأمناء روى لى وكافة المسلمين ، أنه كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحياء ، والسخاء ،

والتوكل ، والرضا ، والذكر ، والشكر ، والحلم ، والصبر ، والرفقة ، والرحمة ، والمداراة ،
والنصيحة ، والسكينة ، والوقار ، والتواضع ، والافتقار ، والجدود ، والسماحة ، والخضوع ،
والقوة ، والشجاعة ، والرفق ، والأخلاص ، والصدق ، والزهد ، والقناعة ، والخشوع ،
والخشية ، والتعظيم ، والهيبة ، والدعاء ، والبكاء ، والخوف ، والرجاء ، واللياقة ، واللجأ ،
والتهجد ، والعبادة ، والجهاد ، والمجاهدة – ولا تستكثر ذلك على رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقد شهد الله له بالخلق العظيم فى قوله الكريم : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، فتخلق
بأخلاقه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

وقد سئل الإمام سهل التستري رضى الله عنه عن الكرامات ، فقال : وما الكرامات ؟ إن
الكرامات شئ ينقضى لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك إلى خلقاً
محموداً . كما قال الإمام أبو على الجرجاني رضى الله عنه : كن طالباً للإستقامة لا طالباً
الكرامة ، فإن نفسك منجبله على طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الإستقامة ، وقال الإمام
الجنيد رضى الله عنه لرجل رآه فى رؤيا بعد موته وقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : راحت تلك
الإشارات ، وطاحت تلك العبارات ، وما نفعنا إلا ركعت ركعناها عند السحر ، وأخيراً لا تنسى
أن الله تعالى يقول لنا :

(تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً) . والتقوى كما عرفها إمامنا على كرم الله
وجهه هى الخوف من الجليل ، والعمل بما فى التنزيل ، والإستعداد ليوم الرحيل .
أقول : وإذا كان الإسلام قد انتشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير الجزيرة العربية
التى شمع منها نور الإسلام فيها على يد رسول الله ، فمحا ظلمة الكفر ، فقد كان ذلك بفضل
أصحابه الكرام ، الذين نقلوا عنه صلى الله عليه وسلم الجهاد الدائم فى سبيل الله ، مهما عظمت
التضحيات لنشر دينه الذى أرسله الله به لكافة البشر ، فلمن تبذل مجهودك إن لم تبذله لمعبودك
، ألم يقل الله لى ولك وللمسلمين كافة (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها

ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) ، فادع إلى سبيل ربك بكل ما تملك من وسائل ، وادعوا أول ماتدعوا نفسك التي بين جنبيك وهي الأقرب إليك لتؤدي حق الإسلام عليك ، ولتكن عنايتك بنشر الإسلام بعد ذلك بين أهله من المسلمين ، فقد جانبوا أكثر آدابه الحقّة ، وحادوا فيها عن الصراط المستقيم ، ولولا أن الإيمان بالله ورسوله لا يزال يحليهم ليئسنا من إصلاحهم ، فقد تعادوا أفراداً وشعوباً وقبائل وأممّاً وكانوا متحابين ، وتحاسدوا وكانوا بم آتى الله بعضهم فرحين ، وأهملوا العبادات بعد أن كانوا بها يزدهرون ، وولعوا بتقليد غيرهم بعد أن كان الناس بهم مقتدون ، وما أغناهم عن التقليد ، وما أحوج غيرهم إلى عقيدة الإسلام وآدابه التي أغناها الله بها من فضله ، فوا إسلاماه !! ، وإذا كنا في الماضي نعزو ما حل بنا من فساد الأحوال للاستعمار ، فقد نفضنا عاره عنا وصرنا أحرار في بلادنا الإسلامية وتهيأت لنا فرصة لإصلاح ما فسد .

فإن نحن أبرزنا أثر الإسلام في سلوكنا كأمة ، كانت تلك أعظم رعاية عملية للإسلام فاستغنيا بها عن كثير الكلام ، إن الأمم الأعجمية رحبت بالإسلام حين رأوا من أسلافنا الصالحين عدلاً شاملاً في الأحكام ، تنفيذاً لأوامر الله ، فقد قال تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) ، فإذا نحن انتهينا عن الفحشاء والمنكر والبغى عادت لنا سيرتنا الأولى ، وكنا كأسلافنا صالحين .

نحن وأسلافنا الصالحون :

وإذا ذكرت أسلافك الصالحين أيها القارئ الكريم فاستغفر لهم كما علمك الله بقوله تعالى في سورة الحشر : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) .

لقد جاءك الإسلام يأخى سهلا ، لأنهم تحملوا عنك فيه الصعب ، فاذكر الفضل لأهله ولا تكن من الجاحدين ، فما أبر الخلف إن ذكروا بالفضل السلف ، وما أحق سلفك بوفائك ، وما أجدرهم بدعائك وهم في رضوان الله ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاصدق معهم فيما أدبك الله به ووجهك إليه ، وكيف تبخل عليهم بدعائك وقد جادوا من أجلك بأرواحهم ، وخلقوا لك السعادة في إسلامك ؟ !

الباب السادس

الإسلام فى الحرب والسلم

دعوة الإسلام سلمية :

كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول أمرها سلمية ، وظل يسالم أعداءه ، ويصبر على ما يلقى هو وأصحابه من أذاهم السنوات الطوال ، ذلك الأذى الذى تفنن فيه الأعداء من ضرب وشتم ومقاطعة وإخراج وإحصار ، ولذلك والرسول صلى الله عليه وسلم صابر محتسب ، يعفو ويصفح الصفح الجميل بأمر ربه ، ولكن أعداءه لكفرهم وخستهم لم يزدهم صفحة إلا عتواً وغروراً ، وهى شيمة النفوس الخبيثة التى لا نزداد بحسن المعاملة إلا تمرداً ونكراناً .

وقد فكر بعض المؤمنين أن يردوا على العدوان بقتل من يستطيعون قتله من الكفار بالاحتتيال والغدر ، ولكن الله تعالى نهاهم عن ذلك بقوله تعالى فى سورة الحج : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور) وفى الآية نهى صريح عن الخيانة والغدر .
الإذن للمسلمين بالقتال :

ثم أباح الله للمؤمنين أن يقاتلوا أن يقاتلوا أعداءهم وجها لوجه ، كما مر عليك ، ووعدهم النصر على أعدائهم ، فقال تعالى فى سورة الحج بعد الآية السابقة : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض

أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) .
وجاء الإذن بالقتال كما علمت بعد بيعة العقبة التي بايع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
الأنصار على أن يأتي المدينة ويحموه كما يحمون أنفسهم وأهليهم . وكانت أول وقعة بين
المسلمين وأعدائهم غزوة ((بدر الكبرى)) فى السنة الثانية من هجرة سيد المرسلين صلى
الله عليه وسلم ، وتم له فيها النصر المبين ، مع أن عدد أصحابه كان أقل من ثلث عدد
أعدائهم ، ولكن الله أيده بجنود من السماء لا تراها العيون وتراها القلوب اليقين ، وذلك النصر
المبين هو الذى يمن به الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى فى سورة آل
عمران :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) .

التحريض على القتال :

وانظر كيف يحرض الله المسلمين على القتال ، فيبين لهم فضيلة الاستشهاد فى سبيل الله ،
وذلك فى قوله تعالى : (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين
قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم
.)

ثم إنه تعالى يحذرهم من التباطؤ فى التجمع للحرب تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم
، فيقول تعالى فى سورة التوبة : (ياايها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله
اثاقتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل
* إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير
* إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى

اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .
كما أنه تعالى يُسَوِّغُ لهم القتال المشروع ؛ فيقول كذلك فى سورة التوبة : (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) .

ويبين سبحانه أنه ولى المؤمنين ولا يتخلى عنهم فى قتالهم فيقول فى سورة التوبة بعد ذلك :
(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) .

ولما حظر الله على المشركين دخول الحرم بقوله تعالى فى سورة التوبة : (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ، ورأى المسلمون أن ذلك سيؤثر فى أرزاقهم التى كانت ترتبط بتجارة المشركين ، طمأنهم سبحانه بقوله الكريم : (وإن خفتم عيلة ^(١) فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) .

ومما عوضهم الله به أن فرض الجزية على أعداء المسلمين ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .

(١) فقرا.

الشدة على الأعداء :

ثم انظر كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يعلم أنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، فيأمره بأن يعامل الكفار والمنافقين بالغلظة التى يستحقونها ، فيقول سبحانه فى سورة التوبة : (يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) ، وهى آية نسخ الله بها ما كان قبل القتال من العفو والصفح والصلح .

ويبين الله تعالى حكمته فى قتال الكفار بأن قتالهم إنما شرعه لدفع باطلهم وصددهم عن سبيل الله ، فهو يدفع بأهل الايمان ، وهم أهل الحق ، أعداءهم الكافرين وهم أهل الباطل ، وذلك يتضح من قوله تعالى فى سورة القتال : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم * فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) ، والمراد التخيير بين الأسر وبين المن بالإطلاق وبين أخذ الفداء من الأسرى .

تعاون المؤمنين :

وكما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغلظ على الكافرين فى جهاده لهم ، أمر كذلك المؤمنين بالغلظة عليهم اقتداء به صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من

الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال العرب ، ثم قصد الروم بعد العرب وكان الروم بالشام .
وبين سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه يحب تعاون المؤمنين وترابطهم في قتال أعدائهم ، فقال عز وجل في سورة الصف : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص) ، والبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .
المتخلفون عن القتال :

وقد وبخ الله الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال تعالى في تفرغهم في سورة التوبة : (ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة^(١) في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) .

وأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يخرجوا للحرب جملة ، شباناً وشيوخاً ، فقال تعالى : (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) ، حتى لقد روى عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية (انفروا خفافاً وثقالاً)

(١) المخمصة معناها الجوع .

فقال : أى بنى ، جهزوني ، جهزوني . فقال بنوه : يرحمك الله ، وقد غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع إبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، قال : لا ، جهزوني ، فغزا فى البحر فمات فى البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير رضى الله عنه . وقال الزهري : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهب إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل ، فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع ^(١) .

جهاد التفقه فى الدين :

وبينما قال تعالى : (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ...) بين لهم أن التفقه فى الدين من لوازم المسلمين ، وهو نوع آخر من الجهاد المفروض على فريق منهم لا يحتاجهم إليه فى الوقوف على أحكام دين الله تعالى ، فقال عز وجل فى سورة التوبة : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ، وفى هذا إيجاد التفقه فى الكتاب والسنة ، وهو فرض كفاية فى التخصص إن أداه البعض سقط عن الآخرين ، فإذا تفقه البعض كانوا مرجعاً للآخرين ، بدليل قوله تعالى فى سورة النحل : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) . والتفقه بغير تخصص فرض على كل مسلم ومسلمة ، حيث يلزم الكل أن يعلموا أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج حتى تتم تأدية هذه الفرائض على الوجه الشرعى الصحيح ، ولهذا قال أنس ابن مالك رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((طلب العلم فريضة على كل مسلم)) . وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة .

^(١) يريد أن يقول إنه بخروجه يزيد فى عدد المقاتلين ، وإن لم يستطع قتال الأعداء فإنه يستطيع أن يكون حارساً ويحفظ متاع المقاتلين من الضياع .

جزاء المجاهدين :

وإذا أردت أن تستبشر بما أعد الله للمجاهدين في سبيله فاقراً قوله تعالى في سورة التوبة : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

وقد جاء في معناها في تفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه : ((وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوض ولا يقاس به ، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال فسمى هذا شراء . وروى الحسن قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن فوق كل بربر حتى يبذل العبد دمه ، فإن فعل ذلك فلا بر فوق ذلك)) وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال الحسن : ومر أعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ...) ، فقال : كلام من هذا ؟ قال : كلام الله ، بيع والله مريح لا نقيه ولا نستقيه ، فخرج إلى الغزو واستشهد .

الإسلام والقتال :

إذا قرأت في كتب المبشرين ، أو كتب من يشايعونهم أو يتأثرون بهم ، فلا تنخدع بقولهم إن الإسلام لم ينتشر بمزاياه ، وإنما انتشر بحد السيف ، واستمع إلى ما يقوله في دفع هذه الفرية العلامة ((عباس العقاد)) رحمه الله في كتابه ((عبقرية محمد)) :

((فالحقيقة الأولى أن مطعن القائلين بأن دين الإسلام دين قتال إنما يصدق . لو صدق . فى بداية عهد الإسلام يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولا هم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح .

((لكن الواقع أن الإسلام فى بداية عهده كان هو المعتدى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد ، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك ، (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)

((وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمون كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه ،

((وحروب النبى عليه السلام . كما أسلفنا . كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود وحروبه مع الروم ، وفى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره .

((والحقيقة الثانية ، أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع ،

((ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف ” سلطة “ تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه ،

((ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثية ، وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف ...

((وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت

تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ...
((والحقيقة الثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها .
((فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، وماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله * فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) .
((والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان ؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه) وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله * فإن فات فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) .
((... إن الإسلام شرع الجهاد ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)) ، وجاء في القرآن الكريم : (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً) .
((وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح ، إلا أن هذه الفتوح تأخرت في الزمن ، ولم يتم شيء منها قبل استقرار الدولة في الإسلام ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور ، وقد ظهر الإسلام قبلها ، وتمكن في أرضه ، واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت في سبيله .

((ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها ؛ فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه ، لوجب في ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التي شاعت في أرض فارس وفي أرض الروم ، ووجب أن يكف الشر الذي يوشك أن ينقض عليها من كليتهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماه ،))
((هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية ، والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب ،

((... والمقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها ، تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع ، فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام ، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه)) .

ويقول العلامة العقاد ، رحمه الله ، فى كتابه ((حقائق الإسلام)) :

((وقد عزى انتشار الإسلام فى صدر الدعوة الإسلامية إلى قوة السيف ، وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت ، وإن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وإندونيسيا والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار لا يكفى لتحويل الآلاف المعدودة . فضلا عن مئات الملايين . من دين إلى دين .

((ولقد عزى انتشار الإسلام بين السود من أبناء القارة الإفريقية إلى سماح الإسلام بتعدد الزوجات ، وما كان تعدد الزوجات بالأمر الميسور لكل من يشتهي من أولئك السود المقبلين على الدين الإسلامى بغير مجهود ، ولكنهم يجدون الخمرة ميسرة لهم حيث أرادوها ، وقد حرمها الإسلام أشد التحريم ، فلم ينصرف عنه السود لأنه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل إنها كانت شائعة بينهم شيوخ الطعام والغذاء)) .

ثم يقول العلامة العقاد رحمه الله :

((إنما هو شمول العقيدة الإسلامية دون غيره ، هو العامل الذى يجمع إليه النفوس ويحفظ لها قوة الإيمان ، ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة كما تفتحت أبوابها أمام المدعويين إليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين)) ،
ويستطرد قائلاً :

((قلنا فى باب العقيدة الشاملة من كتابنا عن ” الإسلام فى القرن العشرين “ :

((... ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشتة وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلاً فى عبادته عن الهيكل فى ذلك الدين أيام كان الدين كله حكراً للكهنة ووقفاً على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة ،
(... إن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ، ودخولهم أفواجاً فى عقيدة المسلمين ،

((مثل هذا لا يحصل فى أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك إليك فإننى لا أومن به ، لأننى لا أومن بك ، ولا أدرى فى سيرتك مصداقاً لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه .

((كلا ، مامن رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين ، وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به ، لأنه إله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبين الله ، أو يعطيه من نعمته قواماً لروحه : (يأبها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) .

((نعم كلهم فقراء إلى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم إلا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فإن لم يجدوا المسجد ، فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء

((..... كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ،

((.... إن هذا الشأن العظيم _ شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم ” وحدة كاملة “ لا يتجلى واضحاً قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الإسلامية . فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الإفريقية على يد تاجر فرد ، أو صاحب طريقة منفرد فى خلوته ، لايعتصم بسُلطان هيكلي ، ولا بمراسيم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الإسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليوناً بين الهلال الخصيب وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى أفريقيا وشواطئها ، إلا القليل الذى يزيد فى بدائه على عشرات الألوف)) .

أقول : ولاشك أن انتشار الإسلام على الصورة الواسعة التى تمت بعد أن فارق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى ، إنما هى معجزة من المعجزات ، فعهدنا بالأديان التى جاء بها قبله سادتنا الرسل الكرام ، أنها كانت تضمحل بعد مفارقتهم للدنيا ، وكانت تتبدل وتتغير ، حتى فى عقيدة التوحيد التى هى أساس كل شريعة من شرائع الله تعالى ، وقد بشر صلى الله عليه وسلم بالفتوحات التى تمت بعده ، فبشر بفتح فارس والشام ... إلخ ، وتحققت المعجزة .

ولا شك فى أن بقاء معجزة القرآن الكريم بعده صلى الله عليه وسلم . وهى دالة بإعجازها على صدق رسالته . كان لها فضل كبير إن لم يكن لها كل الفضل ، فى انشاز الدعوة إلى الحد الذى انتشرت به ، فعدد المسلمين اليوم يصل إلى ربع سكان الأرض المعمورة الذين يزيدون على ثلاثة آلاف من ملايين البشر ، على حين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدد مدينة صغيرة من مدننا فى الوقت الحاضر ، ويؤيدنى فيما ذهبت إليه الحديث الشريف الذى يقول فيه صلى الله عليه وسلم : ((ما من الأنبياء نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى

أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة)) .
والقرآن الكريم قد جلى العقدة الإسلامية ببلاغته الباهرة ، حتى صارت واضحة بينة لا لبس فيها ولا إبهام ، فاستوى في فهمها وإدراكها الأمل والمتعلم ، كما بان للقارئ الكريم من البحث السابق ، وصانها الله بحفظه ورعايته من التغيير والتحريف بفضل بقاء القرآن وهو كلام الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .
قتال دفاع :

وتأمل كيف بين الله تعالى أن القتال فى الإسلام إنما هو قتال دفاع وليس بقتال هجوم أو اعتداء ؛ فقال تعالى فى سورة البقرة : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظلمين) ، فجعل سبحانه علة القتال قيام الكفر ، فإن انتهى الأعداء من أهل الكفر عن الكفر بالإسلام ، أو قبل أهل الكتاب أن يعطوا للمسلمين الجزية كف المسلمون عنهم القتال لزوال سببه باعتناق الإسلام أو أداء الجزية . ومن كل ما تقدم ترى بغير خفاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عظيماً فى حربيه وسلمه ، وترك لأتباعه المسلمين خطط الحرب والسلم مرسومة ، يترسمون خطاه فيها ، ويهتدون بهديها ، وهم أقوياء فى الحرب وأمناء فى السلم .

فحروب النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها حروب دفاع ولم تكن حروب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد وإصرار الأعداء على القتال ، أو قتال سلطة تقف فى طريق الإسلام وتحول بينه وبين سماع المستعدين لقبول دعوته ، ولم يحتكم الإسلام الى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها كالخروج على السطوة الحاكمة أو قتال طائفة بغت على أخرى .

إعلان الحرب :

وحتى فى الإنذار بالحرب ترى عظمة الإسلام واضحة بينة فى قوله تعالى فى سورة براءة : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين) ، وقد كان هناك صنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فاكتمى معه بأربعة أشهر ليتدبر أمره ، ثم يحاربه المسلمون بعد ذلك ، فيقتل حيثما أدركوه أو يؤسر إلا أن يتوب . أما من كان أجله أكثر من أربعة أشهر فهو الذى قال تعالى فى حقهم : (فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم) . وأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انقضاء الأربعة الأشهر الحرم .

فتح مكة المكرمة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صالح قريشاً عام الحديبية على هدنة مدتها عشر سنين ، يأمن الناس فيها الحرب ، فدخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بنو بكر فى عهد قريش ، فعَدَّت بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من خزاعة مستغيثين به فيما أصابهم من بنى بكر وقريش ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاء لحلفائه : ((لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب)) ، ثم نظر صلى الله عليه وسلم إلى سحابة فقال : ((إنها لتستهل لنصر بنى كعب)) ، يعنى خزاعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : ((إن أبا سفيان سيأتى ليشد العقد ويزيد فى الصلح وسينصرف بغير حاجة)) فندمت قريش على ما فعلت ، وخرج أبو سفيان إلى المدينة ليكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلح ، فرجع بغير حاجة كما أخبرهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتجهيز رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى مكة ففتحها الله عليه وذلك في سنة ثمان من الهجرة .
ومما قال شعراً عمرو بن سالم الخزاعي لرسول الله صلى الله عليه وسلم في استغاثتهم به :

يارب إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنت لنا أباً وكنا ولداً نُمّتْ أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرأ عتدا وادع عباد الله يأتوا مدداً
فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل الشمس ينمو صُعدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير ^(١) هجدا وقتاونا ركعاً وسجدا

أسباب النصر :

وديننا الحنيف يقوم على اتخاذ الأسباب ، مع حسن الاعتماد والتوكل على المسبب سبحانه ،
فالنصر على الأعداء إنما يكون بإعداد القوة والصبر على مكاره الحرب ، ولذلك يقول تعالى
في سورة الأنفال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف
إليكم وأنتم لا تظلمون) . ولعلك ترى ما أراه من مرونة في قوله تعالى : (ما استطعتم من
قوة) ، فإن ما كان يستطيعه أوائلنا من السيوف والدروع ليس كافياً في زماننا الذي تطورت
فيه أساليب الحرب ، فاحتاج القتال للقاذفات والمدرعات والبوارج والصواريخ والأجهزة
الإليكترونية ... إلخ إلخ ، وهي ما نستطيعه الآن من القوة في قتال أعدائنا . ثم لعلك تتبين
معى روعة الحض على النفقة في قتال الأعداء في قوله تعالى : (وما تنفقوا

^(١) الوتير : اسم ما بأسفل مكة كان لخزاعة .

من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وانتم لا تظلمون) ، فهى تضحيات ، ولكنها مأجورة ومشكورة منه سبحانه وتعالى ، وهو الذى كتب القتال على المؤمنين درءا لمفسدين فى الارض ، فقد قال تعالى فى سورة البقرة : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

البر على مكاره الحرب :

ثم تطلع معى إلى فضيلة الصبر على مكاره الحرب من خلال قوله تعالى فى سورة الأنفال : (يأيتها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا الفين بإذن الله والله مع الصابرين) . فهو مع الصابرين بنصره وتأييده سبحانه ، وانظر كيف شجع المسلم الواحد فى ثباته أمام العشرة ، ثم خفف عليهم الأمر فجعل ثبات الواحد أمام الاثنين ، فإن زادوا عن اثنين جاز له الفرار .

صلاة الخوف :

ويبين لنا سبحانه وتعالى أهمية الصلاة فى ساحة الحرب ، إذ هى عبادة تصل العبد بربه من طريق روحه وجوارحه ، فيقول عز وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة النساء : (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم

الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتهم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة) .

فانظر كيف حرص الشرع على إقامة الصلاة فى ساحة الحرب !! وكيف لا يحرص على ذلك وللمعنويات أثرها الكبير فى عزيمة المقاتل لأعداء الله انتصاراً لله ونصراً لدينه ، وتأمل معى بلاغة القرآن الكريم فى رفع الروح المعنوية إذ يقول تعالى فى سورة النساء : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً) . وحقاً إنما يرجو المسلمون من نعيم الجنة بدفاعهم عن دين الله ما لا يرجوه الكفار الذى يبوء بغضب الله ، وشتان بين النهائيتين ويا بعد ما بين الفريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وقد وعد الله أهل التقوى نصره ، فقال تعالى فى سورة الحج . (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الارض أقموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) .

قبول الصلح :

وانظر إلى سماحة الإسلام فى الحرب إذ يقول تعالى فى سورة الأنفال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) ، والمعنى وإن دعوك إلى الصلح فأجبهم ، ولا عجب فى ذلك ، فإن دين الإسلام ليس فيه عدوان ولا إكراه ، بل فيه دفاع عن العقيدة ، وحماية لها من طغيان الطاغين ، حين لا تجدى معهم

غير أسلحة القتال ، ورحم الله أمير الشعراء شوقي إذ يقول مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم في همزته :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقيات دواء

فالإسلام في حربه إنما يدفع بها الشر الذي يقف في سبيل الهدى ودين الحق ، فإن مد أعداؤه يد المسالمة جنح المسلمون للسلام ، وإن كان ثمة خلاف بين العلماء في هذه الآية ، حيث قال بعضهم إنها منسوخة ، وقال الآخرون إنها ليست بمنسوخة . فقال قتادة وعكرمة نسخها قوله تعالى في سورة التوبة أيضاً ؛ (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ، وقوله تعالى في سورة التوبة أيضاً : (وقاتلوا المشركين كافة) ، وقالوا كذلك : نسخت براءة كل موادة حتى يقولوا : ((لا إله إلا الله)) . أما ابن عباس ، فقال : إن الناسخ لها قوله تعالى : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) ، والذين قالوا إنها ليست منسوخة قالوا أراد الله قبول الجزية من أهل الجزية . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن عمر ومن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على ما أخذوه منهم وتركوهم على ما هم فيه وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من أهل البلاد على مال يؤدونه ، من ذلك خيبر فقد رد أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف .

قال ابن العربي في قوله تعالى في سورة محمد : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم) : إذا كان المسلمون على عزة وقوة ومنعة وجماعة عديدة وشدة شديدة فلا صلح ، وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لنفع يجلبونه أو ضرر يدفعونه فلا بأس أن يبتدئ المسلمون إذا احتملوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم ، وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده .

وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرحناها سالكة ، وبالوجوه لتى شرحناها عاملة .

أقول : وما أعظم تثبيت الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى وجه أعدائه إذ يقول تعالى فى سورة الأنفال : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) ، والمعنى أنهم إن أظهروا لك السلم كاذبين وأبطنوا الغدر خائنين ، فلا يضرك سوء نيتهم فإن الله واقبك من مكرهم ودافع عنك شرهم .

وما أروع وفاء الإسلام فى العهود القائمة بين المسلمين وأعدائهم المهانين ، كما يتجلى فى قوله تعالى فى سورة الأنفال : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير) ، والمعنى إذا كان لكم إخوان فى الاسلام وبقوا فى أرض الحرب ولم يهاجروا ، وطلبوا إليكم العون بقوات أو أموال فأعينوهم لا ستنقاذهم من أعدائهم ، فذلك فرض عليكم ، إلا أن يستنصروكم على قوم كفار قام ميثاق بينكم وبينهم ، فلا تنصروهم عليهم حتى لا ينقض العهد القائم الذى يجب أن تتموه إلى مدتهم ؛ ورحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء

بشرية الجنس وسمو النفس :

أما أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر أمثالنا فذلك أمر مسلم به لأنه واقع الأمر الذي لمسناه ونطق به كتاب الله . لكن بشريته صلى الله عليه وسلم إنما هي من حيث النوع وليسة من حيث المسلك الذي يتصوره خطأ بعض الكتاب من المسلمين وبخاصة في زماننا هذا ، حيث يضلون سواء السبيل إما جهلاً بمقام الرسالة ، أو عمداً ليقال أنهم يبحثون بحثاً حراً مجرداً عن التقليد ، لينالوا شهرة زائفة يبتغون بها عرض الحياة الدنيا ، ويخسرون بها أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يرى أن الرسل الكرام يختارهم الله تعالى على علم ، ويصطنعهم لنفسه ، ويجتبيهم لحمل عبء الرسالة الكبير ، فليتدبر القارئ العزيز مثلاً قوله تعالى في سورة الأنعام : (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغاراً عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) . قال الإمام البيضاوي في تفسيره لهذه الآية :

" إن أبا جهل قال : زاحمنا بنى عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبي يوحى إليه ، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، فنزلت (الله يعلم حيث يجعل رسالته) فرد الله تعالى عليهم بالنبوة ليست بالنسب والمال ، وإنما هي بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من

يشاء من عباده فيجتنبى لرسالاته من علم أنه يصلح لها ، وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه "

رعاية الله :

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم بشر ، ولكن عناية الله الخاصة ترعاه وتحوطه فى تصرفاته مصدقاً لقوله تعالى : (فإنك بأعيننا) ، وإذا أردت أن تعرف على سبيل المثال كيف كانت تلك العناية الربانية تحوطه فتدبر قوله تعالى فى سورة النساء : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً) . ثم انتقل لقوله تعالى فى السورة ذاتها : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهتمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) .

فقوله تعالى : (بما أراك الله) يفيد أنه صلى الله عليه وسلم مؤيد فى أحكامه بين الناس بوحي ونص ، أو برأى يجرى على نهج الوحي ، فرأيه دائماً صائب ، والعصمة مكفولة له فيما يراه ، لأنه يراه بعون الله وإرشاده ، وهو بذلك يغير المجتهدين الآخرين الذين يجتهدون ما وسعهم التفكير ، ولا يقطعون بأن ما وصلوا إليه هو الصواب الحتم ، بل يقولون ما قاله أمير المؤمنين عمر فى إجهاده : فإن يكن صواباً فمن الله ، إن يكن خطأ فمن عمر .

أما قوله تعالى : (واستغفر الله) ، فقال بن عطية إن استغفاره صلى الله عليه وسلم ليس من ذنب صدر منه ، وإنما يستغفر للمذنبين من أمته والمتخاصمين أمامه بالباطل (تفسير الإمام القرطبي) . والذى يؤيد ما يقول

به ابن عطية هو قوله تعالى : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء) .

فوقاه الله تعالى من تضليلهم الذي يعود ضرره عليهم حيث أرادوا أن يلبسوا الحق بالباطل في التقاضى أمامه صلى الله عليه وسلم . وما أروع تبرئة الله له من الذنب بقوله الكريم : (وما يضرونك من شيء) ، وما أدق وأرق الصورة التي جلاها الله تعالى لفضله عليه بقوله الكريم : (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) .

وتدبر كيف شملته الحماية الربانية من الكفار حين أرادوا ان يشترطوا عليه شروطاً حتى يتابعوه ، فوقاه الله من مكرهم ، فقال تعالى في سورة الأسراء : (وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) . وظاهر ان تثبيت الله له حال دون الركون إليهم ، فلا يقع منه شيء صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يوضح أن الله تعالى لا يتركه لنفسه البشرية كغيره من المؤمنين ، بل يتولاه بالرعاية والتوفيق في كل شأنه .

ثم انظر كيف يعلمه ربه أن يرد الفضل إلى ربه فيما يؤيده من الآيات ، لأنه بشر لا يملك لنفسه شيئاً والله هو الفعال لما يشاء ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فيقول تعالى في سورة الإسراء : (ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً * وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت

من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً) .

ثم انظر كيف يعلمه مرة أخرى التبرى من حوله الشخصى ، ورد الأمر إلى الله تعالى الذى إليه يرجع الأمر كله فيقول تعالى فى سورة الأعراف : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) .

إن بعض الكتاب فى وقتنا الحاضر ينظرون إلى مثل هذه الآيات من طرف البشرية الخالص ، و لا ينظرون إلى عصمة الرسالة بالعناية الربانية والتوفيق الإلهى ، فإذا استند غيرهم فى موقف من المواقف إلى عصمة الرسالة ، رددوا آيات البشرية ليتجاوزوا بها عن العصمة ، و لو أنهم أنصفوا الحق و أنصفوا أنفسهم لما أمسكوا بطرف أريد به رد الأمر فى القضاء إلى الله تعالى فى معرض التوحيد ، وتركوا ما قضاه الله من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم ما جهل بلا معلم من البشر ، ومن توفيق الله الذى يحالفه فى تصرفاته فى الرضا والغضب و العسر واليسر ، فتبدو تصرفاته مثالية فى ثوب الحق الذى لا يشوبه باطل ، والعدل الذى لا يعتوره حيف ، والنزاهة التى تقتحم نزعات البشرية الطبيعية .

أعراض البشرية الجائزة :

و مما وصفه به إمامنا على بن أبى طالب كما جاء فى تاريخ الطبرى
((يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه ، فإذا غضب لم يخنه حلمه بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب)) .

أقول ذلك ولا أجهل ما يجوز على ساداتنا الأنبياء في بشريتهم من عوارض المرض والفرح والحزن والغضب و الجوع والعطش إلخ ، ولكنهم في كل تلك الأعراض التي تجوز عليهم كسائر البشر تظل مواجيدهم في ساحة القدس الأطهر الذي تسكن إليه وتتعلق به أرواحهم بما آتاهم الله من فضله ، وذلك ما يميزهم في بشريتهم عن غيرهم من المؤمنين ، ويبين ذلك واضحاً من قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في سورة المؤمنون :

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * و أعوذ بك رب أن يحضرون) . فلا تلابسه بحال ما همزات الشياطين ولا وساوسهم في أى حال من أحواله البشرية صلى الله عليه وسلم ، لأنه يعوذ من همزاتهم بربه ، فيستجيب له ويعيده منهم ، وأنى لغيره ذلك وهو صلى الله عليه وسلم يقول : ((إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق)) ، وقد جاء فى السنة الشريفة أن الله تعالى أعانه على شيطانه فأسلم .

انظر إليه صلى الله عليه وسلم فى تأثره البشرى وفى غضبه لله من الكفار أعدائه ، وانظر كيف عطف الله عليه وقدم النصيح إليه علاجاً لضيغه وتقرباً إلى ربه ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحجر : (إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون * ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) . وقد أهلك المستهزئين وكفاه شرهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما حزبه أمر واشتد به كرب قام إلى الصلاة مسبجاً ربه فنفس الله عنه شدته وفرج كربته . وفى الصلاة صلة بالله واسترواح به عز وجل .

وبينما صور الله فى الآيات السابقة ضيق صدره البشرى بالمستهزئين ، صور عطفه الأبوى وفضله النبوى بأبنائه المؤمنين فقال تعالى فى سورة آل عمران : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب

لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) .

وانت ترى مما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان محاطاً برعاية ربانية فى الغضب والرضا مع أعدائه وأوليائه ، فوقاه الله كيد أعدائه وصرفهم عنه ، و أعطاه الخلق الكريم الذى وسع به أبناءه المؤمنين فالتفوا حوله .

الإنصاف فى البحث :

فإنصاف الرسول صلى الله عليه وسلم فى بشريته لا يتأتى إلا إذا نظر إليه الباحث بعينين ، لا بعين واحدة ، ولتفهم ذلك جلياً تدبر قوله تعالى فى سورة القصص : (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) . ويقول الإمام البيضاوى فى تفسيره : ((والجمهور على أن الآية نزلت فى أبى طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا عم قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، قال : يا ابن أخى قد علمت أنك لصادق ولكن أكره أن يقال خدع عند الموت . فإذا انت نظرت بعين واحدة إلى تلك الآية قلت إنه لا أثر للرسول صلى الله عليه وسلم فى اهتداء الناس إلى ربهم ، ولكنك إذا نظرت بالعين الأخرى إلى قوله تعالى فى سورة الشورى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) . أدركت أنه صلى الله عليه وسلم يهدى إلى الصراط المستقيم من أراد الله هدايته ، ولا تعارض بين الآيتين ، فالآية الأولى تتكلم فى معرض التوحيد ناطقة بأن الله لا يشاركه فى سلطانه أحد ولو كان رسولاً نبياً ، والآية الثانية تتكلم فى معرض الأسباب ، ناطقة بأن الله ربط الأسباب بالمسببات ، لتأتى ثمرة الارتباط لصاحبها بإذن

مسبب الأسباب ، فيسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاء الله هدايته ، ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحض على السعى فى طلب الرزق من أسبابه ويقول : " لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة " .

واعتقاد المؤمن أن الرزق بيد الله وحده لا يتنافى مع السعى إلى الرزق من أبوابه أخذاً بالأسباب التى أقامها سبحانه وتعالى بحكمته .

وإذا نظر الباحث بعين واحدة إلى قوله تعالى فى سورة " المنافقون " : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله) ، فإنه يظن أن الرسول صلى الله عليه وسلم صدق المنافقين فى شهادتهم ، ولكن الباحث لو نظر بعينه الأخرى إلى بقية الآية حيث قال تعالى : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فإنه يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف من المنافقين حيث أوقفه الله ، إذ كشف له عن كذب بواطنهم التى تخفى على البشرية ، ولا تخفى على الله تعالى ، ولعلك تلاحظ معنى فى الآية الكريمة مكانة الرسول عند ربه ، فقد جعل الله تعالى الاعتراف برسالته ركناً من أركان الإيمان ، فمن لم يوقن برسالته عدده الله منافقاً ولو أقر بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

إن القرآن الكريم أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثوبه البشرى مجرداً من الألوهية ليصبح للناس عقيدة التوحيد الخالص ، ولكنه لم ينزل ببشرية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بشرية عوام المؤمنين أو خواصهم ، لأن الرسالة وهب ولا تأتى بكسب . ولذلك نهى الله أصحابه أن ينادوه باسمه كما ينادى بعضهم بعضاً ، أو يقدموا رأياً على رأيه ، أو يرفعوا أصواتهم فى حضرته ، فإن هم فعلوا ذلك فقد تعرضوا لأن تحبط أعمالهم كما حبطت أعمال أهل الكفار ، قال تعالى فى سورة البقرة : (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم

فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . والمراد بها الأعمال النافعة .
كما أمرهم أن يتحاكموا إليه فيما شجر بينهم وأن يرضوا بحكمه ، فإن لم يرضوا بحكمه خرجوا
من الإيمان ، قال تعالى فى سورة النساء : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . وقد قال الإمام أحمد بن
حنبل من رواية الفضل بن زياد : " نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه
وسلم فى ثلاثة وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلوا من سورة النور : (فليحذر الذين يخالفون عن
أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذابٌ أليم) . وجعل يكررها ويقول الفتنة الشرك ، لعله إذا
رد بعض قوله صلى الله عليه وسلم أن يقع فى قلبه شئ من الزيغ فيهلك وجعل يتلوا الآية : ()
فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . . .) ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر ، خضع لقضاء الله كما يخضع البشر فى السراء والضراء
، ولكنه كان صابراً فى البلاء ، شاكراً فى السراء إلى الحد الذى لا يبلغه غيره من البشر ، لأن
صبره وشكره كانا بالله والله ، فقد قال تعالى فى سورة النحل : (واصبر وما صبرك إلا بالله) .
وقال تعالى فى سورة الزمر : (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) . وسترى بعد قليل كيف كان
الله يتولاه فى جميع شئونه الخاصة مع أزواجه وهى شئون بشرية وشخصية ، فقد نزلت براءة
السيدة عائشة بالقرآن الكريم من السماء ، وقد أرشد الله نسانه الشريفات بخطاب ربانى مباشر
فى كتابه الكريم فحلاهن بأكرم السلوك والآداب ، وفوض له صلى الله عليه وسلم فى إرجائهن
أو عشرتهن ، كما أذن له فى زواج الهبة إن وهبته نفسها إحدى المؤمنات ، وفى أن يجمع فى
بيته أكثر من أربع نسوة ، وفى كل ذلك أعزاز وتوقير للرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه

مرفوع القدر بإرادة الله في رسالته وفي بشريته عن سائر البشر ، ومع تفويض الله له في عشرة أزواجه أو تركهن ، راعى بمكارمه صلى الله عليه وسلم القسم بينهم ، إيثاراً للعدل من نفسه ، فأثر الإحسان على الحسن الذي فوضه الله فيه ، وليس ذلك من طباعنا البشرية وإنما هي طباع الرسالة ، ولا تستطيع أن تجرده من طباع الرسالة حتى هو فيما هو من طباع البشر ، بل هو دائماً في المسلك الأقوم بالاستعداد الذي هباه الله به للرسالة والذي يتعدى في سموه مألوف البشر في العادة ، ألسنت ترى أنه حاسب نفسه على ميله القلبي للسيدة عائشة ولكنه رد الأمر في حبها لله حين قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " ، فلو استطاع أن يسوى بينهما في المحبة لفعل ولكن القلوب بيد الله تعالى ، ولم يكن ذلك من هوى النفس مما يصاحبنا عادة ، ولست أطلب من المؤمنين أن يجردوه من نزعات البشر في حبه القلبي أو في عشرته للنساء ، وإنما أطلب منهم ألا يقيسوه بأحوالنا نحن في اتباع هوى نفوسنا الجامح الذي يخرجنا عن سواء السبيل .

الفتح المبين و الذنب المغفور :

ولشيخ العارفين سيدي محيي الدين بن عربي كلام نفيس في معنا قوله تعالى في سورة الفتح : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً) . فقد قال في الباب ٣٣٩ من كتاب " الفتوحات المكية " :

((هو فتوح المكاشفة بالحق وفتوح الحلاوة في الباطن وفتوح العبارة ، ولهذا الفتوح كان القرآن معجزاً ، فما أعطى أحد فتوح العبارة على كمال ما أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : (لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) أي معيناً .

((فقال تعالى له صلى الله عليه وسلم إنا فتحنا لك فى الثلاثة الأنواع من الفتوح ، فتحا أكده بالمصدر " مبينا " أى ظاهراً ، يعرفه كل من رآه بما تجلى وما حواه ، ففتوح الحلاوة ثابت له ذوقاً ، وفتوح العبارة ثابت للعرب بالعجز عن المعارضة ، وفتوح المكاشفة ثابت بما أشهده ليلة إسرائه صلى الله عليه وسلم من الآيات)) (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) فيسترك عما يستحقه صاحب الذنب من العتب والمؤاخذة ، (وما تأخر) فيسترك عن عين الذنب حتى لا يجدك فيقوم بك ، فأعلمنا بالمغفرة فى الذنب المتأخر أنه صلى الله عليه وسلم معصوم بلا شك ، ويؤيد عصمته أن جعله الله أسوة يتأسى به ، فلو لم يقمه الله فى مقام العصمة ، للزمنا التأسى به فيما يقع منه من الذنوب ، ألا ترى أنه فيما أبيح له خاصة نبه الله إليه ، كزواج الهبة ، فإنه خالص له ، وهو حرام علينا .

" (ويهدك صراطاً مستقيماً) ، وهو صراط ربه الذى هو عليه كما قال هود عليه السلام : (إن ربي على صراط مستقيم) . والشرائع كلها أنوار ، وشرعه صلى الله عليه وسلم بين هذه الأنوار كنور الشمس بين أنوار الكواكب ، فإذا ظهرت الشمس خفيت أنوار الكواكب واندرجت أنوارها فى نور الشمس

ولهذا ألزمتنا فى شرعنا العام أن نومن بجميع الرسل وجميع شرائعهم أنها حق)) . وجاء فى حاشية الجمل على تفسير الجلالين ما يؤيد سيدى محيى الدين بن عربى ، فقد جاء فى تلك الحاشية : وقيل معنى الغفران الإحالة بينه وبين الذنوب ، فلا يصدر منه ذنب لأن الغفران هو الستر ، والستر إما بين العبد والذنب أو بين الذنب وعقوبته ، فاللائق به وبسائر الأنبياء الأول واللائق بالأمم الثانى ، قاله البرماوى .

وقال بعض المحققين : المغفرة هنا كناية عن العصمة ، فمعنى الآية يعصمك الله فيما تقدم من عمرك وفيما تأخر منه . وقال القاضى عياض : المغفرة هنا تنزيهه من العيوب . وقال بعضهم : المغفرة هى على فرض وقوع الذنب ليزداد اطمئناناً إلى رضوان الله الذى اصطفاه .

وقال بعض المفسرين : إن المقصود بالفتح هو صلح الحديبية الذى كان فى السنة السادسة من الهجرة ، وقال بعضهم : إنه فتح خيبر الذى تم بعد عودتهم من الحديبية وقال آخرون إنه فتح مكة .

وجاء فى الحاشية المذكورة ^(١) أيضاً : وقال الزهرى : ((كان فتح الحديبية أعظم الفتوح وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم إلى بعض ، فما مضت السننتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ، وقال مجاهد والعوفى : هو فتح خيبر والأول قول الأكثر . وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها مالم يصب فى غزوة غيرها غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، و أطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

وقال صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة : لقد أنزل على الليلة سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ : (إنا فتحنا لك مبينا . . .) . وفى رواية : ((لقد أنزل على آية هى أحب إلى من الدنيا جميعاً ثم قرأ : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ، فقال المسلمون هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله ، لقد بين لك ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه) ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) .

العقاد وعلامات الرسالة :

وصدق العلامة العقاد إذ يقول فى كتابه " عبقرية محمد " :
((ومن يكون الرسول إن كان لا بد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟

^(١) حاشية الجمل على تفسير الجلالين .

الرسول هو الذى له وازع من نفسه فى الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملة الناس ، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعاً يأمرهم بالحسنى ، وينهاهم عن القبيح ، ويقرر لهم حدودهم التى لا يتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغى أن تكون صفته الأولى - بل صفته الكبرى - أن يستغنى عن الوازع ، وأن يغنى الناس عن محاسبته وطلب الحق منه . وهذه هى السليقة الشاملة التى سرت فى خلائق محمد ، وامتزجت بجميع أعماله وأقواله ، فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه فى رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير ،

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل السريرة وليست من خارجها ، وقد تلازم أو تفارق من تعروه ، وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل ، يعطيه هذه المرتبة من يدين بالإسلام و من يدين بغير الإسلام و من ليس له دين من أديان التنزيل
((فمحمد الرجل بين المقام الأول فى الرجال ، فى المقام الأول بخلقته ، وفى المقام الأول بنيته ، وفى المقام الأول بعمله ، وفى المقام الأول بالنسبة إلى المشبهين له فى دعوته
((لأن محمداً لم يكن كارهاً لطيبات الدنيا ، ولا حاضاً لأحد على كراحتها والإعراض عنها ، فإذا قنع بما قنع فأتى فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره ، كأنه يخشى إذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له ، أن يحسب تلك الحظوظ غرضاً من الأغراض التى نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس .

((فليكن الإيمان إذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء ، وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهد كفه فى هدايتهم غير منقوص ولا مظنون)) .

ويقول رحمه الله فى موضع آخر من ذلك الكتاب :

((ظنوا أن النبى لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال ،

ولكن القلب الذى لا يعرف قيمة المال لا فضل له فى الكرم ، والقلب الذى

لا يخاف لأفضل له في الشجاعة ، والقلب الذي لا يحزن لا فضل له في الصبر . إنما الفضل في الحزن والغلبة عليه ، وفي الخوف والسمو عليه ، وفي معرفة المال والإيثار عليه .
((وفضل النبي في نبوته وفي أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك بينه وبين الإنسان وبينه وبين الناس ، و أي نبي تنقطع بينه وبين القلب الإنساني صورة كهذه الصلة التي تجمع أشتات القلوب .

العارف النابلسي وذنوب الأنبياء :

ويقول سيدي عبد النبي النابلسي في كتابه الفتح الرباني :
((إننا نطلق على الأنبياء عليهم السلام جميع ما أطلقه الله عليهم و أطلقوه على أنفسهم وأطلق بعضهم على بعض من العصيان والغى والذنب والفتنة وعدم براءة النفس و الوزر إلى غير ذلك ، على المعنى الذي يعلمه الله تعالى وتعلمه أنبياؤه عليهم السلام ، لا على المعنى الذي نعلمه نحن ونفهمه من هذه الألفاظ عند إطلاقها ، فإننا لانفهم إلا ما نحن عليه من الأحوال والأخلاق ونحن غير معصومين و إن أيدنا بالحفظ ، والأنبياء عليهم السلام معصومون ، ونحن لا نعقل كيف تنسب هذه الأشياء إليهم لأننا لسنا في أطوارهم ، وإنما نعقل كيف تنسب هذه الأشياء إلينا ونحن دون معاملتهم بيقين)) . وهو كلام نفيس كما ترى فأحرص على الانتفاع به .

والخلاصة :

و أخيراً أعود و أقول : إنه صلوات الله عليه وسلم بشر من حيث الجنس ، وفوق البشر من حيث المسلك ، لأنه قال بحق : " أدبني ربي فأحسن تأديبي " ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . ومن تتم به مكارم الأخلاق لا بد أن يكون كاملاً لاتعتريه شائبة من شوائب البشرية الناقصة ، كما يظن أولئك الذين ينظرون إليه في جنسه ، فيفوتهم النظر إلى كمال نفسه ، فيفوتهم قول الحق جاهلين أو عامدين .

الباب الثامن عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم

الرسول حجة الله على خلقه :

من إحسانه تعالى بعباده أنه أرسل إليهم على فترات مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل ، ولذلك حكى الله ما سيكون يوم القيامة بين الكافرين وخزنة جهنم في مثل قوله تعالى في سورة غافر : (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب* قالوا أو لم تك تأتئكم رسلكم بالبينات قالوا بلى ، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ثم قال تعالى بعد ذلك : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد* يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار) .

وحيث يدخل الكافرون أبواب جهنم والعياذ بالله ، تفتتح أبواب الجنة للمؤمنين فيدخلونها زمراً زمراً في درجاتهم وهو ما يحكيه قوله تعالى في سورة الزمر : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين* وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) .

تبليغ الرسول عن ربه :

وهذا الوعد الذي صدقهم الله فيه إنما جاءهم على لسان رسول صلى الله عليه وسلم حين بشرهم وأنذرهم ، ولم يخاطبهم الله تعالى مباشرة إنما خاطبهم

عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم كان الرسول الأمين على رسالة ربه في دعوة الخلق إلى الله ، وهذه المهمة خطيرة الشأن ، عظيمة التبعة ، لا يستطيع أن يؤديها أحد من البشر إلا إذا أعده الله لأدائها إعداداً خاصاً ، يتخطى به عقبات الطباع المذكورة^١ في البشر وإن كان فيه خلقتة من جنس البشر ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

اصطفاء الرسول :

فالرسالة إذن تأتي الرسل الكرام من باب الإصطفاء والوهب وليست من باب المجاهدات والكسب ، وقد نطق القرآن الكريم بذلك في آيات كثيرة ، في سورة الأعراف : (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) . وكذلك قوله تعالى في سورة طه : (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) وقوله تعالى في السورة ذاتها : (واصطنعتك لنفسي) . وقوله تعالى في سورة مريم (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) . وقد حاط الله سيدنا موسى بعناية الربانية وهو طفل رضيع كما يبدو ذلك واضحاً في قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقد حقق الله وعده فردّه إلى أمه وجعله من المرسلين ، وكان من آيات الله معه أن يريه فرعون الذي خافته أم موسى على طفلها ، وفرعون عدو الله وعدو موسى ، فانظر إلى آثار رعاية الله لخواصه حتى صير الخوف أمناً والذل عزاً ، كما صير العدو مريباً وكفيلاً ، وقد قتل فرعون عداداً عديداً من أولاد بني

(١) المركبة

إسرائيل خوفاً على نفسه ، على حين كان موسى عليه السلام في بيته وتحت رعايته ، ومن فرعون فيما بعد على سيدنا موسى عليه السلام بقوله فيما حكاه الله في سورة الشعراء :
(قال ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين) .

وقال تعالى عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام في سورة مريم : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) . ثم قال عنه : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً .. (

ويقول تعالى لرسولنا صلى الله عليه وسلم في سورة الانبياء : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . وطمأنه تعالى على رعايته له في حمل أعباء الرسالة فقال تعالى في سورة الطور : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) . ثم أوصاه في نوع الصبر بقوله تعالى في سورة الأحقاف : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) .

من فضل الله :

وفي سورة الضحى يطمئن الله رسوله صلى الله عليه وسلم على أن الرعاية التي حاطته من صغره ملازمة له بعد الرسالة : (ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى) . ويرده سبحانه إلى ماضيه وكيف كان عون الله قائماً فيه : (ألم يجدك يتيماً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فاغنى) . ويذكره تعالى بنعمة الرسالة التي جاءت رحمة من ربه فيقول له في سورة القصص : (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن

من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) . وقد صدق صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ، ولم يعبأ بالأذى الكثير الذى لقيه من أعدائه ، بل صبر وصابر واصطبر وهاجر ، ثم أذن له الله بالقتال ، فقاتل وجاهد نفسه وماله حتى انتصر ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكان في كل الشدائد معتمداً على ربه ، قوى الثقة فيه ، كما تدرك ذلك من مناجاته التي ناجى بها ربه في الطائف والتي قال فيها : (... إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى) . ولا تعجب بعد ثقته هذه في الله أن يقول له سبحانه : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . فيد الرسول صلى الله عليه وسلم تحركت حين حصب أعداءه بالحصى في غزوة بدر الكبرى وقال : ((شأهت الوجوه)) ، وصحبها في حركتها قدر الله فعميت أبصار الأعداء وباءوا بالهزيمة وبغضب الله ، ولعلك فهمت من تلك الصور كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعين الله من مبدئه إلى منتهاه .

¹ - وهم خمسة ، محمد ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، نوح عليهم صلوات الله وسلامه ، وهم الذين تحملوا أعظم المشقات فى سبيل دعوتهم وصبروا عليها إرضاء لله تعالى .

خطرات فكرى :

ولقد سبح فكرى مرة فى محيطه صلى الله عليه وسلم فوجدت اسمه ((محمد)) عظيماً وغير شائع فى زمانه ، ووجدت اسم أبيه ((عبد الله)) فلم يكن عبد اللات ولا عبد العزى ولا عبد شمس إلخ كما كان عرفهم فى الجاهلية حين كانوا يعبدون الأصنام ، ووجدت اسم أمه ((آمنة)) وفيه الأمن والإيمان ، واسم أبيها ((وهب)) فيه الوهب الذى يفوق الكسب ، واسم مرضعته ((حليلة)) وفيه الحلم سيد الأخلاق وهى من ((بنى سعد)) وفيه سعد الأبد ، واسم حاضنته ((بركة)) وفيه الزيادة والنماء والبركات ، وكنيتها ((أم أيمن)) وفيه يمن الطالع ، ثم رجعت إلى نفسى وقلت : أشهد أن اجتماع هذه الفرائد ليست من المصادفات ولكنها من الآيات والهبات ، وتذكرت عند ذلك قوله تعالى : (إن فضله كان عليك كبيراً) .

النبوة والرسالة :

ومن ذلك تبين أن النبوة لا تكنسب بمباشرة أسباب مخصوصة كما لازمة الخلوة والعبادة كما ذهب الفلاسفة خطأ . ويقول سيد الشيخ الباجورى فى حاشيته على الجوهرة ، رحمه الله :

((فالذى ذهب إليه المسلمون جميعاً أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى تكليفى سواء أمر بتبليغه أم لا ، وهكذا الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ ، أقول : ومن ذلك تدرك أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا .

خاتم النبىن صلى الله عليه وسلم :

أقول : وقد ختم الله النبوات بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى فى سورة الأحزاب : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبىن وكان الله بكل شىء عليماً) . وقد كتب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم العصمة قبل الرسالة وبعدها ، لبعده حمل أكبر الرسالات عبئاً ، فقد جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم عامة وقامت إلى يوم القيامة ، بخلاف رسالة غيره فقد كانت محدودة ، وكانت تنتهى بموت صاحبها ، وتنسخها الشريعة التى تليها .

عصمة الرسول :

ويقول سيدى الشيخ الباجورى رضى الله عنه فى حاشيته على الجوهرة :

((وقد حفظ الله بواطن الأنبياء والرسول من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى ، فهم محفوظون ظاهراً من الزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر ، ومحفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن ، والمراد المنهى عنه ولو صورة ، فيشمل ما قبل النبوة ولو

في حال الصغر ، ولا منهم مكروه ولا خلاف الأولى ، ولا مباح على وجه كونه مكروهاً أو خلاف الأولى أو مباحاً ، وإذا وقع صورة ذلك ، فهو للتشريع فيصير واجباً أو مندوباً في حقهم ، فأفعالهم عليهم الصلاة والسلام دائرة بين الواجب والمندوب ، بل في الأولياء الذين هم أتباعهم من يصل لمقام تصير حركاتهم وسكناتهم طاعة بالنيات ، وأما الحرم فلم يقع منهم إجماعاً ، وما أوهم المعصية فمؤول بأنه من باب ((حسنات الأبرار سيئات المقربين)) والسهو ممتنع عليهم في الاختبار البلاغية كقولهم : (اللجنة أعدت للمتقين) ، وجائز عليهم في الأفعال البلاغية وغيرها كالسهو في الصلاة للتشريع ، لكن لم يكن سهوهم ناشئاً عن اشتغالهم بغير الله ولذا قال بعضهم :

والسهو من كل قلب غافل لاه

عما سوى الله فالتعظيم لله

ياسائلى عن رسول الله كيف سها

قد غاب عن كل شيء سره فسها

(وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها ، قولية كانت أو فعلية ، فالقولية كالجنة أعدت للمتقين ، والفعلية كصلاة الضحى إذا أمرهم بفعلها ليقتمدى بهم فيها ، فلا يجوز نسيان كل منهما قبل تبليغ الأولى بالقول والثانية بالفعل ، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر ويكون النسيان من الله تعالى - وأما نسيان الشيطان فمستحيل عليهم إذ ليس للشيطان عليهم سبيل ، أقول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ((أنسى لأشعر))

((وبالجملة فيجوز على ظهورهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدي إلى نقص ، وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك لأنها متعلقة بربهم ، لأن خصوصية الأنبياء والمرسلين في بواطنهم ، وفي المنن كان معروف الكرخي يقول : ((لى ثلاثون سنة في حضرة الله تعالى ما خرجت ، فأنا أكلم الله والناس يظنون أنى أكلمهم ، يقول الشيخ رحمه الله : فإذا كان هذا حال أحد أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما بالك بالأنبياء خصوصاً رئيسهم الأعظم صلى الله عليه وسلم .

الأسوة الحسنة والعصمة :

ويتعرض سيدى الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي لعصمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الباب ١٥٩ من كتاب (الفتوحات) فىقول رضى الله عنه :

وتشترط فى حقه العصمة فىما يبلغه عن الله خاصة ويلزمه تبين ما جاء به حتى يفهم عنه لإقامة الحججة على المبلغ إليهم ، وعصمته فى التبليغ عن الله تعالى تأتى من مقام آخر ، وهو أنه يخاطب العباد المرسل إليهم بالتأسى به فىكون التأسى به أصلاً ، فإن انفرد بأمر لزمه أن يبينه ، لا بد من ذلك كما قال له تعالى فى نكاح الهبة (خالصة لك من دون المؤمنين) .

أقول : وهو كلام نفيس من فتح الله على أوليائه ، فقد استدل على العصمة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة يقتدى به تابعوه ، فلو كانت له ذنوب وتأسوا به فى إتباعها ما عاقبهم الله لأنهم قلدوا فىها الرسول الذى وجههم الله إلى تقليده فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . ولهذا نبه الله المؤمنين إلى أن زواج الهبة مباح للرسول وحده دون أتباعه ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (... وامرأة مومنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) .

وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم :

وأقول : إن هذه العصمة التى حلّى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم هى التى جعلته أهلاً لقول الله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) . ولقوله تعالى : (إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله) . ولقوله تعالى : وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) . ولقوله تعالى : (ومن

يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) . ولقوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) . ولقوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) . ولقوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . ولقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) . ولقوله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدوقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) . ولقوله تعالى : (ومن يعصى الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) . ولقوله تعالى : (ومن يعصى الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها أبداً) ولقوله تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .

وهكذا ينطق كتاب الله في آيات لا عداد لها بوجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به أو ينهى عنه . وفي أمره صلى الله عليه وسلم أمر الله وفي نهيه نهي الله ، فهو معصوم من هوى النفوس البشرية بعصمة الله له إذ يقول تعالى في سورة النجم : (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى) وفي الاستجابة له حياة أرواحنا وسعادتنا فقد قال تعالى في سورة الأنفال : (يأبها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) . ويقول الإمام القرطبي في تفسيره هذه الآية :

المعنى إلى ما يحيى به قلوبكم فتوحده ، وهذا إحياء مستعار لأن إحياء من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية :

البشرية والعصمة :

أقول : وإذا كان الله قد عصم رسوله الكريم من الصغائر والكبائر حتى يؤدي رسالة ربه ، فوجب أن ننظر إليه صلى الله عليه وسلم في تصرفاته بعين العصمة لا بعين البشرية التي تغلب غيره في تصرفاته ، ولا تغلبه هو لا في الرضا ولا في الغضب ، ولا في النوم ولا في اليقظة ، ولا في الحرب ولا في السلم ، ولا في السفر ولا في الحضر ، ولا في خاصة أهله ، ولا في عامة المؤمنين .

إنه كما قلنا في الباب السابق بشر ، ولكنه فاق البشر بقلب نقي ، ووحى سماوى . وصفاء خصه الله به ، وأدب أرادته الله له ، كما خصه بعلم لا يشوبه جهل ، وهو الأمل الذى لم يقرأ ولم يكتب ، وبنور لا تلبسه ظلمة ، ورسالة عامة خصه تعالى بها وجعله رحمة للعلمين ، وما خص الله بها عالماً دون عالم ، بل كانت الرسالة الخديية عامة للجميع . وصدق سيدى محي الدين بن عربى إذ يقول في الفتوحات - باب ٣٣٧ - : فمن لم تنله رحمته فما ذلك من جهته صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك من جهة القابل ، فهو كالنور الشمسى أفاض شعاعه على الأرض فمن استتر عنه في ركن وظل جدار فهو جدار فهو الذى لم يقبل انتشار النور عليه وعدل عنه فلم يرجع إلى الشمس ، من ذلك منع .

ويقول شاعر الصوفية الأكبر سيدى جلال الدين الرومى في بعض أبيات المثنوى - فيما ترجمه وشرحه الدكتور عبد السلام كفاى - عن القياس الفاسد الذى يجعل الناس يقيسون الأمور على ظاهرها لا على جوهرها وحقيقتها (١) :

فقد ادعى هؤلاء أنهم مساوون للأنبياء ووطنوا أنفسهم مثل الأولياء وقالوا : انظروا إنا بشر وهم بشر ونحن وإياهم أسارى للنوم والطعام . ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فريقاً لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء .

فالنحل كلها تأكل من مكان واحد ، ولكن يحىء من بعضها اللدغ ومن بعضها الآخر يأتى العسل .

(١) مثنوى جلال الدين الرومى - ترجمة وشرح ودراسة الدكتور عبد السلام كفاى - المكتبة العصرية بصيدا وبيروت - الكتاب الأول ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٦٩ .

والغزلان نوعان كلاهما يأكل العشب ويشرب الماء ، ولكن أحدهما يجيء منه البعر ومن الآخر يأتي المسك المصطفى .

ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحد ، ولكن أحدهما خال والآخر حافل بالسكر . فتأمل مائة ألف من أمثال هذه الأشياء ، وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عاماً فهذا يأكل فتتولد منه القذارة ، وذاك يأكل فيصبح كله نوراً إلهياً ،

وهذا يأكل فينبعث منه البخل والحسد ، وذاك يأكل فيفيض منه عشق الأحد ، وهذه أرض طيبة ، وتلك مالحة رديئة . وهذا ملك طاهر ، وذاك شيطان ووحش ضار . فلو تشابهت الصورتان فذاك جائز ، فالماء المالح والعذب شبيهان في الصفاء وليس يدرى الفرق بينهما سوى صاحب ذوق ، فأدركه ، فهو الذى يعرف الماء العذب من الماء المالح . فمن الناس من يقيس السحر بالمعجزة فيظن أن كليهما مبنى على المكر . فالسحرة من أجل منازعتهم لموسى أمسكوا عصياً مثل عصاه ، لكن بين هذه العصى وتلك العصا فرقاً واسعاً ، وبين هذا العمل وذاك العمل طريق عظيم ،

فهذا العمل تشييعه لعنة الله ، وذاك العمل تقابله رحمة الله ،

وإن عمل الرجال لنور وحرارة ، وأما عمل الأخساء فاحتيال ووقاحة ،

فقد يصنع الأسد من الصوف لأجل التسول . وقد خلع بعض الناس على مسيلمة لقب أحمد فبقى لمسيلمة لقب الكذاب ، ودام ل محمد نعت أولى الألباب ،

فلو كانت الإنسانية بالصورة وحدها لتساوى أحمد وأبوجهل .

أقول : فانتفع أيها القارئ العزيز بذلك الدرس القيم وعلمه غيرك .

التفاسير النابية :

وأقول : فيجب ألا نتأثر ببعض التفاسير التي لا تتفق مع تلك العصمة بحجة أنه بشر ، لأننا إذا انزلنا ببشريته إلى

بشريتنا في نزعات النفوس وأهوائها ، فقد بخسناه حقه ، وأسخطنا الله تعالى الذى سواه وكمله بأعلى درجات

الكمال البشرى ،

¹ - متوسط عمر الإنسان .

وكما أبين ذلك في حقه عليه الصلاة والسلام ، أبينه أيضاً في حق إخوانه من ساداتنا النبيين والرسل الكرام ، فقد ذهبت بعض التفاسير إلى مالا يليق بهم في عصمتهم وكمالهم الخلقية . وإذا كان القرآن الكريم سكت عن تفاصيل بعض هذه المسائل مع بلاغته في كل ما جاء به ، فلا يجوز أن نأخذ بقصص واهية من رواية الإسرائيليين لا تليق بالمؤمن العادى فضلا عن رسول كريم أو نبى أمين .

صور واقعية :

ولإبراز ما أريده في صور واقعية ، أسوق على سبيل المثال القصتين الآتيتين:

١- قصة داود عليه السلام :

جاء في بعض التفاسير ما لا يقبله عاقل ، فقد قالوا في قصة التحاكم أن سيدنا داود عليه السلام أعجب بامرأة أوريا فأرسله في الحرب ليموت فيتزوجها مع أنه كان متزوجاً بتسع وتسعين زوجة فأرسل الله له ملكين ينبهانه إلى خطئه وتلك . كانت فتنته . وقد وردت القصة في سورة ص ، في قوله تعالى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

ويقول القاضى بن العربى في تعقيبه على بعض التفاسير الواردة في القصة بقوله ،

كما جاء في تفسير الإمام القرطبي : ((أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل ، وأما من قال إنه نظر إليها حتى شبع ، فلا يجوز ذلك عندى بحال ، لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب .

وحكى السدى عن الإمام على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : ((لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً جلدته ستين ومائة ، لأن حد قاذف الناس ثمانون جلدة وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة)) .

وجاء في تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

((وما روى أن بصره وقع على امرأة فعشقتها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان ، إن صح فلعله خطب مخطوبته أو استنزله عن زوجته ، وكان ذلك معتاداً فيما بينهم وقد وصى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى ، وما قيل إنه أرسل أوربا إلى الجهاد مراراً ، وأمر أن يقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء . وقيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقوماً فتصنعوا بهذا التحاكم ، فعلم غرضهم ، وأراد أن ينتقم منهم ، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له ، فاستغفر ربه مما هم به وأتاب .

وجاء في تفسير الإمام النسفى رضى الله عنه : فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (وإني أنزهه عن ذلك أيضاً لأنه يتنافى مع كامل الخلق) . وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة ((أوربا)) إلى غزوة البلقاء ، وأحب أن يقتل ليتزوجها فلا يليق من المتسمين بالصلاح من المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء . وروى أن محدثاً حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : ((إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتبس خلافها وأعظم بأن يقال غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترأ على نبيه فما ينبغى إظهارها عليه ، فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس)) .

٢- قصة يوسف عليه السلام :

والقصة الثانية قصة يوسف عليه السلام ، وما جاء في تفسير قوله تعالى : (ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) . من أنه عليه السلام حل تكة سراويله وجلس بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها . ويعقب على ذلك التفسير الإمام النسفى فيقول : إنه باطل ويدل على بطلانه قوله : (هي راودتني عن نفسي) ولو كان ذلك منه أيضا لما برأ نفسه من ذلك . وقوله تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) . ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه . وقوله تعالى : (ما علمنا عليه من سوء) . وقوله تعالى : (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) . ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره . وقد سماه الله مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولى العزم ناظراً في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء .

أقول : وواضح من بقية القصة : (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب) أنه عليه السلام حاول الهرب منها ، فاندفع نحو الباب ، فجذبته من خلفه تحاول إرجاعه حتى قطعت القميص ، وكان قطعه من الخلف قرينة على براءته ، وذلك ما يحكيه قوله تعالى : (قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) .

ولست أدري كيف يجلس بين شعبيتها ليزني بها وهو الذي استغاث

بربه قائلاً : (رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) والذي راق لى من التفاسير فى قوله تعالى : (وهم بها) تفسير ورد فى تفسير الإمام النسفى وهو ((هم طبايع مع الامتناع)) لأنه تفسير يثبت له الاستعداد الجنسى الكامل ، ومع استعداد الطبايع امتنع مخافة الله وذلك ليدفع الله عنه أن عزوفه كان لضعف فى استعداده الجنسى فلا يكون له فضل فى مغالبة هوى النفس والخوف من الله .

نظراتى :

وفى هذا المقام أذكر خلاصة ما قلته فى محاضرة لى كانت بنادى التجارة من نحو عشر سنين وتعرضت فيها للآيات القرآنية الكريمة التى قيل إن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وعارضت نظرية العتاب بما أرانيه الله تعالى بعد اطلاعى على التفاسير المختلفة ، وأيدت وجهة نظرى بالنصوص القرآنية مراعيًا فى ذلك مبدأ العصمة الواجبة فى حقه صلى الله عليه وسلم .

عصمته صلى الله عليه وسلم :

لا يستنكف نبي أو رسول مهما علا قدره أن يعلمه الله تعالى أو يوجهه للخير لأنهم بشر مخلوقون وما بهم من نعمة فمن الله ، لكن حين أقول بعصمته صلى الله عليه وسلم وعصمته إخوانه النبيين حتى قبل الرسالة ، فإنما أبرئهم من أن تنسب إليهم الذنوب صغيرها وكبيرها ، لأنهم مهياؤن بعناية الله لدعوة الناس إلى الحق ، وقد أعدهم سبحانه إعداداً خاصاً وعصمهم من الصغائر والكبائر ليكونوا أسوة حسنة لتابعيهم ، أو ليس الله تعالى يقول فى سورة الانعام : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ، كما يقول سبحانه فى سورة الزخرف : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أنهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) .ألست

ترى أن الله تعالى اصطفى على العالمين أنبياءه ورسله الكرام عنصراً وطوية ومسلِكياً إذ يقول تعالى في سورة آل عمران : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .)

وهذا الاصطفاء يفسر لنا كيف نشأ حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم - وهو سليل جده الأعلى إبراهيم عليه السلام - على مكارم الأخلاق من الصدق ، والأمانة ، والعزوف عن الدنيا ، واجتناب الآثام ، وعدم السجود للأصنام ، وعدم الاستقسام بالأزلام ، والخلوة بعيداً عن المجتمع الفاسد . وكل هذه السمات صاحبتها صلى الله عليه وسلم قبل أن تأتي الرسالة ، دون أن يوقفه عليها أب أو أم أو مدرس ، وإذا اجتمعت له كل هذه الفضائل في النشأة والصبا الباكر ، فإنها تزداد وتزدان في الشيخوخة وبعد الرسالة .

وإذا كان الأنبياء معصومين قبل الرسالة وبعدها بعصمة الله الذي يسرهم لما خلقهم له ، فما ظنكم بكبيرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي طهره الله وكمله في ذاته ، وجعله مكملًا لغيره ، ولو كانت له ذنوب ما استحق أن يقول له مولاه في تأكيد واضح : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

أما ما تعرضت له بعض الآيات مما يوهم في ظاهره العتاب أو نسبة الذنب إليه أو مؤاخذته صلى الله عليه وسلم ، فتأويله السليم يرد الفهم إلى الرأى الصحيح ويتفق مع كماله النبوى صلى الله عليه وسلم وسأتعرض لهذه الآيات فيما يلي :

فداء أسرى بدر :

يقول الله تعالى في سورة الانفال : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم) .

يعاوننا في تفسير هذه الآية ما رواه الإمام مسلم رضى الله عنه ، في حديث

عمر بن الخطاب قال أبو زميل : قال ابن عباس :

فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : ((ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : لا والله يارسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكنى من فلان (نسيب عمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ، فلما كان من الغد ، جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ، فقلت يارسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة كانت قريبة منه صلى الله عليه وسلم) .

أقول : والقصة على هذا الوجه ليس فيها مأخذ على النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الأمر لا يعدو واحداً من اثنين ، إما أن يكون قد أوحى إليه شىء فى جواز الأسر أو حظره بتاتاً ، ولو كان أوحى إليه بالخطر شىء ما استشار أصحابه فى الأمر مع قيام النص ونزول الوحي ، وإن لم ينزل وحى فلا ذنب ألبتة فى الاجتهاد بالرأى والسير على رأى الأغلبية كما تم فى هذه المشورة . ولو كان فى اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خطأ لنقض الله الخطأ وأوحى إلى رسوله بقتل الأسرى وبرد ما أخذ منهم من الفدية ، ولكن الوحي جاء صريحاً فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً) وبذلك أعلمنا الله تعالى أنه لم يقع خطأ ألبتة .

أما ما صدرت به الآية من قوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) فذلك من باب تقرير المبدأ بصفة عامة

بدليل تنكير كلمة نبي إذ لم يقل الله تعالى : (ما كان للنبي) بالتعريف ولو تأملتم فيما جاء في الآية ذاتها بعد ذلك من قوله تعالى : (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) لا ستبان لكم أن المعاتين بهذا الخطاب هم الصحابة الذين مالوا إلى أخذ الفدية وليس النبي صلى الله عليه وسلم لأن الآية قالت (تريدون) بالجمع ولم تقل (تريد) بالمفرد ، وسياق حديث مسلم يؤيدوني حيث جاء فيه : (لقد عرض على عذاهم أدنى من هذه الشجرة) .

الإذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك :

يقول تعالى في سورة التوبة : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) .

(عفا الله عنك) تصدرت هذه الجملة الآية ومعناها : لاشئ عليك ، أما الاستفهام في قوله تعالى (لم أذنت لهم) وهو ما يشعر بالإنكار على التصوف لو أخذ الأمر على ظاهره ، فردنا عليه أننا لو فرضنا وقوع الذنب جدلاً فقوله تعالى (عفا الله عنك) يدل على حصول العفو ، وبعد حصول العفو لا يبقى محل لأن يوجه إليه الإنكار . أما إذا لم يكون ثمة ذنب ، فلا يبقى وجه لأن يحمل الأمر على الإنكار .

وعندى أن الآية إنما جاءت مهاجمة للمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعذار غير حقيقية كذبوا فيها ولم يكون صادقين عند استنادهم إليها ، كما أن الآيات التالية أقرت اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم فالإذان لهم بالتخلف إقراراً واضحاً لا شبهة فيه لأنه تعالى يقول : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) بل إنما توجهت تصرف رسول الله صلى

الله عليه وسلم بتاج رفيع وأعظمته ، وذلك واضح من قوله تعالى : (ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) . وإذن لم يرد الله أن يخرج هؤلاء المنافقون مع المقاتلين ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلف وافق إرادة الله العليا لأنه ينظر في الأمور كلها بنور الله ، فكيف ينسب إليه العتاب في إذنه لهم بالتخلف وقد أحبه الله وكره انبعاثهم .

ولو أنكم تتبعتم سورة التوبة بعد ذلك لوجدتم أن الآية ٩٤ منها جرت هكذا : (يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) . وهي تؤيدني في أن قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) نزلت كاشفة لبواطن المنافقين ليقف المؤمنون على حقيقتهم ولا يصدقوهم فيما ادعوا من أعذار كاذبة .

أما قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم) .

فمعنى التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قبل اجتهاده في إذنه للمنافقين في التخلف ؛ ولأهل المعاني في هذه الآية كلام لطيف ، فقد قالوا : إنما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم معهم في التوبة لأنه كان سبب توبتهم ، كقوله تعالى (فإن لله خمسه وللرسول) ، وساعة العسرة التي تشير إليها الآية هي اشتداد الأمر في غزوة تبوك على أصحابه صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لقلعة الدواب ؛ فقد كان العشرة منهم يعتقبون على البعير الواحد ، وكان الإثنان من الرجال يقتسمان التمرة الواحدة ، واشتد العطش من قلة الماء حتى نحروا الإبل وعصروا كرشها وشربوه ، وبسبب تلك الشدائد كاد البعض أن يميل إلى التخلف عن الجهاد

لولا أن ثبتهم الله على الإيمان والصبر وهو ما يستفاد من قوله تعالى : (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) .
الذنب المقدم والمؤخر :

تعرضنا في الباب السابق لهذا الموضوع من بعض زواياه واليك زيادة في البحث من زواياه الأخرى . قال تعالى في سورة الفتح : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

يتساءل قارئ هذه الآيات عن الذنب المقدم والمؤخر ، وإني أرتاح للتفسيرين التاليين وقد تخيرتهما من بين التفاسير الكثيرة التي اطلعت عليها :

أولهما : أن وقع الذنب على سبيل الفرض ، أى لو وقع ذنب منك فرضاً في الماضي أو المستقبل فهو مغفور لك . وفي الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) . مرجعه الحديبية ، فقل النبي صلى الله عليه وسلم : أنزلت على آية أحب إلى مما على وجه الارض ثم قرأها صلى الله عليه وسلم .

ولا تعجب أن يقول ذلك صلى الله عليه وسلم فإنه كان يخاف ربه على قدر علمه بالله ومحبتة له تعالى ، وكان يقول لأصحابه : (والله إني لأخوفك من الله) كما كان يقول لهم ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً)) .

ثانيهما : أن الذنب المغفور ما كان منه وما يكون هو ذنب أمته صلى الله عليه وسلم لأنه كفيل أمته وفي الحديث الشريف : أنا حظكم من الأنبياء وأنتم حظي من الأمم ، وهو صلى الله عليه وسلم شافع مشفع في أمته ، وقد بلغه سيدنا جبريل رسالة من ربه يقول الله تعالى فيها له : (إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك . ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) . وقول عيسى عليه السلام

(إن تعذبهم فإنهم عبادك) . فرفع يده وقال : ((اللهم أمتي أمتي)) . وبكى فقال الله تعالى لجبريل : اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك ؟ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره ، فقال الله تعالى لجبريل اذهب إلى محمد فقل له : إن الله يقول لك إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية من كتاب الله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) قالوا إنا نقول ذلك ، قال ولكننا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . وفي الحديث لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : ((إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار)) ويقول الشاعر مشيراً إلى ذلك :

قرأنا في الضحا ولسوف يعطى فسر قلوبنا هذا العطاء
وحاشا يارسول الله ترضى وفينا من يعذب أو يساء

فإن قال قائل : إن الله تعالى أمر الرسول صلوات الله عليه بالاستغفار في قوله تعالى في سورة محمد : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) . وهو ما يوهم أن له ذنباً منفرداً ، فالرد على ذلك أن الله تعالى أمره بالاستغفار مع عصمته لتستن به أمته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر امتثالاً للأمر الإلهي ، وتواضعاً لله ، واستقصاراً لعمله في جنب الله ، وقال بعض المفسرين في معنى (ذنبك) أي ذنب أهل بيتك ، وللمؤمنين أي للذين هم في أمتك وليسوا من أهل بيتك . وقيل أنه صلى الله عليه وسلم كان في ترق مستمر فكان كلما رقى درجة استغفر الله من الدرجة التي كانت قبلها ، ولذلك فسر قوله صلى الله عليه وسلم

((إنه ليغان^١ على قلبي وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)) بأنه غين أنوار وليس بغين أغيار .
وقد ذهب عطاء الخراساني إلى أن الذنب المقدم هو ذنب أبويه آدم وحواء حيث غفر لهما ببركة صلى الله عليه
وسلم . وأرى في القرآن الكريم ما يؤيد ما ذهب إليه عطاء ، وأسواق على سبيل المثال مما يدل على كفاية رسول
الله صلى الله عليه وسلم لأمته من آيات الله تعالى ما يلي :

(أ) قوله تعالى في سورة النساء : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر
لهم الرسول لوجدهوا الله تواباً رحيماً) ،
في حين يقول تعالى في حق غير المؤمنين في سورة التوبة : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم
إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) .

(ب) قوله تعالى في سورة التوبة : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن
صلاتك سكن لهم) . فهو صلى الله عليه وسلم بالنسبة للمؤمنين المطهر والمزكي والراحم
بالدعاء .

(ج) قوله تعالى في سورة التحريم : (يأيتها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن
يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين
آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على
كل شيء قدير) .

(د) قوله تعالى في سورة النور : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على
أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين

^١ - يغطي .

يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا - استأذنونك لبعض شأئهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) . وهو ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم القائم على شئوئهم والمستغفر لهم الله . كما يقول تعالى في سورة آل عمران : (فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفصوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) .

(هـ) قوله تعالى في سورة الأحزاب : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) ، وهو ما يفيد أن تصرفه صلى الله عليه وسلم نافذ فيهم بأمر الله .
(و) قوله تعالفي سورة الفتح : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) . وقامت بيعة الرضوان على أن يناجز المؤمنون قريشاً ولا يفروا ولما لم يحضر عثمان رضي الله عنه البيعة ، حيث كان رسول اله صلى الله عليه وسلم أرسله لمفاوضة أهل مكة ، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليسرى على يده اليمنى وقال : " وهذه يد عثمان ، يسراى خير من يمين عثمان " ، وباله من شرف كبير لسيدنا عثمان حيث مثلته يد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(ز) وقوله تعالى في سورة النساء : (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخوا

حذرهم وأسلحتهم) . وقد جعل الله الرحمة بهذه الصلاة قسمة بين المقاتلين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتبرك الكل به استدراراً لرحمة الله التي تأتيهم واسعة على يديه صلى الله عليه وسلم .

وغير ذلك كثير ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، فلأمته التي استجابت له النصيب الأوفى من تلك الرحمة ، وكيف لا وقد بكى صلى الله عليه وسلم وقال : أمتي أمتي ، فقال له ربه إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك . اللهم احشرونا في زمرة وتحت لوائه يوم لقائك يارب العالمين ، وشفعه فينا بجاهه عندك يا أجود الأجودين ، ويا أرحم الراحمين .

الركون للمشركين :

يقول تعالى في سورة الإسراء : (وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تأخذوك خليباً* ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) . أى أدركتك عصمتنا فمنعتك من أن تقرب من الركون إليهم فضلاً عن الركون ذاته . وكلمة لولا تفيد انتقاء الشيء لثبوت غيره ، تقول : لولا زيد هلك عمرو ، ومعناه إن وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو . وكذلك الأمر هنا معناه إن تثبيت الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حصل فكان حصول التثبيت مانعاً من حصول الركون .

وظاهر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وباطنه إخبار عن تقيف وتعريف للأمة لئلا يركن مسلم إلى المشركين في شئ من أحكام الله تعالى وشرائعه ، وكانت تقيف عرضت ألا يدخلوا في الإسلام حتى يعطيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خصالاً يفتخرون بها على العرب فقد قالوا : لا نعشر (أي لا يؤخذ منا العشر) ولا نخسر (أي لا نجمع للجهاد) ولا نجى في صلاتنا (أي لا نركع) وكل ربا لنا فهو لنا ، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللالات (صنمهم) سنة ، وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة فإن قالت العرب : لم فعلت هذا فقل : إن الله أمرني .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه الآية المتقدمة : اللهم لا تكلمني إلى نفسي طرفة عين .

قصة الأعمى :

قال تعالى في سورة عبس : (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهي * كلا إنها تذكرة)

الأعمى هو سيدنا عبد الله بن أم مكتوم ، وهو ابن خال السيدة خديجة أم المؤمنين رضی الله عنه ، وهو من أجلاء الصحابة ، وقد دعا إلى الإسلام بين الأنصار مع سيدنا مصعب بن عمير قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان بلال رضي الله عنه يؤذن بليل ، (وابن أم مكتوم رضي الله عنه يؤذن للفجر) ، وهو بذلك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرد من أفراد أسرته الشريفة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزه ، وقد ولاه على المدينة مرتين في أثناء غيابه عنها صلى الله عليه وسلم في غزوتين .

وجاء في التفسير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب بعض عظماء قريش طمعاً في إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ قال ابن أم مكتوم وكان من السابقين الأولين في الإسلام فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء ويلح عليه ، وود النبي صلى الله عليه وسلم أن لو كف عن سؤاله ليمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هداية الكافر إلى الإسلام ، فأعرض عن الرد عن ابن أم مكتوم وأقبل على الرجل الآخر فنزلت تلك الآيات ، قال الثوري فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي .

وهو وإن كان عتاباً ، فإنما ياعتب الحبيب حبيبه إعزازاً له وإكراماً ، وإرشاداً لأمته وبياناً ، ألسنت تراه تعالى

يقول : عبس ولم يقل عبست ، وقال : وتولى

ولم يقل : وتوليت ، اكتفاء بسرعة إدراكه صلى الله عليه وسلم ، كما يقول : (كلاً إنها تذكرة) ولم يقل إنها مؤاخذاً ، وفي ذلك من الرقة والرعاية ما فيه - ويقول الإمام القرطبي رضي الله عنه في تفسيره :
قال علماؤنا ما فعله ابن أم مكتوم كان سوء الأدب لو كان عالماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجوا إسلامهم ، ولكن تبارك وتعالى عاتبه صلى الله عليه وسلم لثلاثا تنكسر قلوب أهل الصفة¹ أو ليعلم المؤمنون أن المؤمن الفقير خير من الغني الكافر ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيراً وأصلح وأولى من الأمر الآخر ، وهو الإقبال على الأغنياء في إيمانهم و أن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة ، وقيل إنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب ابن مكتوم من الإيمان .

أقول : وحاشا أن يكون تشاغل النبي صلى الله عليه وسلم ازدياء لابن أم مكتوم لفقره ، فإنه صلى الله عليه وسلم اختار في حياته فقر المال على الغنى حين عرض عليه ربه أن يحول له جبال مكة ذهباً وقال : ((لا يارب أجوع يوماً وأشبع يوماً أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك)) وعندها قال له سيدنا جبريل عليه السلام : ثبتك الله بالقول الثابت يا محمد ، ويشير إلى ذلك الأمام البوصيري في برده المباركة بقوله :

وراودته الجبال الشم من ذهب

عن نفسه فأراها أيما شمم

وأكدت زهده فيها ضرورته

إن الضرورة لا تعدو على العصم

وكيف يزدري رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمناً لفقره وهو القائل : ((لا تحقرن صغير المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير)) وكيف يحتقر واحداً من الصفة الكرام البررة وقد أوصاه الله بهم في قوله تعالى في سورة الكهف : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) . كما قال له تعالى في سورة

¹ - مكان بالمسجد النبوي كان يجلس فيه فقراء المهاجرين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وهو خلف حجرات النبي صلى الله عليه وسلم ويراه زائر المسجد النبوي مرتفعا عن مستوى الأرض التي حوله .

الأنعام : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أن من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم)
أقول : وانظر كيف يسلى الله الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله (وما عليك ألا يزكى) وفي ذلك من التهوين بشأن الأغنياء المعرضين عن الإيمان ما فيه ، والمعنى : ماذا يضيرك من كفرهم بعد أن أبلغتهم (ما على الرسول إلا البلاغ)

الضلال والهدى :

قال تعالى في سورة الضحى : (ووجدك ضالاً فهدى) وخير ما وجدته في تفسير هذه الآية الأقوال الآتية :
ليس الضلال في هذه الآية هو الكفر ، بل المعنى : وجدك ضالاً عن النبوة فهداك إليها
أو : وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم إليه .
أو : وجدك ضالاً عن شريعتك ، أى لم تكن تعرفها فهداك إليها .
وقيل وجدك ضالاً عن المهجرة فهداك إليها ، وقيل وجدك طالباً للقبلة فهداك إليها
وقيل : وجدك متحيراً في بيان ما نزل فهداك إليه وعلمك البيان ، فيكون الضلال بمعنى التحير لأن الضال متحير ، وقيل وجدك ضالاً ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش ، وقيل
وجدك ضالاً

أى لا أحد عن دينك وأنت وحيد فهديت بك الخلق إلى ، وقيل وجدك ضالاً لايتهدى إليك قومك ولا يعرفون قدرك فهدى المسلمين إليك حتى آمنوا بك . وفي قراءة (ووجدك ضالاً فهدى) أي وجدك الضال فاهتدى بك . أما السادة الصوفية فقد قالوا في إشارتهم الرقيقة في معنى : (ووجدك ضالاً فهدى) أي وجدناك غرقاً في أنوارنا فهديناك لمشاهدتنا .

وجماع القول ان الله تعالى صاحب المنة على رسوله صلى الله عليه وسلم في إيمانه وعلمه ونوره ، كما من الله تعالى على المؤمنين برسالته فاهتدوا على يديه ، ويبدو هذا المعنى جلياً في قوله تعالى في سورة الشورى : وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كانت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً تهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . و المعنى : أن عطاء ربك واضح فيك ، فقد وهبك الإيمان والقرآن وعلمك شرع الله مع أنك نشأت أمياً بين قوم أميين ، لم يكن لهم عهد بذلك الشرع فعلمتهم مما علمك الله حتى صاروا أئمة لغيرهم ، وذلك من المعجزات الباهرات ولو أنهم رأوك تكتب العلم أو تتلقاه من معلم لارتابوا في نبوتك وما اهتدى على يدك من اهتدى ، ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون) .

الوزر الذى أنقض الظهر :

يقول تعالى في سورة الانشراح : ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك) وتفيد هذه الآيات أن الله تعالى شرح صدر حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم للإيمان وملاه حكمة وعلماً ، ونهل المؤمنون من

العلم و الحكمة ما أنقذهم من ظلمة الكفر وجعلهم في نور الإيمان الذى صانهم من فتنة النفس والشيطان .
أما الوزر الذى انفض الظهر وأثقله فهو عبء الرسالة التى عهد الله بها إليه صلى الله عليه وسلم ، وهو عبء شديد لا يعين على حمله إلا الله سبحانه وتعالى ، المعنى : إن الله قواك فحملت عبء الرسالة على الرغم من أن حمله أنقض الظهر وجعل له قضيضاً ، وعبء الأمانة عبء شديد ولكنه تعالى أعان رسوله صلى الله عليه وسلم فحملة دون رهبة أو عجز ، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين (أي الموت) ،
ويصور لك عبء الأمانة قوله تعالى فى سورة الأحزاب :
(إنا عرضنا الأمانة 'على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ')^٢ إنه كان ظلوماً جهولاً) . فكل من ضيع أمانة التكليف الشرعية التى كلفه الله بما فهو جاهل بل جهول بقدر الأمانة ، جعلنا الله ممن يؤدون ما أئتمنهم الله عليه من أمور ديننا ودنيانا .

١ - هى التكليف الشرعية من عبادات ومعاملات .
(^٢) الإنسان هنا هو الذى ضيع الأمانة ولم يعطها حقها الذى أراد الله تعالى . وقد كان إمامنا على كرم الله وجهه يتغير لونه إذا حان وقت الصلاة فلما سنل فى ذلك قال : جاء وقت الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وإنما دل خوفه على تقدير أمانات الله سبحانه وذلك من خشية وتقواه لربه تعالى ، رضى الله عنه وكرم وجهه .

الباب التاسع الاصطبار للعبادة

بين العقل و القلب :

قال تعالى في سورة مريم : (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً) .
وتوحى هذه الآية الكريمة لتأليها باستعمال العقل والقلب في معرفة الله تعالى ، فللعقل برهانه وللقلب عرفانه ،
فبالعقل يستدل الإنسان بالخلق على الخالق فيكون استدلال العقل مدخلاً إلى عقيدة القلب ، ومن ثم لا يتفكر
إلا عقل سليم ، ولا يعتقد إلا قلب طاهر ، ولا عقل أسلم من عقل رسول الله ، ولا قلب أظهر من قلب رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

فقد تحلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلم عقل وأظهر قلب منذ الصباح الباكر ، فتهيأ بتدبير الله وعونه
لاستقبال الوحي الذى أوحاه الله إليه ، فبلغ الأمة ما أنزل إليه ، ووقف عند أمر الله ونهيه ، وكيف لا يفعل وقد
قال له تعالى في سورة هود : (فاستقم كما أمرت) . وشرح بقوله وفعله وحاله ما أجمله كتاب الله الكريم ، فسمع
أصحابه منه ، وأخذوا عنه ، وتأسوا به ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولئن كانوا لم يبلغوا الغاية التى بلغها فقد
حاكوا السير على منواله ، وترسموا خطاه ما وسعهم الجهد ، وكانوا فى هذه الأمة الصف الأول الذى يليه ، صلى
الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى فى سورة المزمل :

(إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) . وقد خاطبهم وخاطبنا
سبحانه فقال : (لقد كان

لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً .

اصطباره صلى الله عليه وسلم للعبادة :

وقد عبد صلى الله عليه وسلم ربه ، واصطبر لعبادته ، والأصطبار هو نهایة الصبر ، فكان العابد الأول في خلق الله أجمعين، وكان بهذه العبادة إمام الأنبياء والمرسلين ليلة الإسراء ، فدانوا له بالزعامة ، ورضوا بأن تكون له الإمامة كما أحب الله تعالى ، لذلك لا تعجب أن يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فيطيل القيام بين يدي ربه مصلياً ، ويكثر من قراءته في الصلاة ، حتى كان يقرأ في الركعة الأولى سورة البقرة وفي الثانية آل عمران ، فلا تعجب أن يحدث عنه ابن مسعود رضی الله عنه فيقول : ((صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء ، قيل : وما هممت به ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه)) . وقد حدثت سيدتنا عائشة رضی الله عنها فقالت : ((إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، قلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟)) .

تطويل القراءة :

ولتطويل القراءة في قيام الليل ، كانت ركعاته على الرغم من طول الوقت لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة (بالوتر الذي يختم به صلاته) .
وعن السيدة عائشة رضی الله عنها قالت :
((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجد وشد المنزر)) ؛ كما قالت رضی الله عنها : ((كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى)) ؛
وحدثت أيضاً رضی الله عنها فقالت : ((كان صلوات الله عليه يذكر الله على كل أحيانه)) .

نصيحة نبوية :

وعن معاذ رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال : ((يامعاذ ، والله إني لأحبك ثم أوصيك ، يامعاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) .

العلم والعبادة :

ولما كان العلم سبيلاً لصحة العبادة ، فقد جاء في الحديث الشريف : ((من سلك طريقاً يتغى فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة)) . وشجع صلوات الله وسلامه عليه على تطبيق العلم فقال : ((من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم)) . أقول والفتح الذى شاهدناه بأنفسنا على بعض الصالحين مصداق لصحة ذلك الحديث ، فضلاً عما امتلأت به بطون الكتب من فتوحات أسلافنا الصالحين .

همة الأولياء في طلب الله :

وكم ظهر في الأمة المحمدية في كل جيل من الأولياء الذين تأسوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتحلوا بالهمة في طلب الله ، وآثروه تعالى عما سواه طمعاً في رضاه ، وهم الذين عرفهم كتاب الله تعالى ، فقال : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) ، ويقول في وصفهم تفصيلاً الإمام أبو بكر الكلاباذى رضى الله عنه في كتابه ((التعرف لمذهب أهل التصوف)) .

((سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم ، وزكت

أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ، فهموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفي الأرض سماويون ، ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار ، غيب حضار ، ملوك تحت أطمار ، أنزاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، ونفوسهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صفوية صوفية ، نورية صافية ، ودائع الله بين خليقته ، وصفوته في بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخفاياه عند صفيه ، هم في حياته صلى الله عليه وسلم أهل صفته ، وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثاني ، والسابق التالى بلسان فعله أغناه ذلك عن قوله)) .

وفي قوله رضى الله عنه : ((ووصاياه لنبيه)) يشير إلى وصاية الله بأهل الصفة من فقراء المهاجرين في قوله تعالى في سورة الكهف : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) . ووصاية الله هذه كان يقدرها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها فكان دائم العطف عليهم والإكرام لهم ، حتى لقد قال مرة (من حديث مسلم) لسيدنا أبي بكر رضى الله عنه : ((أأغضبتهم يا أبا بكر ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله)) ، فأسرع إليهم سيدنا أبو بكر وقال لهم : أغضبتكم بإخوتاه ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك .

فانظر إلى همتهم (يدعون ربهم بالغداة والعشي) ، وانظر إلى صفاء نيتهم ، وطهارة طويتهم (يريدون وجهه) . وقد حاكاهم أتقياء الأجيال التي جاءت من بعدهم واتبعوهم بإحسان ، فسعدوا بولاية الله ، وكان منهم المؤمنون والمؤمنات ، وهاهى ذى السيدة رابعة العدوية قد حركت القلوب ، وألهبتها شوقاً إلى الله ، بما آتاها الله من فضله ، وكانت رضى الله عنها ذات عزم لا يبارى في العبادة ، حتى لقد كانت تصلى في اليوم والليلة ألف ركعة وتقول : ما أريد بها ثواباً ولكن ليسر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول للأنبياء : انظروا إلى امرأة من أمتى ، هذا عملها في اليوم والليلة .

شيخى والتجلى :

وصدق شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ علمقل إذ يقول فى إلهامه الارتجالى الذى نقلناه عنه :

بحر التجلى كله حكمة
دع ما يقول الناس من علمهم
كم تسكر الأرواح من عذبه
مادمت تلقى العلم من سيبه

ويقول :

علمومى فى الورى نفحات ربى
ولى من مشرق الإيمان علم
فما بلغوا مذاقى أو شمولى
سموت به على كل الفحول

وكان رضى الله عنه من المصطبرين لعبادة الله ، شوقاً إلى الله وحباً فيه ، حتى هجر النوم قرابة أربعين عاماً ، وسهر الليل كله عابداً ، كما لمسنا ذلك منه بأنفسنا معاينة ، وقد علمه الله من لدنه ما بهر العقول ، وشهدت فى مجلسه مرات كثيرة كبار العلماء يستمعون إليه ويقرون بفضلهم ، وقد تربى رضى الله عنه فى الطريقة الخليلية لصاحبها القطب الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المبارك بالزقازيق ، عن يد خليفته شيخى وسيدى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه ، ذلك المبارك الذى كان يتلقاه شيخه الإمام أبو خليل بترحاب خاص ويقول له أهلاً بالولى الكامل وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة الواقعة :

(ثلثة من الأولين * وثلثة من الآخريين) . وحين يقول (ثلثة من الأولين * وقليل من الآخريين) . وقد من الله على بصحبة هؤلاء الصالحين قبل انتقالهم ، فنفعنا الله بمقالمهم وحالمهم فى حياتهم ، ومازلنا نلمس بركاتهم بعد انتقالهم ، فجزاهم الله عنا خيراً كثيراً ، ورحمة الله على صديقى وأخى فى الله الراحل الكريم الأستاذ محمد جاد الرب إذ يقول :

إذا لم يكن لى عزمهم وجهادهم
وإن ضاق خطوى عن لحاقى بركبهم
فإنى بهم صب وفيهم متيم
فإنى على آثارهم أترسم

ومن يعتزم عبر الطريق فإنه
ولا بد للسارى وإن كان وانياً

سيهدى إلى سر الطريق ويلهم
إذا صح عزمًا أنه يتقدم

شيخك الذى يربيك :

وينصحنا سادتنا العارفون بالله تعالى فيقولون : والشيخ الذى يلقي إليه المرید بالقيادة (أى لتربيته فى جنب الله تعالى) هو العارف بأحوال النبی صلى الله عليه وسلم ، وسقيت ذاته من نوره صلى الله عليه وسلم حتى صار على قدم النبی صلى الله عليه وسلم ، وأمدته الله تعالى بكمال الإيمان وصفاء العرفان ، فإنه يجمع العبد على ربه ، ويقطع عنه الوسوس فى معرفته ، ويرقيه فى محبة النبی صلى الله عليه وسلم ، والشيخ الموصوف بذلك متعدد والحمد لله فى البلاد والعباد ، فلا تخرج عن أهل السنة والجماعة ، فاطلبه تجده (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ، كما يقول العارفون رضى الله عنهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المرآة الكبرى والمجلى الأعظم ، وإن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به ، والمعرفة لانهاية لها ، فما دام الإنسان يترقى فيها ، فهو يغترف من بحره صلى الله عليه وسلم ، ويستمد منه ، ومع ثبوت الإيمان للعبد لا يستغنى فى التوصل إلى المعرفة عن خلفائه ، صلى الله عليه وسلم ، الذين ينوبون عنه فى الإرشاد من المشايخ المهتدين العارفين بالله تعالى .

ويقول الإمام جلال الدين الرومى رضى الله عنه فيما ترجمه عنه صديقى الشيخ الصاوى شعلان جزاه الله خيراً :
((سبحان من قدر فهدى ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، إن إلهام النحل هو الشهد ، وإلهام حشرة الفز نسج الحرير ، وإلهام الليل أغاني السحر ، وإلهام رجال الله نور يشهدون به ملكوات السموات ولأرض :

صدقوهم هم مصابيح الدجى
أكرمهم هم مفاتيح الرجا

اتبعوا من لا يسألکم أجراً وهم مهتدون)) .

كما يقول رضى الله عنه : الشيخ مثل القمر ، والناس مثل الليل ، فاختر لك شيخاً مرشداً ، فإن السفر بدون المرشد كسيراً ما يكون مليئاً بالآفات والمخاوف والأخطار

ولا تمش وحيداً في الطريق التي لم ترها قط ، ولا تحول وجهك عن الدليل ، وبدون الدليل تكون حائراً حتى في الطريق التي طرقتها مراراً .

ويقول العلامة العقاد رحمه الله في كتابه ((عبقرية محمد)) :

فكر (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) في الخلق فأمن بالخالق ، واستقر هناك لا يتقدم ولا يتأخر ، فقال : ((إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ فيقول : الله ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الله ؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله ورسوله)) .

((تلك هي نهاية التفكير التي ينتهي إليها عقل مستقيم خلق للعبادة ، عامل لتعليم الناس عبادة وعملا ، ولم يخلق ليوغل في الفروض ويتقلب بين الشكوك .

((ولهذه السنة التي استنها النبي عليه الصلاة والسلام في عبادته الروحية كثرت وصاياه بإدمان التفكير في خلق الله وجنتاب التفكير في ذات الله ، فقال في حديث : ” تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله “ ، وقال في هذا المعنى : ” تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا “ وقال الله في حديث قدسى : ” كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق في عرفوني “ .

((أما عبادة الشعائر الظاهرة فهي عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين : يصلى النبي ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التي يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب إلى نفسه في هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره ، على سنة السماحة واليسير التي أثرت عنه في كل عمل من أعماله وكل سجية من سجايه ،

((فكان أخف الناس صلاة بالناس ، وأطول الناس صلاة لنفسه ، وربما قام الليل أكثره أو أقله ، ولا يدين أحداً بالتهجد كما كان يتهجد ، أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدوا في العبادة فيصبحوا كالمثبت ” لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى “

وكان محمد إذا حزبه أمر صلى ، لأن النفس المفطورة على العبادة تكون الصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومتى وجدت النفس ” فرحة اللقاء “

في الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولا تضییع فيها لوقت .

وأقول : إن الآية التي صدرت بها هذا الباب أفضت مضجعي ليلة كاملة ، وكنت كلما هجعت قليلاً أستيقظ ويسبح فكري فيها بقوة ، وكانت روحى متأثراً متأثراً قوياً وتنفعل بذلك الاستفهام الرائع التي ختمت بها الآية ((هل تعلم له سميأ ؟)) فهو استفهام إنكارى يدعوننا به الله إلى بذل الجهود بين يدي المعبود الذى يستحق العبادة وحده لا إله إلا هو رب العالمين ؛ وقد تذكرت بانفعالى قول الإمام الصوفي أبى سليمان الدادانى : إني أقرأ الآية من كتاب الله فيذهب فيها لى خمس ليل وسبحان الذى يرده على بعد ذلك .
اللهم ارزقنا حسن عبادتك والاصطبار لها كما تحب وترضى ، فالتوفيق منك ، والصبر بك ، والقوة لك ، آمين .
والمؤمن بعبادته وطاعته إنما يزكى روحه فى جنب الله تعالى فيكون من المفلحين حيث يقول سبحانه :
(قد أفلح من زكاها) ، وقيمة الإنسان فى قوة إيمانه الباطنة التي تغيب عن العين كما تغيب عنها رائحة الوردة فإن رائحتها تشم ولا ترى ، ولا قيمة للوردة بغير رائحتها ، وصدق بعض صوفية الفرس فى قوله الذى ترجمه صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان :

إذا الورود خلت من طيب نفحتها	فلا تراحم بها فى الأرض بستانا
إذا الوجوه خلت من نور سجدتها	لم تستحق غداة الموت أكفانا
إذا القلوب خلت من ذكر خالقها	فهى الصخور التي تحتل أبدانا
إذا خلا المرء من علم ومعرفة	ظلمت نفسك لو تدعوه إنسانا

الأوصاف والخصائص المحمدية

الفصل الأول

أوصافه صلى الله عليه وسلم

شرف الأمة المحمدية :

وصف الله تعالى حبيبه الأول صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم بأوصاف حميدة دلت لى على عظيم فضله عليه وعلينا نحن المؤمنون ، لأن كل شرف له صلى الله عليه وسلم إنما يشرف به تابعوه . ولا عجب بعد ذلك أن يكون صلى الله عليه وسلم منة الله علينا كما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران :

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) . ولقد أيدته سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم وهو أبقى المعجزات وأخلدها فانتفع به الأولون والآخرون من أمته ، وآتاه العلم الذى لم يؤت مثله أحداً من العلمين ، ففصل بعلمه ما أجمله القرآن الكريم فجاءت السنة النبوية نوراً على نور ، فاستضاءت الأمة المحمدية بالنورين ، نور الكتاب ونور السنة ، وترسمت خطاه صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ الأحكام بالأقوال والأفعال والأحوال ، فاستنارت بهديه القلوب وتعلقت بحبه الأرواح ، وكيف لا وقد اهتدى به المسلمون بعد الضلال ، وسعدوا بعد الشقاء ، والله يختص برحمته من يشاء . وصدق الله تعالى إذا يقول للأمة المحمدية : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فهل كانت تلك السعادة لأمة قبلنا؟! وإذا أردت أن ترى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هداية أمته

فتدبر قوله تعالى في سورة التوبة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) . وقد قال الحسين بن الفضل بحق : لم يجمع الله لنبي من أنبيائه اسمين من أسمائه إلا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فسماه رءوفاً رحيماً ، وقال تعالى : (إن الله بالناس لرءوف رحيم) .
رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم :

وإني أوجه القارئ العزيز إلى الانتفاع بما يقوله بحق سيدي الشيخ يوسف النبهاني في كتابه جواهر البحار ، فقد قال رضى الله عنه : إن اتصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسماء والصفات الإلهية إنما هو على الوجه الذى يليق به صلى الله عليه وسلم ، لا على الوجه الذى يليق بالله تعالى من أوصاف الألوهية المختصة به عز وجل ، فإن هذا لا يجوز أن يتصف به النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الخلق ، ولكن الله تعالى قد خلع من فضله على سيد الخلق الأعظم وعبد الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً من أسمائه الحسنى وصفاته العليا تشریفاً له صلى الله عليه وسلم بما اختصه به بين الأنام .
ويقول في هذا المقام القاضى عياض رضى الله عنه :

يجب أن يعتقد المؤمن أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسن أسمائه ، وحلى صفاته ، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا تتشبه به ، وما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق لا تشابه بينهما في المعنى الحقيقى ، إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق ، فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات ، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض وهو تعالى منزه عن ذلك ، بل لم يزل بصفاته وأسمائه ، وكفى في هذا قوله تعالى (ليس كمثله شئ) ولله در من قال من العلماء العارفين المحققين :
((التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة من الصفات ، وقال الواسطى : ليس كذاته تعالى ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة ، إلا من جهة موافقة اللفظ ، وجلت الذات القديمة أن تكون لها صفة

حديثه كما استحال أن تكون للذات المحدثه صفة قديمة ، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضى الله عنهم .

أقول : وفي قوله تعالى : (بالمؤمنين رءوف رحيم) إشارة إلى أن رحمته صلى الله عليه وسلم دائمة لا تنقطع عن مؤمنى أمته . وكان صلى الله عليه وسلم أحرص ما يكون على هداية قومه واستنقاذهم من غواية الشيطان وتوجيههم إلى الإيمان حتى لقد قال له ربه فى سورة الكهف : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) ، أى كدت تقتل نفسك حسرة على فرارهم من الإيمان والانتفاع بالقرآن . كما يقول سبحانه فى سورة يوسف مواسياً له فى حرصه : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ، وفى سورة النحل : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين) .

وقال تعالى فى سورة آل عمران : (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة وهم عذاب عظيم) .

ومع هذا فقد رحمهم الله ولم يعذبهم بكفرهم كما فعل بكفار الامم السابقة ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى فى سورة الأنفال : (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فىهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) . فما أعظم فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم . وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد حزن على أهل الكفر حين لم يؤمنوا فما كان أعظم

سروره بالمؤمنين حين آمنوا . ولا غرو فهو بالمؤمنين رءوف رحيم . وقد قالوا إن الرأفة أخص من الرحمة ، ولذا قيل رءوف بالمطيعين منهم ، رحيم بالمذنبين منهم ، صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلة رحمته صلى الله عليه وسلم أنه ترك الخروج لجماعة التراويح في رمضان في الليلة الثالثة بعد أن صلاها بهم ليلتين وقال : خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها ، كما ترك الأمر بالسواك عند كل وضوء ، وكان يتخول أصحابه بالموعظة ، فيعظهم حيناً بعد حين مخافة السامة ، وكان يود راحتهم في أحوالهم فقال : ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به)) وقال : ((إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض وذا الحاجة ، وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء)) ، وقال : ((من آذى مسلماً فقد آذاني)) .

وجاء في كتاب ((مواكب ربيع في مولد الشفيح)) لسيدى العارف الشيخ أحمد الحلواني الخليجي (والد شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلواني رضى الله عنه وعن أبيه) أنه لما كان صلى الله عليه وسلم من ربه قاب قوسين أو أدنى (قرب مكانة لا مكان) قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالحسف ، وبعضهم بالمسح ، فما أنت فاعل بأمتي ؟ قال : أنزل عليهم الرحمة ، وأبدل سيئاتهم حسنات ، ومن دعاني منهم لبيتته ، ومن سألتني أعطيتنه ، ومن توكل على كفيته ، وفي الدنيا أستر على العصاة ، وفي الآخرة ، أشفعك فيهم ، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه لما حاسبت أمتك ، فلما أرد الانصراف قال يارب إن لكل قادم من سفر تحفة¹ فما تحفة أمتي ؟ قال الله تعالى : أنا لهم ما عاشوا ، وأنا لهم إذا ماتوا ، وأنا لهم في القبور ، وأنا لهم في النشور .

وجاء كذلك في الكتاب المذكور أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال : يارب اجعل حسابهم إلى ثلثا يطلع على مساويهم غيرى ، فأوحى إليه :

¹ - بفتح الحاء وسكونها .

هم أمتك وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك . وكذلك اختبأ لهم دعوته صلى الله عليه وسلم فقد روى مسلم ((لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً)) .

أمير المؤمنين عمر والفضائل النبوية :

ولما كان صلى الله عليه وسلم آخر المرسلين الكرام وكان أكثرهم تبعاً ، فقد جمع الله له من المكارم والفضائل ما تفرق فيهم ، وقدمه في القرآن الكريم عليهم في قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) . وقد جاء في كتاب ((جواهر البحار)) لسيدى الشيخ يوسف النبهاني رضى الله عنه نقلاً عن كتاب ((المدخل)) لسيدنا الشيخ ابن الحاج رضى الله عنه .

((إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو يبكي : بأبي أنت وأمى يا رسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه فلما كثروا واتخذت منبراً لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم ، ((بأبي أنت وأمى يا رسول ، الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

((بأبي أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) . ((بأبي أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أهل

¹ - بأبى أنت وأمى أى أفديك بهما ، وذلك من سمو الأدب فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم .

النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون : (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولاً) .
((بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فما ذاك بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء ، صلى الله عليك .

((بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله رجماً غدوها شهر ورواحها شهر فما ذاك بأعجب من البراق حين سریت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك ،

((بأبي أنت وأمي يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فما ذاك بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مسمومة فقالت : لا تأكلني فإنني مسمومة .

((بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال : (رب لاتذر على الارض من الكافرين دياراً) ولو دعوت مثلها علينا هلكننا عن آخرنا فقد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

((بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لقد اتبعك في أحداث سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كبر سنه وطول عمره فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا قليل .

((بأبي أنت وأمي يارسول الله لو لم تجالس إلا كفنأ لك ما جلستنا ، ولو لم تنكح إلا كفنأ لك ما نكحت إلينا ولو لم تتؤاكل إلا كفنأ لك ما آكلتنا ، وليست الصوف وركبت الحمار ووضعت طعامك بالأرض ولعقت أصابعك تواضعاً منك صلى الله عليك)) .

وقد كان ابن عمر كثيراً ما ينشد قول زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان :

لو كنت من شيء سوى بشر
كنت لمضىء بلبلة البدر

فيقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد سمع ذلك : كان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ولم يكن كذلك غيره

الخلق العظيم :

وكما تحلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفقة والرحمة ، وعطف بهما على الطائعين والعاصين من المؤمنين ، فقد تحلى بسائر الكمالات الخلقية حتى تمت مكارمه واستغنى بقوله تعالى (وإنك لعلی خلق عظیم) عن كل وصف من كلام البشر ، وإن تكلمنا عن خلقه العظيم فإننا لا نضيف جديداً لهذا الوصف الجامع وإنما نفصل ما أجمله ، ونبين ما أوجزه ، ليتأسى به من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ، فقد كمله الله وجمله حتى صار في كل شيء على غاية من علاه وحلاه ، ولقد خلقه سبحانه في أحسن تقويم فكان معتدل البنية ، كامل الرشد ، حسن الصوت ، فصيح اللسان ، رقيق الوجدان ، واجتمعت له من فضل الله الأوصاف المحمودة عقلاً وشرعاً كالعلم والحلم والصبر والصدق والأمانة والحياء والسخاء والتوكل والرضا والذكر والشكر والعفو والرفقة والسكينة والوقار والتواضع والانكسار والشجاعة والنجدة والهيبة والخشوع والخوف والرجاء والوفاء والدعاء والبكاء والعبادة والانتصار للحق والرفق وحسن العشرة وحب الخير وبغض الشر ، والبر بالضعاف والأيتام والمساكين ، وبلغ في كل ذلك النهاية التي لا مطمع بعدها لبشر ، فلا كعلمه علم ولا كحلمه حلم ، ولا كصبره صبر ، ولا كشجاعته شجاعة ، صلى الله عليه وعلى آله .

وقد سئلت سيدتنا أم المؤمنين عائشة عن خلقه صلى الله عليه وسلم فأجملته في قولها البليغ ((كان خلقه القرآن)) ومعنى ذلك أنه ائتمر بأوامر القرآن وأمر بما ، وانتهى بنواهيه ونهى عنها ، وأوامر القرآن الكريم ونواهيه إنما هي أوامر الله ونواهيه ، وليس بعد تأديب الله تأديب ، ومن أحسن من الله قبلاً ؟ وفي رواية قالت رضى الله عنها للسائل : أليست تقرأ القرآن (قد أفلاح المؤمنون) تعنى اقرأ الآيات العشر من سورة ((المؤمنون)) فذلك خلقه صلى الله عليه وسلم من الإيمان الذى هو أصل الأخلاق القلبية ، والصلاة التي هي عماد الأخلاق البدنية ، والزكاة التي هي رأس الأخلاق المالية ، إلى آخر ما في الآيات .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة ، وكان صلى الله

عليه وسلم يعرف في الليلة الظلماء بطيب ريحه ، وكان صلى الله عليه وسلم لا تفارقه قارورة الطيب في سفره ولا المكحلة والمرآة والمشط والمقراض والسواك والخيط والإبرة ، فيخيط ثيابه ، ويخصف نعله ، وكان صلى الله عليه وسلم يستاك بالأراك ، وكان صلى الله عليه وسلم يخصوص^١ فاه بالسواك في الليلة ثلاث مرات قبل النوم ، وبعده عند القيام لورده ، وعند الخروج لصلاة الصبح ، وكان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وكان يحسن عشرة أزواجه ويقسم بينهم بالعدل ، ويكون في مهنة أهله في البيت ، وكان صلى الله عليه وسلم يكرم ضيفه ويسلط رداءه له كرامة ، وكان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تبسماً وأحسنهم بشراً ، وما خير بين شيتين إلا اختار أيسرهما .

وكان صلى الله عليه وسلم يركب الفرس والبغل والحمار ويردف خلفه عبده أو غيره ، وكان صلى الله عليه وسلم يمسح وجه فرسه بطرف كفه أو بطرف رداءه ، وكان صلى الله عليه وسلم يتوكأ على العصا ، ورعى صلى الله عليه وسلم الغنم وقال : ما من نبي إلا وقد رعاها ، وكان صلى الله عليه وسلم يعق^٢ عن المولود من أهله ويأمر بحلق رأسه يوم السابع ويتصدق بزنة شعره فضة ، وعق صلى الله عليه وسلم عن نفسه بعد ما جاءته النبوة ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطييرة^٣ ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءه ما يجب قال : الحمد لله رب العالمين ، وإذا جاءه ما يكره قال : الحمد لله ربى على كل حال وإذا رفع الطعام من بين يديه قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين ، وفي رواية أخرى : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا ، وإذا عطس خفض صوته واستتر بيده أو بثوبه وحمد الله .

وكان صلى الله عليه وسلم أكثر جلوسه مستقبل القبلة ، وإذا جلس في المجلس احتبى بيديه ، وكان صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، ويستغفر في المجلس الواحد مائة مرة ، وكان صلى الله عليه وسلم ينام أول الليل ثم يقوم من السحر ثم يوتر ثم يأتى فراشه ، فإذا سمع الأذان وثب قائماً ،

^١ - ينظف .

^٢ - الغقيقة : ذبيحة تذبح في اليوم السابع ويضع منها الفقراء شكراً لله على نعمته في المولود أو المولودة .

^٣ - أى أنه كان يتفاعل ولا يتشاعم صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان جنباً أفاض عليه الماء ، وإلا توضأ وخرج للصلاة ، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى في سبحته قائماً (النفل) وربما صلى قاعداً ، قالت السيدة عائشة رضی الله عنها : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته جالساً ، وكان صلى الله عليه وسلم يسمع لجوفه أزيز كازيز المرجل من البكاء وهو في الصلاة وكان صلى الله عليه وسلم يصوم الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر وعاشوراء ، وقلما يفطر يوم الجمعة ، وأكثر صيامه في شعبان ، وكان صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه انتظاراً للوحى ، وإذا نام نفخ ولا يغط غطيظاً ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى في منامه ما يروعه قال : هو الله ربى لا شريك له ، وإذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن وقال : رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا ، وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم يبين كلامه حتى يحفظ من جلس إليه ويعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه ، ويخزن لسانه ولا يتكلم في غير حاجة ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً ، لا فضولاً ولا تقصيراً ، وكان صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ، وكان يتمثل بقول بعضهم : ويأتيك بالأخبار من لم تزود ، وكان صلى الله عليه وسلم جل ضحكه التبس ، وربما ضحك من شيء معجب حتى تبدو نواجذه من غير قهقهة .

وما عاب صلى الله عليه وسلم طعاماً قط ، إن اشتهاه أكل وإن لم يشتهه ترك ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل متكئاً ولا على خوان .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل الهدية ويكافئ عليها ، ولا يأكل الصدقة ، وكان يأكل ما وجد ، إن وجد تمرأً أكله ، وإن وجد خبزأً أكله ، وإن وجد لبنأً اكتفى به ، وكان يأتي على أهله الشهر والشهران ولا توقد في بيته نار ، وكان قوتهم التمر والماء ، وكان صلى الله عليه وسلم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، وقد آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فأبى أن يقبلها واختار الآخرة على الدنيا ، وأكل صلى الله عليه وسلم الخبز بالخل وقال : نعم الأدم الخل ، وأكل صلى الله عليه وسلم لحم الدجاج ، وكان صلى الله عليه وسلم

يجب الدباء (القرع) ويأكله ويقول إنه شجرة أخى يونس ، ويعجبه الذراع من الشاة ، وقال صلى الله عليه وسلم إن أطيب اللحم لحم الظهر ، وقال صلى الله عليه وسلم : كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعجبه الثفل (ما بقى من الطعام) ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل .

وكان صلى الله عليه وسلم يشرب قاعداً . وربما شرب قائماً ، ويتنفس ثلاثاً ، وإذا فضلت منه فضلة وأرد أن يسقيها بدأ بمن عن يمينه ، وأكل صلى الله عليه وسلم خبز الشعير بالتمر وقال هذا آدم هذا ، وأكل صلى الله عليه وسلم البطيخ بالرطب ، والقثاء بالرطب ، والتمر بالزبد ، وشرب صلى الله عليه وسلم لبناً وقال : من أطعمه الله طعاماً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، وقال صلى الله عليه وسلم ليس شئ يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن .

وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، لم تمس يده قط امرأة إلا امرأة يملك رقيقها ، أو عصمة نكاحها ، أو تكون ذات محرم منه ، وكان أسخى الناس ، ولا يلبث عنده دينار ولا درهم ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ، من أيسر ما يجد من الشعير والتمر ، ويضع الباقي في سبيل الله تعالى ، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى يحتاج قبل انقضاء العام ، وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، وكان يجيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ، يتبع الأمة والمسكين حيث دعواه ، لا يغضب لنفسه ويغضب لربه ، وكان يشهد الجنائز .

وكان أشد الناس تواضعاً وأسكتهم من غير كبر وأبلغهم من غير عى ، لا يهوله شئ من أمر الدنيا ، يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويؤلف أهل الشرف بالر ، يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أحوج منهم ، ويقبل معذرة المعتذر ولا يجفوه ، لا يحتقر فقيراً لفقره ، ولا يهاب ملكاً ملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً ، ولا يقول إلا حقاً في الرضا والغضب ، فقد أخرج الحاكم وصححه من طريق عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : ((قلت يارسول الله أتأذن لى فأكتب ما أسمع منك ؟ قال نعم ، قلت فى الرضا والغضب ؟ قال : نعم فإنه لا ينبغى أن

أقول عند الرضا والغضب إلا حقاً ، وبذلك وغيره مما فاتنا جمع الله له محاسن الأخلاق في أكمل صورها صلى الله عليه وسلم ورحم الله من قال :

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

شرف العبودية الكاملة :

ومع ما نال صلى الله عليه وسلم من محاسن الأخلاق وكريم السجايا والشمائل فإنه تحلى وتحقق بالعبودية لله كما تمنى وأحب ، فقد خيره ربه بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ، فاختر أن يكون نبياً عبداً . فشرف بوصف العبودية لربه في آيات كثيرة من مثل قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وقوله تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

ومن طرائف إشارات سيدى الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى ما قاله بمذاقه السامى في كتاب الرسائل :

((سبحان من أسرى إليه بعبده ليرى الذى أخفاه من آياته

سبحانه من سيد ومهيمن في ذاته وسماته وصفاته

قرن سبحانه التسييح بهذا السفر الذى هو الإسراء ، ينفى بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن تحكم عليه خياله من أهل الشبه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق من الجهة والحد والمكان ، فلهذا قال (لنريه من آياتنا) فجعله مسافراً به صلى الله عليه وسلم ، يعلم أن الأمر من عنده عز وجل هبة إلهيه وعناية سبقت له مما لم يخطر بسره ولا اختلج في ضميره .

((وجعله ليلاً تمكيناً لا اختصاصه بمقام المحبة لأنه اتخذه خليلاً حبيباً ، وأكده بقوله ليلاً ، مع أن الإسراء لا يكون في اللسان إلا ليلاً ، لا نهاراً ، لرفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه ويزيل بذلك من خاطر من يعتقد من الناس أن الإسراء ربما يكون نهاراً ، فإن القرآن وإن كان نزل بلسان العرب فإنه خاطب به الناس أجمعين أصحاب اللسان وغيرهم ،

أحسن التأديب :

ويقول الإمام الزرقاني رضى الله عنه ، فى كتاب المواهب اللدنية شارحاً قوله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي)) أى علمني رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة بأفضاله على العلوم الألوهية مما لم يقع نظيره لأحد من البرية ، وقال بعضهم أدب الله روح رسوله ورباه فى محل القرب قبل اتصالها ببدنه ، باللطف والهيبية ، فتكامل له الأنس باللطف ، والأدب بالهيبية ، واتصلت بعد ذلك بالبدن ، ليخرج من اتصالها كمالات أخرى من القوة إلى الفعل ، وينال كل من الروح والبدن بواسطة الآخر من الكمال ما يليق بالحال ويصير قدوة لأهل الكمال .

ويقول أيضاً رضى الله عنه : وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبي صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ، والاستغفار يقتضى وقوع معصية ، وأجيب بأجوبة منها : إن استغفاره تشريع لأمتة ومن ذنوبهم فهو كالشفاعة لهم ، وقال الإمام الغزالي رضى الله عنه كان صلى الله عليه وسلم دائم الترقى ، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها ذنباً فاستغفر من الحال السابق ، وقال ابن بطال : الأنبياء أشد الناس اجتهاداً فى العبادة لما أعطاهم الله من المعرفة ، فهم دائبون فى شكره ومعتفون له بالتقصير .

و أقول ، تأييداً لما ذهب إليه ابن بطال ، إنه جاء فى تفسيره قوله تعالى فى سورة سبأ : (اعملوا آل داود شكراً و قليلاً من عبادى الشكور) أن سيدنا داود عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك وأشكر نعمة منك تستوجب بدورها شكراً اخر فقال الله تعالى : يا داود الآن عرفتني وشكرتني . كما أقول إن الإعراف بالعجز عن شكره تعالى مظهر من مظاهر من تحقق بالعبودية ، ألتست تراه تعالى يثنى على سيدنا سليمان بن داود وقد أوتى ملكاً عريضاً فلم يخرجه الملك عن أدب العبودية فقال سبحانه واصفاً له (نعم العبد أنه أواب) .

ويقول الإمام أبو علي الدقاق رضى الله عنه ليس للمؤمن من صفة أتم ولا أشرف من العبودية ، ولهذا أطلقها الله على نبيه صلى الله عليه وسلم في أشرف المواطن بقوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده) وقوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) وقوله تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) . وقوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

ويقول أبو حفص النيسابورى رضى الله عنه : العبد هو القائم بأوامر الله سيده على حد النشاط حيث جعله محل أمره . وقال الإمام ابن عطاء رضى الله عنه : العبد الذى لا ملك له . وقال الإمام رويم رضى الله عنه : يتحقق العبد بالعبودية إذا سلم القياد من نفسه إلى ربه وتبرأ من حوله وقوته وعلم أن الكل له وبه .

معنى العبودية الكاملة :

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى فى الباب ١٣٠ من الفتوحات المكية : العبودية نسبة إلى العبودة ، والعبودة مخلصنة ، فمقام العبودية مقام الذلة لإفتقار ، فالعبد معناه الذليل ، يقال أرض معبدة أى مذللة ، قال عز وجل : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وما قال ذلك فى غير هذين الجنسين لأنه ما ادعى أحد الألوهية ولا اعتقدها فى غير الله ، ولا تكبر على خلق الله إلا هذان الجنسان ، فلذلك خصها بالذكر دون سائر المخلوقات ، فقال ابن عباس فى معنى (إلا ليعبدون) معناها إلا ليعرفونى ، فلا بد من المعرفة به أولاً ، وأنه ذو العزة التى تذلل الأعزاء لها ، فلذلك عدل ابن عباس فى تفسير العبادة إلى المعرفة ، ولم يفسرها بحقيقة ما تعطيه دلالة اللفظ ، ولم يتحقق بهذا المقام على كماله مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان عبداً محضاً ، زاهداً فى جميع الأحوال التى تخرجه عن مرتبة العبودية ، وشهد الله أنه عبد مضاف إليه من حيث هويته واسمه الجامع ، فقال فى حق اسمه (وأنه لما قام عبد الله يدعوه ...) وقال فى حق هويته (سبحان الذى أسرى بعبده) فأسرى به عبداً .

قول الإمام سهل التستري :

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه : ((يامسكين كان (أى الله) ولم تكن ، ويكون ولا تكون ، فلما كنت الآن صرت تقول : ((أنا)) كن الآن كما لم تكن ، فإنه الأول كما كان)) . وما أبدع ذلك الكلام عند أهل الأفهام .

قول الإمام ابن القيم :

ويقول الإمام ابن القيم رضى الله عنه فى كتابه أعلام الموقعين ما يأتى :

((.... والله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التى سوى بين عباده فيها ، فعلى العالم من عبوديته نشر السنة والعلم الذى بعث به رسوله ما ليس على الجاهل ، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتى ، وعلى الغنى من عبودية أداء الحقوق التى فى ماله ما ليس على الفقير ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما ، وهو كلام نفيس فليحرص القارئ على الانتفاع به .

أقول : ومن تحقق بالعبودية استبان مقام الربوبية ، ومن هنا جد صلى الله عليه وسلم فى عبادة ربه فسهر ليله وأطال قيامه حتى تورمت قدماه فقالت له أمنا السيدة عائشة رضى الله عنها : لم تفعل ذلك يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وقد أشفق عليه ربه فخاطبه من عليائه : (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى) مع أنه سبحانه هو القال له : (رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً) . وقد قالوا إن الاصطبار هو نهاية الصبر

فانظر رعاك الله إلى همة الرسول صلى الله عليه وسلم في عبادته وإلى شفقة الله به .

وصدق سيدنا حسان بن ثابت إذ يقول واصفاً همته صلى الله عليه وسلم :

له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

وقال الكلبي - كما جاء في تفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة ، واشتدت عبادته فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزل قوله تعالى : (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فأمره الله أن يخفف عن نفسه فيصلى وينام ، فكان بعد هذه الآية يصلى وينام . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام ثم نسخ ذلك بالفرض فنزلت الآية .

وجاء في تفسير القرطبي لسورة المزمل من حديث مسلم أن السيدة عائشة رضى الله عنها سئلت عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لسائلها : ألسنت تقرأ (يا أيها المزمل) قلت بلى ، قالت : فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا ، وأمسك الله عز وجل خاتمها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة . ويقول الإمام القرطبي في معنى قوله تعالى :

(يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً) . أى قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه ، وفريضة الصلاة وإن خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم كانت عامة له ولغيره صلى الله عليه وسلم . والمزمل اسم مشتق من الحال¹ التي كان عليها ، وهى من ملاطفة المخاطب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام على رضى الله عنه وكان نائماً وقد لصق بجنبه التراب : قم أبا تراب ، وقال لحذيفة رضى الله عنه وكان نائماً : قم يانومان . وقال الإمام القرطبي أيضاً : لما نزلت الآيات المذكورة شق ذلك على

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطيء ، فانفتخت أقدامهم وانتفعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم فقال تعالى :
(علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) . وبين سبحانه علة التخفيف بقوله تعالى : (علم أن سيكون منكم مرضى .
..) .

ويرحم الله الإمام البوصيري إذ يقول منوهاً بحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيام الليل تلذذاً بمناجاة ربه والوقوف بين يديه وقفة العبادة والعبودية :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وأقول بعد ذلك إن العبودية كانت على لسانه في دعواته صلى الله عليه وسلم مثل قوله في الاستغفار (وهى الصيغة التى عرفت بسيد الاستغفار) .

((اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي فاغفرلى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)) .
فهو صلى الله عليه وسلم عبد ، ولكنه عبد الله ورسوله ، وقد تحقق بعبوديته لله تعالى فتحرر مما سواه فشرفه سبحانه بما حين نسبه إلى نفسه في قوله تعالى : (سبحانه الذى أسرى بعبده ..) وأبقى له وصفه الخالد (وإنك لعلى خلق عظيم) ، فاجتمع له خلة الخليل عليه السلام ، وشكر نوح عليه السلام ، وصبر أيوب ويعقوب عليهما السلام ، وإخلاص موسى عليه السلام ، وتواضع سليمان وعيسى عليهما السلام ، وصدق إسماعيل عليه السلام ، فقد كان كل منهم مختصاً بخلق كريم غالب على سائر أخلاقه ، واجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما تفرق فيهم ، وصدق بعض العارفين العارفين في قوله :

لكل نبي في الأنام فضيلة وجملتها مجموعة لمحمد

وقال بعضهم : من أراد أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعمل بسنته ، لا سيما في مكان أميتت السنة فيه ، فإن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها هى حياة سنته ، ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعاً لأنه المجموع الأتم الأكمل ،

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وقال العارفون : أحسن أخلاق المرء في معاملته للحق سبحانه : التسليم والرضا، وأحسن أخلاقه في معاملة الخلق : العفو والسخاء ، كل ذلك مع الإيمان به تعالى ، إذ قد توجد مكارم الأخلاق ولا إيمان ، كما أنه قد يوجد الإيمان ولا أخلاق ، إذ لو كان الإيمان يعطى بذاته الأخلاق لم يقل الله للمؤمنين افعل كذا واترك كذا ، ولذلك ائتمر رسول الله صلى عليه وسلم بأوامر الله وانتهى بنواهيه فكان صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم عدد ما في علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله .

الإمام الرازى والأفضلية :

ومما جاء في تفسير الإمام الفخر الرازى في أفضليته صلى الله وسلم :

إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم ، فوجب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ، وبيان الأول قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وبيان الثانى أن هذه الأمة إنما نالت هذه الفضيلة بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) . وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع ، وأيضاً إن محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر أتباعاً ، لأنه مبعوث إلى الجن والإنس ، فوجب أن يكون ثوابه أكثر لأن لكثرة المستجيبين أثراً في علو شأن المتبوع ، كما أنه عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل فوجب أن يكون أفضل ، لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح في المعقول ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا ولا يدخلها أحد من الأمم حتى تدخلها أمتي)) وروى أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر)) وروى الحكيم الترمذى رحمه الله في كتاب ((النوادر)) عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((إن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً ، وموسى نبياً ، واتخذنى حبيباً)) ثم قال ((وعزتى وجلالى لأوثرن حبيبي على خليلي ونجى)) .

الشيخ الأكبر وأحدية الشرائع :

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محى الدين بن العربى فى الباب العاشر من الفتوحات : فإن قيل قد ورد قوله صلى الله عليه وسلم ((لا تفضلونى))^١ ، الجواب : نحن ما فضلناه ، بل الله فضله فإن ذلك ليس لنا . وإن كان قد ورد : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) لما ذكر الأنبياء عليهم السلام فهو صحيح فإنه قال : (فبهداهم) وهداهم من الله وهو شرعه صلى الله عليه وسلم ، أى الزم شرعك الذى ظهر به نوابك من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ، ولم يقل ((فبهم اقتده)) ، وفى قوله تعالى : (ولا تفرقوا فيه) دليل على أحدية الشرائع ، وقال (اتبع ملة إبراهيم) وهو الدين ، فهو مأمور باتباع الدين ، فإن الدين إنما هو من الله لا من غيره ، وانظروا فى قوله عليه الصلاة والسلام : ((لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى)) فاضاف الاتباع إليه ، وأمره صلى الله عليه وسلم باتباع الدين والافتداء بهدى الأنبياء ، لا بهم ، فإن الإمام الأعظم إذا حضر لا يبقى لنائب من نوابه حكم ... وقال صلى الله عليه وسلم ((كنت نبياً وآدم بين الماء والطين)) وما قال كنت إنساناً ، ولا كنت موجوداً ، وليست النبوة إلا بالشرع المقرر عليه من عند الله ، فأخبر أنه صاحب النبوة قبل جميع الأنبياء الذين هم نوابه فى هذه الدنيا .. فهذه منزلة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء والرسل ، وشريعته مع الشرائع كالشمس مع نور الكواكب التى اندرجت أنوارها فى نور الشمس إذهى كلها حق من الله منزل كما قررنا

^١ - الحديث بتمامه ((لا تفضلونى على يونس بن متى)) وقال العلماء إن السر فى تخصيص سيدنا يونس بالذات خشية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتقص المؤمن قدره ويسئ فهم الآية الكريمة (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) ولو تأمل المنصف لرأى أن قصته عليه السلام انتهت بقوله تعالى (فاجتبه ربه فجعله من الصالحين) وبهذا نستطيع أن نفهم من الحديث الشريف التزام الأدب مع جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الفصل الثاني

خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم في كتاب الله

بين الله تعالى في كتابه الكريم خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة ، كما بينت السنة النبوية خصائص أخرى عديدة ، ومن ذلك في كتاب الله تعالى :

١- قوله تعالى في سورة الانبياء : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق سعد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق . وكان تكذيب الرسول قبله صلى الله عليه وسلم موجبا لعذاب المكذبين كما يؤخذ من قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

ولكن كانت رسالته صلى الله عليه وسلم بشير رحمة للعالمين بنص الآية السابقة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم بحق : ((إنما أنا رحمة مهداة)) وقد عمت رسالته الإنس والجن ، ومن لم تنله رحمته صلى الله عليه وسلم فما ذلك من جهته وإنما ذلك من جهة القابل كمن استتر عن نور الشمس في ركن أو ظل جدار ، وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : لم تمس بنا نعمة ظهرت أو بطنت نلنا بها حظاً في الدين أو دنيا ، أو دفع بها عنا مكروه فيهما ، أو في واحد فيهما ، إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم سببها .

٢- وقوله تعالى في سورة الأحزاب : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) . وقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : ((لقيت عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يأبها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأمين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وأذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً)) . وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الأحرار .

٣- وقوله تعالى في سورة الجمعة : (هو الذى بعث فى الاميين رسولاً منهم يتلوه عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

وكفاهم معجزة أن يتلو عليهم صلى الله عليه وسلم كتاباً معجزاً لا عهد لهم به ولا قوة لهم على معارضته ، مع بيان معانيه بعلم غزير تميز به صلى الله عليه وسلم عن قومه ، كما أنه نقلهم بتأديبه من الرذائل إلى الفضائل . وكذلك انتفعت الأجيال اللاحقة بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك من فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد ختم الله بشريعته جميع الشرائع السماوية ، وجعلها باقية يعمل بها العاملون إلى يوم القيامة ، فهو صلى الله عليه وسلم أكثر الرسل تبعاً ، ولم يقع لغيره من المرسلين أن يتزايد تابعوهم بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة كما وقع في الأمة المحمدية ، حتى إن مسلمي زمانه صاروا في عددهم قلة قليلة في عدد أمته وإن امتازوا في صفاتهم ، رضى الله عنهم ، وعلى جميع الأجيال التي تلتهم .

٤- وقوله تعالى في سورة الأعراف : (قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) . وهى آية تدل على عمومية الرسالة المحمدية للناس كافة ، وقد كانت رسالة من سبقوه خاصة في أقوامهم وهو ما يستفاد من قوله تعالى

في سورة إبراهيم : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ((بعثت إلى الأحمر والأسود)) وهو ما يویده قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) ، وقوله تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) . وقد أخرج الشيخان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهرين ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأبما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

٥- وقوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . وقوله تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شىء) . وكذلك كل الآيات التى بينت فضل القرآن الكريم إنما هى منة كبرى من الله تعالى على هذه الأمة المحمدية ، فقد أكرمها الله تعالى فأبقى لها القرآن تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، ويتحدث مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم شاكرأ ربه على تلك المنة فيقول فيما أخرجه الإمام البخارى رضى الله عنه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)) .

٦- قوله تعالى فى سورة الحجر : (لعمرك إهم لفى سكراتهم يعمهون)

فقد أقسم الله تعالى بعظيم قدر نبيه صلى الله عليه وسلم والمعنى ((وحياتك)) فهو

قسم إلهى دل على نهاية التكريم والتشريف . وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : ((ما خلق الله ومازراً وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم)) . وقال أبو الجوزاء : ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غيره صلى الله عليه وسلم لأن أكرم البرية عند الله تعالى .

٧- قوله تعالى فى سورة النجم : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) وقوله تعالى : (ما كذب الفؤاد ما رأى) ، وقوله تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) وقوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) . فقد كشفت تلك الآيات اليبينات عن تزكية جملة صلى الله عليه وسلم وعصمته عن الآفات فى هذا المسرى والمعراج . فما كذب فؤاده ما رأى مما تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفه ، وما نطق لسانه عن هوى النفس ، بل نطق عن وحى ربه ، وكمل أدبه فى بصره فما زاغ البصر وما طغى ، والشاهد بذلك رب العلمين سبحانه وتعالى وكفى بالله شهيداً .

٨- قوله تعالى فى سورة القلم : (وإن لك لأجرأ غير ممنون) . فما أعجبك أجرأ يجرى عليه بلا انقطاع ولا نفاذ . وكذلك قوله تعالى فى السورة ذاتها : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وفى صيغة الآية من التأكيد ما فيها . وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت كما مر عليك : كان خلقه القرآن ، ألسنت تقرأ القرآن : (قد أفلح المؤمنون ...) فدلنا بجوابها رضى الله عنها على أنه كان يستمسك بالأخلاق المحمودة فى القرآن الكريم ويتحلى بها . فكان على الصراط المستقيم وهو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

وقد قال تعالى ناصحاً لنا : (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط

مستقيم) . وعلمنا أن نسأله تعالى الصراط المستقيم في صلواتنا حين نقرأ الفاتحة قائلين : (إياك نعبد * وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم) . وقد قالوا للإمام سهل التستري رضي الله عنه : أليس قد هدانا الله فلماذا نقول : اهدنا ؟ فأجابهم : نسأله أن يثبتنا على الهدى ويزيدنا منه لأنه تعالى يقول : (ولدينا مزيد) . وأقول بعد قول الإمام سهل : إن الله تعالى مع ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم قال له : (وقل رب زدني علماً) .

٩- قوله تعالى في سورة آل عمران : (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) قال المفسرون أخذ الله الميثاق بالوحي ، فلم يبعثه الله نبياً إلا ذكر له محمداً عليه الصلاة والسلام ، وأخذ عليه ميثاق إن أدركه ليؤمنن به ، وقيل أن يبينه لقومه يأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم . وقال الإمام علي كرم الله وجهه : لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه .

١٠- قوله تعالى في سورة الأحزاب : (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) . فانظر كيف قدم الله تعالى رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم على الذين سبقوه في زمانهم من ساداتنا المرسلين أولى العزم تعظيماً لقدره وتشريفاً لمكانته بينهم ، ولذلك رتبهم الشاعر في قوله :

محمد إبراهيم موسى كليمة فعيسى فنوح أولو العزم فاعلم

ولقد خاطب سيدنا عمر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام ' بكى به صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك الكلام : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم وقرأ الآية المذكورة .

١١- وكل نداء نودى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم جاء بلغة تدل على التكريم الخاص (يا أيها الرسول . . .) (يا أيها المزمل . . .) (يا أيها المدثر . . .)
بينما نودى إخوانه النبيون بأسمائهم (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) ، (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) ، (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) ، (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين) ، (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك)

١٢- وكذلك يستفاد من كتاب الله تعالى أن أمم الرسل السابقين عليه صلوات الله وسلامه كانوا يخاطبون الرسل بأسمائهم : (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) ، (يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) . (يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول) . وهكذا ، في حين أن الله تعالى نمانا أن ندعو رسول الله صلى الله عليه وسلم باسمه فقال تعالى في سورة النور : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا يقولون يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبية صلى الله عليه وسلم ، قال فقالوا : يا نبي الله ، يا رسول الله ، فوجب علينا أن نوقره كما علمنا الله ، ولهذا كان كبار ساداتنا الصحابة يقولون له : بأبي أنت وأمي يا رسول الله . . . أى أفديك بأبي وأمي . ولا يخفى على القارئ الكريم أن حرمة صلى الله عليه وسلم باقية بعد انتقاله كما

كانت في حياته ، ألفت تلحظ أننا نخطبه في التشهد قائلين ((السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)) ويقول الإمام النووي رضي الله عنه في كتابه ((تهذيب الأسماء واللغات)) ولو خاطب المصلي آدمياً غيره ، صلى الله عليه وسلم بطلت صلاته .

ونحن إذا قارنا بين نبينا صلى الله عليه وسلم وإخوانه النبيين الكرام فإننا لا نقصد بالمقارنة خطأ من أقدارهم التي شرفها الله في القدم حين اختصهم جميعاً بفضل النبوة والرسالة ، وإنما نقصد أن نبين أنهم مع علو أقدارهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقدمهم في قدره باعتباره كبيرهم ، وكيف لا وقد أمهم حين قدمه جبريل عليه السلام فصلى بهم في المسجد الأقصى ليلة الإسراء كما مر عليك في الباب الرابع .

١٣- ويقول تعالى في سورة آل عمران : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) . وقد جمع الله في الآية الأخيرة بين خليله عليه الصلاة والسلام وحببيه صلى الله عليه وسلم ومع رفعة مقام الخلة (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) فقد ذكره الله في الآية باسمه على حين ذكر الله تعالى حببيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالنبوة بقوله : (وهذا النبي) .

١٤- ولعلنا نلاحظ أنه حيث ذكر الله حببيه في القرآن الكريم باسمه إنما ذكره في غير مقام النداء ، ومع ذلك أتبع اسم الحبيب بوصف الرسالة ، فمثلاً يقول تعالى في سورة الفتح : (محمد رسول الله والذين معه . . .) ويقول في سورة آل عمران : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . .) ويقول في سورة الأحزاب : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . . .) ، أما وقد عظم الله قدر نبيه

صلى الله عليه وسلم فواجب علينا نحن المؤمنون أن نحفظ عليه قدره الذى حفظه الله ، فلا يقول خطيب يتكلم عنه صلى الله عليه وسلم : كان محمد بن عبد الله . . . كما يفعل بعض الجهال الذين يتزبون بزى العلماء وليس لهم من العلم إلا شقشقة اللسان وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولبتق الله أيضاً أولئك الذين يجترئون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة أنه بشر مثلنا ، فيتخرصون بما لا يتفق مع قدره كصاحب وحى ، وما يتنافى مع عصمته التى شهد بها قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) . وإذا كان الله قد ارتضى خلقه ووصفه بالعظمة ، فكيف ينتقصه البشر ويخالفون وصف الله العليم الحكيم .

١٥ - وقد أخبرنا القرآن الكريم بما كان من دفاع سادتنا ، المرسلين عن أنفسهم ، وبين لنا أن الله تعالى تولى الدفاع عن رسولنا صلى الله عليه وسلم ، فمثلاً حين قال قوم نوح عليه السلام : (إنا لنراك فى ضلال مبين) . دافع عليه السلام عن نفسه فقال فيما حكى الله عنه : (يا قوم ليس بى ضلالة . . .) ، وقال قوم هود عليه السلام : (إنا لنراك فى سفاهة . . .) فقال نافياً عن نفسه السفاهة (يا قوم ليس بى سفاهة . . .) وقال فرعون لموسى عليه السلام (إني لأظنك يا موسى مسحوراً) فقال موسى عليه السلام (واني لأظنك يا فرعون مشوراً) . ولكن حين قال كفار مكة إن محمداً ساحر أو كاهن أو مجنون ، وحين قالوا إنه شاعر نتريص به ريب المنون ، رد الله بكلامه عليهم مدافعاً عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . ويقوله : (إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون) ، ويقوله تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)

١٦ - ويقول الحافظ أبو نعيم الأصبهاني فى كتابه دلائل النبوة :

إن الله تعالى قرن اسم نبينا عليه الصلاة والسلام باسمه تعالى فى كتابه

عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعدته ووعيده فقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) . وقال تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) . وقال تعالى : (ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) . وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . . .) وقال تعالى : (استجبوا لله وللرسول . . .) وقال تعالى : (ومن يعص الله ورسوله . . .) وقال تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله . . .) وقال تعالى : (براءة من الله ورسوله) . . . وقال تعالى : (وأذان من الله ورسوله . . .) وقال تعالى : (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله . . .) .

وقال تعالى :

(ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله . . .) . وقال تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . . .) . وقال تعالى : (ولا يجرمون ما حرم الله ورسوله . . .) . وقال تعالى : (ومن يشاقق الله ورسوله . . .) وقال تعالى : (قل الأنفال لله والرسول . . .) وقال تعالى : (فردوه إلى الله ورسوله . . .) وقال تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله . . .) وقال تعالى : (وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله . . .) وقال تعالى : (فإن لله خمسة وللرسول . . .) وقال تعالى : (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله . . .) . وقال تعالى : (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) وقال تعالى : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه . . .) يقول الإمام أبو نعيم : قرن سبحانه اسمه باسمه في ذلك تعظيماً له وتشريفاً صلى الله عليه وسلم .

١٧ - قوله تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) ويقول الإمام ابن الحاج رضى الله عنه في كتابه المدخل في تعقيبه على هذه الآية : فحقه عليه الصلاة والسلام أعظم من حقوق الوالدين ، قال عليه الصلاة والسلام : ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول ، فقدم نفسه على غيره ،

والله عز وجل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفس كل مؤمن ، ومعنى ذلك إذا تعارض له حقان ، حق لنفسه وحق للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأكدهما عليه وأوجهما حق النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يجعل حق نفسه تبعاً للحق الأول .

١٨- قوله تعالى في سورة الأحزاب : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً) . قال الإمام القرطبي رضي الله عنه في تفسيره : حرم الله نكاح أزواجه من بعده صلى الله عليه وسلم ، وجعل لمن حكم الأمهات ، وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتبنيهاً على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ومن استحل ذلك كان كافراً لقوله تعالى : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله . . .) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : ((زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة)) . وقال : ((كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة)) .

١٩- قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

قال الإمام أبو نعيم إن الله فرض طاعته على العالم فرضاً مطلقاً لا شرط فيه ولا استثناء .

٢٠- قوله تعالى في سورة البقرة : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) . وتدل هذه

الآية الكريمة على أن الله يسارع في هواه صلى الله عليه وسلم كما قالت سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

٢١- وقال ابن سبع من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى وصفه في كتابه عضواً عضواً ،

فقال في وجهه : (قد نرى تقلب وجهك في السماء . . .) وقال في عينيه : (ولا تمدن عينك إلى ما متعنا به

أزواجاً منهم . . .) . وقال في لسانه : (فإتما يسرناه بلسانك . . .) وفي

يده وعنقه (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك . . .) . وفي صدره وظهره (ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك) . وفي قلبه (نزله على قلبك) وفي خلقه : (وإنك لعلی خلق عظیم) . أقول وفي نفسه قال تعالى : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) .

٢٢- قوله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك) . قيل إذا ذكرت ذكرت معى وهو قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقيل في الأذان . وقال الإمام الشافعى رضي الله عنه يعنى ذكره صلى الله عليه وسلم عند الإيمان بالله تعالى والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية .

٢٣- وقال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : من تمام نعمته عليه أن جعله حبيبه ، وأقسم بحياته ، ونسخ به شرائع غيره ، وأحل له ولأمتة الغنائم ، وجعله شفيحاً مشفعاً ، وسيد ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ، ورضاه برضاه ، وجعله أحد ركنى التوحيد ثم قال تعالى : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) ببيعتهم إياك (يد الله فوق أيديهم) . يريد عند البيعة ، قيل فى معنى يد الله : قوة الله ، وقيل ثوابه ، وقيل سنته ، وقيل عقده ، وهذه استعارة وتجنيس فى الكلام وتأكيد لعقد بيعتهم إياه وعظيم شأن المبايع صلى الله عليه وسلم .

٢٤- قوله تعالى فى سورة الشورى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) . ويقول سيدى الشيخ الأكبر محى الدين بن العربى فى الباب ٣٤٢ تعقيباً على هذه الآية :

((قالت الرسل لأممهم عن أمر الله تعالى تعريفاً للأمم بما هو الأمر عليه : (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) . فذكروا استحقات الأجر على من استعملهم ، ولم يقولوا ذلك إلا عن أمره ، فإنه قال لكل رسول : (قل ما أسألكم عليه من أجر) . واختص محمداً صلى الله عليه وسلم بفضيلة لم ينلها غيره ، عاد فضلها على أمته ، ورجع حكمه صلى الله عليه وسلم إلى

حكم الرسل قبله في ابقاء أجره على الله فأمره الحق أن يأخذ أجره الذى له على رسالته من أمته ، وهو أن يوادوا قرابته فقال له : (قل لا أسألكم عليه أجراً) أى على تبليغ ما جئت به إليكم (إلا المودة في القربى) فتعين على امته أداء ما أوجبه الله عليهم من أجر تبليغ ، فوجب عليهم حب قرابته صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وجعله باسم المودة وهو الثبوت على المحبة .

((فلما جعل له ذلك ولم يقل إنه ليس له أجر على الله ، ولا إنه بقى له أجر على الله ، وذلك ليجدد له النعم بتعريفه ما يسر به ، فقبل له بعد هذا : قل لأمتك أمراً ما قاله رسول لأمته (قل ما سألتكم^١ من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) ، فما أسقط لأجر عن أمته في مودتهم للقربى ، وإنما رد ذلك الأجر بعد تعيينه عليهم ، فعاد ذلك الأجر عليهم ، الذى كان يستحقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعود فضل المودة على أهل المودة ، فما يدري أحد ما لأهل المودة في قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأجر إلا الله تعالى)) .
وكلام سيدى الشيخ الأكبر كما ترى كلام نفيس ينكشف به الأمر ، وينشرح له الصدر ، وعلينا جميعاً أن نحفظ مودة ساداتنا آل البيت بالثبات على محبتهم ، ويرحم الله المحب دعبل الخزاعى إذ يقول في قصيدته المشهورة :

أحب قصى الرحم من أجل حبكم وأهجر فيكم أسرتى وبناتى
فيا رب زدنى من يقينى بصيرة وزد حبهم يارب في حسناتى

٢٥- قوله تعالى في سورة الأحزاب : (إنما يريد الله ليذهب عنم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . ويقول في تعقيبه على هذه الآية سيدى الشيخ الأكبر محى الدين بن العربى في الباب ٢٩ من الفتوحات :
((لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً محضاً قد طهره الله وأهل بيته تطهيراً وأذهب عنهم الرجس (وهو كل ما يشينهم) ، فلا يضاف إليهم إلا مطهر ولا بد ، فإن المضاف إليهم هو الذى يشبههم ، فما يضيفون لأنفسهم إلا من له حكم الطهارة والتقديس ، فهذه شهادة من النبى صلى الله عليه وسلم لسلمان

^١ - آية ٤٧ من سورة سبأ .

الفارسي بالطهارة و الحفظ الإلهي والعصمة حيث قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ((سلمان منا أهل البيت)) وشهد الله لهم بالتنظيف وذهاب الرجس عنهم ، وإذا كان لا يضاف إليهم إلا مطهر مقدس وحصلت له العناية الربانية الإلهية بمجرد الإضافة ، فما ظنك بأهل البيت في نفوسهم فهم المطهرون ، بل عين الطهارة

((فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم رضى الله عنهم ، ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي رضى الله عنه ، إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران ، فهم المطهرون اختصاصاً من الله وعناية بجم لشرف محمد صلى الله عليه وسلم وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا في الدار الآخرة فإنهم يحشرون مغفوراً لهم وأما في الدنيا فمن أتى منهم حداً أقيم عليه وقال صلى الله عليه وسلم : ((لو أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سرققت لقطعت يدها)) وقد أعادها الله من ذلك رضى الله عنها ، فوضع الأحكام لله يضعها كيف يشاء وعلى أى حال يشاء ، فهذه حقوق الله تعالى

((أما عن حقوقنا فنحن مخيرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا ، والترك أفضل عموماً ، وليس لنا ذم أحد ، فكيف بأهل البيت ، فإننا إذا نزلنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم في ذلك أى فيما أصابوه منا ، كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ما طلب منا عن أمر الله إلا المودة في القربى ، وفيه سر صلة الأرحام ، ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه مما هو قادر عليه ، فبأى وجه يلقاه غداً أو يرجو شفاعته ؟ وهو ما أسعف نبيه صلى الله عليه وسلم فيما طلب منه من المودة في قرابته ، فكيف بأهل بيته وهم أخص القرابة . ثم إنه جاء بلفظ ((المودة)) وهى الثبوت على المحبة ، فإنه من ثبت وده في أمر استصحبه في كل حال ، وإذا استصحب المودة في كل حال لم يؤخذ أهل البيت بما يطرأ منهم في حقه فما له أن يطالبهم به ، فيتركه ترك محبة وإيثار على نفسه لا لها فلو كشف لك يا ولى عن منازلهم عند الله في الدار الآخرة لوددت أن تكون مولى من مواليتهم ، والله يلهمنا رشد أنفسنا . أقول وقد أفردنا باباً خاصاً بآل البيت استيفاء للبحث وهو الباب الخامس عشر

فليرجع إليه القارىء الكريم .

٢٦ - قوله تعالى في سورة البقرة : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ، قال سيدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله أنزل أمته منزلة العدول من الحكام ، فيشهدون على الناس بأن رسلهم بلغتهم ، وهذه الحصبة لم تثبت لأحد غيره من الأنبياء . وأخرج البخارى والترمذى والنسائى عن أبي سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت فيقول : نعم ، فتدعى أمته فيقال لهم : هل بلغتكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا أحد ، فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فذلك قول الله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) الوسط العدول ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، وأشهد عليكم . وأخرج أحمد والنسائى والبيهقى عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان فأكثر من ذلك ، فيقال لهم : هل بلغتكم ؟ فيقولون نعم ، فيدعى قومهم ، فيقال لهم : هل بلغتكم ، فيقولون : لا ، فيقال للنبيين : من يشهد لكم أنكم بلغتكم ؟ فيقولون أمة محمد ، فتدعى أمة محمد فيشهدون أنهم قد بلغوا ، فيقال لهم : وما علمكم أنهم قد بلغوا ؟ فيقولون : جاءنا نبينا بكتاب أخبرنا أنهم قد بلغوا وصدقناه ، فيقال : صدقتم ، فذلك قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) قال عدولا ، (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

٢٧ - قوله تعالى في سورة آل عمران (وشاورهم في الأمر) وقد أخرج ابن عدى والبيهقى في الشعب عن ابن عباس قال لما نزلت (وشاورهم في الأمر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمةً لأمتي)) ومن ذلك يدرك القارىء الكريم أن الله تعالى شرع الشورى لرسوله صلى الله عليه وسلم لتتأسى به أمته فيها فنأمن الوقوع في الضلالة أو الخطأ الفردى .

٢٨ - قوله تعالى في سورة المائدة : (والله يعصمك من الناس) فكان صلى الله عليه وسلم في وقاية ربه فلا يستطيع أعداؤه أن يصلوا إليه بسوء قلوبهم أو كثرتهم ، ولما نزلت هذه الآية سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين كانوا في حراسته اكتفاءً بحراسة الله تعالى وحفظه .

٢٩ - قوله تعالى في سورة الحشر : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) .

يقول الإمام القرطبي في تفسيره :

الأموال التي للأمة والولاءة فيها مدخل ثلاثة أضرب :

الأول : ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم كالصدقات والزكوات .

الثاني : الغنائم ، وهو ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والفهر والغلبة .

الثالث : الفىء ، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفاً من غير قتال ولا إيجاب^(١) ، كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار . ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم ، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام لا وارث له .

فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمسكين والعاملون عليها حسب ما بينه الله تعالى ، وأما الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ماشاء كما قال في سورة الأنفال : (قل الأنفال لله والرسول) ثم نسخ بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمس ، وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . وأما الفىء فقسمته وقسمة الخمس سواء .

(١) من غير إيجاب أى من غير أعمال الخيل والركاب .
(٢) سكتت الآية عن أربعة الأقسام الباقية لتدل على أنها حق للغنمين .

والأمر عند مالك فيها إلى الإمام ، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل ، وإن رأى قسمتها أو قسمة أحدهما قسمه كله بين الناس ، وسوى فيه عربيهن ومولاهن ، ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا ، وذوو القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطون من الفىء سهمهم على ما يراه الإمام ، وليس له حد معلوم ، واختلف في إعطاء الغنى منهم ، فأكثر الناس على إعطائه لأنه حق لهم . وقال مالك : لا يعطى منه غير فقرائهم لأنه جعل عوضاً من الصدقة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله من مال الفىء نفقة سنتهم ثم يأخذ ما بقى فيجعله مجعل مال الله ، ولما توفى صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا ولى رسول الله ، فعمل فيه بما عمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول الإمام القرطبي في تفسيره :

واختلف العلماء في ذوى القربى على ثلاثة أقوال :

١ قریش كلها ، قاله بعض السلف ، لأن النبی صلى الله عليه وسلم لما صعد الصفا جعل يهتف : (يا بنی فلان ، يا بنی عبد مناف ، يا بنی عبد المطلب يا بنی مرة ، يا بنی عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار) الحديث .

(ب) وقال الشافعی وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جریج ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو المطلب لأن النبی صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوی القربى بین بنی هاشم وبنی المطلب قال : (إنهم لم يفارقونی فی جاهلیة ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شیء واحد) وشبك بين أصابعه ، أخرجہ النسائی والبخاری . قال النسائی وأسهم النبی صلى الله عليه وسلم لذوی القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، بينهم الغنى والفقير ، وقد قيل إنه للفقير منهم دون الغنى كالتامى وابن السبيل .. وهو أشبه القولین بالصواب عندی والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء ، لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، وليس في الحديث أنه فضل بعضهم على بعض .

(ج) بنو هاشم خاصة ، قاله مجاهد وعلى بن الحسين ، وهو قول مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم .

٣٠- قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . قال الإمام الفخر الرازي : أجمع المفسرون على أن المحمود هو مقام الشفاعة ، وقال العلماء إن كلمة ((عسى)) من الله واجب ، وفي البخارى من حديث ابن عمر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : ((هو الشفاعة)) .

٣١- قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) . وفي البخارى عن أنس رضى الله عنه قال لما عرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال : ((أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت : ما هذا يا جبريل ، قال : هذا الكوثر)) .

٣٢- قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد) . قيل ((لا)) زائدة أى تخلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه . والبلد هى مكة حرسها الله تعالى ، وبحلوله صلى الله عليه وسلم فيها صارت حراماً ، ومهبطاً للوحى ، ومنبعاً للدين ، وقد قالوا إن هذا القسم أدخل فى تعظيمه صلى الله عليه من القسم بذاته وبحياته كما أشار إليه عمر رضى الله عنه بقوله : بأبى أنت وأمى يارسول الله قد بلغت من الفضيلة عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال (لا أقسم بهذا البلد) .

٣٣- قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) . والصلاة من الله زيادة فضل وتكريم وتشريف ، وصلاة الملائكة دعاء بالزيادة ، وصلاة المؤمنين دعاء يقابلون به معروف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا يستطيعون مكافأته عليه ، فيرجعون إلى الله ضارعين أن يكافئهم عنهم بما رسم الله لهم من أمره تعالى بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم .

ويقول الإمام الفخر الرازي رضى الله عنه فى تفسيره : إن صلاة الملائكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من السجود لآدم ، لأن الله تعالى أمرهم بالسجود لآدم تأديباً ، وأمرهم بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم تقريباً ، كما أن الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم دائمة إلى يوم القيامة ، وأما سجود الملائكة

لآدم عليه السلام فما كان إلا مرة واحدة ، وكذلك السجود لآدم إنما تولاه الملائكة ، وأما الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم فإنما تولاهما رب العلمين . ثم أمر بها الملائكة والمؤمنين .
وأخيراً لا يفوت القارئ الكريم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هي طريق الفتح ، وأنها من ذكر الله تعالى الأمر بها ، ويقول صلى الله عليه وسلم : ((أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة)) وقد أفردنا لها باباً خاصاً وهو الباب الرابع عشر فليرجع إليه القارئ الكريم .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد ما في علم الله صلاةً دائمة بدوام ملك الله .

الباب الحادى عشر

أزواجه صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم

تعدد الأزواج بعد وفاة السيده خديجه :

روى الإمام الطبرى بسنده أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى عن تسع

زوجات .

ومما هو جدير بالذكر أن تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم إنما كان بعد وفاة أم المؤمنين السيده خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وهى أول النساء إيماناً ، وقد عاشرها صلوات الله وسلامه عليه ريع قرن من الزمان ولم يتزوج عليها قط ، وكانت حين تزوجها أرملة فى سن الأربعين وماتت فى الخامسة والستين - على أرجح الروايات - وكان هو صلى الله عليه وسلم عند زواجه منها فى سن الخامسة والعشرين ، وكان عند وفاتها فى سن الخمسين ، وقد ماتت فى حياته الشريفة وقبل هجرته إلى المدينة المنورة بثلاث سنوات ، ومما هو جدير بالذكر أنه على كثرة أزواجه لم يتزوج بكرةً إلا أم المؤمنين السيده عائشة رضى الله عنها .

خصوم الإسلام ورد العقاد عليهم :

وإليك ما يقوله فى روعة ظاهرة العلامة العقاد فى كتابه "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" رداً على خصوم الإسلام الذين أرادوا عمداً وعبثاً تشويه سمعة النبى صلى الله عليه وسلم فى تعدد الزواج :

" ما أتفق عليه خصوم الإسلام عن سوء نية على كل شىء كما أتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه

الإسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبى عليه السلام ، وتمثيله لأتباعه فى صورة معينة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الإصلاح ، وأى صورة تغنيهم فى هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

" ... وإنهم لعلى أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها ، إذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شىء على المسلم العارف بدينه المطلاع على سيرة نبيه ، فإذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترى عليه .

" فلا حجة للمسلم على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى رسالته أصدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها فى معيشة نبى الأسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

" ما الذى يفعله الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه .

" لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأفتن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية .

" ولم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه .

" فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟

" هل فعل محمد ذلك فى مطلع حياته ؟

" كلا لم يفعله قط ، بل فعل نقيضه ، وكاد أن يفقد أزواجه لشكايتهن من شظف العيش فى

داره .

" لم يحدث قط أن أختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة ، ولم يبن بعذراء قط إلا العذراء التى علم قومه جميعاً أنه أختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

" هذا الرجل الذي يفترى عليه الأثمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق في لذات حسه ، قد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين وكان هو في عنفوان الشباب يجاوز الخامسة والعشرين ، وقد أختارته زوجاً لها لأنه الصادق الأمين فيما أشتهر به بين قومه من صفه وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه وعارفو الصدق والأمانة فيه ، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفي لها بعد موتها فلم يفكر في الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له في عزلته فخطبت له السيدة عائشة بإذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائها على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

" ومابنى عليه السلام بوحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والضمن بهن على المهانة هي الباعث الأكبر في نفسه الشريفة على التفكير في الزواج بهن . ومعظمن كن أرامل مأيامات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله .

" فالسيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها إلى الردة أو تتزوج بغير كفاء لها لا يريدوا .

" والسيدة هند بنت أبي أمية - أم سلمة - مات زوجها عبد الله المخزومي وكان أيضاً ابن عمها أصابه جرح في غزوة أحد فقضى عليه ، وكانت كهله مسنة فأعتذرت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بسنها لتعفيه من خطبتها فواساها قائلاً : سلى الله يؤجرك في مصيبتك وأن يخلقك خيراً ، فقالت : ومن يكون خيراً لى من أبي سلمة ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فأعتذرت بمثل ما أعتذرت به إليه ، فطيب خاطرهما وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها .

" والسيدة رملة بنت أبي سفيان تركت أباهما وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها في غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبي عليه السلام

إلى النجاشى يطلبها من هذه الغربية المهلكة وينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها ، ولعل فى الزواج بها سبباً يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العداوة إلى مودة تخرجه من ظلمات الشرك إلى هداية الإسلام .

" والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت ، وبث عمر أسفه للنبي فلم يشأ أن يضمن على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها أبى بكر قبله ، وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان .

" والسيدة صفية الأسرائيلية بنت سيد بنى قريظة خيرها النبي بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فأختارت البقاء عنده على العودة إلى ذويها ، ولولا الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيده صفية قصيرة يعيها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع إحدى صواحبها تعيها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : إنك قد نطقت بكلمة لو ألقىت فى البحر لكدرته ، وجبر خاطر الأسيرة الغربية أن تسمع فى بيته ما يكدرها ويغض منها .

" والسيدة زينب بنت جحش - أبنة عمته - زوجها من مولاه ومتبناه زيد ابن حارثة ، فنفرت منه وعز على زيد أن يروضها على طاعته ، فأذن له النبي فى طلاقها ، فتزوجها عليه السلام لأنه المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفياً عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها .

" والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبدالله بن جحش قتيلاً فى غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها عليه السلام ، إذ لا كفيل لها من قومها .

" وهذا هو الحريم المشهور فى أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هى بواعث النفس التى أستعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا

منها إلا أنها بواعث إنسان غارق في لذات الحس شهوان .

" ولقد أقام هؤلاء الزوجات في بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات في بيوت الكثير من الرجال . مسلمين كانوا أو مشركين ... فأتفقن على مفاتحته في الأمر وأجتمعن يسألنه المزيد من النفقة ، وهي موفورة لديه لو شاء أن يزيد في حصته من الفىء فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه ، إلا أن الرجل المحكم في الأنفس والأموال - سيد الجزيرة العربية - لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة فأمهلهن شهراً وخيرهن بعده أن يفارقه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلن ما قبل نفسه من ذلك العيش الكفاف . وهذا الخبر يعلمه كل من أطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر في كتب التنزيل من نزول هذه الآيات في سورة الأحزاب .

(يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً)

" ... أعن مثل هذا الرجل يقال إنه حلس شهوات وأسير لذات ؟

" ... أعن مثله يقال إنه أبتغى من رسالته مأرباً يبغيه الدعاه غير الهداية والأصلاح ؟

" فيم كل هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأوجالها ، من ميعة الشباب إلى سن لا متعة فيها

لمن صاحبه التوفيق والظفر ، أو لمن صاحبه الخيبة والهزيمة ؟

" ومن أراد الدعوه لغير الهدايه والأصلاح فلماذا يريد لها ، وما الذى يغنمه من ورائها ؟

" أتراه يريد لها مخاطراً بأمته وحياته مستخفاً بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ، ليسوم

نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلامهم شرفاً بالانتماء إليه ؟

" أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيده الجزيرة

العربية وأقدر رجالها على أصطفاء النساء الحسان من الحرائر والإماء ؟
" وهل يتزوج بهن الشهبان الغارق في لذات الحس ليقندين به في اجتواء الترف والزينة
وخلوص الضمير للإيمان بالله وأبتغاء الدار الآخرة ؟

" وما مأربه من كل ذلك إن كان له مأرب في طويته غير مأربه في العلانية ؟
وعلام يجاهد نفسه ذلك الجهاد في بيته وبين قومه إن لم تكن له رسالة يؤمن بها ولم تكن
هذه الرسالة أحب إليه من النعمة والأمان ؟

" ان المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج المبكر في السيرة النبوية مقتلاً
يصيب محمداً أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم قد كشفوا منها حجة ، لا حجة مثلها في
الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته وإخلاصه لها في سره كإخلاصه لها في علانيته ،
ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا في السكوت عن مسألة الزواج خاصة
أشد من أجتهدهم في التشهير بها واللغظ فيها .

التعدد مشروع في الأديان الكتابية :

ويتعرض العلامة العقاد مرة أخرى لتعدد الزواج في كتابه " الفلسفة القرآنية " فيقول رحمه
الله :

" من الأوهام الشائعة بحكم العادة أن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد
الزوجات بين الأديان الكتابية.

" وهذا وهم قد سرى إلى الأخلاذ بحكم العادة كما أسلفنا ، لأن الواقع الذى تدل عليه كتب
الإسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم في كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان
عملاً مشروعاً عند أنبياء بنى إسرائيل وملوكهم ، فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين
عشرات الزوجات والجوارى في حرم واحد ، وروى " وستر مارك " العالم الحجة في شئون
الزواج على أختلاف النظم الأنسانية : أن الكنيسة والدولة معاً كانتا تقران تعدد الزوجات إلى
منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر في الحالات التى لا تعنى بها الكنيسة
عنايتها بزواج الأسر الكبيرة .

وكل ماحدث في القرن الأول للمسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل

الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بته ، فكانت الفكرة التي دعت إلى استحسان الزواج الموحد ، هي فكرة الإكتفاء بأقل الشرور ، فإن لم تتيسر الرهبانية فإمرأة واحدة أهون شراً من امرأتين .

"... فكان تعدد الزوجات مباحاً في الأديان الكتابية جميعاً ، ولم يحرم حين حرم إكباراً للمرأة وتنزيهاً عن قبول المشاركة في زوجها بل كانت الفكرة الأولى في تحريمه أن المرأة شر يكتفى منه بأقل ما يستطاع .

"... أباحت شريعة الإسلام تعدد الزوجات ولم تفرضه كما يبدو إلى أخلاق المتكلمين في هذا الموضوع من الغربيين .

"... فلا الأديان الكتابية حرمت تعدد الزوجات ، ولا الإسلام حرم توحيد الزوجة وأوجب على المسلم أن يتزوج أكثر من واحدة ، وإنما أباح تعدد الزوجات مع ضمان العدل بين النساء .

ويقول رحمه الله في كتابه " عبقرية محمد "

" نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، في غير مشقة عندهم ولا معابة .

" ونسوا أنه بقى إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات .

" ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين .

" ونسوا أنه أختار أحساباً في حاجة إلى التآلف أو الرعاية ولم يختار جمالاً مطلوباً للمتاع .

" ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحسن لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه ، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وإرضاءهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه .

" نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام ،
فلماذا نسوه ؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة
أيسر لهم من الإغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

رد الدكتورة بنت الشاطيء :

وحيا الله الدكتورة " بنت الشاطيء " إذ قالت فى كتابها " نساء النبى " :

"... وقد قال المستشرقون فى تعدد الزوجات ما قالوا ، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد
النساء تحت رجل واحد سوى مظاهر مادية مسرفة ، وإنه لضلال أملاه التعصب الأحمق
والهوى الجامح وأنحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات
بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباد^١ وأبعاد .
" وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة يتبع فى دقة وينفذ
نصاً وروحاً .

وجهة نظرى :

هذا وأقول بعد ما تقدم أن قول الله تعالى فى سورة الأحزاب : (لا يحل لك النساء من
بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل
شئ رقيباً) . يستشف منه الفطن أن زواجه صلى الله عليه وسلم إنما هو باختيار الله له ،
ولا تهمة مع الحلال ، ولا مآثم فى الطيب المباح ولذلك يقول تعالى فى زواجه بالسيدة زينب
بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثه (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة
الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً) .

١- أزمان .

كما دفع الله عنه الحرج فى تعدد زواجه وزيادة عدد أزواجه عن الحد الأقصى الذى يجمعه المؤمن وهو أربع نسوة ، وكذلك فى زواجه بمؤمنة تهبه نفسها خالصة له من دون المؤمنين . فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (يا أيها النبى إنا أحلنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وإمرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً) . فهو صلى الله عليه وسلم لا يتصرف فى زواجه إلا بوحي من ربه وتستشف ذلك عن قرب من قوله تعالى فى سورة التحريم : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً) . وتأمل فى وصف ما يختاره الله لنبيه من النساء من ذوات التقوى والإيمان الحق ، وكيف علق الله إبدالهن بطلاقهن ، فحيث تمت توبتهن ولم يطلقهن فقد بقين بأمر الله فى شرف عصمته صلى الله عليه وسلم وهن متحليات بصفات المؤمنات القانتات عليهن رضوان الله .

وإذا أردت أن تعرف الخلق النبوى الزكى فى معاملتهن الكريمة مع كثرتهم فأقرأ بتدبر قوله تعالى فى سورة التحريم : (لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك) . وأنظر كيف كشف الله بقوله : (تبتغى مرضاة أزواجك) عن نيته الخفية فى العمل على تطيب نفوسهن ، ثم إقرأ بعد ذلك ما هدد الله به زوجته الكريمتين عائشة وحفصة رضى الله عنهما فى السورة ذاتها : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) .

فأنظر رعاك الله كيف كانت غيرة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكيف كانت ولايته له وعنايته به . وإذا جاء التهديد بهذه القوة لزوجتيه وهما أبنتا صديقيه الأثيرين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقد غارتا غيرة نسوية معادة من النساء بطبيعتهن ، فكيف بمن تطاول على حرمة أو سنته من الجاهلين أو الحاقدين الحاسدين ، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه ، وجعلنا ممن يصونون حرمة ، ويحفظون عهده ، وينصرون سنته ، فى الغيب والشهادة .

هذا وأضيف أن العرف لم يكن إلى عهد قريب يستنكر تعدد الزواج وخاصة فى الريف حيث يعتز الناس بعصباتهم وذراريهم ، ولقد تزوج جدى لأبى كثيرات وأنجب كثيراً من الأبناء والبنات حتى ورثه ستة عشر رجلاً وثلاث عشرة بنتاً وأربع نسوة ، ولم يكن المجتمع ينكر عليه ذلك بل كانوا يعدونه مظهراً من مظاهر العيشة الراضية الناعمة ، وكان أعمامى جميعاً يعتزون بأبى ويقدمونه عليهم بفضله ، ولم يكن له شقيق منهم على كثرتهم ، وكذلك عدد أخوة جدى زوجاتهم وأن لم يصلوا بالعدد إلى ما وصل إليه جدى رحمهم الله جميعاً ، وكان القوم يفرحون بمصاهرة جدى لهم ، مع علمهم بضرائر يعشن فى بيت واحد ، حيث كان العرف جارياً بالتعدد دون إنكار .

والى اليوم يقع التعدد فى المملكة العربية السعودية كأمر عادى وتعيش أكثر من زوجة مع زوجها فى بيت واحد ، وشهدنا ذلك بأنفسنا ، وما هى ذى إيطاليا ، وهى مهد البابا الكاثوليكى ، قد أباحت الطلاق بقانون صدر قريباً ، ومؤدى الطلاق أن يتعدد الزواج الذى يستنكره على نبينا صلى الله عليه وسلم المتعصبون من المستشرقين والمبشرين ، فماذا هم قائلون لحكومة إيطاليا التى واجهت الحياة الإجتماعية بواقعها العملى فى غير مغالطة أو تدليس ، وإن عارضها رجال الدين المسيحي عن ظن بان أهون الشرور الزواج بشريرة واحدة ، دون استناد إلى نص دينى بتحريم التعدد فى كتب العهد الجديد ، وكتب العهد القديم تبيح التعدد ، وهى التى تستند إليها كتب العهد الجديد عند عدم النص فيها على التحريم ، وقد بان لك مما قاله العلامة العقاد أن التحديد بوحدة جاء من رجال الدين المسيحيين أساس أن المرأة شر فليكن الاقتران بها فى أضيق الحدود إن لم يستطع رجل

الدين أن يعيش بغيرها ، ولم يكن التحديد بواحدة راجعاً إلى نص ديني .
وإذا كان المستشرقون والمبشرون يخوضون في مسألة التعدد فلماذا ينسون أن يذكروا
لنبينا صلى الله عليه وسلم أنه رفض أن يتزوج إمامنا عليّ بن أبي طالب بزوجة أخرى على
أبنته الزهراء ، وهو ما ينفي أنه أراد التعدد لنفسه عن غرام بالنساء الكثيرات ، والقصة
معروفة ، فقد هم الإمام عليّ أن يتزوج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ،
فذهبت السيدة الزهراء إلى أبيها باكية وقالت له : يزعمون أنك لا تغضب لبناتك . وجاء بنو
هشام بن المغيرة ليستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في تزويج عليّ بأبنتهم فصعد صلى
الله عليه وسلم المنبر والغضب باد عليه وقال علي مسمع من الحاضرين : (إن بنى هشام
بن المغيرة أستأذنوني أن ينكحوا أبنتهم عليّ بن أبي طالب ، فلا آذان لهم ثم لا آذان لهم إلا
أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق أبنتي وينكح أبنتهم . فإنما ابنتي بضعة مني يربيني ما رابها
ويؤذيني ما آذاها ، وإنى أخوف أن تفتن في دينها . ومما قاله عندئذ صلى الله عليه وسلم :
(إنى لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً ، ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في
بيت واحد أبداً .

وعمر بن هشام والد تلك الفتاة التي أراد أن يتزوجها الإمام علي هو عدو الله أبو جهل
الذي طالما آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخصه وفي رسالته وفي أصحابه .
وكانت تلك الفتاة قد أسلمت وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قلت في كتابي "
السيدة خديجة الكبرى "

" والإمام علي كرم الله وجهه كان ينظر إلى السيدة الزهراء نظرتين ، أولاهما أنها زوجته
الحبيبة ، وثانيهما أنها بنت الرسول الذي آثره بها علي بكر وعمر ، ومعاذ الله أن يقصد
إيذائها ومضايقتها ، لذلك نراه كف عن الزواج عندما تكشف له غضبها وغضب الرسول عليه
الصلاة والسلام .

" وإنك لتعجب من رقة شعور الإمام ، ومن سماحة زوجته الزهراء رضي الله عنهما ، فإنه
حين عاد الإمام إلى داره بعد أن سمع الكلام المتقدم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ورأى زوجته الزهراء تبكي أعتذر إليها قائلاً :

"هينى أخطأت فى حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة " .
فأجابته : " غفر الله لك يا أبى العم " .

وقد سقت ما تقدم للتدليل على أن تعدد الزوجات كان أمراً عادياً فى مألوف ذلك الزمان من جهة ، ولأدلل على أن التعدد ليس بالأمر الحتمى فى الإسلام من الجهة الأخرى كما يدعى أعداء الإسلام .

ولا يفوتنا بعد هذا أن نوجه النظر إلى أن بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان ينزل فيه جبريل عليه السلام بوحي الله ، لم يكن بيت المادة الحسية والحفظ الجسدية التى يراها أعداء الدين انها الغاية القصوى من حياتهم ، بل كان بيت الروح الذى يخرج الناس من ظلمات المادة الفانية إلى نور اليقين بالله واليوم الآخر ، ذلك النور الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وقد رأى هؤلاء الأعداء على الرغم من غشاوة أبصارهم كيف آثر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خشونة العيش وكفافه فى بيت النبوة على الحياة الدنيا وزينتها حين خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نعيم الدنيا الفانى ونعيم الآخرة الباقي ، وليس هذا الإيثار إلا من نزعات الروح ونور الوجدان .

وقد مر علينا قول الله تعالى لأزواجه صلى الله عليه وسلم فى سورة الأحزاب : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) . فبيوتهن ليست كبيوت غيرهن التى لا ينزل فيها وحى السماء ، ومن ثم قال تعالى لهن مرة أخرى فى الصورة ذاتها : (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ...!) . كما قال لهن مرة ثالثة : (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً *) ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً) . وإنما أفتقرن رضوان الله عليهن ، كما قلنا من قبل ، عن سائر النساء بالتربية الروحية العالية وإن اتفقن مع النساء فى النوع .
وإذا كان ذلك شأنهن عند الله تعالى فكيف بشأن الرسول الأكرم صلى الله

عليه وسلم ، إنه تحلى فى أكمل الصور التى لا يستطيع عمى القلوب أن يروها وإنما يراها أهل الإيمان الحق ، بنور البصيرة والوجدان واليقين .

ولست أدرى كيف يجهل المسلم أن الإسلام ينظر للزواج نظرة روحية قبل أن ينظر إليه نظرة مادية . ألم يقل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم " وفى بضع ' أحكم صدقة " قالوا يا رسول الله نأتى النساء بشهوة وتكون لنا صدقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لسائله مجيباً ومعلماً : أرأيت لو وضعتها فى الحرام أكنت تؤزر؟ قال نعم ، قال فكذلك إذا وضعتها فى الحلال فأنت تؤجر .

إن الله تعالى يقول فى منته علينا بالزواج : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . فأبرزت الآية الكريمة إلى جانب السكون المودة والرحمة اللتين تربطان بين الزوجين وهما من سمات الروح وليستا من سمات الجسد .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر يقول : ما أتيت أهلى قط بنية الشهوة ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً ، وكأنه رضى الله عنه يفهمنا بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباح بكم الأمم يوم القيامة " .

لا ، بل إن الله تعالى جعل الألفة الروحية فى المجتمع الإنسانى الهدف السامى من اقتران الرجل بالمرأة فقال تعالى مخاطباً جميع الناس مؤمنهم وكافرهم : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . والتعارف سبيل الألفة الروحية وتبادل المنافع ، فأساس المنافع المادية ألفة روحية إنسانية ، وذلك ما رفع الله به العلاقة الجنسية بين الأدميين عن درجة الجنسية البهيمية .

١ - نطفه .

وإذا كانت الناحية الروحية ظهرت بارزة هكذا فى العلاقة الزوجية بين الزوجين فى المجتمع الإنسانى العام فكيف كانت قائمة فى بيت النبوة الذى شعت أنواره على العالمين ، فنعم بها المؤمنون وتعامت عنها قلوب الجاهلين من الجاحدين والمارقين .

إن الصحاح روت أن حنظلة رضى الله عنه لقيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال له : كيف أصبحت يا حنظلة ؟ قال : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ما تقول ؟ قال إنا نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا نراها رأى العين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا^١ الأولاد والزوجات والضعيات فنسينا كثيراً ، قال والله إني أجد مثل ذلك انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنطلقنا إليه فذكروا له ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لو تدومون على ما تكونون عندي وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة " .

أقول وإذا كان ذلك شأن من أجمع به صلى الله عليه وسلم من الصحابة فكيف بشخصه صلى الله عليه وسلم وكيف بأزواجه المؤمنات القانتات اللاتى عاشرنه عن قرب واتصال روحى .

إننا لم نقصد من كلامنا الرد على المتعصبين من المستشرقين فإنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه عامدين ، وإنما قصدنا أن نحمل الناشء من المسلمين الذى قد يقرأ لهم قليلاً أو كثيراً فيتأثر بما يقولون به بهتاناً وظلماً عن ظن منه بأنهم قالوا ما قالوه عن بحث علمى وغرض سليم ، فى حين أن هوى نفوسهم أضلهم عن الحق وأرداهم فى الضلال القديم .

زواج الهبة :

إن الله تعالى أباح أن تهب بعض المؤمنات نفسها له صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :
(وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها)

^١ - عافسنا أى خالطنا وتشاغلنا .

خالصة لك من دون المؤمنين) . أى إن وهبت نفسها بدون صداق وهى مزية له وحده صلى الله عليه وسلم لا تتعداه إلى أحد غيره .

وفى تقييد الله الواهبة نفسها بالإيمان مزية أخرى له صلى الله عليه وسلم وللواهبات ، فأن الكافرة لا تحل له ، وقد قال ابن العربى : ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أظهر ، فجوز لنا (أى نحن المؤمنين) نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصره صلى الله عليه وسلم على المؤمنات لجلالته ، وإذا كان لا يحل له من لم تهجر من المؤمنات لنقصان فضل الهجرة ، فأحرى ألا تحل له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر .

أقول : وفى ذلك إشارة إلى قول الله تعالى : (يا أيها النبى إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى إن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيماهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً) .

فقوله تعالى : (اللاتي هاجرن معك) أى لا يباح لك من قرابتك إلا من هاجر إلى المدينة لقوله تعالى : (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا) . فمن لم يهاجر لم يكمل ، ومن لم يكمل لم يصلح للنبى صلى الله عليه وسلم الذى آتاه الله كل الشرف والكمال ، صلى الله عليه وسلم ، ومن باب أولى لا يحل له صلى الله عليه وسلم نكاح الحرة الكتابية وإن حلت لغيره من المؤمنين .

وقد روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة أن تهب نفسها لرجل ؟ حتى أنزل الله تعالى : (ترجى من تشاء منهن

وتؤوى إليك من تشاء) . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وقال الزمخشري
الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم
شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

ويقول الأمام القرطبي : وفى بعض هذا اختلاف ، قال قتادة : هى ميمونة بنت الحارث ،
وقال الشعبي هى زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وقال على بن الحسين والضحاك
ومقاتل هى أم شريك بنت جابر الأسدية ، وقال عروة بن الزبير هى أم حكيم بنت الأوقص
السلمية .

الفصل الثانی
سيداتنا أمهات المؤمنین
رضی الله عنهن

ترتیب الأزواج الطاهرات :

ترتیب نسائه التسع اللآتی توفی عنهن صلی الله علیه وسلم - فیما رواه الإمام الطبری
- كما یلی :

۱- السيدة سودة بنت زمعة (وكانت ثیباً) ، بنی بها رسول الله صلی الله علیه وسلم
بمكة بعد وفاة السيدة خديجة وهاجر بها إلى المدينة (وقد توفيت سنة ۵۴ هـ) .

۲- السيدة عائشة بنت أبی بكر الصديق رضی الله عنهما ، وهی البكر الوحيدة بين
أزواجه رضی الله عنهن (وقد توفيت سنة ۵۹ هـ) .

۳- السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضی الله عنهما ، وكانت ثیباً رضی الله عنها (وقد توفيت سنة ۴۵ هـ) ، وقد طلقها رسول الله طلقه واحدة حين أفشت للسيدة عائشة ما كان أسرّه لها رسول الله صلی الله علیه وسلم من تحريم مارية (أو العسل في رواية أخرى) فقال لها أبوها : لو كان في آل الخطاب خير لما كان رسول الله طلقك ، ثم شفع في مراجعتها جبريل عليه السلام ، وفي قول آخر إنه عليه الصلاة والسلام هم بطلاقها ، فقال جبريل : لا تطلقها فإنها صوّامة قوّامة وإنها من نساءك في الجنة ، فلم يطلقها صلی الله علیه وسلم .

۴- السيدة أم سلمة بنت أبی أمية بن المغيرة رضی الله عنها ، وكانت ثیباً وتزوجها رسول الله صلی الله علیه وسلم قبل واقعة الأحزاب سنة ثلاث من الهجرة (وسنة أربع في قول آخر) ، وقد توفيت سنة ۵۹ على الأصح .

۵- السيده جویریة بنت الحارث وكانت ثیباً وقد تزوجها رسول الله صلی الله

عليه وسلم سنة خمس في عام المريسيع ، وكانت صفيته يوم المريسيع فأعتقها وتزوجها وسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عتق ما في يده من قومها فأعتقهم لها ، رضى الله عنها "وقد توفيت سنة ٥٦ هـ".

٦- السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت من مهاجرات الحبشة هي وزوجها ، فتنصر زوجها وصبرت هي على إسلامها ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ليخطبها له ، وذلك في سنة سبع وبعث بها النجاشي بعد زواجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم (وقد توفيت سنة ٤٤ هـ) .

٧- السيدة زينب بنت جحش ، وكانت قبل زواج الرسول صلى الله عليه وسلم متزوجة من مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فلما طلقها زيد زوجها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان سفيره في ذلك جبريل عليه السلام ، وكانت رضى الله عنها تفخر على نسائه الأخريات وتقول : أنا أكرمك ولياً وأكرمك سفيراً ، زوجك أبأؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات والسفير في ذلك جبريل عليه السلام (وقد توفيت سنة ٢٠ هـ) وهي بذلك أسرعن لحاقاً به صلى الله عليه وسلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم لنسائه يوماً " أسرعن لحاقاً بى أطولكن يداً . فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى ، ثم ظهر لهن أن المراد بطول اليد " الصدقة والعمل الصالح فغبطن زميلتهن السيدة زينب هذه ، وكانت رضى الله عنها تعمل بيدها وتتصدق كثيراً على الفقراء .

٨- السيدة صفية بنت حيى بن أخطب ، وكانت صفيته يوم خيبر ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها سنة ست من الهجرة (وقد توفيت سنة ٥٠ هـ وقيل ٥٢ هـ) .

٩- السيدة ميمونة بنت الحارث ، وكانت ثيباً ، وهي أخت أم الفضل امرأة عمه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما ، وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرف في عمرة القضاء . والقرشيات من أزواجه الطاهرات خمس^١ وهن

^١ - أى غير سيدتنا خديجة التى توفيت فى حياته الشريفه صلى الله عليه وسلم ، أوسع الله لها رضوانه .

سيداتنا وأمهاتنا : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن ، وثلاث من سائر العرب وهن سيداتنا وأمهاتنا : ميمونة وزينب بنت جحش وجويرية وواحدة من بنى هارون وهى سيدتنا وأما صافية .

وأضاف الإمام الطبرى يقول :

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة زينب بنت خزيمة وهى التى يقال لها أم المساكين ، من بنى عامر بن صعصعة وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب أخى عبيدة بن الحارث ، وقد توفيت بالمدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ٣٩ شهراً من الهجرة (وعاشرته ثمانية أشهر) .

وعدد الإمام الطبرى أزواجه اللاتى لم يدخل بهن ، ثم قال : وأفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ريحانة بنت زيد من بنى قريظة ، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية ، أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية ، فولدت له إبراهيم عليه السلام .

عناية الله بالأزواج الطاهرات :

هذا والناظر فى كتاب الله عز وجل ، يرى أن نساءه الشريفات صلى الله عليه وعليهن كن موضع عناية خاصة من الله تعالى ، وإليك البيان :

أولاً : قال تعالى فى سورة الأحزاب : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) . ففرض الله لهن الأمومة والحرمة على جميع المؤمنين . ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : وقد شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين ، أى فى وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهن رضى الله عنهن بخلاف الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثاً كأمومة التبني ، وجاز تزويج بناتهن ولا يجعلن أخوات للناس . وأضاف الإمام يقول : وأختلف فى كونهن كالأمهات فى المحرم وإباحة النظر على وجهين :

أحدهما : هن محرم ، لا يحرم النظر إليهن .

الثانى : أن النظر إليهن محرّم ، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظاً لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقه تحريم النظر إليهن .

ثانياً : أن الله تعالى خاطبهن خطاباً مباشراً وفى ذلك تكريم وأى تكريم فأستمع مثلاً إلى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً * يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) .

وظاهر من ذلك أن الله ضاعف لهن العقاب والثواب لمكاتبتهن الخاصة من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهن تشرفن بصحبته وعشرفته فى مهبط الوحي الذى ينزل عليه بأوامر الله ونواهيته ، فإذا خرجن عن حدود الله ، وحاشاهن ، تأذى بذلك صلى الله عليه وسلم وقد قال تعالى فى سورة الأحزاب : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً) . وقد روى الإمام القرطبى عن أبى رافع أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه كان كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصبح ، وكان إذا بلغ : (يا نساء النبى) رفع بها صوته ، فقليل له فى ذلك فقال : أذكرهن العهد . وقال أهل التفسير إن الرزق الكريم هو الجنة .

وقد التزم رضی الله عنهن ما وعظهن به الله حتى لقد قيل للسيدة سودة رضی الله عنها : لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخوتك ، فقالت : قد حججت وأعتمرت فأمرني الله أن أقر في بيتي . قال الراوى : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها .

أما ما كان من خروج السيدة عائشة للعراق فقد كان للإصلاح بين إمامنا على وطلحة والزبير بأعبارها أم المؤمنين ، ولم تكن ولا كانوا جميعاً يتوقعون أن يقع بين الفريقين القتال المرير الذى وقع فى معركة " الجمل " ولكن غلب القضاء ، وندم كل من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وتابوا إلى الله توبة نصوحاً رضی الله عنهم .

وسأعرض فى الفصل الثالث لتفاصيل موقف أم المؤمنين عائشة فى معركة " الجمل " إتماماً للفائدة .

ثالثاً : وقد خاطب الله السيدتين عائشة وحفصة كذلك خطاباً مباشراً فى سورة التحريم ، فقال تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) .

ثم وجه سبحانه الخطاب المباشر لجميعهن فقال تعالى فى سورة التحريم : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات فانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وإبكاراً) .

أما ما خوطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية سورة التحريم فهو قوله تعالى : (يأيتها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم) .

وقد روى الدراقطى عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول الله صلى

الله عليه وسلم بأمر ولده " مارية " فى بيت " حفصة " فوجدته معها ، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت له : تدخلها بيتى ؟ ما صنعت بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليك ، فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهى (أى مارية) حرام على إن قربتها قالت حفصة : وكيف تحرم¹ عليك وهى جاريتك ، فحلف لها ألا يقربها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم " لا تذكريه لأحد " فذكرته لعائشة ، فألى صلى الله عليه وسلم لا يدخل على نساءه شهراً ، فأعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة فأنزل الله عز وجل (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ...) .

وقد قلت فى محاضرة لى ألقىتها بنادى التجارة منذ عشر سنوات ما يأتى :

" والمقصود بالتحريم هنا هو الأمتناع عن الأنتفاع بالأزواج لا أعتقاد كونه حراماً بعد ما أحله الله تعالى ، وكان الدافع له صلى الله عليه وسلم على التحريم غرضاً نبيلاً كشف الله سبحانه عنه بقوله تعالى : (تبتغى مرضاة أزواجك) وما أعظمه من خلق رفيع وكيف لا يفعل وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائكم " .

وأودأن أسترعى النظر إلى السياق الكريم الذى بدأت به السورة ، والذى تضمن تعظيم الرسول وتوقيره بقوله تعالى (يا أيها النبى) .

" والمغفرة والرحمة التى جاءت بعد السؤال (لم تحرم ...) تنصرفان إما إلى تضييقه صلى الله عليه وسلم على نفسه وإما العدول عن المحلوف عليه عن اليمين ، ولا ينصرفان ألبتة إلى ذنب يؤخذ عليه ، إذ ليس له صلى الله عليه وسلم صغيرة ولا كبيرة ، وكيف نعد ذلك ذنباً مع أن الله أكرمه فى هذه الواقعة فى ذاته ، وأكرم به أمته ، بأن أحل للأمة عقدة الأيمان فقال تعالى :

¹ - وفى رواية مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ، قالت فتوطأت أنا وحفصة أن أبتنا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلنقتل إني أجد منك ريح مغافير : أكلت مغافير (حلواء من صمغ متغير الرائحة) فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل (لم تحرم ما أحل الله لك) إلى قوله تعالى (إن تتوبا إلى الله ...) لعائشة وحفصة .

(قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ...) فأجاز بذلك التحلل من اليمين بكفارتها إذا أحب الحالف استباحة المحلوف عليه وهو قوله تعالى فى سورة المائدة : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارتها إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتُمْ واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) .

" وأنتفاعاً بهذا الحكم الذى وسع الله به على الأمة المحمدية كفر صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعاد إلى عشرة السيدة مارية فعمم سبحانه الرحمة ببركته صلى الله عليه وسلم .
" وكيف تعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ فى هذه الواقعة مع أن الله كشف له الخبىء فيما تحدثت به السيدة حفصة للسيدة عائشة ، مخالفة بذلك ما وصاها به صلى الله عليه وسلم من كتمان الأمر . وذلك مما تشير إليه الآية الكريمة :

(وإذا أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير) .

" ثم ولى هذا من باب التكريم والغيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نزل التهديد من السماء لزوجتيه حفصة وعائشة رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ...) وصغت معناها : مالت عن الحق .

" وهذا التهديد يكشف بكل وضوح عن رضا الله السامى وعن تصدى الله للدفاع عن مقامه صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب فهو الحبيب المقرب والرسول المؤيد .

" ولو كان فيما أتاه صلى الله عليه وسلم من تحريم (مارية) ما يؤخذ عليه ، ما واجه الله زوجته اللتين تظاهرتا عليه بهذا الخطاب ، وتهديهما بهذه القوة البالغة ينفى أى مأخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويلقى بالمأخذ على سيدتنا حفصة وعائشة رضى الله عنهما لأنهما الطرف الآخر فى الخصومة ، ومن أصدق من الله حكماً .

" وما قرأت هذا التهديد مرة إلا تعازمتنى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول لنفسى إذا جاء التهديد لزوجتيه المتظاهرتين ، وتعدى منهما لسائر أزواجه بهذه القوة عن غيرة نسائية طبيعية ، فكيف بالأمور الأخرى التى تنطوى على نقد لسنته صلى الله عليه وسلم ، أو الأساءة إلى أصحابه وأحابيه ؟ رزقنا الله وإياكم سمو الأدب فى حقه صلى الله عليه وسلم .

" وقد تابت بحمد الله الزوجتان الكريمتان المتظاهرتان ، وأتاب قلباهما الطاهران إلى الله ، وكذلك فعل سائر نساءه صلى الله عليه وسلم فلم يطلقهن ، ولم يبدله الله خيراً ممنهن لأن الإبدال كان مشروطاً بالطلاق فى قوله تعالى : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) ... فبقين جميعاً فى عصمته وفى خير من عشرته صلى الله عليه وسلم ، وهذا من فضل الله عليهن رضى الله عنهن .

وأود أن أضيف الآن إلى قولى المتقدم أن ناساً من المتخرصين يتجرأون على مقامه صلى الله عليه وسلم فيما يكتبون ، ويحتجون فيما يخرجون به عن الأدب بأنه بشر مثلنا ، ويسئون فهم هذه البشرية ، فيقيسون نزعاته بنزعاتنا بجامع البشرية بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم لو تأملوا فى مثل قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) ، وفى مثل قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) . وفى مثل قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) . بل أقول وفى وفى مثل آيات سورة التحريم التى خاطب الله بها نساءه ، وهى التى مرت عليك

من قبل ، أقول لو تأملوا أقل التأمل ، لوجدوا أنهم أخطأوا فى تصوير بشريته المطهرة صلى الله عليه وسلم وفى قياسها على بشريتنا الملوثة ، فهو بشر من حيث الجنس ، ونور من حيث النفس إذ ظهره الله من الرجس ، فتزكى حسه ، وصفا ظاهره وباطنه ، فأستقام فى جميع أحواله وأحيانه ، فى سره وجهره ، وفى رضاه وغضبه ، وفى يسره وعسره ، وسفره وحضره ، وكيف لا يكون كذلك وقد أحاطه الله بعنايته وكأله برعايته حين قال له (فأنتك بأعيننا) وإذا كان الله تعالى قد قال لأخيه موسى عليه السلام : (واصطنعتك لنفسى) كما قال له : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) فكيف بأمر الأنبياء والمرسلين ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه " لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى " .

إن اللؤلؤ أصله من بعض قطرات المطر ، يستودعها الله فى الأصداف فتكسب الصفاء من باطنها بعد استقرارها مدة فى بواطن البحار وذلك بقدرته سبحانه ، فهل أستوى كل الماء مع اللؤلؤ الذى أصله من الماء حتى يقول هؤلاء إن النبى بشر ويتهمون عليه عن جهل بالمقارنة بينه وبين البشر بما آتاه الله من فضل كبير .

إن المؤمن والكافر ، والمنافق والفاسق ، والصادق والكاذب ، والأمين والخائن ، والذكى والغبى ، والفصيح والعبسى ، والضعيف والقوى ، كلهم من البشر من حيث أصلهم ، فهل تساوا عند الله أو عند البشر فى المواهب ؟ وهل يتساوون فى أولاهم وعقباهم فى أى ميزان ؟ إن أزواجه صلى الله عليه وسلم من النساء ، ولكن الله خاطبهن قائلاً فى سورة الأحزاب : (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ...) وقد فارقت النساء فى المسلك وإن اتفقن معهن فى الجنس .

فإذا أردت أيها المسلم الصادق أن تعرف صورة رسولك عند ربك ، فأقرأ إلى جانب سورة التحريم سورة الحجرات حيث يؤدب الله المؤمنين فى معاملة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم * إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) .

ونأخذ من معنى هذه الآيات البيّنات ألا يسبق المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، بل ينتظرون قوله وفعله في أمور الدنيا أو الدين ، وقد جاء في تفسير الإمام القرطبي : إن من قدم قوله على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمه على الله تعالى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل . أما رفع الصوت في حضرته ففيه خروج على توقيره صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يرع توقيره كفر من حيث لا يشعر ، لأن العمل لا يحبطه إلا الكفر والعياذ بالله . وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله : حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حياً ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحي ، وله من الحرمة مثل القرآن .

وسترى فيما بعد أن أبا الخليفة أبا جعفر المنصور رفع صوته بجوار القبر الشريف فنهاه إمامنا مالك وقال له : يا أمير المؤمنين .. إن الله أدب قوماً فقال : (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي^١ ...) ومدح قوماً فقال (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله^٢ ...) فأذعن أبو جعفر .

١ - سورة الحجرات آية ٢ .
٢ - سورة الحجرات آية ٣ .

أقول ، ولهذه الحرمة كان إمامنا مالك رضى الله عنه يغتسل إذا أراد أن يحدث الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان يجلس على المنصة وهو يحدثهم بالحديث النبوى الشريف ، وكان رضى الله عنه لا يركب دابة فى المدينة المنورة ، وكان يقول فى ذلك : كيف أطأ بحافر دابة أرضاً تضم جسد النبى صلى الله عليه وسلم ، واستفسر منه أبو جعفر المنصور : أيستقبل القبلة ويدعوا أو يدعوا وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له إمامنا مالك رضى الله عنه : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم ، وقد حدثنى حين كنت فى المدينة المنورة السيد محمد صادق المجددى - سفير أفغان السابق بمصر - أنه كان يدعو ربه وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه المتزمتين وقال له استقبل القبلة ولا تستقبل وجه رسول الله ، فأجابه السيد المجددى إنى أفقه دينى خيراً منك ، إن القبلة تستقبل فى الصلاة ، وأينما تولوا فثم وجه الله ، ولولا هذا الرسول الكريم ما عرفت القبلة .

وها أنت ذا قد رأيت فى كتاب الله الكريم أن خفض الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم من سما الأتقياء فقال تعالى (إن الذين يغيظون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) فكيف ينشر دعوته وسنته والدفاع عن شريعته والغيرة على مكارمه وفضائله واستحسان شمائله ، وكيف بالتأسى به قولاً وفعلاً وحالاً . وإذا كان رفع الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم موجباً للكفر والعياذ بالله فكيف بنقده فى تصرفاته والجرأة على تحسين ما استقبح أو استقبح ما استحسن ، وكيف بإنزاله إلى بشريتنا الدنية وأخلاقنا الغريزية المستهجنة بحجة أنه بشر ، ألا فليثق الله أولئك الذين ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . .

أما وقد علمنا كيف نحفظ حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شخصه ، فلنحفظ حرمة فى بيئته ، بحفظ حرمة أهله وأزواجه وذريته وصحابته ، وما وقع من خلاف بينهم أو اختلاف لا يصرفنا عن ثناء الله عليهم وتخليدهم بفضله وجهادهم فى كتاب الله الكريم ، كما لا يجوز أن نغفل عن قوله تعالى :

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا) .

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية :

" إن قول الله منهم في الآية ليست مبعضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسة مثل قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) لا يقصد التبعض لكنه يذهب إلى الجنس أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، لأن الرجس يقع من أجناس شتى منها الزنا والربا وشرب الخمر والكذب ، فأدخل " من " يريد بها الجنس وكذا " منهم " أى من هذا الجنس يعنى جنس الصحابة ، وترى مزيد بيان فى عصمته صلى الله عليه وسلم وفى فضل السادة آل البيت والسادة الصحابة فى مواضع أخرى من الكتاب .

رابعاً : كان مما خوطب به عليهن الرضوان قوله تعالى : (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) . وهو ما يدل على عناية الله بهن فى تطهيرهن وتزكيتهن بالتقوى والبعد عن المعاصى ، وأعتبرهن من أهل بيته الذين لاحظتهم العناية الربانية عطاء واختصاصاً فى الأزل .

ولئن قال بعض العلماء بأن قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) إنما هو منصرف خاصة إلى الإمام على والسيدة الزهراء والسبطين الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فإن سادتنا عطاء وعكرمة وابن عباس رضى الله عنهم قالوا هم زوجاته خاصة لا رجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن ...) .

والذين خصصوها بالإمام على وزوجته وابنيه احتجوا بأحاديث واردة ، وبأنه لو أريد نساؤه لقال تعالى (عنكن) و (يطهركن) ، ورد أهل العلم عليهم بأن التذكير فى الآية راجع إلى لفظ الأهل ، وأيدوا ذلك بقوله تعالى لأمرأة سيدنا إبراهيم عليه السلام (أتعجبين من أمر الله رحمة الله

وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) .

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره :

"والذى يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال تعالى (ويظهركم) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلياً وحسناً وحسيناً كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر ، فأقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن يدل عليه سياق الكلام .

أما قوله تعالى : (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ...) فيقول الإمام القرطبي إن الذكر هنا يحتمل ثلاثة معان :

١- اذكرن موضع النعمة إذ صيركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة .
٢- اذكرن آيات الله وأقدرن قدرها ، وفكرن فيها حتى تكون منكن على بال لتتعظن بمواعظ الله تعالى .

٣- بمعنى احفظن واقرأن فكأنه يقول : واحفظن أوامر الله وبلغن إلى الناس ما ينزل في بيوتكن وما تسمعهن أو ترينه من أقوال أو أفعال رسول الله .

أقول : وهذا التفسير الأخير يدل على أنهن نائبات عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس وتربيتهم في دين الله ، وذلك شرف ما بعده شرف ، والناظر في كتب السنة يرى أنهن رضوان الله عليهن فمن بهذا التكليف ما وسعهن الجهد ، وكان لسيدتنا عائشة في هذا المجال على الخصوص قدم راسخة كما ترى في مناقبها في غير هذا الموضوع بما هيأها الله له من استعداد كبير للحفظ والرواية والدراسة في نكاه مشهود وورع معهود ، وكيف لا يقمن بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد قال تعالى لهن : (وقلن قولاً معروفاً) .

خامساً : إن الله تعالى خيرهن في قوله تعالى : (يأيتها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعتكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات

مكن أجراً عظيماً) . وأختلف العلماء فى كيفية هذا التخيير على قولين :

١ - خيرهن بين البقاء على الزوجية أو الطلاق فأخترن البقاء .

٢ - خيرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيمسكهن .

ويقول الإمام القرطبي : والقول الأول أصح لقول السيدة عائشة رضى الله عنها لما

سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت : خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقاً ؟

أقول : وأيا ما كان التخيير على القول الأول أو الثانى ، فإنه يدل على عناية خاصة من الله بهن لأنه تعالى أفسح لهن ، وأعطاهن فرصة التخيير وشجعهن على البقاء فى عصمته اختياراً للآخرة على الدنيا بقوله تعالى : (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات أجراً عظيماً) فكأنه قال لهم إن الإحسان فى بقائكن فى عصمته مع الصبر على عيشة الكفاف التى شكوتن إليه منها وطالبتنه بالتوسعة عليكن وزيادة النفقة ، وقد بلغ من عيشة الكفاف التى ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر عليها وكانت موضع شكوى منهن أن السيدة عائشة رضى الله عنها : كنا نرى الهلال والهلال والهلال ولا نوقد ناراً (أى لا يطبخن شيئاً) ، فقيل لها ، فكيف كنتم تأكلون ؟ قالت كنا نعيش على الأسودين التمر والماء .

ويرى العلامة العقاد أن عيشة الكفاف التى بلغت ذلك الحد وصبر عليها رسول الله صلى

الله عليه وسلم وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية وأموالها انما هى برهان ساطع الدلالة

على صدق نبوته ويقول رحمه الله : إن لم يكن هذا هو برهان النبوة فأى برهان يكون ؟

أقول : ولا تعجب من ذلك التقشف وقد خير صلوات الله وسلامه عليه بين أن يكون نبياً

ملكاً أو نبياً عبداً فاختر أن يكون نبياً عبداً ، فقد عرض عليه إسرافيل عند الصفا أن يحول

له جبال مكة ذهباً بإذن الله فقال : لا يارب ، أجوع يوماً واشبع يوماً ، أجوع فأذكرك وأشبع

فأحمدك ، فقال له جبريل عليه السلام وكان مع زميله إسرافيل : ثبتك الله بالقول الثابت يا

محمد .

وقد روى أنه حين نزلت آيتا التخيير المذكورتان ، بدأ صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة وكانت رضى الله عنها أحبهن إلى قلبه الطاهر ، فخيرها وقرأ عليها مانزل وقال لها : إني ذاك لك أمراً ولا عليك أن تتعجلي فيه حتى تستأمرى (أى تستشيري) أبويك ، فقالت وهى الرشيدة الموفقة : أفى هذا أستأمر أبوى ؟

أنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم وكذلك جاراها سائر أمهات المؤمنين رضوان الله عليهم .

سادساً : أن الله تعالى ضاعف لهن العقاب والثواب فى قوله تعالى : (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً) ويدل ذلك على منزلتهن الخاصة عند الله بما لهن من رابطة الزوجية برسوله ، ففى بيوتهن ينزل الوحي بأوامر الله ونواهييه ، وفى بيوتهن يشهدن من همة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طاعة الله مالا يراه غيرهن ، فضاعف الله لهن العقاب والثواب على قدر حرمتهم ومنزلتهن الخاصة ، لأنه كلما زادت الحرمات ضوعفت العقوبات ، ولذلك ضوعف حد الحر من العبد ، والثيب من البكر ، كما هو معلوم من أحكام الله .

سابعاً : إن الله تعالى جعل من زواجه صلى الله عليه وسلم بإحداهن ، وهى السيدة زينب بنت جحش ، وهى قرشية (وابنة عمته) تشريعاً للأمة المحمدية فى أمرين :

الأول : أن الكفاءة تكون بالإيمان لا بالنسب ، فهذه من صميم قریش ، وحين أراد أن يزوجه صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة أمتنعت وأمتنع أخوها ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) . فعندئذ قال أخوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " مرنى بما شئت " فزوجها لزيد رضى الله عنه ، ويقول الإمام القرطبى : فى هذه الآية دليل بل نص فى أن الكفاءة لا تعتبر فى الأحساب ، وإنما تعتبر فى

الأديان ، وذلك أن الموالى تزوجت فى قريش ، تزوج زيد زينب بنت جحش ، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير ، وزوج أبو حذيفة مولاه سالماً من فاطمة بنت الوليد ، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف .

وأذكر فى هذه المناسبة أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم " سالماً " مولى أبى حذيفة على الصلاة بقاء فكان يؤمهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من قريش ، وأمر صلى الله عليه وسلم " زيد بن حارثه " على الجيش ، كما أمر عليه ابنه " أسامة بن زيد " على الجيش ، فأنظر كيف رفع الله بالإسلام الموالى وقدمهم فى الزواج وفى القيادة ، وفيهم شيوخ قريش ، فما أكرم المؤمنين بالإسلام .

الثانى : أن امرأة الأبن بالتبني ليست محرمة كإمرأة أبن الصلب بدليل قوله تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) .

وقد لفظ المستشرقون - كدأبهم فى الكيد للإسلام - فى زواج النبی صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب ، ويقطع ألسنتهم الكاذبة قوله تعالى : (زوجناكها) فوليه فى الزواج رب العالمين ، فهو لم يتزوجها لهوى فى نفسه كما يقول هؤلاء السفهاء الذين تعدوا على عصمته وقالوا إنه عشق السيدة زينب ، وكيف يعشقها وهو الذى زوجها باختياره لمولاه زيد بن حارثة فلم تكن جديدة عليه ، وقد زوجّه منها رب العالمين ، للحكمة الواردة فى الآية ، وتلك الحكمة هى : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) وهى حكمة تشريعية ، فإنهم كانوا يظنون أن الأبن بالتبني تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الأبن من الصلب على أبيه ، ولو صح ما يفترونه حقداً وحسداً من أنه عشقها وتمنى أن يطلقها زيد ليتزوجها من بعده لما قال له : (أمسك عليك زوجك وأتق الله) ، ولقال له : طلقها فى الفرصة المواتية له حين شكاها زيد إليه صلى الله عليه وسلم .

أما قوله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ، فإنه صلى الله عليه وسلم علم من ربه أنها ، رضى الله عنها ، ستكون زوجة له ، ومع ذلك قال لزيد حين شكا من دلالتها عليه (أمسك عليك زوجك وأتق الله) وللرسول صلى الله عليه وسلم عذره الشرعى فى ذلك كما سيأتى بعد قليل .

أقول : ولو كان الذى فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمره بإمساكها يعد خطيئة لأمره الله تعالى بالتوبة والاستغفار منه ولكن لم يقع ذلك ، فليتق الله أولئك المتحرصون والجاهلون بحرمة وعصمته صلى الله عليه وسلم . ولأن الله تعالى زوجها لنبيه صلى الله عليه وسلم فقد دخل عليها صلى الله عليه وسلم بغير إذن ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركها فيها أحد بإجماع المسلمين ، ولهذا كانت رضى الله عنه تفاخر ضرائرها وتقول لهن : زوجكن آباؤكن وزوجنى الله تعالى . وقد أستدل العلماء على ثبوت الولى فى الزواج بقوله تعالى : (زوجناكها) .

وإذا أردت أن تعرف مدى الثقة التى حظى بها " زيد " عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مدى التقوى التى تحلت بها سيدتنا زينب رضى الله عنها ، فهناك ما حدثنا به الإمام مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : " لما أنقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد (فأذكرها على) ، قال فأنتظر زيد حتى أتاها وهى تخمر عجينها ، قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبى ، فقلت يا زينب : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر (أى أستخير) ربي ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . وكانت رضى الله عنها تقول لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدى وجدك واحد ، والله أنكحك إياى من السماء ، وإن السفير فى ذلك جبريل .

وقال العلماء إنها رضى الله عنها لما وكلت أمرها لله وصدقت فى تفويضها له سبحانه وتولى زواجها ولذلك قال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) ، وروى الإمام جعفر بن محمد عن آباءه عن النبى صلى الله عليه وسلم (زوجتكها) أقول : وقد أظهر زيد رضى الله عنه فى نشأته¹ من الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما جعله أهلاً لثقتة الغالية فيه ، فقد روى أن عم زيد لقيه يوماً وكان قد ورد مكة فى شغل له ، فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال زيد ، قال : ابن من ؟ قال :

¹ - وكانت السيدة خديجة أشتترته وأهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ابن حارثة ، قال :ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبى ، قال : فما اسم أمك ؟ قال : سعدى
وكننت فى أحوالى طى ، فضمه إلى صدره وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا وأرادوا منه أن يقيم
معهم ، فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله ، فأتوه صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا
ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله تفكون العانى وتطعمون الأسير ،
جنناك فى ولدنا زيد عبدك فأمنن علينا وأحسن فى فدائه .

قال : وما ذاك ؟ قالوا : زيد بن حارثة نريد شراؤه .

قال : أو غير ذلك ، أدعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى
فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء .

قالوا : لقد زدتنا على النصف (أى أنصفتنا فوق ما نتصور) .

فبعث صلى الله عليه وسلم إلى زيد وقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم ، هذا أبى ، وهذا
أخى ، وهذا عمى ، فقال صلى الله عليه وسلم : فأى صاحب كنت لك ؟ فبكى وقال : لم
سألتنى عن ذلك ؟ قال : أخيرك فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق ، وإن أردت أن تقيم فأنا من
قد عرفت ، فقال : ما أختار عليك أحداً ، فجذبه عمه وقال : يا زيد اخترت العبودية على أبيك
وعمك ، فقال : أى والله العبودية عند محمد أحب إلى من أن أكون عندكم .

فلما آثر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه وقومه ، ذهب صلى الله عليه
وسلم إلى قريش بالمسجد فقال : اشهدوا أن زيدا ابنى أرثه ويرثنى ، وبهذا تبناه رسول الله
صلى الله عليه وسلم وصار يدعى " زيد بن محمد " حتى جاء الإسلام ونزل قوله تعالى (ادعوهم
لآبائهم هو أقسط عند الله ...) فرجع زيد إلى اسم أبيه حارثة .

وقد بادله رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً بحبه حتى كان يقول له : " يا زيد أنت مولاى
ومنى والى وأحب الناس إلى " . وكافأه تعالى على فرط حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فذكره سبحانه وتعالى فى القرآن المجيد بأسمه ، فصار اسم زيد قرآناً يتلوه أهل الدنيا فى
المحاريب وأهل الجنة كذلك أبداً ، كما يتلوه السفارة

الكرام البررة من أهل السموات العلى .

وقد قلت فى محاضرتى " رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم " التى ألقيتها
بنادى التجارة فى ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٨١ (٧ ديسمبر ١٩٦١) :

" وليس من خلق النبى صلى الله عليه وسلم اعتداء على حرمة مؤمن ولا مؤمنة ،
ولو كان كما يقولون مال إليها بقلبه وتمنى أن يطلقها زيد ليتزوجها لما نسب الله إليه الإنعام
على زيد فى قوله تعالى : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه ...) فقد أنعم حبيبنا
المصطفى صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بنعم كثيرة ، فقد أعتقه وتبناه وأحبه وزوجه
ابنة عمته القرشية ليرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسلام خسيصة العبودية ويكسر
عصبية الجاهلية . وما نال سيدنا زيد كل هذا الإكرام إلا ببركة النبى صلى الله عليه وسلم
حين آثره زيد على أبيه وأهله ، وهذا هو الإيمان بعينه ، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال
:

" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه " والنفس للإنسان أقرب إليه
من الأهل والعشيرة .

وقوله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ،
إنما هى كما أفهم تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست عتاباً ، ولى على ذلك الفهم
دليلان :

١- أنه تعالى استطرد فقال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) ، فالله هو الذى زوجه إياها
ولم يتزوجها بنفسه صلى الله عليه وسلم ، وحكمة هذا الزواج تشريعية وهى التى بينها
سبحانه وتعالى فى قوله الكريم : (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا
قضوا منهن وطراً) وقد كانوا يظنون أن الأبن بالتبني تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم
زوجة الأبن من الصلب على أبيه كما أسلفنا .

٢- أنه تعالى قال : (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من
قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين

يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً) .

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى ما كان يخفيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرج فى أن يقول الناس إنه تزوج امرأة زيد وهو ابنه بالتبني ، فأزال الله عنه هذا الحرج الذى أخفاه فى نفسه بقوله تعالى : (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) وكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : لماذا تتحرج من الزواج بمطلقة ابنك بالتبني وتحسب حساباً لما يقوله الناس مع أن ربك زوجك إياها لحكمة تشريعية وهى إحلال الحلال بالزواج من امرأة الأبن بالتبني ، خلافاً لما يظنه قومك من أنها تحرم كما تحرم امرأة الأبن من الصلب ، ولا مآثم فى الطيبات إنما المآثم فى الخبائث ، وأنت من المرسلين الذين يبلغون رسالات ربهم ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه .

والذى أخفاه فى نفسه صلى الله عليه وسلم وأشار إليه بقوله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ...) هو أن الله تعالى أعلمه بزواجها منه بعد أن يطلقها زيد ، فلما جاءه زيد يشكو إليه شدتها وأنها لا تطيعه ورغب إليه فى أن يطلقها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمسك عليك زوجك واتق الله) يريد بذلك ألا يذمها فى خلقها وألا يطلقها فإن قيل لماذا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمساكها مع علمه بانها ستطلق ، فالرد على ذلك أنه من القواعد الأصولية المقررة فى الشرع أن الحاكم لا يحكم بعلمه ، وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه قال : لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيرى وروى أن امرأة جاءت إلى عمر رضى الله عنه فقالت له : احكم لى على فلان بكذا فإنك تعلم مالى عنده فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم ، وأما الحكم فلا . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه اشترى فرساً فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال : من يشهد لى ، فقام خزيمة فشهد فحكم ، خرّج الحديث أبو داود وغيره .

وأقول بعد ذلك فلو قال له النبى صلى الله عليه وسلم : طلقها ، لكان قد

حكم بطلاقها بما علم من الله ، وليس فى أمره بامساكها مأثم ، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن .

هذا وقد قرأت أخيراً فى حاشية المغفور له الشيخ الباجورى على الجوهرة ما يؤيد وجهة نظرى الدافعة لقولهم إنه صلى الله عليه وسلم رأى زينب فأعجب بها وقال : سبحان مقلب القلوب فقد قال الشيخ رحمه الله فى الحاشية ما نصه :

" وما قيل من أنه صلى الله عليه وسلم تعلق قلبه بها وأخفاه فلا يلتفت إليه وإن جل ناقلوه ، فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا الأمر ، فما بالك به صلى الله عليه وسلم . أرأيت إلى قول الشيخ رحمه الله (فلا يلتفت إليه وإن جل ناقلوه) وكيف أنه نظر فى المسألة بعين العصمة التى تحلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ بالنصوص التى تناقض العصمة وإن علا سندها . وصدق إمامنا على بن أبى طالب فى جوابه حين سأله الحارث الليثى : أتظن أن ظلحة والزبير كانا على ضلال ؟ فقال الإمام كرم الله وجهه : يا حار (أى يا حارث على الترخيم) إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال فأعرف الحق تعرف أهله .

أقول وأرجو بعد أن أطلت الكلام فى هذه المسألة أن يرى القارىء فيما ذكرته وفيما أرشدت إليه الشرف الذى حلى به الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى قصة زواجه بالسيدة زينب فى أول القصة وآخرها ، حيث كانت البداية أن نهى الله أهلها القرشيين عن عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزويجها لزيد لكسر عصبية الجاهلية ورفع أخوة الإسلام بقوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) ، وكانت النهاية أن تولى الله جل جلاله تزويجها بعد طلاقها لرسوله صلى الله عليه وسلم ليحلّ حلالاً ظنوه أنه حرام ، وقالوا تزوج محمد امرأة ابنه ، فأجابهم تعالى بقوله : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليماً) وبقوله تعالى :

(ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً) . فإن تجلى ذلك الشرف للقارىء فى

حلاه وعلاه بالحقائق التي بينها عن اول القصة ومنتهاها فليقل للمتخرصين من المستشرقين أو غيرهم من الجاهلين : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور .

ثامناً : إن الله تعالى رضى عن موقفهن فى اختيار الله ورسوله والدار الآخرة حين خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلامة رضاه عنهن هو قوله سبحانه : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيباً) . ولا تنفى دلالة الآية على الرضا قول بعض العلماء إنها منسوخة بالسنة وإن الناسخ لها حديث السيدة عائشة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء ، وروى الطحاوى عن أم سلمة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء إلا ذات محرم وذلك قوله عز وجل : (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) . وهو كذلك قول الإمام على وابن عباس وعلى بن الحسين والضحاك .

تاسعا : إن الله تعالى أكرمهن ودفن عنهن الهم والحزن ووفر لهن السرور والرضا فقال تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم ، وكان الله عليماً حليماً) . ومع هذا التفويض الواسع الذى أباح له ترك القسم ولم يوجبه عليه ، راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسم بينهن بالعدل ولم يرجح بعضهن على بعض مع أنه تعالى فوض له فى ذلك ، فظهر لنسائه فضله عليهن فى القسم بالسوية بينهن ، ولو كان صلى الله عليه وسلم

استعمل التفويض المعطى له ما تضررت منه واحدة منهن ، لأنه كان يستند إلى حكم الله
الفعال لما يشاء ، ولا يفوتهن النزول على حكم الله تعالى والرضا به وقد قال لهن سبحانه :
واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) .

عاشراً : أن الله تعالى فرض الحجاب بين نساءه صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين
على الرغم من أنه تعالى جعلهن أمهات للمؤمنين ، وحرّم عليهم زواجهن من بعده صلى الله
عليه وسلم ، وفى ذلك مزيد توقيير لهن وتأديب للمؤمنين والمؤمنات فى التربية الاجتماعية ،
لأنه إذا لم يأذن الله تعالى فى مخالطة أظهر النساء وأتقاهن وأزكاهن ، فكيف يخالط
المؤمنون غيرهن كما يقع جهلاً بأحكام الله ، أو أستهانة بحدود الله ، وقرأ بعد ذلك قول الله
تعالى :

(ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه¹
ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي
فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم
أظهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن
ذلكم كان عند الله عظيماً) . ومن ذلك ترى أن الدخول بدون إذن حرام ، وجائز من أجل
الطعام بإذن ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي
صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك (ينضج) الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم
يأكلون ولا يخرجون . وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها وجماعة :

¹ - أى منتظرين أن ينضج الطعام ، وكان بعض المؤمنين يبكرون وينتظرون طبخ الطعام ونضجه ، وكذلك كانوا إذا فرغوا من الأكل
جلسوا يتحدثون فى بيته صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك ودخل فى النهى سانر المؤمنين .

سببها أن عمر قال : قلت يا رسول الله إن نسائك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجن فنزلت الآية . ومعنى المتاع فى الآية ما يطلبه المؤمنون فى منافعهم من الأوانى المنزليه أو من فتوى شرعية ، وفى آية الحجاب دليل على أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها واستثنوا الوجه والكفين عند الضرورة لأن الغالب ظهورهما عادة وعبادة فى الصلاة والحج^١ كما أن فى الحجاب دليلاً على أنه لا ينبغى لأحد من المؤمنين أن يثق بنفسه فبالخلوه بمن لا تحل له ، فمجانبة الخلوه أحسن لنفسه وأطهر لقلبه ، وليس أرفع فى التربيته من أدب الله تعالى الذى أدب به عباده المؤمنين والمؤمنات .

وقد قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن أستحل ذلك كان كافراً لقوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) .

وقيل إنما منع الله التزوج بأزواجه صلى الله عليه وسلم لأنهن أزواجه فى الجنة ، والمرأة فى الجنة لآخر أزواجها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة) وقال صلى الله عليه وسلم : (كل سبب ونسب ينقطع إلا سببى ونسبى فإنه باقى ليوم القيامة) وهذا الحديث الأخير هو الذى حرص من أجله أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يتزوج بالسيدة أم كلثوم (زينب الوسطى) بنت الإمام على ، ولما تزوجها خرج إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : ألا تهنئوننى ؟ قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال تزوجت من أم كلثوم بنت على فصار لى نسب برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحادى عشر : ن الله تعالى قصر بعد الحجاب رؤيتهن على المحارم فقال تعالى : (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن

^١ - وأما عورة الرجل فمن السره إلى الركبه .

وأتقن الله إن الله كان على كل شيء شهيداً) . حيث ظن الآباء والأبناء والأقارب أن آية الحجاب عامة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت الآية مستثنيه المحارم ، ولم يذكر الله العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين فى العرف .

الثانى عشر : وإلى جانب المحارم التى ذكرها الله تعالى فى الآية السابقة الخاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم بين الله سبحانه فى سورة النور بقية المحارم وبقية من أبيع لسائر المؤمنات مقابلتهم فقال تعالى : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن^١ أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة^٢ من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) . وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : رحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما نزل (وليضربن بخمرهن^٣ على جيوبهن) شققن أزهرن فاختمرن بها . وقد دخلت عليها حفصة بنت أخيها عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهم وقد اختمرت بشيء يشف عن عنقها وما هنالك ، فشقته عليها وقالت : إنما يضرب بالكثيف الذى يستر ، ومعنى قوله تعالى : (على جيوبهن) أى على صدورهن لأنها كانت مواضع الجيوب فى ثياب السلف رضوان الله عليهم .

^١ - البعل هو الزوج والسيد .

^٢ - أى الذين لا حاجة لهم بالنساء ، والإربة الحاجة واجمع مأرب .

^٣ - الخمر جمع الخمار وهو ما تغطى به رأسها (الطرحة) .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى : ذكر القاضى إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إن رؤيتهما لهن تحل ، قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (لا جناح عليهن فى آبائهن ...) وذهب ابن عباس إلى آية النور السابقة حيث قال تعالى : (أو أبناء بعولتهن) ، فأنظر رعاك الله إلى مدى ذهب السبطان فى توقيير أزواجه صلى الله عليه وسلم تمسكاً بآية الأحزاب الخاص بهن والتى لم يرد فيها أبناء بعولتهن .

الثالث عشر : أراد الله سبحانه وتعالى أن يزيد سيداتنا أمهات المؤمنين سترًا وتوقيرًا فأنزل قوله تعالى : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) والجلباب هو ثوب أكبر من الخمار ويستتر جميع البدن . وفى صحيح مسلم عن أم عطية قلت : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : لتلبسها أختها من جلبابها . وإرخاء الثوب أن تلويه وتغطى به الصدر ومعظم الوجه .

وسياق الآية الشريفة السابقة يرينا كيف خص الله بالذكر أزواجه وبناته صلى الله عليه وسلم قبل عامة نساء المؤمنين ، وفى ذلك توقير لا يخفى على ذوى الأفهام . وقد دخلت نسوة من بنى تميم على السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، وعليهن ثياب رفاق فقالت لهن : إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات . وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنع النساء من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل ، تريد بذلك أن تقول إن الزمن تطور والأخلاق تغيرت عما كانت عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت رضى الله عنها تتمثل بقول الشاعر :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجر

ثم تقول رضى الله عنها : كيف لو عاش لبيد إلى زماننا ؟

وكان عبد الله بن الزبير يقول " رحم الله أم المؤمنين حين كانت تتمثل بقول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

ثم يضيف رحمه الله قائلاً : كيف لو عاشت أم المؤمنين إلى زماننا ؟ وقد قلت حين قرأت قولهما : فماذا نقول نحن اليوم ؟ اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه والباطل باطلاً فنجتبه .

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره (الذى كتبه فى القرون الوسطى) : وقد قيل أنه يجب الستر والتقنع الآن فى حق الجميع من الحرائر والإماء ، وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقول وكان القناع فى الزمن الأول مقصوراً على الحرائر دون الإماء حين كان الرجال والنساء على تقوى من الله . فلضعف التقوى أرادوا التحرز بتقنع الحرائر والإماء درءاً للمفاسد .

الرابع عشر : أن الله تعالى جعلهن محل عنايته فى الصلاة ، فقال تعالى فى سورة طه :

(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى) ، وجاء فى تفسير الإمام ابن كثير أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أصابه خصاصة (حاجة) نادى أهله : " يا أهلاه صلوا صلوا " وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وأضاف ابن كثير رضى الله عنه أن الإمام الترمذى وابن ماجه روى من حديث عمران بن زائدة عن أبى خالد الوالى عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك " وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء " .

وقد قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (وأمر أهلك) تشمل أهل بيته

وأمتة وأستدلوا بقوله تعالى فى حق سيدنا إسماعيل عليه السلام : (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) ولكن الخصوصية واضحة فى أزواجه صلى الله عليه وسلم فقد عبرت عنهن بالأهل فى سورة آل عمران حيث قال تعالى : (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم) ، وواضح فيها أنه خرج من بيته حيث يسكن أهله أى أزواجه رضوان الله عليهن ، وهذا التفسير لا ينافى أن الصلاة فريضة على جميع المؤمنين والمؤمنات بنصوص أخرى .

الفصل الثالث أم المؤمنين عائشة

قصة الإفك :

بمناسبة حديث الإفك يتعرض العلامة عباس العقاد إلى عظم خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه " عبقرية محمد " فيقول رحمه الله :
" والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه في حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين " .

" إلا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسه من خطر وهو المساس بالوفاء ، في هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى ، فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيّب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة عائشة بنت الصديق وهي أحظى نساءه لديه ، ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضی الله عنها :

" ... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأیها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه ، وأقرع بيننا في غزوة (وهي غزوة بنى المصطلق) فخرج فيها سهمي ، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة ، فقامت حين آذنا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأني ، وأقبلت إلى الرجل فلمست صدرى فإذا عقدي قد أنقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسني أبتغاؤه ... وأقبل إلى الرهط الذين كانوا^١ يرحلون لي ، فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه . وكان النساء آن ذاك خفافاً لم يهبلن^٢ ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلق^٣ من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج

^١ - أى يحملون الرجل على البعير .

^٢ - يتقلهن اللحم والشحم .

^٣ - بضم ففتح ، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء .

حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن .

" ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي .

" فبينما أنا جالسه في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان¹ بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش فأدلىج² فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفني حين رآني واسترجع ، فاستيقظت وخمرت وجهي بجلبابي ، ووالله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا في نحر الظهره³ .

" فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره⁴ عبد الله بن أبي ابن سلول .

" واشتكت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك .

" ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطيف الذي كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله فيسلم فيقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقتها ، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع⁵ .

" ثم عدنا فعثرت أم مسطح في مرطها⁶ فقالت تعس مسطح .

" قلت : بئس ما قلت ، أتسبين رجلاً شهد بديراً ؟

" قالت : أي هنتاه⁷ ، أو لم تسمعي ما قال ؟

¹ - وقد جاء فيما رواه بسنده الإمام الطبري أن السيدة عائشة كانت تقول : لقد سنل عن صفوان فوجدوه رجلاً حصوراً ما يأتي النساء وقتل شهيداً رضي الله عنه .

² - مساء آخر الليل .

³ - أي في شدة الحر .

⁴ - الكبر بالضم والكسر ، الإثم .

⁵ - أماكن في الخلاء يقضى فيها الناس حاجتهم إذ كان العرب يكرهون اتخاذ الكنف في بيوتهم ويستقذرونها بخلاف العجم فإنهم كانوا يتخذونها في بيوتهم .

⁶ - أي الكساء .

⁷ - تنعى عليها طبيبتها وعدم معرفتها بما كان منه في حقها .

" قلت : وماذا قال ؟

" فأخبرني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضى ، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ واستأذنت أن آتي أبوي أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي .

" قالت أمي : يا بنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها .

" قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ إلى دمع ولا أكتحل بنوم .

" ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما في فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعم إلا خيراً .

" وأما علي بن أبي طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك .

" فدعا رسول الله " بغريرة " يسألها : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ، قالت : والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قد أغمضه^١ عليها أكثر من أنها جاره حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الدواجن^٢ فتأكله .

وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء فائق كبدى .

" فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فأنتى قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه .

^١ - أى اعيبه .

^٢ - الحيوان الذى يألف البيت ، كالغنم والدجاج .

" فلما قضى رسول الله مقالته قلص^١ دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ، فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

" فقلت لأمى : أجيبى عنى ، فقالت كذلك ، والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن : إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلت لكم : إنى بريئة ، والله يعلم أنى بريئة ، لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقونى وإنى لا أجد لى ولك مثلاً إلا كما قال أبو يوسف^٢ :

(فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

" ثم تحولت فاطمجت على فراشى ، فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان^٣ فى اليوم الشاتى .

" فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشه ، أما الله فقد برأك .

" قالت لى أمى : قومى إليه .

" قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى .

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ، فأقسم لا ينفق عليه شيئاً أبداً ، فأنزل الله عز وجل : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .

^١ - قلص وتقلص ارتفع وانزوى وجف .

^٢ - قالت رضى الله عنها فيما رواه الطبرى : التمسست اسم يعقوب فما أذكره وهو مايدل على مدى تأثيرها بما شاع كذباً عنها ، شأن كل حرة كريمة عفيفة .

^٣ - أى الدر .

فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ورجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها

المنافقون والإفك :

والذى أشاع الفاحشه ونشرها حقداً وحسداً على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رأس المنافقين عبدالله بن أبى بن سلول لعنه الله فى الدنيا والآخرة ، وهو الذى رأى صفوان¹ أخذاً بزمام الناقة التى ركبتها أم المؤمنين فقال إفاً وبهتاناً : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وروى الإمام الطبرى بسنده عن إسحق عن بعض رجال من بنى النجار : أن أباً أيوب الأنصارى رضى الله عنه قالت له امرأته : يا أباً أيوب أما تسمع ما يقول الناس عن عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب ، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله ، قال فعائشة والله خير منك .

فانظر الفرق الشاسع بين مسلك المنافق عبدالله بن أبى سلول رأس المنافقين الذى تولى إشاعة الفاحشه عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مسلك الصحابى الأنصارى الخزرجى أبى أيوب رضى الله عنه وعن سائر الصحابة المكرمين .

القرآن الكريم و البراءة :

وما أروع كلامها رضى الله عنها فى التحدث بنعمة الله التى جاءت بها من السماء فى براءتها حين قالت فيما رواه الطبرى فى تاريخه :

" وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله عز وجل فى قرآناً يقرأ به فى المساجد ويصلى به ، كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذب الله به عنى لما يعلم من براءتى أو يخبر خبراً ، فأما قرآن ينزل فىّ ، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك " .

¹ - كان صفوان رضى الله عنه من خيار الصحابة الكرام ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته .

سورة النور والبراءة :

وما أبدع ما قاله الله تعالى فى سورة النور فى تبرئتها مما لاكته الألسن زوراً وبهتاناً فى قصة الإفك (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين) .

وقد تؤثر الإشاعة الكاذبة فى بعض المؤمنين لأنه تعالى يقول : (وفيكم سماعون لهم) وإذا شك أحد المؤمنين فى مسلك الزوجة الأثيرة ، فإنه يؤذى نفسه ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث لا يشعر ، لأن عرضه الشريف مرتبط بعرض نساءه الطاهرات ، ولذلك أنب الله المؤمنين الذين تأثروا بالإشاعة وأسهموا فيها ، فقال تعالى فى سورة النور : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون

أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم * يأيتها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم * ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفووا وليصنفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم * إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين * الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

براءة صفوان وكرامة أم المؤمنين :

وفي قوله تعالى : (أولئك مبرأون مما يقولون) شمول لبراءة أم المؤمنين و صفوان . ويقول الإمام القرطبي في تفسيره : قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام ، لما رمى بالفاحشة برأه الله على لسان صبي في المهد ، وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى على لسان ابنها عيسى عليه السلام ، وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن ، فما رضى لها ببراءة صبي ولا نبى حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وهذا الذى يقول به أهل التحقيق يدلنا على المكانة السامية التى لأم المؤمنين عند الله تعالى ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

إقامة الحد :

وقد روى أبو داود عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل عذرى قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم ، وسماهم : حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثه وحمته بنت جحش ، وفى كتاب الطحاوى : ثمانين ثمانين . والحد الذى أقيم على هؤلاء المسلمين يظهر كذب القاذف وبراءة المقذوفة كما قال تعالى : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) . وكذلك يكفر الحد عن المحدودين ما صدر عنهم من القذف رجماً بالغيب حتى لا يبقى عليهم تبعة منه يوم القيامة لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى الحدود : " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " .

جزاء السب :

وقد روى الإمام القرطبي عن هشام بن عمار قال : سمعت مالكا يقول : من سب أبا بكر وعمر أدب ، ومن سب عائشة قتل لأن الله تعالى يقول : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين) فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ، ويؤيد الإمام القرطبي رأى الإمام مالك فيقول : إن أهل الإفك رموا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى ، فكل من سبها بما برأها الله منه مكذب لله ، ومن كذب الله فهو كافر .

تعقيب العلامة العقاد :

ويقول العلامة العقاد فى تعقيقه على القصة :

" تلك هى القصة التى عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهى مسبار¹ صادق يسبر لنا أغوار المروعة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين ، فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضا التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة ، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النقمه وتثير فى النفس

¹ - مقياس .

البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة . فلم يكن في هذه الحالة إلا كراماً خالصاً بما يسلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالمي الحضارة الحديثه مرتقى يتطلع إليه في جميع هذه الغايات .

" سمع النبي حديثاً يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين ...

" سمع النبي ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينه ' ولم يرفضه بغير بينه ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها إلى حين ، فعادها وبه من الرفق والإنصاف ما يأبى عليه أن يفتاحها في مرضها بما يخامر نفسه الكريمة " .

طهارة جميع الأزواج :

والآيات الكريمة التي نزلت في قصة الإفك الخاص بالسيدة عائشة تمتد إلى سائر أزواجه الطاهرات لأن الله تعالى يقول : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) .

وقد قال ابن عباس والضحاك وغيرهما هي فالسيدة عائشة وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

أقول : وهذه بركة من بركات أمنا السيدة عائشة على زميلاتنا أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن . وفي ذلك أيضاً من التكريم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، وإذا كان الله تعالى قد أنزل سيداتنا أمهات المؤمنين منازل الكرامة والحرمة ، فلا يليق بمؤمن أن يطلق لسانه فيهنّ بالنقد جهلاً بحرمتهن تحت ستار بحث علمي أو تاريخي أو تشيع للإمام على حتى لا يتعرض للعنة الله في الدنيا ، ثم للعذاب العظيم في الآخرة . وسترى بعد قليل أن الإمام قد حفظ للسيدة أم المؤمنين عائشة حرمتها وصان لها كرامتها وردّها إلى المدينة معززة مكرمة ، كما سترها داعية له بالجنة حين كشف النساء المصاحبات لها عن وجوههن .

والأولياء ليسوا معصومين عصمة الأنبياء ، ولكنهم محفوظون بحفظ الله للأتقياء ، ومن هنا كانت نفوسهم لوامة ورجاعة إلى الحق ، فلا تأخذهم العزة بالخطأ ، وإن وقع منهم عن تأويل واجتهاد في الرأي ، ولا تكمن في قلوبهم ضغينة عن سبب

قام ومضى لحاله ، ولهذا لامت أم المؤمنين نفسها فى موقفها من معركة الجمل وودت أن لو كانت ماتت قبلها بعشرين عاماً ، كما لامت ابن عمر رضى الله عنهما على أنه لم يمنعها من الخروج للعراق ، وإذا كانت قد رجعت على نفسها باللوم والندم فقد حكمت على موقفها وأعفت غيرها من الحكم لها أو عليها ، وكان أمر الله مقدوراً .

ولا تنس أنه تعالى كان كشف الغيب لنبيه صلى الله عليه وسلم حين قال لنسائه : أيتكن صاحبة الجمل الأحذب تنبجها كلاب الحوآب ، ثم نظر إلى السيدة عائشة وقال : أخشى أن تكونيها يا حميراء ، وقد همت بالرجوع من الطريق حين نبجتها كلاب الحوآب وتذكرت هذا الحديث الشريف إلا أنهم خدعوها بشهادة زور بأنهم خلفوا الحوآب وراءهم وكانت تلك أول شهادة زور فى الإسلام .

السيدة عائشة ومعركة الجمل :

كان خروج السيدة عائشة رضى الله عنها إلى العراق للإصلاح بين الطائفتين باعتبارها أم المؤمنين جميعاً ، ولأنه تعالى يقول حاضاً على الإصلاح بين المتخاصمين : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) . ولكن شاء الله أن يقع القتال المرير فى معركة الجمل بين الفريقين على غير ما أرادوا جميعاً ، وغلب المقدور على تقديرهم ، فندمت أم المؤمنين على خروجها إلى البصرة أشد الندم وقالت فى ندمها : " ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً " . ولأن بعض الكتاب ربطوا بين قصة الأفك وبين موقف أم المؤمنين من الإمام على ، نقول :

" ذكر الثعلبي وغيره أنها رضى الله عنها كانت إذا قرأت قوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) تبكى حتى تبل خمارها . ولا تعجب أن يكون منها ذلك وهى الصديقة بنت الصديق التى نزلت براءتها فى كتاب الله الكريم وصارت متلوة فى المحاريب على السنة الصفوة الأبرار من عباد الله المتقين .

حملة الجمل والمشاركة في الحكم :

ويرى العلامة العقاد في كتابه " الصديقه بنت الصديق " أن حملة الجمل إنما كان المقصود منها مشاركة الإمام في الحكم ، فيقول :

" ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ، ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعائها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف ، وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على الإمام على ليصلحوه لمعاويه ، فليس فيهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته .

" ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة الإمام إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هي بالمركب الذلول .

إنما هي حملة تهويل إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه التي أشاروا إليها من قبل مفارقتهم المدينة ، فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ويصبح الأمر شركة أو " شوري بينهم وبين الخليفة على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم وبينه .

" وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

" ... فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعلياً لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ، ولم تكن هي غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها .

" فطلحة من بني عمومتها ومن بني تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها .

" والزبير زوج أختها أسماء ، وابنة عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأب عبد الله .

" وعلى أقرب الناس إلى بيت النبي وزوج ابنته وأبو حفصه (سبيطه) وصاحب الرأي الذي لا ينسى في حديث الإفك وهو نصيحته للنبي بتطليقها .

" ... ثم ها هي ذي مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة

الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبي بكر وعمر وعثمان ومن هؤلاء الصحابة على وطلحة والزبير ، وكلهم قد ندبوا للاجتماع فى بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة وقال لهم عمر يومئذ :

" إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإنى لا أخاف عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فشاوروا واختاروا رجلاً منكم . " وكان جائزاً أن يقع الاختيار فى بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى .

" ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كره أخرى على النحو الذى شهدت عائشة قديماً فى بيتها ، فمع من يكون شعورها . " إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بنى هاشم حتى أصبح فى رأى بعضهم كالعرف الذى يجرى عليه التقليد ... " فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها ، فليس ذلك بغريب ولا بمخالف للمعهود فى طبائع الناس .

نصيحة ابن عمر :

وقد نصح ابن عمر لنفسه ولطلحة والزبير فى الوقت المناسب أكثر من مرة ، وكانت نصيحته خالصة لله وواضحة بينة ، ولكن غلب قضاء الله وكان ما كان ، وقد جاء فى كتاب " الإمامة والسياسة " لابن قتيبة ما يلى :

لما اجتمعت كلمة القوم على المسير إلى العراق قال طلحة للزبير : إنه ليس شىء أنفع ولا أبلغ من استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا : " يا أبا عبد الرحمن ، إن أمنا عائشة قد خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين

الناس ، فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها ، فقال ابن عمر : أيها الشيخان ، أتريدان أن تخرجاني من بيتي ثم تلقينى بين مخالبي ابن أبي طالب .
" إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وإنى قد تركت هذا الأمر عياناً فى عافية أنالها ، فانصرفا عنه .

ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير فقال لهما : عاودا ابن عمر فلعله ينيب فعاوداه ، فتكلم طلحة فقال :

" يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لربّ حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر العذر قضينا بالحق ، وأخذنا بالحظ ، إن علياً يرى إنقاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وإننا نرى أن نردها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهى الهلكة " .

فقال ابن عمر ، وما أبدع ما قال رضى الله عنه :

" إن يكن قولكما حقاً ففضلاً ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر نجوت منه ، واعلما أنّ بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل علياً إلا من كان خيراً منه " .

" وأما الشورى فقد والله كانت فقدّم وأخبرت ما ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيناى أنفسكما " .

فهل ترى نصيحة أصدق من نصيحة ذلك النقى الورع الذى حج فى حياته المباركة ستين حجة واعتمر ألف عمرة ، ولكن ماذا تجدى النصيحة إذا حمّ القضاء وشاء الله ما كان .
وجهة نظرى :

أقول : ومن عجيب أن بعض المؤرخين تأثروا بما يقول غلاة الشيعة ، أو بما يكون فى طباع البشر ، عادة وربطوا بين موقف إمامنا على بن أبى طالب من حديث الإفك وبين موقف سيدتنا عائشة فى معركة الجمل حين خرجت رضى الله عنها مع

طلحة والزبير ، تريد أن تصلح بين الفريقين ، كما طلبوا إليها ، وقال هؤلاء بغير حق إن الإمام حين استشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والنساء سواها كثير - بقيت مرارة قوله هذا في نفسها فانضمت إلى معسكر خصومه في معركة الجمل ، وهذا القول يجافى الحقائق الثابتة التي تناقض قولهم ، وهذه الحقائق هي :

أن الإمام رضى الله عنه نادى الزبير وكلمه قبل أن تبدأ معركة الجمل وذكره بما كان قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى بياضة حين رآه يسلم على الإمام ويعانقه فقال له صلى الله عليه وسلم : " أتعبه ؟ قال الزبير كيف لا أحبه وهو أختى وابن خالى ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنك ستقاتله وأنت ظالم له . "

فلما ذكره الإمام بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الزبير رضى الله عنه للإمام كرم الله وجهه : لقد أذكرتني ما أنسانيه الدهر ، أما إنى لو ذكرتها ما خرجت .

وعندما خرج الزبير من المعركة قال له ابنه عبد الله : يا أبتِ تعيرنا نساء قريش ، قال أبوه : يا بنى لقد أذكرنى ما أنسانيه الدهر ، يا بنى العار ولا النار ، ثم قال الزبير شعراً :

اخترت عاراً على نار مؤججة ما أن يقوم لها خلق من الطين

نادى علىّ بأمر لست أجهله عار لعمرك فى الدنيا وفالدين

فقلت حسبك من عدلٍ أبا حسن فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى

ولا غرابة أن يرجع الزبير إلى الحق ، فإنه قال للسيدة عائشة يوماً : ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا ، قالت : ماتريد أن تصنع ، قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وكذلك أقنع الإمام طلحة رضى الله عنه وكان فيما قاله له : إنك أول من بايعنى ثم نكث ، فخرج طلحة من المعركة ، فرماه مروان فقتله مع أنه حليفه ، وذلك بحجة أنه كان يؤلب الناس على عثمان ، وقال مروان حين رمى طلحة خرج الزبير ويخرج طلحة ، وقد قال طلحة - قبل أن يلفظ روحه - لرجل بجواره ،

من أى الفريقين أنت ؟ فقال الرجل من فريق أمير المؤمنين على ، فقال طلحة : أبلغه أنى مبايعه ، فلما بلغ قوله أمير المؤمنين قال : أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتى فى عنقه ، ثم نفض التراب على وجه طلحة وقال له : أعز على بأن أراك مجند لا تحت السماء أباً محمد .

ومع أن الإمام انتصر فى المعركة ، إلا أنه كان شديد التألم لما وقع ، حتى إنه كان يقول : وددت لو أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً ، كما كان يقول : لو عرفت أن الأمر يبلغ بنا ما بلغ ما دخلت فيه . كما أن الإمام حين رأى محمد ابن طلحة بين القتلى تألم لقتله وقال : رحمك الله يا محمد لقد كنت فى العبادة مجتهداً آناء الليل قوَّاماً وفى الحرور صوَّاماً ، ثم نظر إلى من حوله فقال : هذا رجل قتله بر أبيه^١ .

وشاء الله - برغم خروج طلحة والزيبر من المعركة - أن يلتحم الجيشان التحاماً شديداً على غير ما أراه الإمام وطلحة والزيبر وأم المؤمنين ، فقد كاد الصلح أن يتم بين الزعماء لولا أن الدهماء من الجانبين تراموا فقام القتال فجمحت الفتنة واستعصت على الرؤساء فاشتد القتال وقتل من الفريقين قرابة عشرين ألفاً ، وانتهت معركة الجمل لصالح أمير المؤمنين ، ولما عقر الجمل الذى كانت تركبه سيدتنا عائشة قالت أم المؤمنين عائشة لأمير المؤمنين : يا ابن أبى طالب : ملكت فأسجح^٢ فقال : غفر الله لك ، فقالت : وغفر لك .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى لسورة الحجرات : إن الأمر بين الطرفين كان قد انتظم وتم الصلح والتفرق على الرضا ، فخاف قتلة عثمان رضى الله عنه من التمكن منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة^٣ فى العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ويصيح الفريق الذى فى عسكر على : غدر طلحة والزيبر ، والفريق الذى فى عسكر طلحة والزيبر : غدر على ، فتم لهم ذلك على ما دبروه ونشبت الحرب ثم أرسل الإمام سيدتنا عائشة رضى الله عنها معززةً مكرمةً إلى المدينة ،

^١ - كتاب الإمامة والسياسة .

^٢ - أعف .

^٣ - وقت السحر .

وكان ذلك الإعزاز مثار سخط من الخوارج على أمير المؤمنين ، حتى إنه حين سار ابن عباس رضى الله عنه لجدالهم فى خروجهم على الإمام ، أثاروا فيما أثاروا من اعتراضات على الإمام إفراجه عن أم المؤمنين عائشة بعد أن وقعت أسيرة فى يد جيشه ، فقال لهم ابن عباس وهو يحاجهم : تؤمنون بالقرآن ؟ قالوا : نعم ، قال : إن القرآن فرض أمومة أزواج النبی صلى الله عليه وسلم ، ومنهن السيدة عائشة ، فهل كان يجوز للإمام أن يأسر أمه ؟

واقنع الأكثرون من الخوارج بما قاله ابن عباس فى هذه المسألة وغيرها وكانوا عشرين ألفاً وانصرفوا ، أما القلائل الذين لم يرشدوا وكانوا أربعة آلاف فقد حاربهم الإمام وتغلب عليهم فى معركة النهروان وقتل أكثرهم كما هو معروف .

والدليل القاطع على أن أم المؤمنين أرادت بخروجها الإصلاح بين الناس ، ورد صريحاً فى جوابها على رسالة بعثت بها إليها أم المؤمنين سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها ، وقد وصلتها تلك الرسالة فى الطريق وهى سائرة إلى البصرة ونصها :

يا عائشة ، إنك سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته ، حجابك مضروب على حرمة ، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه ، وسكن عقيرك فلا تصحريهما^١ ، الله من وراء هذه الأمة ، قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك .

" ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك بأطراف الفلوات ناصية قلوصلك^٢ ، قعوداً من منهل إلى منهل ؟

" إن بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تعرضين .

" ولو أمرت بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكةً حجاباً جعله الله على " .
فكتبت إليها السيدة عائشة رضى الله عنها تقول :

" ما أقبلى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك ، وليس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلاع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين^٣ . ولا شك ان أم المؤمنين فى

^١ - أى إن الله ألزمك أت تبقى فى البيت .

^٢ - سائرة بناقتك .

^٣ - العقد الفريد والإمامة والسياسة .

تقواها لا تقول إلا حقاً فيما أجابت به .

ثم إنها همت بالرجوع من الطريق لولا شهادة زور شهد بها بعض الأعراب ، فقد روى الطبرى وابن قتيبة أن السيدة عائشة سمعت فى طريقها إلى البصرة نباح كلابٍ فقالت : أى ماءٍ هذا ؟ فقالوا : الحوآب .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إني لهيه^١ وما أرانى إلا راجعة .
قالوا : ولم ؟

قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى بإحدان قد نبحتها كلاب الحوآب ، وإياك أن تكونى أنتِ يا حميراء^٢ .

فأتوا لها ببعض أعراب شهدوا زوراً أن المكان ليس هو الحوآب وكانت بكل أسف هذه أول شهادة زور وقعت فى الإسلام ، فسارت رضى الله عنها معهم مكذوبة مخدوعة .
فما كانت أم المؤمنين تتوقع أن يغلب قضاء الله ويقع القتال المرير بين بنيتها المؤمنين من الفريقين ، ولقد قال الزبير حين رأى الغوغاء تحرش بين الناس وتفتح بينهم طرقاً إلى الالتحام : " ما كنت^٣ أرى أن مثل ما جئنا له يكون فيه القتال " .

ولم يربط الإمام على كرم الله وجهه موقف أم المؤمنين منه فى معركة الجمل بموقفه منها فى حديث الإفك ، وهو فى ذلك الوقت كان أقدر من غيره على تحليل الموقف من أهل زمانه ، وممن جاءوا بعدهم من باب أولى ، وإليك كتابه إليها وجوابها عليه ، منقولاً من كتاب السياسة والإمامة لابن قتيبة :

كتب أمير المؤمنين لسيدتنا عائشة يقول قبل أن يقع القتال :

" أما بعد فإنك خرجت عاصية لله ولرسوله ، تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، ما بال النساء والحرب ، والإصلاح بين الناس .

" تطالبين بدم عثمان ، ولعمري لمن عرّضك للبلاء ، وحملك على المعصية

^١ - إني المقصودة لما قاله النبى صلى الله عليه وسلم عن نبح كلاب الحوآب .

^٢ - لقبه صلى الله عليه وسلم لسيدتنا عائشة رضى الله عنها .

^٣ - كتاب البيان والتبيين .

أعظم إليك ذنباً من قتل عثمان ، وما غضبت حتى أغضبت ، وما هجت حتى هيجت ، فاتق الله وارجعى إلى بيتك .

فأجابته فى إيجاز قائلة رضى الله عنها : جل الأمر عن العتاب .

وأرسل إليها أمير المؤمنين بعد ذلك ابن عمه عبدالله بن عباس يقول لها :

... إن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك فوقع الناس لاتفاقتك معهم فى البلاء والنعاء ، وخير لك أن تعودى إلى بيتك ، ولا تحومى حول الخصام والقتال ، وإن لم تعودى ولم تطفىء هذه الثائرة ، فإنها سوف تعقب القتال ويقتل فيها كثير ، فاتق الله يا عائشة ، وتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو ، وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر يعقبه النار .

فلما بلغها ابن عباس رسالة الإمام قالت رضى الله عنها : إنى لا أرد على ابن أبى طالب لأنى لا أبلغه فى الحجاج .

فانظر ، كيف أرجع أمير المؤمنين موقفها فى الرسالة الأخيرة إلى حب ابن أختها عبد الله بن الزبير والتحيز إلى ابن عمها طلحة بن عبيد الله ، وانظر كيف كان تصويرها للإمام فى قوة حجته وكأنما صدقته فيما قال ولم تدفع حجته بحجة معارضة ، وكيف تجدد فضله وقد قالت فى حقه : إن كان ما علمت صواماً قواماً ، وذلك حين سألت : أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : فاطمة ، فقيل لها : ومن الرجال ؟ قالت : زوجها إن كان ما علمت صواماً قواماً .

كما أنها وهى خارجة من البصرة قالت : أيها الناس لم يكن بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها (أهل الزوج) فلم تكن الخصومة إذن عندها بسبب رأى الإمام فى قصة الإفك ، وإنما هى كراهة فطرية معتادة تكون بين المرأة وأهل زوجها ، والإمام كرم الله وجهه أثبت قيام تلك الكراهة ، ولم ينكرها أو يرددها لموقفه منها فى حديث الإفك ، فقد قال فى إحدى خطبه كما رواها ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة " أما فلانة فقد أدركها ضعف النساء ووضغن غلا فى صدرها كمرجل القين ن ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلى لم

تفعل ، ولها بعد حرمتها الأولى والحساب على الله ، والله يعفو عن يثاء ويعذب من يثاء " ، ولا يفوتك أن تذكر للإمام أدبه العالى فى قوله : ولها بعد حرمتها الأولى ، وفى قوله " فلانة " دون تصريح باسمها صيانة لحرمتها ، ولا عجب فإنه يتمسك دائماً بالحق مع أنصاره وخصومه على السواء ، كرم الله وجهه .

أم المؤمنين وابن الزبير :

وليس بالأمر الغريب أن تحب الخالة ابن أختها وبخاصة أن أم المؤمنين لم ترزق بأولاد من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تكنى بأم عبد الله ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال لها : تكنى بابنك عبد الله ، فكان يقال لها : يا أم عبد الله ، ولقد جاء فى شرح " نهج البلاغة " : ما سمعت أم المؤمنين تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها لعبد الله بن الزبير وقد أعطت للذى بشرها بسلامته من القتل عشرة آلاف درهم ، ثم سجدت شكراً لله تعالى ، ولما اعتلت دخل عليها بنو أختها ومنهم عبد الله فبكى ، فرفعت رأسها تنظر إلى وجهه فانتبهت لبكائه ، فبكت ثم قالت : ما أحقنى منك يا بنى ما ارى ، فما أعلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبوى أحداً أنزل عندى منزلتك ، وأوصت له بحجرتها .

ولم يقف تأثير عبد الله عند خالته أم المؤمنين ، بل تعداه إلى أبيه الزبير رضى الله عنه ، حتى لقد كان أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقول : مازال الزبير رجلاً من أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله .

تقوى الإمام :

على أننا نسترعى النظر إلى أن أمير المؤمنين علياً لم يكن فى القتال متشفياً فى خصومه ، بل كان أميراً تقياً رحيماً ، ينظر للمسلمين نظرة الأب إلى أبنائه بالسوية ، فقد نقل ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة عن الواقدى قوله :

" إنهم كانوا حول الجمل يحامون عنه ولقد كانت الرعوس تندر عن الكواهل ' ،

¹ - تقطع الرعوس عن الأجسام .

والأيدي تطيح من المعاصم ، وأقتاب البطون تندلق من الأجواف ، وهم حول الجمل كالجبال
الثابتة لا تتحلل ولا تتزلزل ، حتى لقد صرخ على بأعلى صوته : ويلكم اعقروا الجمل فإنه
شيطان ، اعقروه وإلا فنيت العرب ، لا يزال السيف قائماً راعياً حتى يهوى هذا البعير إلى
الأرض .

وروى الطبرى : ونادى على أن اعقروا الجمل ، فإنه عقر تفرقوا ، فضربه رجل فسقط ،
فما سمع صوت أشد من عجيح الجمل .

ولما احتملت السيدة عائشة رضى الله عنها بهودجها أمر الإمام بالجمل أن يحرق ثم يذر
فى الريح ، وقال : لعنة الله من دابة ، فما أشبهه بعجل بنى إسرائيل ، ثم قرأ كرم الله وجهه :
(وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً) .

وتفرق الناس بعد موت الجمل ، فنادى أمير المؤمنين :

" ألا يجهز على جريح " ، " وألا يتبع مولاً " ، " وألا يطعن مدبر " ، " ولا يستحلن فرج
ولا مال " .

ولما استشار سيدنا عمار بن ياسر رضى الله عنه أمير المؤمنين كرم الله وجهه فى
الأسرى الذين وقعوا فى أيديهم وقال له : أقتل هؤلاء الأسرى يا أمير المؤمنين ؟
قال الإمام : لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع ونزع^١ ، فبايع الأسرى وأخلى سبيلهم .
ولما قال له أنصاره : مالنا فى هؤلاء الناس ، أجابهم :

لكم ما فى عسكرهم وعلى نسائهم العدة^٢ (أى نساء القتلى) ، وما كان لهم من مال فى
أهليهم فهو ميراث على فرائض الله .

فقال له أنصاره : يا أمير المؤمنين كيف تحل لنا أموالهم ولا تحل لنا نساؤهم ولا أبنائهم
؟ فقال : لا يحل ذلك لكم ، فلما أكثروا عليه قال : اقترعوا هاتوا

^١ - التزم بطاعة الوالى .

^٢ - أى تعتد باربعة أشهر وعشراً وهى عدة من توفى عنها زوجها من المسلمين .

بسهامكم ، أيكم يأخذ أمكم عائشة في سهمه .

فقالوا : نستغفر الله ، فقال : وأنا أستغفر الله^١ .

وقد روى ابن قتيبة في كتاب " الإمامة والسياسة " أن محمد بن أبي بكر دخل على أخته عائشة (أى بعد المعركة) فقال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : على مع الحق ، والحق مع على ثم خرجت تقائلينه على دم عثمان ؟ قال : ثم دخل عليها الإمام على فسلم وقال : يا صاحبة الهودج ، قد أمرك الله أن تقرى فى بيتك ثم خرجت تقائلين ؟ أترتلين ؟ قالت : أرتحل ، فبعث معها أمير المؤمنين كرم الله وجهه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن العمائم ويتقلدن السيوف وأن يكن من الذين يلينها ولا تطلع على أنهن نساء ، فجعلت عائشة تقول فى الطريق (ظناً منها أنهن رجال) : فعل الله فى ابن أبى طالب وفعل ، بعث معى الرجال ، فلما وصل الركب المدينة وضمن العمائم والسيوف ودخلن عليها فقالت : جزى الله ابن أبى طالب الجنة ، فانظر كيف دعت للإمام بالجنة حين علمت حقيقتهن ، وهو صفاء ليس بمستغرب منها وهى إحدى نساء النبى صلى الله عليه وسلم اللاتى تأسين بخلقه وتأدبن بأدبه وتميزن بذلك الأدب العالى عن سائر نساء المؤمنين . وهل ترى أروع من شهادة إحدى ضرائرها وهى السيدة زينب بنت جحش حين سألتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الإفك فقالت بعد أن استعاذت بالله : " أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً " ، كما أن أم المؤمنين عائشة شهدت بالفضل لضررتها السيدة سودة حين تركت ليلتها لها وهى راضية ، فقالت السيدة عائشة تشكرها : " ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون فى مسلاخها^٢ من سودة " . أقول : فماذا تعلل المكارم إلا أن تكون من فضل الله عليهن ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أمير المؤمنين قبل أن يشير عليها بالرحيل أرسل إليها ابن عمه عبد الله

^١ - كتاب الإمامة والسياسة .

^٢ - أى أكون مثلها .

ابن عباس رضى الله عنهما وكانت فى بيت من بيوت البصرة أنزلها أمير المؤمنين فيه ، وقال له الإمام فيما رواه - صاحب العقد الفريد : ائت هذه المرأة فلترجع إلى بيتها الذى أمرها الله أن تقر فيه .

بين أم المؤمنين وابن عباس :

قال ابن عباس ، فجئت فاستأذنت عليها فلم تأذن لى ، فدخلت بلا إذن ، ومددت يدي إلى وسادة فى البيت فجلست عليها ، فقالت أخطأت السنة مرتين : دخلت بيتي بغير إذن ، وجلست على متاعى بغير أمرى .

فقال : نحن علمناك السنة (يقصد أنه من بنى هاشم الذين شرفهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وعنه أخذت هى السنة ، وسيوضح مقصده هذا من بقية حديثه) والله ما هو بيتك إلا الذى أمرك أن تقرى فيه فلم تفعل ، إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى إلى بلدك الذى خرجت منه .

قالت : رحم الله أمير المؤمنين ، ذاك عمر بن الخطاب .

قال : نعم وهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

قالت : أبيت أبيت .

قال : ما كان إباؤك إلا فواق ناقة بكية ثم^١ صرت ما تحلين وله تمرين^٢ ، ولا تأمرين ولا تنهين ، قال ابن عباس : فبكت حتى علا نسيجها ، ثم قالت : نعم أرجع ، فإن أبغض البلدان إلى بلد أنتم فيه .

قال ابن عباس : أما والله ما كان ذلك جزاءنا منك ، إذ جعلناك للمؤمنين أمماً ، وجعلنا أباك لهم صديقاً (يقصد بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وعلى أبيها كما أشرت آنفاً) .

قالت : أتمن على رسول الله يا ابن عباس ؟

قال : نعم : نعم عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننت به علينا .

^١ - بكية أى قليلة اللبن ، والفواق ما بين الحلبتين .
^٢ - يقال أمررت الحبل والحيط أى فتلته فتلاً شديداً .

قال ابن عباس : فأتيت علياً فأخبرته ، فقبل بين عيني وقال : بأبي أنت : ذرية بعضها من بعض .

أم المؤمنين في الغضب والرضا :

فانظر كيف كانت في ساعة الغضب ، وكيف كانت رضى الله عنها في ساعة الرضا ، فقد قالت في الرضا عندما وصلا المدينة كما مرّ عليك : جزى الله ابن أبي طالب الجنة .
فهى رضى الله عنها وإن تأثرت بسخط النفس البشرية إلا أن طهارة نفسها التقيه كانت تردّها إلى الحق وتنأى بها عن مزلق الحقد ، وكيف لا يكون منها ذلك المسلك وغضب المؤمن كالبرق الخاطف كما جاء في الحديث الشريف ، فكيف الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما ، وهى سفيرته الأولى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى المؤمنات فى عصره والعصور التالية له ، فكانت رضى الله عنها تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه فى أمور الدين وآداب الزوجية ، وكان أحياناً يعرض عن الجواب حياء ويعهد إليها بتفسير ما يقول ، لا بل إنها كانت كذلك مرجعاً للرجال فى السنن النبوية والأحكام الشرعية وفى الشئون العامة والخاصة ، وكان المؤمنون يفرعون إليها شاكين مما يسوؤهم من تصرفات الولاة فى خلافة أمير المؤمنين عثمان ، حتى قال رضى الله عنه فى تبرمه من مسلك أهل العراق : " أما يجد مزاق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ " وذلك حين كانوا يطلبون عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة ، وكان الوليد أماً من الأم لأمير المؤمنين عثمان ، وكذلك شكوا أهل مصر لأم المؤمنين واليهام عبد الله بن أبى سرح ، وطلبوا أن يولى عليهم محمد بن أبى بكر ، واستجاب الخليفة لهم ، وحين دخل بنو أمية مصر قتلوا محمداً هذا ومثلوا به أبشع تمثيل ، فقد قتلوه وهو ظمآن ووضعوه فى جوف حمار ميت ثم شووه بعد أن جروه من رجليه فى أسواق مصر ، وأشهدوا السفلة والصبيان على مثلته ، ثم أرسلوا قميصه وهو بدمه إلى المدينة ، وشوت أخت معاوية بن خديج خروفاً وأهدته إلى أم المؤمنين فى العيد وأوصت رسولها أن يقول لها : هكذا كان شئ أخيك ، قالوا فما أكلت السيدة عائشة بعدها

شويأ قط ، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

وفي مناسبة واقعة التمثيل هذه يتعرض العلامة العقاد في كتابه " الصديقة بنت الصديق " إلى الأباطيل التي نسبت للسيدة عائشة فيقول :

" وخلق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها ، وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان وهما : مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب عليّ ، يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المشلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة عليّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة علي من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة في هجمة قاتليه ، فضلاً عن مصلحة القاتلين أنفسهم في التعلل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير " .

ويقول العلامة العقاد رحمه الله في موقف أم المؤمنين في السياسة العامة في خلافة أمير المؤمنين عثمان وبعده ما يلي :

" بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار .

" أما مشاركتها الثانية - أي في معركة الجمل - فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة عليّ من مبدئها بالسخط و المقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم في خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ، ويستوى في جيرتها العسكران فتركوا لها مندوحة للمراجعة ، يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعي بينهم بالتوفيق .

" وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما جنتما بنسائكما ؟

مزيا أم المؤمنين :

روى الإمام القرطبي بسنده عن أم المؤمنين قولها رضى الله عنها وهى تتحدث بنعمة الله عليها : قد أعطيت تسعاً ما أعطيتهنّ امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكرةً وما تزوج بكرةً غيرى ، ولقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّ راسه لفى حجرى ، ولقد قبر فى بيتى ، ولقد حقّت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحي لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يبيننى عن جسده ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً ، تعنى بذلك قوله تعالى : " لهم مغفرة ورزق كريم " والجنة .

وفى رواية أخرى قالت : فضلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعشر : لم ينكح بكرة قط غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى أناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه غيرى ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى ، وفى الليلة التى كان الدور علىّ فيها ، ودفن فى بيتى .

بلاء الإمام :

والحق الذى لا مرية فيه أنّ بلاء الإمام فى هذه الفتنة كان بلاءً مرأً ، وقد صدق كرم الله وجهه حين قال فى إحدى خطبه :
" ... وإنى بليت بأربعة ، أدهى الناس وأسخاهم - طلحة ، وأشجع الناس - الزبير ، وأطوع الناس فى الناس - السيدة عائشة ، وأسرع الناس إلى فتنة - يعلى بن أمية (كان والياً لأمير المؤمنين عثمان على اليمن وعزله) .

ولم يغب عن الإمام أنه سيلقى فتناً كقطع الليل المظلم كان ذا قلب مستنير وعقل كبير ، ولكن الخلافة أتمته راغمة ولزمه شرعاً أن يحمل عبأها لوجه الله مهما ثقل عليه ذلك العبء كما بين ذلك في إحدى خطبه حين قال بعد اشتداد الفتن :

أما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر (أى وقوع الفتن) وقيام الحجّة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها (أى لتخلى عن الخلافة لولا مالزمه شرعاً من القاء فيها دفعا للظلم عن المظلومين) .

ومن العجيب أن يبلى الإمام بهذه الفتن المتكررة مع أنه لم يطلب الخلافة وإنما هى التى طلبته ، فقد روى الشريف الرضى - كما جاء فى نهج البلاغة - أنه حين تزاحم الناس على الإمام بعد استشهاد أمير المؤمنين عثمان ، وأرادوا بيعته خطب فيهم فقال :

دعوني والتمسوا غيرى ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكرت ، واعلموا أنى إن أحببتم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أميراً .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى شرح تلك الخطبة : وقد كان بعد بيعته ما تفرّس به قلبها .

تزاحم الناس على بيعة الإمام :

هذا وإذا أردت أن تعرف كيف تزاحم الناس على بيعة الإمام على كرم الله وجهه فاستمع إليه وهو يصف التزاحم كما جاء فى نهج البلاغة :

" فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع - وهو كثيف الشعر - إلى ، ينثالون^١

^١ - يجتمعون .

على من كل جانب ، حتى لقد وطىء الحسان ، وشق عطفى ، مجتمعين حولى كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وفسق آخرون " .

اتهام باطل :

ومن غريب الأمر أن يتهم الإمام بقتل أمير المؤمنين عثمان ، مع أن الإمام أمر ولديه السبطين الحسن والحسين بالوقوف على بابه لحراسته من الثوار ، مع أنه كان يضمن بهما كل الضن خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقد أصاب الإمام الحسن سهم الثوار وسال الدم على وجهه) ، وأمدّه بالماء حين منعه الثوار عنه ، ولبس عمامته وتقلّد سيفه وقال لأمير المؤمنين عثمان مرنا فلنقاتل ، فلم يشأ أمير المؤمنين أن تراق بسببه ملاء محجة من دم ، وكان الإمام على السفير المؤتمن بينه وبين الثوار ، وكان أمير المؤمنين عثمان يستنجد به كلما ضاق عليه الأمر حتى إنه كتب إليه يقول :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

وقد كسر الإمام بيت المال بعد أن كان طلحة قد استولى عليه ، وأرضى الإمام الثوار بالعتاء ، وسرّ ذلك أمير المؤمنين عثمان ، ولما جاء طلحة وقال له جئتك تائباً قال بل جئتني مغلوباً ، الله حسبيك ، ومع كل ذلك اتهموا الإمام بأنه قاتل عثمان ، وما ظهرت تلك التهمة الكاذبة إلا بعد بيعة الإمام بالخلافة حتى قال ابن سيرين رضى الله عنه كما جاء فى العقد الفريد : ما علمت أن عليا اتهم بدم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس .

صبر جميل ورأى حازم :

أقول : ومع مرارة البلاء الذى ابتلى به كان كرم الله وجهه صابراً محتسباً ، راضياً بقضاء الله وقدره ، لا يعتز إلا بالله ، ولا يعتمد على سواه ، ويبين لنا ذلك واضحاً فيما كتبه لأخيه عقيل رداً على جواب كان بعثه إليه فى بداية الفتنة ،

فقد كان فيما كتب الإمام ، كما روى ابن قتيبة :

" ... وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه برأى ، فإن رأيتي جهاد المحققين حتى ألقى الله ، لا يزيدني كثرة من حولي عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة لأنى محق ، والله مع المحق ، وما أكره أن أموت على الحق ، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق .
"وأما ما عرضت من مسيرك إلى ببنيك وبنى أبيك ، فلا حاجة لي في ذلك ، فذرهم راشداً مهدياً ، فو الله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت ، وأنا كما قال أخو بني سليم :
فإن تسأليني كيف صبري فإنني صبور على ريب الزمان صليب
عزیز علیّ أن أرى بكآبة فيشمت واشي أو يساء حبيب

صفاء الإمام :

وإن أردت أن ترى صفاء أمير المؤمنين على كرم الله وجهه في آخر الأمر كما رأيته في أوله فهالك ما رواه ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة .
دخل موسى بن طلحة على الإمام على كرم الله وجهه بعد معركة الجمل ، قال له الإمام :
إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : (ونزعنا ما في صدورهم من غل ، إخواناً على سرر متقابلين) . فاعجب معي أيها القارئ من هذا التسامح الذي تخطى فيه الإمام كرم الله وجهه نزعات البشر في خصام أدنى للقتال المرير .
وأمسى عليّ بالبصرة¹ ذلك اليوم الذي أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال له ابن الكواء :
أمسيت بالبصرة يا أمير المؤمنين . (خاف ابن الكواء أن يغدر به أهلها) .
قال الإمام : كان عندي ابن أخي .

¹ - كانت البصرة في صف طلحة والزبير .

فقال ابن الكواء : ومن هو ؟

قال : موسى بن طلحة .

قال ابن الكواء : لقد شقينا إن كان ابن أخيك .

فقال الإمام : ويحك ، إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : " اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ولا تعجب مع مقالة ابن الكواء أن كان رأساً بعد ذلك من رءوس الخوارج وداعية من دعائهم حتى قتل في موقعة النهروان . وقد ذهب هؤلاء الخوارج في تطرفهم إلى القول بأن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم عليا ، وتولوا عليا إلى ما قبل التحكيم ، فلما قبل التحكيم ، قالوا بكفره وأباحوا دمه ودم كل مسلم لا يقول بقولهم ولا يدين بمذهبهم .

فقه الإمام :

وقد سئل الإمام على كرم الله وجهه عن خصومه في معركة الجمل فيما رواه ابن أبي حديد في شرح " نهج البلاغة " فقيل له : أكفار هم ، فقال : لا ، من الشرك فروا ، قالوا : أمنافقون هم : قال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا وهم ليسوا كذلك ، فقالوا له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا . وقد رأيت مما مر عليك أنه قاتلهم قتال أهل البغي ، فلم يجهز على جريح أو يقتل مدبراً ، أو يأسر مستسلماً ، أو يسترق النساء .

رأى أهل السنة :

والرأى الذى يعتقده المسلمون من أهل السنة هو ما يقول به الأشاعرة وهو كما جاء فى كتاب " الملل والنحل " : إن أصحاب الجمل أخطأوا ، ولكنه خطأ مغفور ، كخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع ولا يلزم به الكفر ولا الفسوق ولا التبرؤ ولا العداوة . فكن من أهل السنّة فى اعتقادهم هذا فإنهم بتوفيق الله على الحق .

¹ - كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمام سليم فى موقفه :

أما موقف الإمام فلا شك أنه موقف سليم من مبدئه إلى منتهاه ، فإن الذين بايعوه بالمدينة هم الذين بايعوا الخلفاء أبا بكر وعمر وعثمان وكان من بينهم طلحة والزبير ، فالتزما رضى الله عنهما فى بيعتهما ، ولكنهما أتياه بعد فراغ البيعة - فيما رواه بن قتيبة - فقالا له : هل تدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، على ما بيعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان ، فقالا : لا ، ولكننا بايعناك على أنا شريكك فى الأمر ، فقال الإمام : لا ، ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والوعون على العجز والأود .

ولم يرض طلحة والزبير بموقف الإمام منهما ، وكان طلحة يقول : ما اللوم إلا علينا ، كنا ثلاثة من أهل الشورى (طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وقد تنحى سعد) كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما فى أيدينا ومنعنا ما فى يده .

وقد أشار ابن عباس على الإمام بأن يولى البصرة الزبير ، ويولى طلحة الكوفة ، فقال له الإمام فيما قال : ... ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى .

الأستاذ الخطيب فى إنصافه للإمام :

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه القيم " على بن أبى طالب " فى موقف كبار السادة الصحابة الكرام فى معركة الجمل :

" إن المرء ليحار إذ يرى هؤلاء النخبة المتخيرة من الناس تغلب على أمرها فى بعض المواقف ، ويخذلها رأيها وبصرها ، وتركبها حيرة محيرة فلا تدرى أية وجهة تتجه ، ولا أى مسلك تسلك ، ولا تأويل لهذا إلا أنه ابتلاء ابتلى الله به عباده ، وامتحان امتحنهم به ، وما نحسب القتلى الذين سقطوا فى هذا البلاء إلا فى عداد الشهداء كمن يموتون بوباء من الأوبئة الجائحة .

" يقول الزبير ، رضى الله عنه ، عشية الإستعداد للمعركة ، إن هذه لهى الفتنة التى كنا نحدث عنها " ، فيسأله سائل : أسمىها فتنة وتقاتل فيها ؟

" فيقول له : ويحك ! إننا نبصر ولا نبصر ، ما كان أمر قط إلا عرفت موضع قدمي فيه غير هذا الأمر ، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر (الطبرى) .
إن الزبير رضى الله عنه ، يعلم أنها فتنة ويقاقل فيها ، إنه لا يملك الفتنة ولكنها تملكه ، إنها قدر غالب لا مرد له .

" وإذا كان هذا هو شأن أصحاب الرسول والصفوة المتخيرة من صحابته ، فكيف بعامّة الناس ، وكيف بمن انقاد للفريقين .

" ... يقول الزبير ، رضى الله عنه ، وقد رأى الغوغاء تحرّش بين الناس ، وتفتح بينهم طرقاً إلى الالتحام والقتال .. فيقول : ما كنت أرى أن مثل ما جئنا له يكون فيه القتال ' .
" ولو أنه خلى بين الصحابة وبين هذا الخلاف لعالجوه بغير الحرب ، ولأعطوا الرضا من أنفسهم ولكن كان ما كان ، ووقع ما لم يكن فى الحسابان .

" وأقول فى نهاية المطاف إن الحق كان مع الإمام على كرم الله وجهه ، وغلبة المقدر عذرت خصومه فقد قدروا شيئاً وقدر الله غيره ، فتابوا وندموا على ما كانوا ، فلنذكر المحق والتائبين بالفضل ، ولنرع حرمة الإمام وحرمة طلحة والزبير بالصحبة ، والثلاثة من العشرة المبشرين بالجنة ، ولنحفظ حرمة سيدتنا أم المؤمنين ، فهى أحب نسائه إليه صلى الله عليه وسلم ، وهى الصديقة بنت الصديق كما لقبها المحدثون عنها من الصحابة الأخيار ، وقد نزلت براءتها فى حديث الإفك من السماء وصارت قرآناً يتلى فى المحاريب ، والله الأمر من قبل ومن بعد " . ولعلك توافقنى فى أن رأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب رأى منصف .
عذر الإمام :

أقول : وهب أن أم المؤمنين عائشة كانت تنتظر أن يشهد لها الإمام على فى حديث الإفك ، فهل شهد عليا فى قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يضيق عليك ، وقد قصد الإمام بذلك أن يفرج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو ضيق فيه من ضيق ، لا عن شك فى مسلك زوجه الأثيرة ، ولكن عن إشاعة الفاحشة فيها كذباً على السنة ألد أعدائه من المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول .

¹ - البيان والتبيين .

تسامح أم المؤمنين :

وقد دلتنا أم المؤمنين بموقفها بعد ذلك من سيدنا حسان بن ثابت على أنها لا تحمل بين جنبيها قلباً حقوداً ، ولا خلقاً عنيداً ، فمع أن حسان كان ممن خاضوا في حديث الإفك وجلده بسببه ، فإنها كانت تترى له لفقد بصره ، فقد حدث مسروق فقال : دخلت على عائشة وعندها حسان فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل :

(والذى تولى كبره^١ منهم له عذاب عظيم) . فقالت : أما تراه فى عذاب عظيم قد ذهب بصره ؟

وقال هشام بن عروة عن أبيه : كنت قاعداً عند عائشة فمروا بجنائز حسان ، فنلت منه ، فقالت : مهلاً ، فذكرتها كلامه ، فقالت فكيف بقوله :

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

وأضافت رضى الله عنها قائلة : إن الله يغفر له بهذا البيت .

ويقول العلامة العقاد فى تعقيبه على هذه الرواية : ولا شك أن الذى ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذى صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وإن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكي .

أقول : فأيهما أولى بالصفح ؟ حسان الذى خاض فى حديث الإفك وأقيم عليه الحد ، أو الإمام فى موقفه من حديث الإفك حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يضيق عليك ، النساء كثير ، وليس فى ذلك خوض بإفك بل تخفيف على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ضاق صدره بما يقولون كذباً ورجماً بالغيب .

وإذا كانت أم المؤمنين قد قدرت لحسان دفاعه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفلا تقدر لأمير المؤمنين دفاعه بسيفه فى نصرة الله ورسوله وافتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بات فى فراشه ، وهى الألمعية الرشيدة التى

^١ - معظمه .

أدرکت كذلك جهاده فى بدر وفيما والاها من الغزوات ، ثم هل كان يفوتها ما كان للإمام من مكانة وإعزاز عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل جهلت أن الله تعالى صان ذريته صلى الله عليه وسلم وجعلها من صلب الإمام ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معتزاً بسبويه الحسن والحسين رضى الله عنهما : " إنما هما ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما " وهل كانت تجهل ما كتبه صلى الله عليه وسلم من محبة للإمام وزوجته الزهراء ؟ فكيف لا تحب بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إرضاء لله وسوله وإن خالفت فى هذا الحب هواها ؟ إن السيدة الزهراء جاءت أباهما صلى الله عليه وسلم برجاء من زوجاته فقالت له : إن نساءك ينشدنك الله تعالى فى بنت أبى بكر فقال لها : يا بنية ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ، قال : فأحبنى هذه يشير إلى عائشة ، فهذه تربيته الشريفه التى لا تفوت أم المؤمنين التى امتازت بسعة العلم وقوة الإدراك والحرص على مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الإمام مخيراً بين إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين إرضاء أم المؤمنين ، فمن الطبيعى أن يكون أكثر مواساة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى شدته النفسية فى حديث الإفك ، وإذا كان لابد لأم المؤمنين من إرضاء أحد الخصمين فى معركة الجمل فمن الطبيعى أن تكون اقرب إلى طلحة ابن عمها والزبير زوج أختها ، وبخاصة أنه لم يكن فى حسابها أو حسابهما أن يقع قتال مرير على النحو الذى شاءه الله وقدره ، وإذ كان لا مناص من أن يصون الإمام بيعته الشرعية وسلطانه الذى آتاه الله بهذه البيعة ، فإنه نصح لخصومه قبل القتال وأعذر إلى الله وانتصح الزبير كما انتصح طلحة ولم تنتهياً فرصة لأم المؤمنين قبل أن ينشب القتال المفاجىء الذى بدأه الدهماء من الفريقين فغلب المقدور على ما قدرته رضى الله عنها من العمل على الإصلاح بينهما ، ونطق لسان الحال من كل من الإمام وطلحة والزبير وأم المؤمنين :

قدرت أشياء وقدر غيرها حظ يخط مصاير الإنسان

وما دام الإمام أعذر إلى الله بنصح خصومه قبل القتال ثم استعمل فى القتال

حقه الشرعى حفاظاً على سلطانه ، وما دام طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تابوا إلى الله من موقفهم فقد آخذوا أنفسهم بأنفسهم ولم يتركوا مجالاً لمؤاخذه جديدة من الباحثين فى أمرهم فإننا نشيد بتقواهم ونسأله تعالى الرضا عنهم .

أمانة التبليغ :

وإليك ما يقوله العلامة العقاد فى كتابه " الصديقة بنت الصديق " ، عن أمانة التبليغ التى اضطلعت بها فى الإسلام أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها :

" وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه ، فتورعت عن كتمان شىء من الأشياء التى تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصوم .

" فأسلوبها فى تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم ، وأسلوب أم المؤمنين فى خطاب بناتها وبنيتها من المسترشديات والمسترشدين . ولم يكن فى مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التى تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذى لا يغنى عنه مرجع فى سنن النبى ومأثوراته وأعماله ، فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

" وقد تكون هذه السيدة الفضلى التى أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهى ما تأذن لعمها فى الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبى عليه السلام . فأسلوبها فى تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ولم يكن شيمة الطبع واللسان " .

أم المؤمنين وصدق الرواية :

ويتعرض العلامة العقاد لصدق روايتها فيقول رحمه الله فى الكتاب ذاته :

" وقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ما تكون فى خصلة الصدق التى بها

اشتهر ومن أجلها نعت بالصدّيق ، وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذى دعاه به أبواه ...

" ففى الغاشية التى أطبقت على العالم الإسلامى من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوععة من هنا وهناك ، وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه . . .

" وكانت السيدة عائشة تشترك فى خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هى أول من يسمع له إذا روت حديثاً يدفع خصومها ويعزز أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى ... ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق .

" ومن الصفات التى شابته فيها أباه : الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأو .

" فحسبها أنها روت للنبي عليه الصلاة والسلام أكثر من ألفى حديث فى مختلف المسائل التى تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التى يرجع إليها فى الدين والعبادة ...

" ومع هذا يروى الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ، ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات ، حتى قال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه :

" ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه " .

وقال عطاء بن أبى رباح : كانت أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً فى العامة . وقال مسروق الهمذاني : " رأيت مشيخة رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض (المواريث) " .

وقال عروة بن الزبير : " ما رأيت أحداً أعلم بفقهِ ولا بطب ولا بشعر من عائشة " .

وهاك على سبيل المثال ما أوصت به معاوية حين طلب إليها النصيحة

فقد أرسلت إليه تقول : أما بعد فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وگله الله إلى الناس .

ورع أم المؤمنين :

وفى طبقات ابن سعد أن موسى بن داود قال : سمعت مالك بن أنس يقول : قسّم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر وقسم كانت تكون فيه عائشة وبينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر بلا تحفظ ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله إلا وهى جامعة عليها ثيابها .

وعن عائشة رضى الله عنها : مازلت أضع خمارى وأنفصل فى ثيابى¹ حتى دفن عمر فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جداراً .

أم المؤمنين والتزام البيت :

ونعود إلى مجريات الحوادث فنقول : إن أم المؤمنين رضى الله عنها عادت إلى المدينة بعد معركة الجمل ، والتزمت بيتها المبارك الذى كان ينزل الوحي فيه ، واستردت سعادتها بعيدة عن الخلاف والاختلاف ترجو الخير للأمة الإسلامية كلها ، وودت أنها لم تشارك فى ذلك الذى سالت فيه دماء غزيرة غزيرة تألم لها الفريقان ، وغلب فى سفكها المقدور على الظن والتقدير ، فما ظن القوم أن يقع القتال المرير كما وقع ، بل ظنوا أن يصلوا بالتفاهم إلى كلمة سواء ، وقد أوشك التفاهم أن يتم فى سلام بين أمير المؤمنين وطلحة والزبير لولا أن تشابك الدهماء كما سبق القول واندفعوا فى القتال فى فتنة عمياء ، فرد جيش أمير المؤمنين على الشر بمثله صيانة لحقه وإبقاء لسultanه على الخارجين عليه ، وهو أول قتال يقع بين المسلمين من الفريقين وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

¹ - أى أخلع الخمار وأتخفف من الملابس ، فلما دفن عمر تخرجت لأنه غريب - أما الرسول فزوجها وأما أبو بكر فأبوها - فتحفظت وأبقت ثيابها عليها . فعاملتهم معاملة الأحياء ولو أنهم فى القبور . وهذا من فقها وذوقها وورعها رضى الله عنه .

أم المؤمنين تعاتب ابن عمر :

وقد بلغ من مرارة النفس عند أم المؤمنين من اشتراكها في معركة الجمل أنها - فيما روى ابن عبد البر - رصدت لابن عمر من يعلمها به إذا مر بها ، فلما مر بها وعلمت به ، قالت ادعوه ، فدعوه ، فقالت :

يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهاني عن مسيرى ، قال : رأيت رجلاً غلب عليك ، وظننت أنك لا تخالفينه ، قال : أما إنك لو نهيتنى ما خرجت .

أم المؤمنين والأزدى :

كما روى الطبرى عن أبى جندب قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، فقالت : من أنت ؟ قلت رجل من الأزد أسكن الكوفة ، قالت : أشهدتنا يوم الجمل ، فقلت : نعم ، قالت : لنا أم علينا ؟ قلت : عليكم

قالت : أتعرف الذى يقول : يا أمنا يا خير أم نعلم

قلت : ذاك ابن عمى .

قال : فبكيت حتى ظننت أنها لا تسكت .

يوم الجمل :

وكذلك روى ابن الأثير فى أسد الغابة أن متحدثاً تحدث إليها فنذكر يوم الجمل ، فقالت : والناس يقولون يوم الجمل ؟ قال نعم ، قالت : ووددت لو أنى كنت جلست كما جلس صواحبي ، فكان ذلك أحب إلى من أن أكون ولدت من رسول الله بضع عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومثل عبد الله بن الزبير .

¹ - هذا من رجز ارتجز به الحارث بن زهير الأزدى وكان فى جيش أمير المؤمنين ، قاله حين رأى قومه يسقطون قتلى وهم يتهافتون على خظام الجمل ، والرجز كاملاً هو :

يا أمنا يا خير أم نعلم أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلى هامته والمعصم

توبة نصوح :

وأنت ترى من ذلك أن نفس أم المؤمنين الزكية كانت نفساً كريمة لؤامة متظهرة ، والندم توبة صادقة وأى توبة ، واللوم ظهارة باطنة وأى ظهارة . فقد توالى بعد معركة الجمل أحداث جسام كانت تستطيع أن تشارك فيها السيدة عائشة ضد الإمام على ، ولكنها لم تفعل ، وهذا ما يؤيدنى فى دحض ما اتهمت به من عداوة أكيدة للإمام على بسبب شهادته فى حديث الإفك .

وقد رأيت ما كان من طلحة والزبير ، فقد بايع طلحة مرة أخرى قبل موته وقال لأحد جنود الإمام أبلغه أنى مبايعه ، وانسحب الزبير من المعركة قبل أن يقع القتال قائلاً : لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر ، والله لو ذكرتها ما خرجت . ومن هنا أجمع العلماء على توبة الثلاثة فى رشد ورجوع للحق .

رأى العلامة العقاد :

ومع أن العلامة أنصف أم المؤمنين رضى الله عنها فى آخر بحثه إلا أنه فى بداية البحث خطأ الإمام فى مشورته فى حديث الإفك وخطأ أم المؤمنين فى خصومتها للإمام وربط بين هذه الخصومة وقصة الإفك ، فقال فى كتابه " الصديقة بنت الصديق " :
" فعلىّ قد أخطأه التوفيق فى نصيحته ، وعائشة قد أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة .

وإنك لتعجب معى أن يربط العلامة العقاد بين مشورة الإمام وموقف أم المؤمنين منه كما فعل غيره ، مع أن ما انتهى إليه رحمه الله يكاد يتفق مع وجهة نظرى ويباعد بين الأمرين ، وإليك ما انتهى إليه ، فى ذلك الكتاب بعد قوله المتقدم :

" ولكننا إذا ذكرنا هذا ، كان علينا أن نذكر معه أنها ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها :

" ليتنى متّ قبل يوم الجمل ، وكانت تقول : ليت كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وتكلتهم ولم يكن يوم الجمل ، وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها . ثم أضاف يقول فى صدق رحمه الله :

" وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية فى حق علىّ رضى الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعض من بايعوه ، وقالت عنه مرة : إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

" وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة :

" حدة الطبع ، ومفاجأة تبتر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعلىّ ، وسعى حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

" وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشرّ فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضى إلى قتال ، وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه ، وهو حادث لا بد له من عبرة ، وأن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل " .

الباب الثانى عشر آل النبى وأهل البيت

أهل البيت :

قال تعالى فى سورة الأحزاب : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً) . وجاء هذا القول الكريم فى معرض خطاب الله تعالى لنساء النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (يانسأ النبى لستن كأ حد من النساء إن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً) .

وجاء بعد ذلك قوله تعالى : (واذكرن ما يتالى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) .

وقد اختلفوا فى تحديد المراد بأهل البيت ، فجاء فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه :

يراد به نساؤه ، وقيل يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ، وقال عطاء وعكرمة وابن عباس هم زوجاته بخاصة لأرجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) . وقال الكلبي : ((هم على وفاطمة والحسن والحسين خاصة)) ، وفى هذا أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقوله تعالى : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم) . بالميم ، ولو كان للنساء خاصة

لكان (عكنن) و (يظهركن) إلا أنه يتحمل أن يكون خرج على لفظ الأهل قال تعالى :
(أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) .
وأضاف الإمام القرطبي قائلاً :

والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال : (ويظهركم) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلياً وحسناً وحسيناً كانوا فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن يدل عليه سياق الكلام ، فكيف صار فى الوسط كلاماً منفصلاً لغيرهن ، وإنما جرى فى الأخبار أن النبى عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية دعا علياً وفاطمة الحسن والحسين ، فعمد النبى صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفها عليهم ، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال : ((اللهم هؤلاء أهل بيتى ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)) ، فهذه دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية أحب أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج ، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيرها لهم خاصة ولا اعتداد بقول الكلبي وأشباهه .
وأضاف الإمام القرطبي كذلك :

أما إن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية فى بيتى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فدخل معهم تحت كساء خيبرى وقال : ((هؤلاء أهل بيتى)) وقرأ الآية وقال : ((اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)) فقالت أم سلمة : وأنا معهم يارسول الله ؟ قال : ((أنت على مكانك وأنت على خير)) أخرجه الترمذى وغيره ، وقال القشيري : وقالت أم سلمة : أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يارسول الله ؟ قال : نعم وقال الثعلبي هم بنو هاشم فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب ، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم .

وجاء فى تفسير ((روح المعانى)) للإمام الألوسى رضى الله عنه :

أخرج ابن سعد عن عروة : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قال : يعنى أزواج النبي صلى عليه وسلم ، وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج المطهرات باعتبار الإضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بيت واحد ، وجمعه فيما سبق أو لحق باعتبار الإضافة إلى الأزواج المطهرات اللاتي كن متعدداً ، وجمعه في قوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) دفعاً لتوهم إرادة بيت النسب لو أفرد من حيث إن سبب النزول أمر واقع فيه ، وأورد ضمير جميع المذكور في (عنكم) و (يطهركم) رعاية للفظ الأهل ، والعرب كثيراً ما يستعملون صيغ المذكر في مثل ذلك رعاية للفظ ، ومنه على ما قيل قوله تعالى : (قال لأهله امكثوا إنى آنت ناراً) ، خطاباً من موسى عليه السلام لامرأته ، ولعل اعتبار التذكير هنا أدخل في التعظيم ، وقيل المراد هو صلى الله عليه وسلم ونسأؤه المطهرات رضى الله عنهن ، وضمير جمع المذكر لتغليب عليه الصلاة والسلام عليهن ، وقيل المراد بالبيت النسب ولذا أفرد ولم يجمع كما في السابق واللاحق ، فقد أخرج الحكيم الترمذى والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى معاً في الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((إن الله تعالى قسم الخلق قسمين فجعلنى من خيرهما قسماً ، فذلك قوله تعالى : (وأصحاب اليمين)) ، (وأصحاب الشمال) فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرهم ثلثاً فذلك قوله تعالى : (وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون) ، فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة وذلك قوله تعالى : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلنى فى خيرها بيتاً فذلك قوله تعالى : (إنما يريد

الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، وأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب . ((

يقول الإمام الألويسي : فإن المتبادر من البيت الذي هو قسم من القبيلة البيت النسبي ، واختلف في المراد بأهله فذهب الثعلبي إلى أن المراد بهم جميع بنى هاشم ذكورهم وإناثهم ، أراد مؤمنى بنى هاشم ، وهذا المراد بالآل عند الحنفية ، وقال بعض الشافعية المراد بهم آلہ صلى الله عليه وسلم مطلقاً ، وأسرة الرجل على ما فى القاموس رهطه أى قومه وقبيله الأذنون ، وقال فى موضع آخر : صار أهل البيت متعارفاً فى آلہ عليه الصلاة والسلام ، وصح عن زيد بن أرقم فى حديث أخرجه مسلم أنه قيل له : من أهل بيته ؟ نساؤه صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا - أئيمُ الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده صلى الله عليه وسلم .

وفى آخر أخرجه هو أيضاً مبين هؤلاء الذين حرموا الصدقة أنه قال : هم آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس .

الدعاء لأهل الكساء :

وساق الإمام الألويسي حديث أم سلمة السابق الذى رواه الترمذى ، وقال بعده : وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأوماً بها إلى السماء وقال : (اللهم أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) ثلاث مرات .

وفى بعض آخر أنه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساءً فدكياً^١

^١ نسبة إلى فداك بفتحين بلدة بينها وبين المدينة يومان بالإبل ، وهى مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم وضع يده عليهم ثم قال : ((اللهم إن هؤلاء أهل بيتي ، وفي لفظ آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) .

وجاء في رواية أخرجه الطبراني عن أم سلمة أنها قالت : فرفعت الكساء لأدخل معهم ف جذبته صلى الله عليه وسلم من يدي وقال : ((إنك على خير)) ، وفي رواية أخرى رواها ابن مردويه عنها قالت : أأنت من أهل البيت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ((إنك إلى خير ، إنك من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم)) .

بيت السكنى والأهل :

ويقول الإمام الألباني رحمه الله :

وقال بعض المحققين : المراد بالبيت بيت السكنى وأهله على ما يقتضيه سياق الآية وسباقها والأخبار التي لا تحصى كثرة ، ولا دلالة في حديث الكساء على الحصر ، ولا في الحديث الحسن أنه صلى الله عليه وسلم اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال : ((يارب هذا عمي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كسترى إياهم بملاءتي هذه)) ، فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت آمين ثلاثاً .

الملحقون بأهل الكساء :

وأضاف الإمام الألباني يقول :

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام ضم إلى أهل الكساء - على وفاطمة والحسين رضي الله عنهم - بناته وأقاربه وأزواجه ، وصح عن أم سلمة في بعض آخر أنها قالت : فقلت يا رسول الله : أما أنا من أهل البيت ؟ فقال : ((بلى إن شاء الله)) ، وفي بعض آخر أيضاً أنها قالت له صلى الله عليه وسلم : أأنت من أهلك ؟ قال (بلى) ، وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها

¹ - أسكفة الباب أي عتبه .

الكساء بعد ما قضى دعاءه لهم ، وقد تكرر - كما أشار إليه المحب الطبري - منه صلى الله عليه وسلم الجمع وقول هؤلاء أهل بيتي والدعاء في بيت أم سلمة وبيت فاطمة رضي الله عنهما وغيرهما ، وبه جمع بين اختلاف الروايات في هيئة الاجتماع ، وما جلل صلى الله عليه وسلم به المجتمعين وما دعا به لهم ، وما أجاب به أم سلمة وعدم إدخالها في بعض المرات تحت الكساء ليس لأنها ليست من أهل البيت أصلاً بل لظهور أنها منهم حيث كانت الأزواج اللاتي يقتضى سياق الآية وسياقها دخولهن فيهم بخلاف من أدخلوا تحته رضى الله تعالى عنهم ، فإنه عليه الصلاة والسلام لولم يدخلهم ويقل ما قال لثوهم عدم دخولهم في الآية لعدم اقتضاء سياقها وسياقها ذلك ، وذكر ابن حجر على تقدير صحة بعض الروايات من لم يكن بينه وبينه قرابة سببية ولا نسبية في أهل البيت توسعاً وتشبيهاً كسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : ((سلمان منا أهل البيت)) وجاء في رواية صحيحة أن واثلة قال : أنا من أهلك يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ((وأنت من أهلى)) فكان واثلة يقول : إنها لمن أرجى ما أرجو .

ثانى الثقلين :

ويضيف الإمام الألويسى قائلاً :

ما روى عن زيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه من نفى كون أزواجه صلى الله عليه وسلم أهل بيته وكون أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده عليه الصلاة والسلام ، فالمراد بأهل البيت الذين جعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانى الثقلين ، لا أهل البيت بالمعنى الأعم المراد في الآية :

ويشهد لهذا ما في صحيح مسلم عن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد بما

سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا ابن أخى : والله لقد كبرت سننى وقدم عهدى ونسيت بعض الذي كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما حدثتكم فاقبلوا ومال لا لا تُكلفونيه ، ثم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى ((خُماً)) بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال :

((أما بعد ألا يا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وإنى تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به)) (فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثاً ، فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم : قال : هم آل على و آل عقيل و آل جعفر وآل العباس)) الحديث ، فإن الاستدراك بعد جعله النساء من أهل بيته صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهر فى أن الغرض بيان المراد بأهل البيت فى الحديث الذى حدث به عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهم فيه ثانى الثقلين ، فلاهل البيت إطلاقاً يدخل فى أحدهما النساء ولا يدخلن فى الآخر ، وبهذا يحصل الجمع بين هذا الخبر والخبر السابق المتضمن نفيه رضى الله تعالى عنه كون النساء من أهل البيت .

وقال بعضهم إن ظاهر تعليقه نفى كون النساء أهل البيت بقوله : أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها يقتضى ألا يكن من أهل البيت مطلقاً ، فلعله أراد بقوله فى الخبر السابق نساؤه من أهل بيته ؟ أنساؤه بهمزة الأستفهام الإنكارى ، فيكون بمعنى ليس نساؤه من أهل بيته كما فى معظم الروايات فى غير صحيح مسلم ، ويكون رضى الله عنه ممن يرى أن نساءه عليه الصلاة والسلام لسن من أهل البيت أصلاً ولا يلزمنا أن ندين الله تعالى برأيه لا سيما وظاهر الآية معنا وكذا العرف .

أهل القرابة والنسبة القوية :

وخلص الإمام الألوسی رضی الله عنه إلى قوله :

((والذى يظهر لى أن المراد بأهل البيت من لهم مزيد علاقة به صلى الله عليه وسلم ونسبة قوية قريبة إليه عليه الصلاة والسلام ، بحيث لا يقبح عرفاً اجتماعهم وسكناهم معه صلى الله عليه وسلم في بيت واحد ويدخل في ذلك أزواجه ، والأربعة أهل الكساء وعلى كرم الله تعالى وجهه مع ماله من القرابة من رسول الله عليه وسلم وقد نشأ فى بيته وحجره عليه الصلاة والسلام فلم يفارقه ، وعامله كولدته صغيراً ، وصاهره وآخاه كبيراً ، والإدارة على المعنى الحقيقى المستتبع للفعل .

((والآية لا تقوم دليلاً على عصمة أهل بيته صلى الله عليه وسلم الموجودين حين نزولها وغيرهم ، ولا على حفظهم من الذنوب على ما يقوله أهل السنة ، لأن المعنى حسب ما ينساق إليه الذهن ويقتضيه موقع التعليل للنهى والأمر نهاكم الله تعالى وأمركم ، لأنه عز وجل يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس (الذنوب) عنكم وتطهيركم ، وفي ذلك غاية المصلحة لكم ، ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود إليكم وهو على معنى الشرط ، أى يريد بنهيكم وأمركم ليذهب الرجس ويطهركم إن انتهيتم وائتمرتم . والمراد بالرجس الذنب وإذهابه إزالة مبادئه بتهديب النفس .

((وكان مآل الإذهاب : التخلية ، ومآل التطهير : التحلية ، والآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم إن انتهوا عما ينهى عنه ويأتمروا بما يأمرهم به يذهب عنهم لا محالة مبادئ ما يستهجن ويحلهم أجل تحلية بما يستحسن ، وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم وترتب الآثار الجميلة عليها قطعاً ، ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم من حيث إن أولئك الأغيار^١ إذا انتهوا وأتمروا لا يقطع لهم 'بحصول ذلك' .

^١ - غيرهم .

أهل البيت وعبادة الله :

((ولذا نجد عبادة أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة وأحسن أخلاقاً وأزكى نفساً ، وإليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها ، كما لا يخفى على سالكيها ، التخلية والتولية اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القدس ، والوقوف على أوكار الأنس ، حتى ذهب قوم إلى أن القطب في كل عصر لا يكون إلا منهم ، خلافاً للأستاذ أبي العباس المرسى حيث ذهب كما نقل عنه تلميذه التاج ابن عطاء الله إلى أنه قد يكون من غيرهم .

((والذي يغلب على ظني أن القطب قد يكون من غيرهم ، لكن قطب الأقطاب لا يكون إلا منهم لأنهم أزكى الناس أصلاً وأوفرهم فضلاً)) .

وأنت ترى مما نقلته لك من كلام الإمام الألويسي أنه قال قوله في الموضوع وأبدع فيما قال وفصل ، ولكنني أتفق مع أهل السنة في أن السادة آل البيت محفوظون من الكبائر بعناية من الله تعالى ، فقد فطرهم على حبه وحب طاعته ، والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ، ويقول سيدي بن عطاء : إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب إليك وهو تعالى فعال لما يريد وقد قال سبحانه (إنما يريد . . .) وإنما أداة حصر ، وقد قال سيدنا يوسف عليه السلام : (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) وقد اختص الله برحمته آل البيت ، والله يختص برحمته من يشاء ، ولا يتنافى ذلك مع جهادهم أنفسهم في التخلية التي تعقبها التولية لأنهم ممن قال تعالى فيهم : (يحبهم ويحبونه) .

الشيخ الأكبر وآل البيت :

وفي هذه المناسبة أمتع القارئ الكريم بروائع من كلام سيدي الشيخ الأكبر محي الدين في الباب التاسع والعشرين من كتاب الفتوحات في شأن سادتنا آل البيت ، فقد قال عفا الله عنه : لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً محضاً ، قد طهره الله وأهل بيته تطهيراً ، وأذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم ، فإن الرجس هو القذ عند

العرب ، هكذا حكى الفراء ، قال تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فهذه الآية تدل على إن الله قد أشرك أهل البيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ، وأى وسخ أوقدر أقدر من الذنوب وأوسخ ، فظهر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالمغفرة ، فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سلمان منا أهل البيت " إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران ، فهم المطهرون اختصاصاً من الله وعناية بهم ، لشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا في الدار الآخرة ، فإنهم يحشرون مغفوراً لهم ، وأما في الدنيا فمن أتى منهم حداً أقيم عليه كالتائب إذا بلغ الحاكم أمره وقد زنى أو سرق أقيم عليه الحد مع تحقق المغفرة ولا يجوز زمه ؛ وينبغي لكل مؤمن بالله وبما أنزله أن يصدق الله تعالى في قوله : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه ، فلا ينبغي لمسلم أن يلحق المذمة بهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى حب آل البيت :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا

فما اختار خير الخلق منا جزاءه على هديه إلا المودة فى القربى

ويقول رضى الله عنه فى الباب ٦٩ من الفتوحات المكية عند كلامه على كيفية الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم التى بينها صلى الله عليه وسلم لأصحابه بقوله قولوا : " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم أى مثل صلاتك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم " .

" واعلم أن آل الرجل فى لغة العرب هم خاصته الأقربون إليه ، وخاصة الأنبياء وآلهم هم الصالحون العلماء بالله المؤمنون ، وقد علمنا أن إبراهيم - عليه

الصلاة والسلام - كان من آله أنبياء ورسول الله ، ومرتبة النبوة والرسالة قد ارتفعت في الشاهد في الدنيا ، فلا يكون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته نبي يشرع الله له خلاف شرع محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول . . . فخفيت مرتبة النبوة في الخلق بانقطاع التشريع ، ومعلوم أن آل إبراهيم من النبيين والرسول الذين كانوا بعده مثل إسحاق ويعقوب ويوسف ، ومن انتسل فيهم من الأنبياء والرسول بالشرائع الظاهرة الدالة على أن لهم مرتبة النبوة عند الله ، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق أمته وهم آله العلماء الصالحون منهم بمرتبة النبوة عند الله وإن لم يشرعوا ولكن أبقى لهم من شرعه ضرباً من التشريع فقال ؛ قولوا : اللهم صل على محمد وعمل آل محمد أى صل عليه من حيث ماله آل كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، أى من حيث أعطيت آل إبراهيم النبوة تشرافاً لإبراهيم ، فظهرت نبوتهم بالتشريع ، وقد قضيت ألا شرع بعدى ، فصل على آل إبراهيم ، فأبى أن تجعل لهم مرتبة النبوة عندك و إن لم يشرعوا ، فكان من كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ألحق آله بالأنبياء فى المرتبة ، وزاد على إبراهيم بأن شرعه لا ينسخ ، وبعض شرع إبراهيم ومن بعده نسخت الشرائع بعضها بعضاً ، وما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه على هذه الصورة إلا بوحى من الله وبما أراه الله ، وأن الدعوة فى ذلك 'مجابة' ، فقطعنا أن فى هذه الأمة من لحقت درجته درجة الأنبياء فى النبوة عند الله إلا فى التشريع ، ولهذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكد بقوله : ((فلا رسول بعدى ولا نبي)) فأكد بالرسالة من أجل التشريع ، فأكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن جعل آله شهداء على أمم الأنبياء ، كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم . ثم خص هذه الأمة أعنى علماءها بأن شرع لهم الاجتهاد فى الأحكام وقرر حكم ما أداه إليه اجتهادهم وتعبدهم به وتعبد من قلدتهم به ، كما كان حكم الشرائع للأنبياء ومقلديهم ، ولم يكن مثل هذا لأمة نبي مالم يكن نبي بوحى منزل ، فجعل الله وحى علماء هذه الأمة فى اجتهادهم كما قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : (لتحكم بين الناس بما أراك الله) فالمجتهد ما حكم إلا بما أراه الله فى اجتهاده ، فهذه نفحات من نفحات التشريع

¹ - أى طلب المؤمنين من الله أن يصلى على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبه الله .

ما هو عى¹ التشريع ، فلأل محمد وهم المؤمنون من أمتة العلماء مرتبة النبوة عند الله تظهر في الآخرة وما لها حكم في الدنيا إلا هذا القدر من الاجتهاد المشروع لهم ، فلم يجتهدوا في الدين والأحكام إلا بأمر مشروع من عند الله .

الجمع بين الأهل والآل :

وأضاف رضى الله عنه يقول :

((وإن اتفق أن يكون أحد من أهل البيت بهذ المثابة من العلم والإجتهد ولهم هذه المرتبة كالحسن والحسين وجعفر وغيرهم من أهل البيت ، فقد جمعوا بين الأهل والآل ، فلا تتخيل أن آل محمد صلى الله عليه وسلم هم أهل بيته خاصة ، ليس هذا عند العرب فإن الآل لا يضاف بهذه الصفة إلا لكبير القدر في الدنيا والآخرة ، ولذلك قيل لنا : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم أى من حيث ما ذكرناه لا من حيث أعيانها خاصة دون المجموع ، فهى صلاة من حيث المجموع ، وذكرنا إبراهيم عليه السلام لأنه تقدم بالزمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت أنه سيد الناس يوم القيامة ومن كان بهذه المثابة عند الله كيف تحمل الصلاة عليه كالصلاة على إبراهيم من حيث أعيانها ، فلم يبق إلا ما ذكرناه² ، وهذه المسألة هى عن واقعة من وقائنا فله الحمد والمنة)) .

ومن ذلك ترى أن الشيخ الأكبر أدخل بإلهامه الغزير وفتح الفياض في آل البيت العلماء الربانيين الذين آتاهم الله رحمة وعلماً ، ولا حرج على فضل الله ، فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، غير اننا رأينا فيما سبق أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق سلمان الفارسي رضى الله عنه بأهل البيت بنص خاص ، وكذلك أدخل واثلة بنص خاص فى أهل البيت ، والمشاهد فى واقع الأمر أن أهل البيت من الحسينيين والحسينيين على الخصوص هم أئمة أهل الع لم

¹ - أى أن المجتهدين فى الأمة المحمدية إنما يجتهدون فى إطار الشريعة المحمدية ولا يأتون بشرع جديد لأن مصدر إجتهادهم الكتاب والسنة .

² - أى صلى على سيدنا محمد من حيث له آل لا من حيث شخصه كما صليت على إبراهيم وآله كما سبق أن بين ذلك رضى الله عنه .

والعمل في كل قرن ، وقد سادوا المؤمنين بطيب عنصرهم وطهارة نفوسهم وسخائهم وعظم جهادهم في سبيل الله عز وجل بالنفس والمال وزهدهم الفطري في زخرف الدنيا وطرحها من قلوبهم ، فهم كما يصفهم العارف بالله سيدي الشيخ أحمد الحلواني في قصيدته المسماة ((الحلواء في مدح بني الزهراء)) .

بنفسى أذى الزهر من بضعة الزهرا	وإن هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا
هم الدين والدنيا لعمرى همو همو	فقل فيهمو ما شئت لا ترهين نكرا
وعال بهم من شئت إن ذكروا العلا	وفاخر بهم من شئت إن ذكروا الفخرا
بدور سمت عن شمس أكرم مرسل	أناروا دياجى الكون بالطلعة الغرا
وبالحلم والندى وبالبر والتقوى	وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى
ليهن بنيه المجد نظم هكذا	نبي الهدى فاطرب وحيدر والزهرا
بنفسى أهل البيت من مثلهم علا	وهم فى عيون المجد نور قد افترا
ومنذا يدانى أو يقارب بضعة	لهم تنتهى العلياء والرتبة الكبرى
محبتهم باب الرضا ورضاهمو	يسام بأرواح المحبين لو يشتري
فيا من يواليهم ويحفظ ودهم	ويكرم مثواهم هنيئاً لك البشرى
فلا بد يوم العرض تسمع قائلاً	تفضل تفضل فادخل الجنة الخضرا

رأى الفخر الرازى :

ويقول الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه فى تفسيره ما يأتى :

((فى قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به وإنما نفعه لكن ، وفيه لطيفة وهى أن الرجس قد يزول عيناً ولا يطهر المحل فقوله تعالى : (ليذهب عنكم الرجس) أى يزيل عنكم الذنوب ، ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ، وأضاف : ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم ، واختلفت

الأقوال فى أهل البيت ، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبى صلى الله عليه وسلم وملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم)) . أقول وهو كلام بديع كما ترى . وعند تفسيره لقوله تعالى فى سورة الشورى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور) .

قال الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه : نقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة ، ثم أضاف الإمام الرازى يقول :

((وأنا أقول : آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل .

((وأيضاً اختلف الناس فى الآل فقليل هم الأقارب وقليل هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل ، فثبت أن جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهـل يدخلون تحـت لفظ الآل ،

فمختلف فيه ، وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ، فقال على وفاطمة وابناهما ؛ فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه :

((الأول : قوله تعالى (إلا المودة فى القربى) ووجه الاستدلال به ما سبق .
((الثانى : لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام ، قال صلى الله عليه وسلم ((فاطمة بضعة منى يربىنى ما رابها ويؤذنى ما آذاها)) وثبت بالنقل المتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يجب علياً والحسن والحسين ، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله تعالى :

(واتبعوه لعلمكم تهتدون) . ولقوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ولقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .
ولقوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

((الثالث : أن الدعاء لآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة وهو قول المصلى : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل .

((فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب - وقال سيدى الإمام الشافعى رضى الله عنه :

ياراكباً قف بالمحصب من منى	واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى	فيضاً كما نظم الفرات الفاض
إن كان رفضاً حب آل محمد	فليشهد الثقلان أنى رافضى
كما قال رضى الله عنه :	
يا آل بيت رسول الله حبكمو	فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكمو من عظيم الدر أنكمو	من لم يصلى عليكم لا صلاة له

((وقوله تعالى : (إلا المودة فى القربى) فيه منصب عظيم للصحابة ، لأنه تعالى قال : (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فكل من أطاع الله كان مقرباً عند الله تعالى فدخل تحت قوله : (إلا المودة فى القربى) . والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أصحابه ، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة^١ (أما مذهب الشيعة فخارج عما ذهب إليه أهل السنة والجماعة) .

((وسمعت بعض المذكرين قال إنه صلى الله عليه وسلم قال : ” مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ” وقال صلى الله عليه وسلم : ” أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ،، ونحن الآن فى بحر التكلف وتضرينا أمواج الشبهات والشهوات ، وراكب البحر يحتاج إلى أمرين :

((أحدهما : السفينة عن العيوب والثقب ،

((الثانى : الكواكب الظاهرة والطلعة النيرة ، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالباً ، فكذا ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة ، فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة . وقوله تعالى (إلا المودة فى القربى) جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها ، كقولك : لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحلته ، وقوله تعالى : (إن الله غفور شكور) الشكور فى حقه تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطيعين فى إيصال الثواب إليهم وفى أن يزيد عليه أنواعاً كثيرة من التفضيل ، ألا رضى الله عن إمامنا الفخر الرازى وعن علماء الأمة الأعلام .

من إلهام شيخى :

ويرضى الله عن شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل إذ قال فى سادتنا

آل البيت رضوان الله عليهم فى إلهامه الفورى الذى نقلناه عنه عندما طلب إليه أحد الحاضرين أن يأتى بأبيات على وزن البيت الآتى وقافيته^١ :

^١ - ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه فى هذا المعنى :
ألا إنسى فى آل محمداً من الشيعة العليا ولكنى سننى
كأل رسول الله من مبتدأ سننى طبعة على حب الصحابة كلهم

بنفس أقدى الزهر من بضعة الزهرا
فقال توأ طيب الله ثراه :

بنفس أقدى الزهر من بضعة الزهرا
لقد غرسوني من زهور رياضهم
إذا قيل لى تهواهمو قلت ملكهم
إذا عشيت^٢ عيني فطى جوانجى
تساموا على كل الأنام فضائلا
وعينا من القرآن سورة هل أتى
فلو أن جود العاملين أقيسه
جداول من بحر النبى محمد
فإن كان ذنبى أن قلبى يحبهم
وما أحسن الدنيا على صدق ودهم
وها أنا مشتاق إليهم وسائر
أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى
إذا نظرونى زال من قلبى الأسى
على بابهم أسمو سمو أولى النهى

وإن هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا
بهم نلت كل الخير دنياى والأخرى
فظابت حياتى من مكارمهم زهرا
ووقف يمين لا يباع ولا يشرى
عيون ترينى سر أنوارهم جهرا
وقد بين القرآن أوصافهم طهرا
صفا سعيهم لله واستوجب الشكرا
على جودهم يوماً لما مثل العشرا
فما مثلها تلقى جداول أو بحرا
فإن ذنوبى لن تلم بها حصرا
وما أحسن الأخرى لتابعهم ذخرا
على حبهم أنفقت سعى والعمرا
ولى لذة فى مدحهم تتلج الصدرا
وإن منحونى عشت أغترف الخيرا
فإن هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

وقد طلب إليه آخر أن يخمس له البيت الآتى :

هات النجوم أصغ بها أبياتى
فقال توأ فى روعة ظاهرة :

آل النبى تزايدت لوعاتى
لا تحرمونى الوصل قبل مماتى^١

ياطالباً وصفى لهم بالذات
هات النجوم أصغ بها أبياتى

إن المقام سما عن الكلمات

^١ - يريد بهذا الطلب اختبار الإلهام الفورى الذى اشتهر به الشيخ من عطاء ربه لأوليائه ،
ولى رسالة مطبوعة عنه رضى الله عنه بعنوان :شاعر الأولياء .
^٢ - كان رضى الله عنه كفيف البصر .

تحية الشاعر الصديق :

وقد كنت طلبت من الصديق الوفي الراحل المرحوم الأستاذ محمد جاد الرب أن يمدنى بشيء من شعوره الرقيق لأضمنه كتابي ((أم المؤمنين - السيدة خديجة الكبرى)) وكان عفا الله عنه شاعراً مطبوعاً ، فقدم لى رباعية أثبتها فى ذلك الكتاب ومنها :

على الأعتاب يا آل النبي	وقفنا بين أيديكم نجيبى
نجيبى بالصلاة على الصفى	محمد النبى الهاشمى
على الزهراء أم النيرين	على السبطين قررة كل عين
حبيبى روحنا : حسن حسين	على الأب فى معاليه على
بكم وبزينب طرزت شعرى	بكل سلالة البيت الأغر
وقفت عليكم شعرى ونثرى	فياحظ الفواصل والروى
لقد باركتم الأقطار طرا	بمكة أو بطيبة أو بمصرا
مقامكم بها قد طاب نشرا	فطاب الكون بالعرف الشذى
على أبوابكم باباً فباباً	أناديكم وأنتظر الجوابا
لأدخل بالرضا تلك الرحاب	فإن رضاءكم شبعى وريبى
نشأت وعشت محسوباً عليهم	وسوف أموت منسوباً إليهم
فصل عليهمو ريبى وسلم	وأسعدنى بقرب سرمدى

الباب الثالث عشر

الصحابه الكرام

الصحابه الكرام هم صفوة الأمة المحمدية ، وهم أوائل الذين آمنوا على يديه صلى الله عليه وسلم ، ونصروا دعوته بأموالهم وأنفسهم ، وهم الذين تلقوا عنه أحكام شرعه ، وحفظوا أحاديثه الشريفة ، وهم الذين أفتوا فيما استجد من مسائل الفقه ، وهم الذين شرفوا بصحبته وقيادته وتربيته ، وهم الذين ائتملوا تحت رايته فلم يختلفوا ، وهم الذين فتحوا الفتوحات الإسلامية من بعده فكانوا عدة النصر في حياته وعدة الفتح من بعده ، فلهم على كل مسلم فضل ، ولهم على الإسلام اليد الطولى ، وقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الأنفال :
(هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم * يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ، ولذلك رأيت أن أمتع القارئ الكريم بذكرهم العاطرة .

تعريف الصحابى :

المعروف من طريقه أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه ، قال الإمام البخارى فى صحيحه : من صحب النبى صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . روى عن سعيد بن المسيب أنه لا يعد الصحابى إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين .
ولا شك أن شرف صحبته صلى الله عليه وسلم شرف عظيم ، وقد خولهم

هذا الشرف أن يكونوا خير قرن في قرون الأمة المحمدية ، وفى الحديث الشريف : ((خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) . ومع أن الصحابة الكرام نالوا شرف الصحبة النبوية بصفة عامة ، إلا أن السابقين الأولين منهم نالوا أشرفها بصفة خاصة ، فكانوا أفضل الصحابة وأفضل الأمة على الإطلاق .

السابقون الأولون :

وقد خلد القرآن الكريم السابقين الأولين بفضلهم فقال تعالى فى سورة التوبة : (والسابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .
وجاء فى تفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه : هم الذين صلوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار فى قول سعيد بن المسيب وطائفة ، وفى قول أصحاب الشافعى هم الذين شهدوا بيعة الرضوان وهى بيعة الحديبية وقال الشعبى . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر ، واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم .

أفضل الصحابة :

وقال أبو منصور البغدادي التميمي : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقيون إلى تمام العشرة¹ ، ثم البديريون ، ثم أصحاب أحد ، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

أبو بكر أول المؤمنين إسلاماً :

أما أولهم إسلاماً فروى مجاهد عن الشعبي قال : سألت ابن عباس من أول الناس إسلاماً ؟ قال : أبو بكر ، أو ما سمعت قول حسان :

¹ - الستة بعد الخلفاء الراشدين الأربعة هم سادتنا طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم ، فإذا ضم اليهم سادتنا الخلفاء الأربعة بلغ العدد عشرة .

إذا تذكرت شجواً من أخی ثقة
فأذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها
بعد النبي وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده
وأول الناس منهم صدق الرسلا

وكان إسحق بن إبراهيم بن راهويه الحنظلي يقول : أول مسلم من الرجال ((أبو بكر))
ومن النساء ((خديجة)) ، ومن الصبيان ((علي)) ، ومن الموالى ((زيد بن حارثة)) ومن
العبيد ((بلال)) . وقال الليث بن سعد : حدثني أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان
سنين وروى أن علياً أسلم ابن سبع سنين وقيل ابن عشر .

بين التفضيل والمساواة :

وقال ابن خويز منداد : تضمنت الآية المذكورة آنفاً (والسابقون الأولون من المهاجرين
والأنصار . . .) تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة في علم أو دين أو
شجاعة أو غير ذلك في العطاء في المال والرتبة في الإكرام ، واختلف العلماء في تفضيل
السابقين بالعطاء على غيرهم ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يفضل بين الناس في العطاء
بعضهم على بعض بحسب السابقة ، فكان عمر رضى الله عنه يقول له : أتجعل ذا السابقة
كمن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : إنما عملوا لله وأجرهم عليه ، وكان عمر
يفضل في خلافته ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقن أسفل الناس بأعلاهم ، فمات
من ليلته .

بين أمير المؤمنين عمر وزيد بن ثابت وأبي بن كعب :

ويستطرد الإمام القرطبي قائلاً

وقرأ عمر (والأنصار) فراجعه زيد بن ثابت ، فسأل عمر أبي بن كعب فصدق زيداً ، فرجع
إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا (يقصد المهاجرين) رفعا رفعة لا ينالها معنا أحد ، فقال
أبي مصداق ذلك في كتاب الله في

أول سورة الجمعة : (وآخرين منهم لما يلحقوا) . وفي سورة الحشر : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان) وفي سورة الأنفال : (الذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم)

الاتباع والإحسان :

وبين تعالى بقوله (بإحسان) ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات ، إذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم . واختلف العلماء في التابعين ومراتبهم ، فقال الخطيب الحافظ : التابعى من صحب الصحابى ويقال للواحد منهم تابع وتابعى ، وكلام الحاكم أبى عبد الله وغيره مُشعر بأنه يكفى فيه أن يسمع من الصحابى أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية .

وقد قيل أن اسم التابعين ينطق على من أسلم بعد الحديبية ، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم^١ من مسلمة الفتح ، لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخالد : ((دعوا لى أصحابى فوالذي نفسى بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد^٢ ذهباً ما بلغ مد^٣ أحدهم ولا نصيفه^٤)) .

كبار التابعين :

وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة وهم :

سعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار . وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ، فقيل له : فعلقمة والأسود ؟ فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود . وقال أيضاً رضى الله عنه : كان عطاء مفتى مكة والحسن مفتى البصرة .

^١ - قاربهم فى زمن إسلامهم

^٢ - أحد جبل بالمدينة

^٣ - كيل وهو رطل وثلاث عند أهل الحجاز ، وهو ملء اليدين ويوازى بالكيل المصرى ثلاث قَدح .

^٤ - نصيفة أى نصفه .

وروى عن ابى بكر بن أبى داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن وثالثتهما - وليست كهما - أم الدرداء . وفي التابعين طبقة تسمى ((بالمخضرمين)) وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم ، وأحدهم مخضرم (بفتح الراء) كأنه خضرم أى قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة .

أين نحن من السابقين :

ويضيف الإمام القرطبي قائلاً :

وكفانا نحن قوله عز وجل : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وقوله عز وجل : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً)^١ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((وددت أنا قد رأينا إخواننا^٢ . . .)) الحديث ، فجعلنا إخوانه إن إتقينا الله واقتفينا آثاره ، حشرنا الله فى زمرة ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق محمد وآله .

الصادقون والمفلحون :

وفي تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) . قال الإمام القرطبي ، أى مع الذين خرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم ، وقيل هم المهاجرون لقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه يوم السقيفة^٣ :
إن الله سمانا

^١ - أى عدول .

^٢ - والحديث بتمامه أثبتته الإمام القرطبي فى تفسير سورة الحشر هكذا :

وفى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج إلى المقبرة فقال :

((السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا ، قالو :

يا رسول الله ، ألسنا بإخوانك ؟ فقال بل أنتم أصحابى ، وإخواننا الذين لم يأتوا يعد وانا فرطهم على

الحوض)) فبين صلى الله عليه وسلم أن إخوانهم كل من يأتى بغيرهم ، والفرط هو الساقى فما أهنأنا

بسقياه صلى الله عليه وسلم .

^٣ - يوم انتخابه خليفة .

الصادقين ، فقال تعالى في سورة الحشر : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) . ثم سماكم بالمفلحين فقال تعالى : (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)^١ .

ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه :

والمهاجرون هنا : (أى فى الآية السابقة) من هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حباً فيه ونصرة له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حباً لله ورسوله ، حتى أن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحفيرة^٢ في الشتاء ماله دثار^٣ غيرها . وروي أن أمير المؤمنين عمر ، خطب بالجابية^٤ فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبا بن كعب ومن أراد أن يسأل عن الفرائض (المواريث) فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله تعالى جعلني له خزاناً وقاسماً ألا وإنى بادئ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فمعطهين ، ثم المهاجرين الأولين أنا وأصحابي أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا .

ولا خلاف أن الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها ، والمعنى أنه لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما والتبوء هو التمكن .

^١ - سورة الحشر أيضاً .

^٢ - الحفرة التي تحفر في الأرض .

^٣ - غطاء .

^٤ - بلدة قرب دمشق .

الأنصار يؤثرون على أنفسهم :

وكان المهاجرون ينزلون في دور الأنصار ، فلما غنم عليه الصلاة والسلام أموال بنى النضير ، دعى الانصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم فى منازلهم وإشراكهم في أموالهم ، ثم قال : ((إن أحببتهم قسمت ما أفاء الله على من بنى النضير بينكم وبينهم وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وإن أحببتهم أعطيتهم وخرجوا من دوركم ، فقال سعد بن عبادة (رئيس الخزرج) وسعد بن معاذ (رئيس الأوس) : بل نقسمه بين المهاجرين ويكونوا في دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار)) .
أقول : ولا عجب أن يصف الله الأنصار بالإيثار في قوله تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . فقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاه ، فقال : إن أخی فلاناً وعیاله أحوج إلى هذا منا ، فبعثه إليهم ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة ابيات^١ حتى رجعت إلى أولئك فنزلت (ويؤثرون على أنفسهم)

سيدتنا عائشة والإيثار :

والإيثار هو تقديم الغير على النفس رغبة في أجر الآخرة ، وينشأ من قوة اليقين ، وتقدير أخوة الإسلام ، والمحبة في الله تعالى . وفي موطأ الإمام مالك أنه بلغه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن مسكيناً سألها وهى صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لموة (خادمة) لها : أعطيه إياه ، فقالت : ليس لك ما تفترين عليه ، فقالت : أعطيه إياه ، قالت ففعلت ، قالت : فلما أمسينا

^١ - بيوت .

أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدى لنا شاة و كَفَنَهَا^١ فدعتنى عائشة فقالت : كلى من هذا ،فهو خير من قرصك . فكانت أم المؤمنين عائشة ممن أثنى الله عليهم بالإيثار على النفس مع ما هم فيه من الحاجة.

أبو عبيدة و الإيثار :

و كان الإيثار دأب كثير من ساداتنا الصحابة لحرصهم على مرضاة الله فى عبادة الفقراء ، و فيما رواه ابن المبارك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة ثم قال للغلام: إذهب إلى عبيدة بن الجراح ثم تلكأ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها ، فذهب بها الغلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : وصله الله و رحمه ؛ ثم قال: تعالى يا جارية : اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، و بهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذاها.

معاذ والإيثار :

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل و قال : اذهب بهذه إلى معاذ بن جبل ، وتلكأ فى البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع ، فذهب بها إليه ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين : أجعل هذه فى بعض حاجتك فقال : رحمه الله ووصله، و قال : يا جارية : اذهبي إلى بيت فلان بكذا و بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ فقالت: و نحن و الله مساكين فأعطنا ، و لم يبق فى الخرق إلا ديناران قد جاء بهما إليها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك و قال: إنهم إخوة بعضهم من بعض .

ولاغربة أن نرى تلك المكارم عند السادة الصحابة ، فقد سعدوا بعشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرصوا على التأسى به فى الأقوال والأفعال والأحوال ونصروا دعوته بأنفسهم وأموالهم ، فكانوا أئمة الهدى ، وقادة السالكين ، ومصابيح النور فى سبيل الرشاد ، رضى الله عنهم وأرضاهم

^١ - كانوا يلقون الشاة المذبوحة بعجين القمح ، فإذا شويت انساب دهنها إلى لفافة العجين المسماة باكفن وكان ذلك من طيب الطعام .

الإيثار في الإحتضار :

وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شيء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق¹ سقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فإذا أنا برجل يقول : آه آه ، فأشار إلى ابن عمى أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه آه ، فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه آه ، فأشار هشام أن انطلق إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات .

السادة الصوفية والإيثار:

أقول : و قد قرأت فيما قرأت أن ابن بشار الفقيه جاء إلى الامام أبى بكر الشبلى (تلميذ الامام الجنيد رضى الله عنهما) و قال له : كم فى خمس من الإبل ؟ فسكت الشبلى ، فكرر ابن بشار سؤاله ، فقال الشبلى : تريد زكاتها ؟ قال : نعم ، قال فى واجب الشرع شاة ، وفيما ينبغي لأمثالنا كلها ، قال بن بشار : ألك فى ذلك إمام ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، خرج عن كل ماله فى سبيل الله ، ولما سأله صلى الله عليه وسلم : وما الذى أبقيت لعيالك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فذهب ابن بشار إلى الفقهاء متغير الوجه وقال لهم : ذهب الصوفيه بالخير كله ، وأضعنا عمرنا فى المجادلات .
وقال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : ما غلبنى أحد ما غلبنى شابٌ من أهل بلخ قدم علينا حاجاً فقال لى : يا أبا يزيد : ما حد الزهد عندكم ؟ فقلت : إن وجدنا أكلنا ، وإن فقدنا صبرنا ، قال : هكذا كلاب بلخ عندنا ، فقلت : وما حد الزهد عندكم ؟ قال إنا فقدنا شكرنا ، وإن وجدنا آثارنا .

بين الإيثار والإمساك :

هذا ويتعرض الإمام القرطبي لموضوع الإيثار فيقول رضى الله عنه :
وردت أخبار صحيحة فى النهى عن التصدق بجميع ما يملكه المرء فإن

¹ - الرmq : بقية الروح .

اعترض بهذه الأخبار على الإيثار فإننا نقول له : إنما كره ذلك فى حق من لا يوثق منه الصبر على الفقر ، وخاف أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه ، فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم فلم يكونوا بهذه الصفة ، بل كانوا كما قال الله تعالى .
(والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) . وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك ، والأمساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار .

الجود بالأرواح :

على أن جود الصحابة لم يقف عند بذل الأموال فحسب ، بل كانوا يجودون بأرواحهم إرضاء لله ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى نزل فيهم قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً * ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً) . والنحب معناه النذر ، وقيل معناه الموت .

ومن أمثلة جودهم بأرواحهم ما رواه البخارى ومسلم والترمذى عن أنس قال : قال عمى أنس بن النضر - سُميت به - ولم يشهد بدرأ مع رسول الله عليه وسلم فَكَبُرَ عليه فقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليرين الله ما أصنع ، قال ، فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واهماً لريح الجنة ، أجدها دون أحد ، فقاتل حتى

١ - أى عز على نفسه غيابه عن غزوة بدر .
٢ - إذا تعجبت من شئ طيب قلت واهها له ما أطيبه .

قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت عمتى الرُبَيْع بنت النضر : ما عرفت أذى إلا ببنايه ، ونزلت هذه الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية لفظ الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقالت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها فى قوله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت يده ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ((أُوجِبَ طلحة الجنة)) . وفى الصحيح أن أبا طلحة ترس على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتطلع ليرى القوم فيقول أبو طلحة لا تُشْرِفْ يا رسول الله ، لا يصيبونك ، نحري¹ دون نحرك ، ووقى بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم فَشَلَّتْ .
يقين الصحابة بالله :

وإن أردت أن تعرف كيف كان يقين السادة الصحابة عند لقاء الأعداء فاقرأ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) . واعجب للثناء قبل البلاء ، وللصبر فى موطن الجزع ، وللأمن فى موضع الخوف وللثبات فى محل الاضطراب ، وللصدق عند البأساء ، ولقد أصاب من قال فيهم : كانوا عباداً بالليل وأسوداً بالنهار .

وذلك الذى يشيرون إليه ووعدهم الله ورسوله به يكشف عنه قوله تعالى فى سورة البقرة : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا

¹ - أى أموت دفاعاً عنك لأفديك .

معهُ متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)) ، وكذلك قوله تعالى فى سورة الحج : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) . وقوله تعالى : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) . وكذلك قوله تعالى فى سورة الحج : (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) . وفى ذلك القول الكريم تزكية ربانية لسادتنا الصحابة فى نصرهم لدين الله باتباع شرعه ، ووعده بنصرهم على الأعداء ، وهو ما يفسر لك كيف ازدادوا بوعده الله إيماناً مع إيمانهم وهو ما يحكيه قوله تعالى فى سورة آل عمران فى وصفهم بعد واقعة أحد : (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب^١ أصحابه للخروج فى طلب جيش أبى سفيان وقال : ((لا يَخْرُجَنَّ معنا إلا من حضر يومنا بالأمس)) ، وذلك حين بلغه صلى الله عليه وسلم أنه هم بالرجوع إلى المدينة بعد أن بلغ الروحاء بعد موقعة أحد ، وهى على ثمانية أميال من المدينة وكان بأصحاب الرسول القرح (الجروح) فتحاملوا على أنفسهم وهم جرحى حتى لا يفوتهم أجر الجهاد ، وبلغوا حمراء^٢ الأسد ، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانصرفوا . وفى غزوة

^١ - أى دعاهم للخروج .
^٢ - موضع خارج المدينة المنورة .

الأحزاب (الخندق) كتب الله النصر للمؤمنين . وهل يخزى الله حبيبه ومصطفاه فى أصحابه ؟ وهل يتخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمؤمنين رءوف رحيم عن نصره أصحابه بنفسه وبدعائه .

الاستنجاد بالله تعالى :

فقد شاركهم صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق ، وعمل فيه بنفسه حتى غطى بطنه التراب ، ولما اشتد الأمر على المسلمين ، وطال المقام فى الخندق ، قام عليه الصلاة والسلام على التل الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى وتوقع ما وعده الله من النصر ودعا ربه فقال : ((يا صريخ^١ المكرويين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى)) ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : ((إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك)) . فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وبسط يديه وأرخص عينيه وهو يقول : ((شكراً شكرياً كما رحمتنى ورحمت أصحابى)) وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً ، فبشر أصحابه بذلك ، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء^٢ فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ، ولا بناء إلا طرحته ، وجعلوا يَنْتَرِسُونَ من الحصباء ، وتفرقت الأحزاب .

عبرة :

أرأيت أيها القارىء العزيز كيف يجيب الله المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، فَقَلَّدْ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، واستغث ربك فى مواطن شدتك ، موقناً أنه أقرب إليك من جبل الوريد ، وليكن شعار المؤمن : ((لا إله إلا هو عليه توكلت)) ، وهو الشعار الذى أوصى به الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت)

^١ - الصريخ ذو المغيث .
^٢ - الحصباء هى الحصى .

وشعار جماعة المؤمنين : (حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وقد قلت فى مقال لى نشرته مجلة منبر الاسلام الغراء بعنوان ((الصوفية فى إلهامهم))
بعدها الصادر فى أول الحجة ١٣٩٠ هـ :

((والمتوكلون على الله فى أمورهم فى ثقة واطمئنان ، يكفيهم الله ما أهمهم وقد كان مولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتمهم :) ومن
يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله
بالنع أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً) ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها
ويعيدها .

واستشهدت فى مقالى المذكور بشعر لأستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل من إلهامه
الفورى الذى نقلناه عنه ومنه :

مد اليدىن إليك أفضل شرعة ولغير وجهك لا يصح سؤالى
إن مر بى عصف الزمان وقصفه والله لست بما شهدت أبالى
أحبه وأخاف سطوة غيره هذا وحقك لا تعيه خصالى
روض المحبة قد شهدت جماله وجلاله فثبت فى أحوالى

أشداء رحماء :

وفى حين كان السادة الصحابة أشداء على الكفار كانوا رحماء بينهم ، يعاون قويهم ضعيفهم
، ويعطف غنيهم على فقيرهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم ، فأثبت الله لهم وصفى الشدة والرحمة
فى قوله تعالى فى سورة الفتح : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء
بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود
ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه
يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا

عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لأنه أنكر نص القرآن ، ومعنى (إن الله معنا) ، أى بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة .

وقال سيدنا عمر يوم السقيفة وهم يتشاورون فى اختيار الخليفة : من له مثل هذه الثلاث : ثانى اثنين ، إذ هما ، إن الله معنا - من هما ؟ ثم بسط يده فبايع أبا بكر وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة ، ولهذا قال بعض العلماء فى قوله تعالى (ثانى اثنين إذ هما فى الغار) ما يدل على أن الخليفة بعد النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، لأن الخليفة لا يكون أبداً إلا ثانياً . والقادح فى خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه . والذى يقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة فضل الصديق رضى الله عنه على جميع الصحابة ، ويجب أن تؤمن بذلك القلوب والأفئدة ، ويقول الإمام القرطبى فى هذا المقام : ولا مبالاة بأقوال أهل الشيع ولا أهل البدع ، ثم بعد الصديق عمر الفاروق رضى الله عنه ثم بعده عثمان رضى الله عنه ، فقد روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما : كنا نخير بين الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف فى عثمان وعلى فالجمهور منهم على تفضيل عثمان ، وروى عن الإمام مالك أنه توقف فى ذلك ، وروى عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور ، يقول القرطبى : وهو الأصح إن شاء الله أقول : وستأتيك بعد قليل شهادة الصدق التى شهد بها إمامنا على للصديق والفاروق عليهما الرضوان ، ولا محل إذن لتشيع الجاهلين بعد أن شهد الإمام نفسه بفضلهما وسبقهما ، وأنكر كرم الله وجهه على من يعاديهما ، وقال صراحة : ((والذى خلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن ، ولا يبغضهما ويخالفهما إلا شقى مارق ، فحبهما قربة ، وبغضهما مروق)) ونعوذ بالله من الجهل والجاهلين .

ولا يفوتنى فى مناسبة قوله تعالى (ثانى اثنين) أن أنبه إلى أن هذا الوصف الجميل لازم سيدنا أبا بكر رضى الله عنه فى غير الهجرة ، فهو ثانى اثنين فى الإيمان ، وثانى اثنين فى الغار ، وفى الهجرة ، وثانى اثنين فى حكم الأمة المحمدية

(بعد الرسول صلى الله عليه وسلم) ، وثانى اثنين فى إمارة الحج^١ ، وثانى اثنين فى الروضة النبوية الشريفة ، فهو أول من دفن إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسعيد من أسعده الله .

وقد ميز السادة الصحابة الدنيا من الآخرة بما أراهم الله فى قوله الكريم فى سورة الشورى : (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) ، وجاء فى تفسير الآية أنها نزلت فى سيدنا أبى بكر رضى الله عنه حين أنفق جميع ماله فى سبيل الله فلامه الناس .

كما نزل فيه رضى الله عنه قوله فى سورة الشورى أيضاً : (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون) . وقال الإمام على كرم الله وجهه : اجتمع لأبى بكر مال مرة ، فتصدق به كله فى سبيل الخير ، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزل قوله تعالى : (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا) إلى قوله تعالى : (وإذا ما غضبوا هم يغفرون)^٢ . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبى بكر فلم يرد عليه شيئاً فنزلت الآية . يقول الإمام القرطبى : وهذه من محاسن الأخلاق ، يشفقون على ظالمهم ويحلمون على من جهل عليهم ، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه لقوله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) .

وتأمل قوله تعالى بعد ذلك فى سادتنا الأنصار : (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) .

قال عبد الرحمن بن زيد : هم الأنصار بالمدينة ، استجابوا إلى الإيمان بالرسول

١ - فتحت مكة فى السنة الثامنة من الهجرة وولى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابى الجليل عتاب بن أسيد أميراً عليها وولاه فى تلك السنة إدارة الحج ، وفى السنة التاسعة ولى على إمارة الحج سيدنا أبى بكر فحج بالناس . وفى السنة العاشرة حج صلى الله عليه وسلم حجة الوداع .

حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة ، فقد أقاموا الصلاة لأوقاتها ، وكانوا يتشاورون في أمورهم ويتفقون ولا يختلفون . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب (ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله) . وأول ما تشاور فيه الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة التي انتهت الشورى فيها إلى استخلاف أبي بكر رضى الله عنه ، وتشاوروا بعدها في أهل الردة الذين حاربهم أبو بكر رضى الله عنه . وحق للسادة الصحابة أن يتشاوروا ، فقد سن لهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الشورى وهو أعقل العقلاء ، وهو الذى قال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الإمام الترمذى رضى الله عنه عن أبي هريرة رضى الله عنه .
((إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سُمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نساتكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها)) .
ونعوذ بالله من سوء الحال والمآل .

الخلف بعد السلف :

ويقول الله تعالى فى سورة الحشر بعد الآيتين الخاصتين بسادتنا المهاجرين والأنصار : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) يعنى التابعين ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة . وجاء فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه : قال ابن أبى ليلى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والأنصار ، والذين جاءوا من بعدهم فاجهد ألا تخرج من هذه المنازل . وقال بعضهم : كن شمساً ، فإن لم تستطع فكن قمراً ، فإن لم تستطع فكن كوكباً مضيئاً ، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً ، ومن جهة النور لا تنقطع ، ومعنى هذا كن مهاجراً فإن قلت : لا أجد ، فكن أنصاريّاً ، فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله (أى فى الآية

السابقة) . وروى مصعب بن سعد قال : الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان^١ وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت .

فقه الإمام زين العابدين في حب الصحابة :

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده على بن الحسين (زين العابدين) رضى الله عنه أنه جاءه رجل فقال له : يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقول في عثمان ؟ فقال له : يا أخى أنت من قوم قال الله فيهم (للفقرء المهاجرين) قال : لا ، قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم (والذين تبوأوا الدار والإيمان ...) قال : لا ، قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام وهى قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) .

وقد روى محمد بن بن الحسين رضى الله عنهم ، عن أبيه أن نفراً من أهل العراق جاءوا إليه فسبوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم عثمان رضى الله عنه فأكثرُوا فقال لهم : أمن المهاجرين الأولين أنتم ؟ قالوا : لا ، فقال : أفمن الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ؟ فقالوا : لا ، فقال قد تبرأتم من هذين الفريقين ، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) قوموا ، فَعَلَّ اللهُ بكم وفعل .

فقه إمامنا على :

ولا تستغرب ذلك ذلك منه ، فقد جاء فى كتاب ((الفاروق القائد)) للواء الركن محمود شيت خطاب أن رجلاً من قريش قال لإمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين نسمعك تقول فى الخطبة أنفاً : اللهم أصلحنا بما أصلحت الخلفاء الراشدين المهتدين فمن هم ؟ فاغرورقت عيناه ثم أهملهما^٢ فقال : هم حبيباى

^١ - وهم الصحابة من مهاجرين وأنصار ، والمنزلة الباقية هم الذين جاؤا من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة .
^٢ - أى فاضت عيناه بالبكاء .

وعمّك أبو بكر وعمر ، إماما الهدى وشيخا الإسلام ورجلا قريش والمقتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من اقتدى بهما عصم ومن اتبع آثارهما هدى إلى صراط مستقيم ، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله وحزب الله هم المفلحون . وقال علي : إن الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهم من الولاة إلى يوم القيامة ، سبّقا والله سبّقا بعيداً ، وأتعبا من بعدهما إتعباً شديداً ، وقال وهو على المنبر : والذي خلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن فاضل ، ولا يبغضهما ويخالفهما إلا شقى مارق ، فحبهما قريبة ، وبغضهما مروءة ، ما بال أقوام يذكرون أخوى رسول الله ووزيرييه وصاحبيه وسَيِّدَي قريش وأبوي المسلمين ، فأنا برىء ممن يذكرهما بسوء وعليه معاقب .

فقه الإمام مالك :

ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه فى تفسيره :

هذه الآية (والذين جاءوا من بعدهم ...) دليل على وجوب محبة الصحابة ، لأنه جعل لمن بعدهم حظاً فى الفىء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، وأن من سبهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شراً أنه لا حق له فى الفىء ، روى ذلك عن مالك وغيره . قال الإمام مالك : من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو كان فى قلبه عليهم غل ، فليس له حق فىء المسلمين ، ثم قرأ (والذين جاءوا من بعدهم) الآية .

الاستغفار للصحابة :

وفى الآية أمر بالاستغفار للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : أمر الله بالاستغفار لأصحاب محمد وهو يعلم أنهم سيفتنون ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها .

وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا رأيتم الذين

يسبون أصحابي فقولوا : لعن الله أشركم .

وقال العوام بن حوشب : أدركت صدر هذه الأمة يقولون : اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تألف عليهم القلوب ، ولا تذكروا ما شجر فتجسروا الناس عليهم . وجاء فى تفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه :

((روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقرأ مالك هذه الآية : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)

حتى بلغ (يعجب الزراع ليغيب بهم الكفار) فقال مالك : من أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية . وعقب الإمام القرطبي قائلاً :

لقد أحسن مالك فى مقاله وأصاب فى تأويله ، فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه فى رواية فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين ، قال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه الآية) ، وقال (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) الآية ، وقال (رجال صدقوا ما عهدوا الله عليه) الآية ، وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالتهم ومآلهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم)) وقال : ((لاتسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مئداً أحدهم ولا نصيفه)) خرجهما البخارى ، والنصيف هو النصف . وفى البزار عن جابر مرفوعاً صحيحاً ((إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبي والمرسلين ، واختار لى من أصحابى أربعة - يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - فجعلهم أصحابى)) . وروى عويم بن ساعدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله عزوجل اختارنى واختار لى أصحاباً فجعل لى منهم وزراء وأختاناً^١ وأصهاراً فمن سبهم فعلياً

^١ - أزواج بناته صلى الله عليه وسلم .

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً - الصرف التوبة والعدل الفدية -)) ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة فحذار من الوقوع فى أحد منهم .

واستطرد الإمام القرطبي رضى الله عنه قائلاً : وعن عمر بن حبيب قال :

حضرت مجلس هارون الرشيد ، فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن أبا هريرة متهم فيما يرويه ، وصرحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره ، فنظر إلى الرشيد نظر مغضب ، وقمت من المجلس فأنصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالبواب ، فدخل فقال لى : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنط وتكفن ، فقلت : اللهم إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك ، وأجلت نبيك أن يطعن على أصحابه فسلمنى منه .

فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف ، وبين يديه النطع^١ فلما بصر بى قال : يا عمر بن حبيب : ما تلقانى أحد من الرد والدفع لقولى بمثل ما تلقيتنى به ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن الذى قلته وجادلت عنه فيه ازدرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به ، إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول ، فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياءك الله ، وأمر لى بعشرة آلاف درهم :

وأضاف الإمام القرطبي يقول :

فالأصحابه كلهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياءه ، وخيرته من

^١ - وانطع بساط من جلد (بفتح انون وسكون الطاء أو فتحها .

خلقه بعد أنبيائه ورسله ، هذا هو مذهب أهل السنة والذى عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة ، وأن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلى وطلحة والزبير وغيرهم رضى الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضى عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى : (مغفرة وأجرًا عظيمًا) ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد ، وكل مجتهد مصيب .

وفى تفسير سورة الحجرات قال الإمام القرطبي رضى الله عنه فى هذا المقام : لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ، ولنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن سبهم ، وإن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة على النبى صلى الله عليه وسلم . إن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ، فلو كان ماخرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً . وما صح وانتشر من إخبار على بأن قاتل الزبير فى النار وقوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار ، وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال .

... وقد سئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم . فقال : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) . وسئل بعضهم عنها أيضاً ، فقال : تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أخضب بها لسانى . وقد سئل الحسن البصرى عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا قال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن ونعلم أن القوم أعلم بما دخلوا فيه منا ، وتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا

فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ، إذ كانوا غير متهمين فى الدين .

أقول وقد وضحت للقارىء العزيز فى الباب الحادى عشر تاريخ معركة الجمل وبينت موقف كل من سادتنا طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ، وهو موقف التوبة الصادقة ، والرجوع إلى الحق دون التماذى فى الباطل ، وإنى أسلم كل التسليم بعد التهم وعدالة الصحابة الكرام ، وأربأ بنفسى أن أتعرض بالسوء لواحد من هؤلاء الثلاثة ، الذين حكموا على أنفسهم بأنفسهم بالندم والاستغفار ، فانسحب الزبير قبل أن تبدأ المعركة حين ذكره الإمام بما قاله يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أما إنك ستقاتله وأنت ظالم له)) وجدد البيعة للإمام طلحة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة شهيداً فى ذمة الله ، وتمنت أم المؤمنين رضى الله عنها أن لو كانت ماتت قبل يوم الجمل بعشرين عاماً ، كما كانت تبكى حتى تبل خمارها .

وليس لنا موقفهم من أنفسهم الرجاعة إلى الحق أن نخوض فى أعراضهم ، بل علينا أن نقدر لهم رجوعهم للحق بعد ما تبين لهم وأن نسترضى الله عنهم .

بين عمرو بن العاص وبينى :

وفى هذه المناسبة أقول إنى حين قرأت تاريخ الإسلام ، دخل فى نفسى شىء كثير من موقف عمرو بن العاص من إمامنا على فى معارك صفين ، وتمنيت ، وهو فاتح الشام ومصر ، أن لو كان موقفه غير ما كان ، فرأيت فى المنام قائلاً يقول لى : إن الله قابل عمرو بن العاص بأتم رحمة ، ولما قمت من نومى استغفرت الله وسألته تعالى أن يجنبنا الخوض فى أعراض الصحابة العدول ، وأخص منهم السابقين الأولين ، لما لهم علينا من سبق فى الدين وجهاد فى سبيل الله . ولعل عمرو بن العاص قبل الله توبته حين تاب إلى ربه وهو فى آخر عمره ؛ قال : اللهم أمرت فعصينا ، ونهيت فارتكبنا ، اللهم لا برىء فاعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله . يقول ابن عباس فجعل يرددتها حتى فاض .

وأهل السنة على حق في قولهم : إن الصحابة كلهم عدول ، لأن الحكم للغالب ، ومن جانب الحق منهم قلة عضدوا معاوية ، والقلة لا تغير من وصف الصحابة بأنهم عدول ككل ، ومن حاد منهم عن الحق فالملامة على نفسه لا على الباحث عن الحق وأهله لوجه الله تعالى دون تعصب ، لأن إقرار الباطل باطل لا يرضاه الله ، وتربية الناشئين على الحق خير من تزييف الباطل وإلباسه ثوب الحق تحت ستار الاجتهاد ، ومن شرط الاجتهاد ألا يكون فيه هوى النفس الأمانة بالسوء ، كتصرفات معاوية التي غلبه فيها هواه الشخصي لنفسه ولابنه يزيد وذريته من بعده ، حتى قال فيه القائل بحق :

فانظر رعاك الله في أقواله وابحث هداك الله عن أفعاله
 ترى الخداع والنفاق والكذب مع الفجور والرياء واللعب
 وقتل أعمار وما عمار من قال فيه السيد المختار
 ما في الصحيحين أتى واشتهرا وعده السيواطي تواترا
 فالبغي حكم قاتليه قطعاً واللعن حكم البغي ذاك شرعاً
 قصدت منها النصح لا سواه نصحاً صحيحاً ظاهراً هداه
 رأيي في معاوية :

لذلك لا أستطيع أن أقر موقف معاوية من الإمام على ، بعد أن خذله هواه الشخصي فخرج على الإمام بغير حق ، لأنه كان ملزماً وهو بالشام ببيعة الإمام التي بايعه بها أهل الرأي بالمدينة من المهاجرين والأنصار وأهل بدر ، وهم الذين بايعوا من قبله من الخلفاء الرشدين ورضى معاوية بيعتهم .

^١ - هو سيدنا عمار بن ياسر وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ويح بن سمية تقتله الفئة الباغية ، وقد قتله فئة معاوية في صفين .
 ويلاحظ أن معاوية أسلم بعد فتح مكة ، وكان هو وأبوه من الطلقاء الذين أسرهم المسلمون وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الطلقاء أهلاً للخلافة ، ولكنه خرج على الإمام على وانتزع الخلافة بعد حروب ذات كروب كما هو معروف ، ثم نبذ مبدأ الشورى وباع بقوة السلطان لابنه يزيد الذي غزا المدينة وهدم الكعبة وقتل الإمام الحسين السبط وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم يكن يزيد أهلاً لخلافة المسلمين ، بل كان مشهوراً بالفسق والمجون ولم يكن معاوية يجهل ذلك ولكن أعماه الهوى عن الحق .

وقد قلت قولى فى موقف معاوية فى كتابى ((خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن على ((وقد نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميه فى سنة ١٣٨٦ هـ ، ومما قلته فى مقدمة الكتاب موجهاً الكلام للإمام الحسن السبط رضى الله عنه :

((ولقد كان أبوك فى حربيه بعد المسالمة مجتهداً ، وكنت أنت فى سلمك بعد الاستعداد للقتال مجتهداً ، وكان أخوك فى قتاله مكرهاً مجتهداً ، ذلك بأن مواقفكم كلهم خلت من الأهواء النفسية والأغراض الدنيوية ، وكنتم تريدون خير الأمة وحفظ الدين الذى قام فى بيتكم ، فكان قيامه رحمة للعالمين .

((وعلى ضدكم كان خصومكم ، وإنى أقيم الشهادة لله ، فقد تلبسوا بهوى النفوس ، فجانبوا الحق ، وحادوا عن الصراط المستقيم ، ولئن كانت حرمة الصحابة واجبة على كل مسلم ، فحرمة آل البيت أوجب ، وبخاصة أن الحق كان على الدوام فى جانبهم ، كما كانوا هم على الدوام فى جانب الحق ، لا شبهة فى ذلك ، وتوضيح الواضحات من المشكلات كما يقولون. ((فإذا كانت قريش قد حاجت العرب والأمصار بالنبوة ، فبنو هاشم كانوا أولى من بنى أمية بالخلافة ، لا بالقرابة فحسب ، ولكن بالسبق فى الإسلام والسبق فى الجهاد ، ذلك إلى العلم والورع ، وهو أمر لا يسبقهم فيه سابق ولا يلحقهم لاحق ، باعتراف بنى أمية أنفسهم ، ولم ينل أمير المؤمنين عثمان الخلافة على أنه أموى بل نالها بسبقه وجهاده وسخائه ، وهى سجايا شخصية له ميزته عن قومه من بنى أمية ، وحين كان عثمان فى السابقين الأولين وفى المهاجرين الهجرتين ، كان معاوية وأبوه من ألد أعداء الإسلام .

((... وما بال عمرو بن العاص يشاركه الخطيئة فى الخصومة التى قامت على الطلب بدم عثمان ، وكان عمرو من المحرضين على عثمان حتى قال : كنت ألقى الراعى فأحرضه على عثمان ، وحين علم بقتل عثمان فرح وقال : أنا أبو عبد الله ما تكأت قرحة إلا أدميتها ، كما كان عمرو أول من أشار على عثمان باعتزال الخلافة ، وثار فى وجهه ، وقاطعه على ملأ من الناس وقال : اتق الله يا عثمان ، فقد ركبت أموراً وركبناها معك ، فما تباكى عمرو على عثمان ؟

((وإذا كنا مطالبين بحفظ حرمة الصحابة ، فمعاوية وأصحابه مطالبون بكف النفس عن الهوى قبل غيرهم من الأجيال التي تليهم ، حتى لقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حين نزل قوله تعالى : (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) : ما كنت أحسب أحداً من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية ، ويقول العارفون تعقيباً على قوله هذا : فكان ابن مسعود في هذا المقام فانياً عن الدنيا .

((وإذا كان خصومكم قد اتخذوا دم عثمان رضى الله عنه تكئة لهم فى موقفهم من أبيك كرم الله وجهه ، فماذا صنعوا هم لقتلة عثمان حين صار لهم الملك والسلطان ؟ وما بالهم لم يقتصوا من الثوار ؟ وما بالهم غنموا ملك الدنيا ، وأرضوا ورثة عثمان بالفتات وبيعوا كلمات

توبة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة :

((لقد خاصم أباك طلحة والزبير وعاونتهما أم المؤمنين عائشة ، رضوان الله عليهم ، ولكنهم رجعوا إلى الحق بعد أن تبين لهم . . .

((أما معاوية فأبى من دونهم إلا كيداً ونفوراً ، وأعلنها حرباً شعواء ، صلى المسلمون بناها في صفين حتى كان التحكيم ، وقصة التحكيم كانت أخزى علم الله من قصة الحرب ، فاتفق أبو موسى مع عمرو على شيء ، وأعلنه أبو موسى فى براءة ونكث عمرو فى خديعة ، فخلع علياً كما خلعه أبو موسى ولم يخلع معاوية كما كان الإتفاق ، بل ثبت معاوية بغير حق من كتاب أو سنة .

((ولم يكن معاوية طالب خلافة ، ولو أنه حرص على قيام الخلافة لرأى أن أباك كان أحق بها وأهلها ، لكنه كان يهدف إلى ملك الأكاسرة والقيصرة ، وكان المجتمع قد فتن بزخرف الدنيا ، ولعبت الأموال والمناصب بأفئدة كثير من الناس ، وحين رأى الملك قد استوثق له ، ورثه لابنه ((يزيد)) من بعده ، فخرج على مبدأ الشورى ، وهو من أقدس حقوق الأمة ، كما خرج عما اشترطته

أنت عليه في شروط الصلح ، أما مستشاره عمرو فقد ورثه معاوية مصر وخراجها كما شرط عليه عمرو حين وقف إلى جواره يؤازره .

((فكيف بالله أجازى من يقول إن معاوية كان مجتهداً ، وهل كان مجتهداً حين أمر ولاته أن يسبوا أباك وأهلك على المنابر علانية على مسمع من الناس ، وأنتم الذين خلدكم بفضلكم كتاب الله الكريم ، وفي ذلك السب إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أو كيف أجازى من يقول إنه كان مجتهداً وقد قتل حجر بن عدى بلا ذنب وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد المجاهدين في الفتوحات الإسلامية ، كما قتل أصحاب حجر ، وكان معاوية يقول : ما قتلت أحداً إلا علمت فيم قتله إلا حجر فإنى لا أعلم فيم قتله

...

((أو كيف أجازى من يقول إنه كان مجتهداً ، وقد ألحق معاوية زياداً بأبى سفيان ، وكان لزيد أب معلوم هو عبيد ، والله تعالى يقول : (إدعهم لآبائهم هو أقسط عند الله) .

((أو كيف أجازى من يقول إنه كان مجتهداً وقد أخذ البيعة لابنه يزيد نابذاً الشورى وراء ظهره ، مع اشتهاه يزيد بفسقه وفجوره ، وكان أخوك الإمام الحسين علماً خفاقاً على ظهر الأرض يتمنى الناس إمامته ، ولم يكن معاوية يجهل أن استخلاف يزيد فيه خروج عن حدود الله ، وفيه خروج على شروط الصلح ، فقد عرض عليك معاوية أن يكون الأمر لك من بعده ، فأبيت أنت إلا أن يكون الأمر شورى بين المسلمين .

((ولقد أراد معاوية أن يؤسس ملكاً خالداً على الزمن لبني سفيان ، ولكن قدر الله أن يموت يزيد في شبابه بعد اعوام أربعة من حكمه بل أقل ، ثم تحول الملك سريعاً إلى مروان وبنيه ، ولم يكن ذلك ليسر معاوية خاصة وأن مروان عارضه معارضة شديدة في بيعة يزيد وقال له : فأقم الأمر يا ابن أبى سفيان واهداء من تأميرك الصبيان ، وأعلم أن لك في قومك نظراً^١ ، وأن لهم على مناواتك وزراً^٢

^١ - هو الند الممانل لمعاوية ممن هم أكبر سناً وتجربة من ابنه يزيد .

^٢ - أى يستطيعون محاربتك .

((. . . وقد يسر أمرى فى دراسة موقف معاوية بعض أهله من الأمويين المنصفين ، فقد أبطل بدعة السب على المنابر أمير المؤمنين الأموى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فكان عمله هذا شهادة ضد معاوية فى باطله .

((وحين تنازل معاوية الثانى بن يزيد عن الخلافة ، خطب خطبة زلزل بها دولة بنى أمية ومكن لخلافة عبد الله بن الزبير ، فقد قال فى تلك الخطبة يكشف عن معاوية الأول ويزيد :
((أيها الناس إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته ، فصار فى قبره رهيناً بذنوبه ، وأسير بخطاياهم ، ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك وركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه ، وإن من أعظم الأمور علينا لسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرب الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم أمركم)) .
((وتلك شهادة أخرى على معاوية الأول من حفيده ، فإن طعنوا فى شهادتنا نحن الآخرين فتلك شهادة أهله الأولين .

((أما عمرو بن العاص فقد عاون معاوية وعادى أهل البيت ، وشهد بنفسه على نفسه وهو يحتضر ، فندم على ما فرط منه ، فقد روى عنه ابن عباس رضى الله عنهما أنه حين احتضر قال : اللهم خذ منى حتى ترضى ، اللهم أمرت فعصينا ، ونهيت فركبنا ، فلا برىء فأعذر ولا قوى فأنتصر ولكن لا إله إلا الله ، يقول ابن عباس فجعل يردد ما حتى فاض .

((وإنى أقول بعد أن سردت كارهاً لمعاوية وعمرو تلك المساوى كما نقلها ثقات المؤرخين)
ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)

وقد قلت فى كتبى ((المربى)) المطبوع بمطبعة الحلبي فى سنة ١٩٧٤ فى فضل ساداتنا الصحابة ما نصه : وقد أخذ ساداتنا الصحابة التربية العالية عن سيد المرسلين صلى الله

عليه وسلم ، وقد غمرتهم أنواره غمراً ، فلانت قلوبهم بعد قسوتها ، وخشعت أرواحهم بعد جموحها ، وقد كان يجلس إليه صلى الله عليه وسلم البدوي الجلف فلا يقوم من مقامه حتى يصير ملكاً رحيماً بعد أن كان شيطاناً رجيماً ، وليس هذا بالعلم وحده ، بل بالتهذيب الروحي والنور القلبي فالعلم يبدد ظلمات الجهالة من العقل ، والنور يبدد آفات القساوة من القلب (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)

((وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يذوقون من حلاوة القرآن ما لا ندوق ، وكانت تقشع منه جلودهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، فما لنا لا نحس بإحساسهم والقرآن لم يتغير ؟ الجواب عن ذلك ليس بعسير ، فالقلوب تغيرت ، والنفوس تكدرت ، والأرواح صدأت ، فصرنا نضحك حيث كانوا يبكون ، ونمزح حيث كانوا يجدون ، وننام وكانوا قليلا من الليل ما يهجعون .

((أوليسوا هم الذين اغتربوا عن أوطانهم وأهليهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ؟ أوليس منهم الذين ضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حين تابوا من تقصير وقع ؟ أو ليسوا هم الموصوفين بالوصف الخالد (رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود) ؟ أوليسوا هم الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ؟ فأين نحن من هذه الصفات وأمثالها ؟))

بين التشيع وحب الصحابة :

هذا ويعجبنى ما يقوله سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى في الجمع بين حب السادة الصحابة والسادة آل البيت وهو مذهب أهل السنة :

ألاً إننى فى حب آل محمد من الشيعة العليا ولكنى سئى
طبعت على حب الصحابة كلهم كآل رسول الله من مبتدا سئى

الباب الرابع عشر

فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

الصلاة على الرسول في الكتاب والسنة :

يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) . وقد جاء في الحديث الشريف ((من صلى على واحدة صلى الله عليه عشراً)) كما جاء ((أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة)) وجاء في مسلم مرفوعاً ((إذا سمعت المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة)) .

معنى الصلاة :

وقد سئل الإمام الغزالي رضي الله عنه : ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم ((من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ؟ وما معنى صلاة الله على من صلى عليه ؟ وما معنى صلاتنا عليه ، وما معنى استدعائه من أمته الصلاة عليه ، أيرتاح لذلك أم هو شفقة على الأمة ؟

فأجاب رضي الله عنه :

أما صلاة الله على نبيه وعلى المصلين عليه فمعناه إفاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم ، وأما صلاتنا عليه وصلاة الملائكة فهو سؤال وابتهاال في طلب تلك الكرامات ورغبة في إفاضة عليه ، فتختص الصلاة بالأنبياء ، وطلب الترضى¹ بالصحابة والأولياء والعلماء ، وطلب المغفرة والرحمة بالعوام

وأما استدعائه الصلاة من أمته فلثلاثة أمور :

¹ - أي بقولك عن أحد الصحابة أو الأولياء ، رضي الله عنهم .

الأمر الأول : أن الأدعية مؤثرة في استدرار فضل الله ونعمته ورحمته لا سيما في الجمع الكثير ، كالجمعة وعرفات والجماعات ، فإن الهمم إذا اجتمعت وانصرفت إلى طلب ما في الإمكان وجوده على قرب ، كالمطر ورفع الوباء وغيره ، فاض ما في الإمكان من الفيض الحق بوسائط إلى روحانيات المترشحين لتدبير العالم الأسفل المقتضى لتقهرهم ، وإنما أثرت الهمم لما بين الأرواح البشرية والروحانية العالية في المناسبة الذاتية فإن هذه الأرواح مجانسة لتلك الجواهر وإنما يقطع مجانستها التدنس بكدورات الشهوات ، ولذلك تكون همة

القلوب الزكية الطاهرة أسرع تأثيراً ، وتكون في حالة التضرع والابتهاال أنجح ، لأن حرقه التضرع تذيب كدورات الشهوات عن القلب في الحال ، وتصفيه وتكشفه من الظلمة ، ولذلك لا يخطى دعاء الجمع ، ولا يخلو الجمع من قلوب طاهرة تزيد التعاون تأثيراً . . . فإذا كانت الأدعية مؤثرة في استجلاب موائد الفضل ، وكان ما وعُد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحوض ومرتبة الشفاعة وغير ذلك من المقامات المحمودة غير محدود على وجه لا تتصور الزيادة فيها ، فاستمداده من الأدعية استزادة لتلك الكرامات .

الأمر الثاني : ارتياحه به كما قال صلى الله عليه وسلم : ((إني أباهى بكم الأمم)) ، وكما لا يبعد أن يطلع النائم منا على الغيب من أحوال الموتى مع كوننا في هذا العالم المظلم فلا يبعد أن تحصل للأرواح معرفة بمجاري أحوالنا مع أنهم في عالم القدس والصفاء .

الأمر الثالث : الشفقة على الأمة ، فحرضهم على ما هو حسنة في حقهم وقربة لهم ، وإنما تضاعف الصلاة لأن الصلاة ليست حسنة واحدة بل حسنات ، إذ فيها تجديد الإيمان بالله أولاً ، ثم بالرسول ثانياً ، ثم بتعظيمه ثالثاً ، ثم بالعناية بطلب الكرامة له رابعاً ، ثم بتجديد الإيمان باليوم الآخر وأنواع الكرامات خامساً ، ثم بذكر آله سادساً ، وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمات - ثم بتعظيم آله ونسبتهم إليه سابعاً ، ثم بإظهار المودة لهم ثامناً - ولم يسأل صلى الله عليه وسلم من أمته إلا المودة في القربى ، ثم الإبتهاال والتضرع في الدعاء تاسعاً ، والدعاء مخ العبادة ، ثم بالإعتراف عاشراً بأن الأمر كله لله ، وأن النبي وإن جل قدره فهو محتاج إلى رحمة الله عز وجل ، فهذه عشر حسنات سوى ما ورد الشرع به من أن الحسنات الواحدة بعشرة أمثالها وأن السيئة بمثلها فقط . وسر ذلك أن الجوهر

الإنسانى حنان إلى ذلك العالم العلوى ، وهبوطه إلى العالم الجسمانى غريب فى طبيعه ، والسيئة تبطنه عن الترقى إلى ذلك العالم على خلاف طبيعه ، والحسنة ترقيه إلى موافقة الطبع ، والقوة التى تحرك الحجر ذراعاً إلى فوق هى نفسها إن استعملت فى تحريكه إلى أسفل تحركه عشرة أذرع أو زيادة ، فلهذا كانت الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف .

فضائل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم :

ويقول العلامة الزرقانى رضى الله عنه فى شرح المواهب :

وأما فضيلة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فقد ورد التصريح بها فى احاديث قوية منها تكفير الخطايا ، وتزكية الأعمال ، ورفع الدرجات ، ومغفرة الذنوب ، وصلاة الملائكة واستغفارهم لقائلها ، وكتابة قيراط مثل أحد من الأجر ، والكيل بالمكيال الأوفى ، وكفاية أمر الدنيا والآخرة ، ومحق الخطايا ، وفضلها على عتق الرقاب ، والنجاة بها من الأهوال ، وشهادة الرسول بها ، ووجوب الشفاعة ، ورضا الله ورحمته ، والأمان من سخطه ، والدخول تحت ظل العرش ، ورجحان الميزان ، وورود الحوض ، والأمان من العطش ، والعتق من النار ، والجواز على الصراط المستقيم ، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت ، وكثرة الأزواج فى الجنة ، ورجحانها على أكثر من عشرين غزوة ، وقيامها مقام الصدقة للعسر ، وأنها زكاة وطهارة ، وينمو المال ببركتها ، وتقضى بها مائة من الحوائج بل وأكثر ، وأنها عبادة وأحب الأعمال إلى الله تعالى ، وتزين المجالس ، وتنفى الفقر وضيق العيش ويلتمس بها نطاق الخير ، وأن فاعلها أولى الناس به صلى الله عليه وسلم ، وينتفع هو وولده وولد ولده بها ، وتقرب إلى الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنها نور ، وتنصر على الأعداء ، وتطهر القلب من النفاق والصدأ ، وتوجب محبة الناس ، ورؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وتمنع من اغتياب صاحبها ، وهى من أبرك الأعمال وافضلها وأكثرها نفعاً فى الدين والدنيا .

حداد موهوب :

ويحكى سيدى ابن عربى فى الباب ٥٤٠ من الفتوحات أن حداداً بأشبيلية

كان يعرف ((باللهم صل على محمد)) وما كان يعرف بغير ذلك الاسم رأيته ودعا لى وانتفعت به ، لم يزل مشتهرا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لا يتفرغ لكلام أحد إلا قدر الحاجة إذا جاءه أحد يطلب منه أن يعمل له شيئاً من الحديد فيشارطه على ذلك ولا يزيد ، وما وقف عليه أحد من رجل ولا صبي ولا امرأة إلا ولا بد أن يصلى على محمد ذلك الواقف إلى أن ينصرف من عنده اللهم وفقنا لكثرة الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم كما تحب وترضى .

الباب الخامس عشر
فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول
فضل المدينة المنورة

أرض الله :

هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه إلى المدينة المنورة ، فشرفها الله بهجرته إليها صلى الله عليه وسلم ، فصارت مركز الدعوة إلى الله ، وحصن الدفاع عن الإسلام كما كانت مهبط الوحي ومنزل ملائكة السماء ، وقد سماها كتاب الله ((أرض الله)) فى قوله تعالى :

(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)

ويقول الإمام القرطبي إن الآية تشير إلى جماعة من اهل مكة كانوا قد أسلموا ، وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم ، وفتن منهم جماعة فافتتنوا ، فلما كان أمر بدر ، خرج منهم قوم مع الكفار فنزلت الآية ، وقولهم (كنا مستضعفين فى الأرض) أى فى مكة هو اعتذار غير صحيح ، إذ كانوا يستطيعون أن يتحايلوا على الخروج من مكة ، ولذلك تقول لهم الملائكة تقریباً لهم :
(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) . أى المدينة المنورة ، وما أفر ما حلاها الله به فلقبها بأرض الله ، فلئن كانت مكة المكرمة حرم الله فالمدينة المنورة أرض الله ، وكيف لا يجعلها الله أرض الله ، وقد هاجر إليها رسول الله وصارت آخر الأمر مثواه ؟

فضل المدينة :

وقد جاء فى فضل المدينة المنورة أحاديث كثيرة ، وكفاها فخرا أن يقول فيها صلى الله عليه وسلم ((إن الإيمان ليأرز^(١) إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها)) ، وقد قيل فيها بحق :

دار الحبيب أحق أن تهواها وتحن من طرب إلى ذكراها
وعلى الجفون متى هممت بزورة يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
لا كالمدينة منزل وكفى لها شرفاً حلول محمد بفناها
جزم الجميع بأن خير الأرض ما قد حاط ذات المصطفى وحوها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت كالنفس حين زكت زكى مأواها

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تبوأت بالإيمان والهجرة ، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف ، ثم قرأ (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم . . .) الآية .

وهو ابتداء كلام فى مدح الأنصار والثناء عليهم ، فإنهم سلّموا الفىء^(٢) للمهاجرين ، وكأنه تعالى قال : الفىء للفقراء المهاجرين ، وقد أحبهم الأنصار ولم يحسدوهم على ما صفا لهم من الفىء .

ويقول صديقى الفاضل الحاج عبد الوهاب عرب - وهو من أهل الطائف بالسعودية - فى قصيدة أهداها لى فى مناسبة تعارفنا بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم وذلك فى سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) :

بلدة قدسها الرحمن إذ حازت الفخر بخير المرسلين
فهى والبيت العتيق المجتبى منبع الدين ومأوى اللاجئين
كل عام لى إلى أكنافها رحلة أشفى بها قلبى الحزين

(١) يأرز أى ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض فيها .
(٢) الفىء : الأموال التى تؤول للمسلمين من أعدائهم بغير حرب .

كم سَفَحْتُ الدمع إذ لم أرها مرة يا صاح فى كر السنين
 وضربت الكف بالكف فى حسرتى للبعد عن ذاك القطين
 وبقلبي من جراحات النوى ألمّ يبدو لعين الناظرين
 حرمُ المختار أسمى منزلا بفؤادى من قصور المترفين
 إذ به الروضة قرب المصطفى كم سعى جبريل فيها الأمين
 كم بها من عبيرة فياضة لمحِب كم بها من صالحين
 كم تبارى لثراها هائم كم علا فيها دعاء الساجدين
 كم تلا القرآن فيها مُخَبِّت وسعى للخير سعى المحسنين
 فلاآثار سجود المصطفى فى ثراها طيب عَرَفَ الياسمين

تربة المدينة المنورة :

أقول : والله در القائل :

أرض مشى جبريل فى عَرَصاتها والله شرف أرضها وسماها

وقد حدثنى صديقى الصالح المبارك الحاج حسين أبو العلا (وهو مدنى يسكن المدينة المنورة ، وله بها بستان قريب من الحرم الشريف) - فقال إنه حين أراد أن يزرع بستانه دق فى أرض البستان ما سورة مياه ارتوازية ، ولم ذاق الماء الذى أتوه به أول مرة وجده مالحا لا تصلح به الزراعة فقال يارب : إن رسولك الكريم صلى الله عليه وسلم وصف المدينة فقال : ((والذى نفسى بيده إن ترابها لمؤمنة)) ، والمؤمن حلو يارب ، فكيف خرج الماء مالحاً ، قال عفا الله عنه ومد فى عمره : فألهمنى ربي أن ننزل بالماسورة مسافة اخرى ، فقلت : انزلوا بالماسورة إلى مسافة أبعد ، قال ففعلوا ، فجاء الماء حلو زلالا ، وجاء أوفر مما أردنا ، والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات .

وعلى الرغم من أنى أصادقه من سنوات ، فإنه كاشفنى من نحو عامين لأول مرة بأنه كان يستمع لدرسى الذى كنت ألقيه بالحرم الششريف ، فكان يعجبه ما يسمعه منى ، فقال : يارب أشهدك أنى أحب هذا الرجل فىك ، قال : ولم أصارحك بها قبل ذلك ، فانظر إلى فضله وأدبه ، وهو رجل مبارك ، ومقبل على الله بهمة

الصالحين ، حتى إنه لا يصلى الصلوات الخمس إلا فى الحرم الشريف ، كما أنه يعتكف فيه العشر الأواخر من رمضان كل عام ، وينقق الكثير فى سبيل الله .
حفل مبارك :

وفى العام الماضى دعانا فى عيد الفطر إلى حفل بقصره المشيد فى بستانه ، فوجدنا سرداقاً كبيراً قد اجتمع فيه أحبابه من زوار الحرم الوفدين من البلاد الإسلامية المختلفة ، وتغنى المغنون على مسمعا بالمدائح النبوية وذكرى المدينة المنورة ، وكان من بيننا نحن المصريين الشيخ سيد النقشبندى فتغنى بشعر العارف بالله سيدى الشيخ يوسف النبهانى الذى يقول فيه :

يا رعى الله طيبةً من رياض طاب فيها الهوى وطاب الهواء

وتغنى مغنى المدينة فقال :

يا عيد عدت فهل عادت لئالينا وهل ترنم فى الصحراء حادينا

وكان من بين الحاضرين أخى الصالح وزميلى الأستاذ أنور شلبي وكيل وزارة الخزانة ، فسره الحفل غاية السرور حيث لم يكن شاهده معنا قبل ذلك .

دعاء نبوى للمدينة :

قال ابن إسحق :

((وحدثت عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبى بكر فى بيت واحد فأصابتهم الحمى ، وكانوا يهدون وما يعقلون من شدة الحمى فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
((اللهم حبيب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها

وصاعها^(١) وائقل وباءها إلى مهيعة (الجحفة وهي ميقات أهل الشام) .
أقول : وقد استجاب الله دعوة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنك لتلمس حب
المدينة بين جنبك قبل أن تذهب إليها ، فإذا رأيته وعشت فيها ، نسيت بها وطنك وكأنها
الموطن الأصلي الذي نشأت فيه . أما بركة الطعام فباقية تشاهدها بنفسك ، وترى فيها
المعجزة النبوية محققة ، وكنت في أول أمرى بالمدينة أطلب من صاحب الدار التي ننزل فيها
وهو السيد حامد بافقيه وهو من السادة الأشراف - رحمه الله رحمة واسعة - أن يشتري لنا
أقة من اللحم ونحن خمسة رفقاء ، فيتعجب الرجل رحمه الله مما أطلب ويقول في لهجته
المدينة اللطيفة : أقة ؟ إيش تعملوا بالأقة ، هذا كثير ؛ هنا المدينة فيها البركة بدعوة النبي ،
فأقول له : وماذا تريد أنت يا عم حامد فيقول : نصف أقة وهو كثير على غداكم وعشاكم ، ثم
تأكد لي صدق كلامه عملياً ، وتلك بركة طعامها ، أما حلاوته فحدث عنها ولا حرج ، فسلوات
الله وسلامه على من أرسله الله رحمة للعالمين ؛ وما أرق أهل المدينة حين كانوا يتغنون
بمدح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون في محافل ذلك السيد المبارك
فيهزؤوننا بقولهم :

خير البريه	نظره إليها
ما أنت إلا	كنز العطيه

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة ، اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
، وكان أبو أمامة نقيبهم (أحد نقباء العقبة كما سلف القول) فقالوا له : يارسول الله إن هذا
قد كان منا حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : ((أنتم أخوالي (لأن الخزرج أخوال أبيه صلى الله عليه وسلم)
وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم)) ، فكان بنو النجار يزهدون بأن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
نقيبهم .

(١) يعنى بارك لنا فى الطعام الذى يكال بالمد والصاع . والمد رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلاث عند أهل الحجاز ، والصاع أربعة أمداد عند الحجازيين .

المساجد المفضلة :

ورد فى الحديث الشريف ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا)) ، وعنه عليه الصلاة والسلام ((الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدي بألف صلاة ، والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة)) . ويقول الإمام تقي الدين السبكي : ليس فى الأرض بقعة لها فضل لذاتها حتى تشد الرحال لذلك الفضل غير البلاد الثلاثة ، قال : ومرادى بالفضل ما شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكماً شرعياً ، وأما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها بل لزيارة أو لجهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات .

مسجد التقوى :

وقد أخرج الإمام مسلم رضى الله عنه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى ⁽¹⁾ قال : ((مسجديكم هذا)) . وقال الإمام مالك إنه مسجد المدينة ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس فى هذا ويأتونه أولئك من هنالك ؟ وقال تعالى : (وتركوك قائماً) فإنما هو هذا . وقد أخرج الإمام أحمد رضى الله عنه عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((من صلى فى مسجدي أربعين صلاة كتبت له براءة من النار وبراءة من العذاب وبريء من النفاق)) .

أفضل البقاع :

وقال القاضى عياض رضى الله عنه : أجمعوا على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض ، وأن مكة والمدينة أفضل بقاع الأرض بعده ، ثم

(1) وهو المذكور فى قوله تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) الآية .

اختلفوا فى أيهما أفضل ، فذهب عمر وجماعة من الصحابة إلى تفضيل المدينة وهو قول مالك وأكثر المدنيين ، وذهب أهل الكوفة إلى تفضيل مكة وبه قال ابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك ، وإليه ذهب الشافعى .

أقول : وما من نفس مؤمنة إلا وتحن إلى كل من مكة والمدينة ، حرسهما الله من كل سوء ، ففى مكة بيت الله الحرام ، وفى المدينة روضة نبينا المختار عليه الصلاة والسلام ، ولسان المشتاق يحن إلى كل منهما ويقول :

هى الدار ما شوقى القديم بناقص إليها ولا دمعى عليها بجامد
أو يقول :

روحى على بعض دور الحى حائمة كظامى الطير إذ يهفو على الماء
ويرحم الله الشيخ النبهانى إذ يقول متشوقاً إلى المدينة المنورة :

يارعى الله طيبة من رياض طاب فيها الهوى وطاب الهواء
شاقنى فى ربوعها خير حى حل لا زينب ولا أسماء
حيث قبر الحبيب يعلوه من نو رقاب أقلها الخضراء
بين مكة والمدينة :

وقد تنازع مدنى ومكى فى فضل مكة والمدينة ، وتعصب كل منهما لبلده فى شعر طويل ، فأجابهما ناسك كان يقيم بجدة مرابطاً فقال فيما قال - كما جاء فى الفتوحات المكية :

إنى قضيت على اللذين تماريا فى فضل مكة والمدينة فاسألوا
فلسوف أخبركم بحق فافهموا فالحكم وقتاً قد يجور ويعدل
يا أيها المدنى أرضك فضلها فوق البلاد وفضل مكة أفضل
أرض بها البيت المحرم قبله للعالمين بها المساجد تعدل
حرم حرام أرضها وصيودها والصيد فى كل البلاد محلل
وبها المشاعر والمناسك كلها وإلى فضيلتها البرية ترحل
وبها المقام وحوض زمزم مترعاً والحجر والركن الذى لا يجهل

والمشعران ومن يطوف ويرمل
وبها المسىء عن الخطيئة يسأل
أرضاً بها ولد النبي المرسل
وسرى به الملك الرفيع المنزل
أو من قرئش ناشيء أو مكهل
لكنهم عنها نبوا فتحولوا
أن المدينة هجرة فتحملوا
خير البرية حاكم أن تفعلوا
فضل قديم نوره يتهلل
قلنا كذبت وقول ذلك أرنل
من كان يجهله فلسنا نجهل
والمنبر العالى الرفيع الأطول
عمر وصاحبه الرفيق الأفضل
سبقت فضيلة كل من يتفضل
أمسوا ضياء للبرية يشمل
وودادها حق على من يعقل
تروى بها وعلى المدين تسبل

والمسجد العالى المحجر والصفاء
وبمكة الحسنات يضعف أجرها
ما ينبغي لك أن تفاخر يافتى
وبها أقام وجاءه وحى السما
هل بالمدينة هاشمى ساكن
إلا ومكة أرضه وقراره
وكذاك هاجر نحوكم لما أتى
فأجرتمو وقرئتموا ونصرتمو
فضل المدينة بين ولأهلها
من لم يقل إن الفضيلة فيكمو
لا خير فيمن ليس يعرف فضلكم
فى أرضكم قبر النبي وبيته
وبها قبور السابقين بفضلهم
والعرة الميمونة اللاتى بها
آل النبي بنو على إنهم
إنا لنهواها ونهوى أهلها
ساق الإله لبطن مكة ديمة

مزايا المدينة المنورة :

هذا ومن مزايا المدينة المنورة أنها فتحت بالقرآن الكريم ولم تفتح بالسيف ، وأن الله تعالى
اختص بها رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق
...) أى المدينة لاختصاصها به اختصاص البيت بساكنه ، وقيل من بيته بها ، وقد سماها
الله حسنة فى قوله تعالى (لنبؤنهم فى الدنيا حسنة) أى ^(١) مباءة حسنة وهى المدينة
، وقد حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف ((من أخاف أهل حرمى
أخافه الله)) وفى الحديث آخر ((حرم إبراهيم مكة وحرمى

^(١) أى هيا لهم المدينة سكناً

المدينة)) ، وترابها شفاء للحديث الشريف ((ترابها شفاء من كل داء)) وكانت تسمى ((يثرب)) فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ((طيبة)) ، وفى الحديث آخر ((إن الله سمي المدينة طابه)) وفى خبر : ((والذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة)) وفى آخر : ((إنها مكتوبة فى التوراة مؤمنة)) وقد سماها الله فى كتابه الكريم ((مدخل صدق)) وذلك فى قوله تعالى :

(وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) . فمدخل الصدق : ((المدينة)) ، ومخرج الصدق : ((مكة)) ، وتأمل كيف قدم الله المدخل على المخرج مع أن المخرج فى الترتيب مقدم على المدخل ، والسلطان النصير : ((هم الأنصار)) كما روى عن زيد بن أسلم ، وصار اسم ((المدينة)) علماً عليها ولا يستعمل إلا معرفة ، ، والنكرة اسم لكل مدينة ، ونسبوا لكل مدينى ، وللمدينة المنورة مدنى ، للفرق بين النسبتين .

المدينة وأهلها :

وفى الحديث الشريف : ((من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت)) ، ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك .

وناهيك بقوله صلى الله عليه وسلم ((من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبى)) أى قلبى وروحى ، فانظر إلى عطفه وغيرته صلى الله عليه وسلم على جيرانه بالمدينة المنورة . وقد كان صديقنا الكريم الذى كنا ننزل فى داره وهو السيد حامد بافقيه طيب الله ثراه ، يعتز بهذا الجوار السعيد ويكرر كثيراً على مسمعنا : نحن فى كفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . أكرم بقعة :

ولابن الجوزى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قبض النبى صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى دفنه ، فقال على كرم الله وجهه : ليس فى الأرض بقعة أكرم

على الله من بقعة قبض فيها نفس حبيبه صلى الله عليه وسلم ، قال الإمام السمهودي فى كتاب خلاصة الوفاء معقباً ، فهذا أصل الإجماع على تفضيلها لرجوع الباقيين إليه ولقول أبى بكر رضى الله عنه حينئذ : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يقبض النبى إلا فى أحب الأمكنة إليه ، رواه أبو يعلى ، قال وأحبها إليه أحبها إلى ربه لأن حبه تابع لحب ربه ، قال : وقد سلكت فى تفضيل المدينة هذا المسلك وقد صح قوله صلى الله عليه وسلم : ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد)) أى بل أشد ، كما روى به ، وأجيب الدعوة حتى كان يحرك^(١) دابته إذا رآها من حبها وقال : ((ما على الأرض بقعة أحب إلى من أن يكون قبرى بها منها)) .

ويقول الإمام السمهودي فى كتابه المذكور : قال عمر لعبد الله المخزومى : أنت القائل : مكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأمنه وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله وبيته شيئاً ، ثم كرر عمر قوله الأول فأعاد جوابه فأعاد له عمر : لا أقول فى بيت الله وحرمة شيئاً ، فأشير إلى عبد الله فانصرف .

وقال الإمام السمهودي رضى الله عنه : قيل للإمام مالك أيا أحب إليك المقام هنا يعنى بالمدينة أو بمكة ؟ فقال : ((ههنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل عليه السلام ينزل من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟)) . وأضاف الإمام السمهودي قائلاً : وقد ثبت فى الأحاديث تفضيل الموت بالمدينة فيثبت تفضيل سكنها لأنها طريقه .

وأضاف الإمام السمهودي يقول كذلك : وفى الصحيحين ((أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد)) ، وفى صحيح مسلم حديث ((يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذى نفسى بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه)) وفيه إشعار بدم الخروج منها مطلقاً وهو عام أبداً كما نقله المحب الطبرى عن قوم وقال إنه ظاهر اللفظ . وفى حديث الصحيحين ((إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها)) أى تنقبض وتنضم وتلجأ مع أنها أصل انتشاره ، فلكل مؤمن من نفسه سائق

(١) أى يجعل الدابة تسير بسرعة .

إليها في جميع الأزمان لحبه في ساكنها صلى الله عليه وسلم .
ولأبى يعلى عن العباس رضى الله عنه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من
المدينة فالتفت إليها وقال ((إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك)) .
وفى الصحيحين ((من صبر على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة)) وفى
صحيح البخارى مرفوعاً ((لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء)) .
ولمسلم ((من أرد أهل هذه البلدة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء)) . ولئن كان
لمكة مزية العدد (أى فى الحسنات) فللمدينة مزية البركة والمدد ، ولئن كان لمكة جوار بيت
الله تعالى فللمدينة جوار حبيب الله صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الخلق على الله تعالى . وفى
الصحيحين ((اللهم اجعل بالمدينة ضغفنى ما جعلت بمكة من البركة)) . وفى الصحيحين
أيضاً ((اللهم بارك لهم فى مكياهم وبارك لهم فى صاعهم وبارك لهم فى مدهم)) . ولمسلم
((اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ، اللهم بارك لنا فى مدنا ، اللهم بارك
لنا فى مدينتنا ، اللهم اجمع مع البركة بركتين)) . وفى الصحيحين وغيرهما حديث ((على
أنقاب المدينة ملائكة يحرسونها لا يدخلها الطاعون ولا الدجال)) .
وفى الصحيحين حديث ((إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وفى رواية - ودعا لأهلها - وإنى
حرمت المدينة ، كما حرم إبراهيم مكة)) . وللبخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ((إن
الله حرم ما بين لآبى المدينة على لسانى)) ((قال وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بنى حارثة
فقال : ((أراكم يابنى حارثة قد خرجتم من الحرم)) ثم التفت فقال : ((بل أنتم فيه)) .
ولمسلم ((المدينة حرم ما بين عير إلى ثور)) (وهما جبلان بها) .
ولأبى داود مثله وزاد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لا يُختلى ^(١) خلاها ^(٢) ،
ولا ينفر صيدها ، ولا يلتقط لقطتها إلا من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح
لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بغيره)) .

(١) يختلى : أى يقطع
(٢) الخلا (مقصوراً) : النبات الرطب الرقيق .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لو وجدت الظبا بين لا بتيها ما ذعرتها ، وجعل اثني عشر ميلا حول المدينة حمى . وفى الصحيحين عن عبد الله بن زيد ((ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)) وللبخارى عن أبي هريرة مثله وزاد ((ومنبري على حوضى)) . وللبخارى ومسلم عن ابن عمر ((ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)) .
طريق النور :

أقول : وإذا أردت أن ترى طريق النور بنفسك ، فإذهب إلى أرض الحجاز ، واسلك الدرب الذى سلكه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون إلى المدينة المنورة ، وانظر إلى طوله وأنت تقطعه بالسيارة السريعة ، وقدر كم تحملوا فى قطعه على الإبل من المشقة فى عزم أهل الإيمان وهمة أهل اليقين ، وإذا استرحت قليلا فى بدر فاستنشق رائحة الجنة عند شهادتها ، وتطلع إلى الجبال بينها وبين المدينة ، وإلى خشونة الصخور على جانبي الطريق المرصوف ، وقدر لسلفك الصالح جهادهم فى حماية العقيدة التى وصلت إليك منهم وأنت ناعم البال فى أمن وإيمان ، واستغفر لهم كما أمرك الله تعالى . واستنشق روائح المدينة وتطلع إلى مائها وهوائها ونورها .

ولقد كنت أسير فى ذلك الدرب المبارك وحان ميعاد العصر ، فأويت إلى مكان فى جانب الطريق فصليت العصر مع أصحاب لى على الرمال ، وإذا بى أتذكر فجأة قول الإمام ابن دقيق العيد رضى الله عنه :

قف بالمنازل والمناهل من لدن	وإلى حمى أم القرى
وتوخ آثار النبى فضع بها	متشرفاً خديك فى عفر الثرى
وإذا رأيت منازل الوحي التى	نشرت على الآفاق نوراً أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهه	مذ كنت فى ماضى الزمان ولا يرى

فعملت بنصيحة الإمام الذائق ، ووضعت خدى على التراب الذى مشى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض الطيبة ، التى أشرق منها على يديه الكريمتين نور الإسلام ، وكيف لا أفعل وقد قال أمير المؤمنين عمر رضى الله

عنه : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أنه أقسم بالتراب الذى مشت عليه قدماءك ، فقال تعالى : (لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد) ، وكيف لا أفعل وقد قال حبر الأمة وحجتها ابن عباس رضى الله عنه : ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله عز وجل أقسم بحياة أحد غيره - يشير ابن عباس إلى قوله تعالى (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) أى وحياتك إنهم يتحيرون ؛ ويرضى الله عن الإمام البوصيرى إذ يقول فى برده المباركة :
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

الفصل الثانى

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

فضل مثواه صلى الله عليه وسلم :

كان صلى الله عليه وسلم يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بين نساءه تطيباً لقلوبهن وكان يقول أين أنا اليوم ؟ أين أنا غداً ، وكان فى مرضه الذى توفى فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت السيدة عائشة وبقى حتى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى ودفن صلى الله عليه وسلم فى حجرتها ، لأن الأنبياء والمرسلين يدفنون حيث يقبض الله أرواحهم ، وقد قالت سيدتنا عائشة : فلما كان يومى قبضه الله تعالى بين سحرى^(١) ونحرى صلى الله عليه وسلم . والبقعة التى دفن فيها صلى الله عليه وسلم هى أفضل بقاع الأرض ولذلك قال سيدى أبو محمد البكرى رضى الله عنه :

جزم الجميع بأن خير الأرض ما قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت كالنفس حين زكت زكا مأوها
حرمته صلى الله عليه وسلم :

هذا ، واعلم أن حرمته صلى الله عليه وسلم وهو فى قبره كحرمته صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ففى كتاب الشفاء للقاضى عياض بسند جيد عن ابن حميد قال :
ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك : يا
أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ،

(١) السحر : الرنة تريد أنه قبض وهو على صدرها ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإن الله تعالى أدب قوماً فقال : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) ومدح قوماً فقال : (إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) . وإن حرمتاً ، كحرمته حياً فاستكان أبو جعفر .
وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أتيت المدينة وأقمت بها فإن مت دفنت في الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر . فقال : والله لأن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب إلا النار أحب إلي من يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهل .
الموت والحياة فى البرزخ :

يقول الإمام الزرقانى رضى الله عنه فى شرح المواهب اللدنية :
فإن قلت القرآن ناطق بموته عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) ، وقال صلى الله عليه وسلم ((إني امرؤ مقبوض)) ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ((من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)) وأجمع المسلمون على إطلاق ذلك ، فأقول : أجاب الشيخ تقى الدين السبكي بأن ذلك الموت غير مستمر ، وأنه صلى الله عليه وسلم أحيى بعد الموت حياة أخروية ، ولا شك أنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء ، وهى ثابتة للروح بلا إشكال ، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لا تبلى ، وعود الروح إلى الجسد ثابت فى الصحيح لسائر الموتى ، فضلاً عن الشهداء ، فضلاً عن الأنبياء ، وإنما النظر فى استمرارها فى البدن ^(١) ، وفى أن البدن يصير حياً كحالته فى الدنيا أو حياً بدونها وهى حيث شاء الله تعالى ، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عادى لا عقلى ، فهذا مما يجوزه العقل ، فإن صح به سمع اتبع ، وقد ذكره جماعة من العلماء ويشهد له صلاة موسى فى قبره كما ثبت فى الصحيح ، فإن الصلاة

(١) بدن الإنسان جسده ، وقوله تعالى (فالיום ننجيك ببدنك) . أى ننجيك يافرعون بجسد لا حياة فيه .

تستدعى جسداً حياً ، وكذلك الصفات المذكورة فى الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام ، ولا يلزم من كونها حياة حقيقة أن تكون الأبدان معها كما كانت فى الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب ، وغير ذلك من صفات الأجسام التى نشاهدها ، بل يكون لها حكم آخر ، فليس فى العقل ما يمنع من إثبات الحياة الحقيقية لهم ، وأما الإدراكات كالعلم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ، بل ولسائر الموتى كما ورد فى الأحاديث .

أقول : وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون كما دل على ذلك كتاب الله فكيف بالأنبياء والمرسلين ، وكيف بأمر الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم . وقول الله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً) ليس مقصوراً على حياته الشريفة وفى الحديث الصحيح : ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) .

ولأبى داود بسند صحيح عن أبى هريرة ((ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام)) . وقد صدر الإمام البيهقى رضى عنه باب الزيارة بهذا الحديث الشريف ، واعتمد على ذلك جماعة منهم الإمام أحمد رضى الله عنه لتضمنه فضيلة رده صلى الله عليه وسلم وهى عظيمة ؛ واستدل الإمام البيهقى بهذا الحديث على حياة الأنبياء . ويقول الإمام السمهودى رضى الله عنه : فهو صلى الله عليه وسلم يسمع من يسلم عليه عند قبره ويرد عليه عالماً بحضوره عند قبره ، وكفى بهذا فضلاً حقيقاً بأن ينفق فيه ملك الدنيا حتى يتوصل إليه . ولابن النجار عن إبراهيم بن بشار : حججت فى بعض السنين فجئت المدينة فتقدمت إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فسمعت من داخل الحجرة : وعليك السلام .

وجاء فى تذكرة القرطبى عن شيخه أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى .

وفى مناسبة حياة الشهداء أقول إنى بحمد الله رأيت الوصف الذى وصف الله به الشهداء فى رؤيا منامية سعدت فيها - وكنت عندئذ بالمدينة المنورة - برؤية شهيد فرح جداً مستبشر للغاية ، يتحرك حركات سريعة وقوية من الفرح والاستبشار ، وتعجبت من منظره ولم أعرفه ، فقال لى شخص فى المنام : هذا عبد الله بن (١) راحة ، وقمت من نومى مسروراً بهذه الرؤيا ، ولم أكن أذكر اسمه الأول ((عبد الله)) إنما كنت أعرفه باسم ((ابن راحة)) فسألت أحد رفقائى عن اسم ابن راحة الكامل فقال لى ((عبد الله)) فقلت صدق الله تعالى فى وصفه للشهداء (أحياء عند ربهم) ، وفى قوله فى الأنصار رضى الله عنهم (يحبون من هاجر إليهم) .

حياته صلى الله عليه وسلم فى قبره الشريف :

ويقول الحافظ السيوطى رضى الله عنه فى كتابه ((تنوير الحلك بامكان رؤية النبى صلى الله عليه وسلم والملك)) بعد استيعابه لأكثر نقول العلماء والأحاديث الدالة على إمكان رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام واليقظة ما يأتى :

قد تحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبى صلى الله عليه وسلم حى بجسده وروحه ، وأنه يتصرف (٢) حيث شاء فى أقطار الأرض وفى الملكوت وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شىء ، وأنه يغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم ، فإذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عن أرواحهم برؤيته رآه على هيئته التى هو عليها لا مانع من ذلك ولاداعى إلى

(١) وهو الأنصارى الشاعر ، وهو صاحب اللواء فى مؤتة بعد زيد وجعفر رضى الله عنهم .
(٢) أى يتصرف بإذن الله وقدرته فيما مكنته الله فيه ، ولتذكر قوله تعالى مخاطباً له صلى الله عليه وسلم (وكان فضل الله عليك عظيماً)

التخصيص برؤية المثال (١) .

ويقول الإمام نور الدين الحلبي رضى الله عنه فى رسالته المسماة ((تعريف أهل الإسلام والإيمان بأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه مكان ولا زمان)) ما يأتى :
ألا ترى أن الرائي له يقظة أو مناماً فى أقصى المغرب يوافقون فى ذلك الرائي له كذلك فى تلك الساعة بعينها فى أقصى المشرق ، فمتى كان ذلك مناماً كان فى عالم الخيال والمثال ، ومتى كان يقظة كان بصفتي الجمال والجلال وأعلى غايات الكمال كما قال القائل :
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد
ومن الأدلة التى ساقها الإمام الحلبي رضى الله عنه قوله :

١- ثابت عند إمام الأمة الحافظ الإمام البخارى وغيره أن الملكين يقولان للمقبور : ما تقول فى هذا الرجل ؟ واسم الإشارة لا يشار به إلا لحاضر .

٢- إن غالب الأولياء والعارفين كانوا يجتمعون غالباً بسيد المرسلين يقظة ومناماً ، وكان العارف بالله خليفة بن موسى كثير الاجتماع به ، واجتمع به فى ليلة واحدة سبعة عشر مرة وقال له : يا خليفة لا تمل (٢) منا فقد مات كثير من الأولياء بحسرة رؤيتنا .
فالحجاب من قبلنا بموجب مساوينا لا من قبله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا تجد العبد متى فارق نفسه ولو بالنوم وأغمض عينيه يراه إذا قسم الله تعالى له ذلك ، ومتى قتلها بقمعها وأمتها بردعها لم يبق بينه وبينه حجاب لا مناماً ولا يقظة .
... وكان السيد أبو العباس أحمد المرسى يقول : لو حجت عنى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين .

(١) عالم المثال هو العالم الذى تمثل فيه جبريل لمريم عليها السلام فى شكل بشر مع أنه ليس من البشر والأرواح القوية يعطيها الله قوة التمثل .
(٢) أى من كثرة رؤيتك لنا وظهورنا لك ، وهو تدليل منه لذلك الولي المبارك .

٣- من الممكن المعقول المشاهد فى رأى العين أن يجعل الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بمكان كمكان جعل فيه البدر فيراه الذى فى أقصى المشرق كما يراه الذى فى أقصى المغرب وهو فرد (أى بدر واحد) وضوؤه ملاً الأكوان ، وكذلك عين الشمس والزهرة وبقية النجوم فإنه قد استوى فى رؤيتها كل من كان على ظهر الأرض ، لأن الله تعالى قد جعل لها مكاناً يقتضى ذلك (أى هيأها لأن يراها من كان على ظهر الأرض) فلا بدع أن يكون قبر النبى صلى الله عليه وسلم بطيبة كذلك ، ولا غرو فى أن يجعل الله تعالى شبحاً^(١) من نبينا بغير طيبة أيضاً يرى منها ويشاهد كذلك ما لم يكن الرأى أعمى البصيرة ... وقال رضى الله عنه شعراً :

انظر إلى المختار كيف وجوده ملاً السما والأرض والأكوانا
فتراه مثل البدر فى كبد السما وضياؤه ملاً الوجود عيانا

٤- ومن البراهين على ذلك أيضاً أنه يجوز ويمكن ويتعقل أن يجعل الله تعالى العلوية والسفلية بين يدي النبى صلى الله عليه وسلم كجعله تعالى الدنيا بين يدي سيدنا عزرائيل ، فإن سئل كيف تقبض روح رجلين حضر أجلهما معاً أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب فقال : إن الله تعالى قد زوى لى الدنيا بجميع أكوانها فجعلها بين يدي كالقصة بين يدي الآكل أتناول منها ما شئت .

٥- ومن البراهين أيضاً على ذلك أن أمر البرزخ لا يقاس على غيره ، ألا ترى لِمَلَكَيْ السَّوَال مع تناهى عظمهما فى أضيق اللحود ، ومن أين يأتیان ؟ ومن أين يذهبان ؟ وكيف يسألان ميتين أو أمواتاً فى وقت واحد ، منهم من هو فى أقصى المشرق ومنهم من هو فى أقصى المغرب ... ؟

ويقول الإمام نور الدين الحلبي كذلك فى رسالته المذكورة :

وعند أبى داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولا يتمثل الشيطان بى)) ،

(١) أى شخصه صلى الله عليه وسلم ..

ومعنى هذا الحديث التبشير بأن من فاز من أمته برؤيته فى المنام لا بد ألبتة إن شاء الله أن يراه فى اليقظة ولو قبيل الموت بهنيهة ، ويسلم إن شاء الله تعالى العبد فى ذلك الوقت من المقت (١) ، إذ هو وقت الحاجة (٢).

أقول : وقد ذكر العارف ابن أبى جمرة رضى الله عنه فى كتاب بهجة النفوس أن ابن عباس رضى الله عنهما رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام بعد انتقاله للرفيق الأعلى ، ولما استيقظ دخل على خالته ميمونة أم المؤمنين وأخبرها بالرؤيا فناولته مرآة فذهب ينظر فيها فلم ير وجهه بل رأى النبى صلى الله عليه وسلم بصورته التى يعرفها .

٦- ومن الأدلة العقلية والنقلية أيضاً أن الله تبارك وتعالى نصبه شاهداً على أعمال العباد خيراً وشرها ، فقال تعالى : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) ، والشاهد لا بد أن يكون حاضراً للمشهود عليه وناظراً للمشهود إليه فعلم أنه ملاً كل عالم ، وحاضر فى كل مكان . فإن قيل قد قال تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) . وقال تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) . فقد سوى بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين الأمة فى معنى الشهادة ، وسوى بينه وبين الأنبياء فى ذلك المعنى أيضاً ، فالجواب إن شاء الله تعالى أنه لا تسوية لأنه فى الآية الأولى قال (وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقال فى الآية الثانية : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) . وورد أن هذه الأمة تشهد على جميع الأمم وتشهد لأنبيائها بالتبليغ ونبيها يزيها فلا مساواة به ولا أحد فى درجته . وأما شهادة الأنبياء فلا إشكال فيها لأنهم موجودون بالأجسام فى قيد الحياة بين أظهر أممهم لأنهم شاهدون وحاضرون حساً ومعنى . وأما شهادة هذه الأمة فإنما هى من باب الشهادة على الشاهد ، لأنها إنما تلقت ذلك من القرآن العظيم الصادق الوارد على لسان النبى المصدق ، فتبين بهذا بأنه لما كان كل رسول

(١) أى يسلم من غضب الله تعالى .
(٢) أى وقت احتياج العبد إلى مرضاة الله تعالى .

إذا مات انتهت شريعته وأرسل رسول غيره ، ولم يكن نبينا كذلك بل شريعته مستمرة ودعوته قائمة باقية إلى يوم القيامة ومعها وبعدها إذ لا نبي بعده ، فتبين أن شهادته صلى الله عليه وسلم بموجب حضوره في جميع العوامل وامتلاء الكون والزمان به ، فكان مثاله كما أسلفناه وكما أشرنا كبدر في سماء علو الفضل ونحن تحته سائرون في ضوء نوره ، متى رفعنا رءوسنا إليه ونحن في شدة العدو أو المشى أو التأنى أو جلسنا أو نمنا أو استيقظنا نراه معنا فوق رءوسنا ، ولو مشينا إلى أقصى المشرق ، ومشى آخرون إلى أقصى المغرب ، وركب آخرون السفن في لجج البحار ، وصعد آخرون الجبل ، وسلك آخرون القفار ، كل ذا ونبينهم محمد صلى الله عليه وسلم حاضر معهم كحضور البدر مع هؤلاء كلهم .

وأقول : بعد هذا لا تستكثر فضل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له ربه : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . والعالمون هم كل ما سوى الله تعالى ، وإذا كانت كانت رحمة الله شملت العالمين مع اختلاف أجناسهم فلا تعجب أن شرفه الله تعالى بصلاته عليه هو وملائكته ، كما أمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه بقوله تعالى :

(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) ، وما أعظم شرفه بهذه الصلاة الدائمة على مر الدهور ، فحدث عن فضله ولا حرج ، وصدق سيدي العارف الشيخ أحمد الحلواني (والد سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني طيب الله ثراهما) . إذ يقول في همزيته رضى الله عنه :

فليس في القوم من يعلو عليه ولو	نال الثريا ولا في القوم أكفاء
أزكى النبيين أخلاقاً مطهرة	وعنصر طيب تنميه أضواء
لا مجد والله إلا وهو مقتبس	من مجده ولكل منه إنشاء ^(١)

(١) يشير إلى حديث : أول ما خلق الله نوري من نوري خلق كل شيء ، ويقول رضى الله عنه في قصيدة أخرى :
أنشاك نوراً ساطعاً قبل الوري فرداً لفرد والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامي فيا عظم الكرم

وقد تضىء مصابيح معدة
وليس بدعاً تمام الأنبياء به
وهبه نجلا أما نالوا به شرفاً
فذك آباءه طراً وكن بطلا
ياسيدى يارسول الله معذرة
وبى إليك حنين طالما ارتجفت
وأنت أرحم بى منى وإن كثرت
دامت عليك صلاة الله واصلة

من واحد وهو لا ينفك وضاء
فلآلىء بالإتمام^(١) لآلاء
ياحسن ما شرفت بالنجل^(٢) آباء
فى حبهم فهم القوم الأجلاء
فإن كفى فى مدحك شلاء
منى به أعظم رقت وأحشاء
جرائمى ورحيم الحى معطاء
مع السلام كذا الآل الأوداء

زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وروى الدارقطنى والبيهقى وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من زار قبرى وجبت له شفاعتى)) ومعنى وجبت أنها ثابتة لا بد منها بالوعد الصادق

ويقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه : وأفاد بقوله ((له)) أنه يختص بشفاعته ليست لغيره ، إما بزيادة النعيم ، وإما بتخفيف الأهوال عنه ، وإما بأن يدخل الجنة بغير حساب ، وإما بغير ذلك ، وفيه بشرى بموته مؤمناً .
وللدارقطنى والطبرانى عن ابن عمر : ((من حج فزار قبرى بعد وفاتى ، كان كمن زارنى فى حياتى)) .

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ليهبطن ابن مريم حكماً عادلاً وإماماً مقسطاً ، وليسلكن فجا

(١) أى ختمت برسالته صلى الله عليه وسلم الرسالات السماوية فكانت مسك الختام وضيء كل ظلام لأنها جاءت بعد الرسالات ، فاتت نوراً على نور .

(٢) ولئن كان ابنا من أبناء المرسلين قبله (لأنه صلى الله عليه وسلم من سلالة إبراهيم ومن ذرية إسماعيل) عليهم جميعاً صلوات الله فقد نالوا به شرفاً كبيراً حيث كانت رسالته أتم الشرائع وأعمها وأبقاها على الزمن وكان صلى الله عليه وسلم أكثرهم تبعاً.

حاجا أو معتمراً ، وليأتين قبرى حتى يسلم على ولأردن عليه)) صححه الحاكم وسلمه الذهبى .
ويقول صديقى فضيلة الشيخ أحمد مرسى تعليقا على الحديث الشريف المذكور : وهو يفيد
سنية زيارة القبر الشريف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بزيارة سيدنا عيسى له فى
قبره وأقره (١) ، ويضيف فضيلته قائلا : ولم يتفطن أحد لهذا الاستدلال قلبى والله الحمد والمنة .
وقد قال الإمام السهمودى : روى أحمد بسند حسن : أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً (٢) واضعاً
وجهه على القبر ، فأخذ مروان برقبتة ثم قال : هل تدرى ما تصنع ؟ فأقبل عليه فقال : نعم
،أنى لم آت حجراً ، انما جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم آت الحجر ، سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((لا تبكوا على الدين إذا وليه أهل ولكن ابكوا على الدين إذا
وليه غير أهله)) .

وجاء فى ((جواهر البحار)) نقلا عن المقرئ صاحب ((نفع الطيب)) حكاية طريفة وهى :
ذكر جماعة أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والحجاز
وفاتح البلاد ومنقذها من عبدة الاصنام ، وهو من أجل ملوك الإسلام ، أهديت له مروحة
مكتوب فى أحد وجهيها :

هذه هدية ما أهدى مثلها لك ولا لأبيك ولا لأحد من الملوك ، وكانت الهدية من شريف المدينة
المنورة على ساكنها الصلاة والسلام ، فغضب السلطان فقال له حامل الهدية ، أرجو أن تقلب
الوجه الآخر ، فقلبه فوجد فيه هذين البيتين :

أنا من نخلة تجاور قبراً ساد من فيه سائر الخلق طراً
شملتني سعادة القبر حتى صرت فى راحة ابن أيوب أقرأ (٣)

(١) أى لم يعترض الرسول صلى الله عليه وسلم على زيارة سيدنا المسيح عليه السلام بل أقرها ووافق عليها .
(٢) قالوا إنه أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه .
(٣) أى يقرأ السلطان خبرى فيما هو مكتوب .

فقال السلطان صلاح الدين : صدق والله ، وفرح بها ، ووضعها على محاجره ^(١) وجعلها خير متاجره .

وفى هذه المناسبة أذكرك بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع نخلة قبل أن يصنع المنبر ، فلما تحول صلى الله عليه وسلم إلى المنبر حن الجذع وأن لفراقه صلى الله عليه وسلم ، فخيرته صلى الله عليه وسلم بين أن يغرس ويورق ، بين أن يصبر ويكون فى الجنة ، فاختر أن يصبر ، وفى ذلك يقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه :

والجذع حن وخار إذ فارقته فجبترته وخواره عندى نغم
فالمرء إن لم تعره لك هزة كا لجذع فهو مضلل أعمى أصم

وأذكر واقعة طريفة كانت لى مع أختى فى الله المرحوم السيد بكرى حامد الموظف السابق بالبريد ، فقد كان محتفلاً فى بيته كعادته السنوية بذكرى المولد النبوى الشريف ، وكان على رأس الحفل سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى نور الله ضريحه ، فأمرنى أن أقول كلمة فى الذكرى العاطرة ، فكان فيما قلته من الشعر البيتان المذكوران ، فتهميم الأخ بكرى وأقبل فى سكرة النشوان كأنما يريد أن يضربنى ، ثم ألقى بنفسه على الأرض ، وأرغى كالإبل ، واضطربت رجلاه فصارتا تتحركان يميناً وشمالاً ، فسكت عن الكلام ، وفكوا عنه رباط الرقبة وبعد قليل قال سيدى الشيخ : لقد سكت فتكلم ، فأتممت حديثى ، وكنت أمزح معه بعدها وأقول له : ياسيد بكرى ، تريد أن تضربنى وأنا ضيف عليك فى بيتك ، فكان يقول : إنى لا أجن إلا حين أسمعك تتكلم ، اللهم ارحمه وارحم أسلافنا رحمة واسعة ، واغفر للأولين منا والآخرين ، يأكرم الأكرمين وأجود الأجودين .

ويقول بعض العارفين : إنى والله أجد سريان الماء البارد فى وجودى إذا شربته بعد الظلم الشديدي فى الحر الشديدي ، وحبه صلى الله عليه وسلم فرض واجب على كل مؤمن ، قال تعالى : (النبى أولى بالؤمنين من أنفسهم) وقال صلى الله عليه وسلم :

(١) أى وضع المروحة على عينيه احتراماً .
(٢) البشر هو ظاهر جلد الإنسان .

((لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده)) ؛ فإذا لم تجد هذه المحبة التي وصفتها لك فاعلم أنك ناقص الإيمان ، فاستغفر الله ، وتضرع إليه وتب من ذنوبك وتولع بدوام ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والتأدب معه ، والقيام بما أمر مع اجتناب ما نهى ، لعلك تنال ذلك فتحشر معه ، لأنه صلى الله عليه القائل : ((المرء مع من أحب)) . وقد قال الشهاب الخفاجي في كتابه ((ريحانة الألباب)) : اعلم أنه في حديث صحيح عن عائشة رضی الله عنها أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنت أحب إلي من نفسي وأهلي ومالي ، وإنى إذا ذهبت لداري لا تطيب نفسي حتى آتيك وأراك ، فإذا مت أنت كنت في أعلى مقام فأخشى ألا أراك ، فلم يجبه الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله عز وجل :

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المرء مع من أحب)) .

ولو تأمل هؤلاء الفاترون في محبته صلى الله عليه وسلم لوجدوا أنهم في صلاتهم يسلمون عليه في التشهد ، فهل هم يسلمون بقولهم (أيها النبي) على حى حاضر أو على ميت غائب ؟ وإذا كان سلامهم في التشهد على ميت غائب فإن سلامهم يكون عبثاً وتبطل به الصلاة .

وأقول : ألم يتدبر الفاترون في محبتهم قول الله تعالى في سورة الكهف : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) . ألا يلاحظون أن كلباً غير مكلف صحب أهل الكهف الصالحين فعده الله منهم بفضله ، ولم يقل ثلاثة والرابع الكلب بل قال رابعهم ، وسادسهم وثامنهم ؛ وجعل من شرف ذلك الكلب الذى أحب الصالحين ولزمهم أن يذكر بشرف محبتهم وصحبتهم على أسنة العابدين فى المحاريب ، فكيف بالمؤمن الذى يلتزم محبة رسول الله وشرعه .

الزيارة وشد الرحال :

ويقول الإمام السهودي : وإذا ثبت أن الزيارة قريبة ، فالسفر إليها قريبة ^(١) كذلك ، وقد ثبت خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة لزيارة الشهداء ، وقد أطبق (اتفق) السلف والخلف وأجمعوا عليه . أما حديث ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى)) فمعناه لا تشد إلى مسجد لفضيلة ، لما فى رواية لأحمد بسند حسن عن أبي سعيد الخدرى ((لا ينبغي للمطى أن تشد رحالها إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى)) ، وللإجماع على شد الرحال لعرفة لقضاء النسك (الحج) وكذلك للجهد والهجرة من دار الكفر وللتجارة ومصالح الدنيا ^(٢) .

الزيارة سنة واجبة :

وقد كره الإمام مالك رضى الله عنه أن يقال زرنا ^(٣) قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأن الزيارة من شاء فعلها ومن شاء تركها ، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم واجبة قال عبد الحق يعنى من السنن الواجبة ، وقال السادة الحنفية زيارته صلى الله عليه وسلم من أفضل المندوبات والمستحبات بل تقرب من الواجبات . وقال القاضى ابن كج من أصحاب الشافعية : إذا نذر أن يزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم فعندى أنه يلزمه الوفاء وجهاً واحداً ، وإذا نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان ، والقطع به هو الحق لأنه قريبة مقصودة للأدلة الخاصة فيه ، وقد وجب من جنس ذلك الهجرة إليه فى حياته صلى الله عليه وسلم .

آداب الزيارة :

ومن الآداب التى يراعيها الزائر إذا دخل إلى حرم المدينة أن يقول بعد الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) أى يتقرب المؤمن بها إلى الله تعالى .
(٢) فليس المقصود من الحديث النهى وإنما هو لبيان فضيلة المساجد الثلاثة عما عداها ، وكان صلى الله عليه وسلم يشد رحاله إلى مسجد قباء وهو غير الثلاثة .
(٣) كآته يود أن يقول الزائر : أدينا واجب الزيارة بدلا من زرنا ، لأن الزيارة سنة واجبة .

اللهم إن هذا هو الحرم الذى حرمته على لسان حبيبك ورسولك صلى الله عليه وسلم ودعاك أن تجعل فيه من الخير والبركة مثلى ما هو مثلى ما هو بحرمتك الحرام فحرمنى على النار ، وأمنى من عذابك من عذابك يوم تبعث عبادك ، وارزقنى ما رزقته أوليائك وأهل طاعتك ، ووفقنى فيه لحسن الأدب وفعل الخيرات وترك المنكرات .

وفى كتاب الشفا أن أبا الفضل الجوهري لما ورد المدينة زائراً وقرب من بيوتها ترجل (نزل عن دابته) باكياً وأنشد :

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ^(١) ولا لباً
نزلنا عن الأكوار ^(٢) نمشى كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا

ومن آداب الزيارة أن يبتدى الزائر بتحية المسجد قبل أن يأتى القبر الشريف ، وهذا قول الإمام مالك ، ورخص بعض المالكية فى تقديم الزيارة على الصلاة وقال كل ذلك واسع ، وقال ابن حبيب يقول الزائر إذا دخل : باسم الله والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم - يريد أنه يبتدىء بالسلام فى موضعه - ثم يركع ^(٣) ولو كان دخوله من الباب الذى بناحية القبر ومروره عليه فوقف فسلم ثم عاد إلى موضع يصلى فيه لم يكن ضيقاً ^(٤) يريد ابن حبيب الإتيان أولاً بالسلام المستحب لداخل المسجد لحديث :

((إذا دخل أحدكم المسجد فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم))

ويتوجه بعد تحية المسجد إلى الضريح الشريف ، مستعيناً بالله فى رعاية الأدب بهذا الموقف المنيف ^(٤) ، فيقف بخضوع ووقار ، وذلة وانسكار ، غاض الطرف ، مكفوف الجوارح ، واضعاً يمينه على شماله كما فى الصلاة فيما قاله الكرمانى من الحنيفة ، مستقبلاً للوجه الشريف ، ولا تقرب من قبره إلا كما كانت تقرب من شخصه الكريم لو كان على قيد الحياة .

(١) الرسم هو الأثر

(٢) الكور جمعها أكوار أى الرحل والمعنى أنه لم يرد أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راكباً بل نزل عن ظهر البعير احتراماً وإجلالاً لمقامه الشريف حيث بدت معالم المدينة المنورة .

(٣) أى يصل تحية المسجد

(٤) أى مباح

(٤) المهيب .

وقال المجد اللغوى : رويانا عن عبد الله بن المبارك قال : سمعت أبا حنيفة يقول : قدم أيوب السخيتاني وأنا بالمدينة فقلت لأنظرن ما يصنع ، فجعل ظهره مما يلي القبلة ووجهه مما يلي وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى غير متباك (١) فقام مقام رجل فقيه . وعن أصحاب الشافعي وغيره يقف وظهره للقبلة ووجهه إلى الحضرة (٢) وهو قول ابن حنبل . ولابن زبالة عن سلمة بن وردان قال : رأيت أنس بن مالك إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم يأتي فيقوم أمامه .

ولينظر الزائر إلى أسفل ، ولا يشتغل بشيء من الزينة فإنه صلى الله عليه وسلم كما جاء فى ((الإحياء)) عالم بحضورك وقيامك وزيارتك له ، فمثل صورته الكريمة فى خيالك ، وأحضر عظيم رتبته فى قلبك ، ثم قل من غير رفع صوت ولا إخفاء ، مع مراعاة الحياء والوقار :

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته (ثلاثا) السلام عليك يا رسول رب العالمين ، السلام عليك يا خير الخلائق أجمعين ، السلام عليك يا سيد المرسلين وخاتم النبيين ، السلام عليك يا إمام المتقين ، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين ، السلام عليك أيها المبعوث رحمة للعالمين ، السلام عليك يا شفيع المذنبين السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا خيرة الله ، السلام عليك يا صفوة الله ، السلم عليك أيها الهادى إلى الصراط المستقيم ، السلام عليك يا من وصفه الله بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) وبقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) بطاعته والصلاة والسلام عليه ، السلام عليك وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وملائكة الله المقربين ، وعلى آلك وأزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين ، وأصحابك أجمعين ، كثيراً دائماً أبداً كما يحب ربنا ويرضى ،

(١) بكى فعلا .
(٢) الوجه الشريف

جزاك الله أفضل ما جرى رسولا عن أمته ، وصلى الله عليك أفضل وأكمل وأزكى وأنمى صلاة
صلاها على أحد من خلقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبده
ورسوله وخيرته من خلقه ، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ،
وكتشف الغمة ، وأقمت الحجة ، وأوضحت المحجة ^(١) ، وجاهدت في الله حق جهاده وكننت كما
نعتك الله في كتابه حيث قال :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم
). فصلوات الله وملائكته وجميع خلقه في سمواته وأرضه عليك يا رسول الله ، اللهم آتته
الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، وآتته نهاية ما ينبغى أن يسأله
السائلون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، وآمنت بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، اللهم فثبتنى على ذلك ، ولا تردنا على أعقابنا
، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

اللهم صلى على سيدنا محمد عبدك ورسولك ، النبي الأمى ، وعلى آله وأزواجه وذريته ،
كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد النبي الأمى
وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك
حميد مجيد .

هذا ومن ضاق عليه الوقت أو عجز عن حفظ ذلك ، فإنه يقتصر على بعضه وأقله : السلام
عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم .

وفى المستوعب لأبى عبد الله السامرى الحنبلى : . . . ثم يأتى حائط القبر فيقف ناحيته
ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ويذكر السلام والدعاء ومنه :
اللهم إنك قلت فى كتابك لنبيك عليه الصلاة والسلام : (ولو أنهم إذ ظاموا أنفسهم جاءوك
فاستغفروا الله

(١) الطريق المستقيم

واستغفروا لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) ، وإنى أتيت نبيك مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته .

وعن ابن عمر - رضى الله عنه - وغيره الإقتصار جداً . وعن الإمام مالك رضى الله عنه يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ؛ واختار بعضهم التطويل ، وعليه الأكثر . ثم إن كان أوصاك أحد بالسلام على رسول الله صلى الله عليه ، فقل : السلام عليك يا رسول الله من فلان بن فلان ، أو تقول : فلان بن فلان يسلم عليك يا رسول الله ، أو نحو ذلك .

ثم يتحرك الزائر إلى يمينه قدر ذراع ، فيصير تجاه سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول : السلام عليك يا سيدنا ابا بكر الصديق ، يا صفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانيه فى الغار ، ورفيقه فى الأسفار ، جزاك الله عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الجزاء .

ثم يتحرك إلى يمينه مرة أخرى قدر ذراع فيصير تجاه سيدنا عمر ، فيقول : السلام عليك يا سيدنا عمر الفاروق ، الذى أعز الله به الإسلام ، جزاك الله تعالى عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير الجزاء . هذا ما ذكره الإمام النووى وغيره .

وذكر ابن حبيب (المالكى) السلام والثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعطف عليه قوله : السلام عليكما يا صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيرى صدق فى حياته ، وخلفتماه بالعدل والإحسان فى أمته بعد وفاته فجزاكم الله تعالى على ذلك مرافقته فى جنته وإيانا معهم برحمته .

قال الإمام النووى وغيره : ثم يرجع الزائر إلى موقفه قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتوسل به ويشفع به إلى ربه .

ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطباً له صلى الله عليه وسلم :

مدحت المالكين فزدت قدراً
وحين مدحتك اقتدت السحابا

سألت الله فى أبناء دينى
فما للمسلمين سواك حصن
وقال بعضهم فى شعر رقيق :

من زار قبر محمد
بالله كرر ذكره
واجعل صلاتك دائماً
فهو الرسول المصطفى
وهو المشفع فى الورى
والحوض مخصوص به
صلى عليه ربنا
نال الشفاعة فى غد
وحدثه يا منشدى
جهرأ عليه تهدى
ذو الجود والكف الندى
من هول يوم الموعد
فى الحشر عذب المورد
ملاح نجم الفرقد

شيخى والحجاز :

وفى هذا المقام أضع تحت نظر القارئ الكريم بعض ما تعنى به إلهاماً فورياً من عطاء الله
لأوليائه شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل قدس الله سره ؛ فقد قال يوماً فيما قال
من كلام طويل :

دع زماناً مضى وعد بى لأرض شغفتى بنورها المتلالى
بين بيداء روعت ووهاد
ونجوم مثل الحباب على الكأس
قيل ماذا تريد من هذه الأرض
قلت والله غير أحمد مالى
يا حبيبي رضاك دنيا ودين
بشرى الوصول :

وأذكر أنه حين سعدت بزيارة المدينة المنورة لأول مرة (فى عام ١٩٣٤ م) كان معى
صديقى المرحوم الشيخ محمد محروس محرم وكان فى ذلك الوقت واعظاً لمركز الأقصر ،
والتقى بنا ((المدعى))^(١) الذى يصحبنا فى زيارة الآثار المباركة ،

(١) كلمة عامية تطلق على من يرشد الزائر إلى المزارات بالمدينة المنورة .

فطلب من الشيخ مبلغاً لأتعبه فاستكثره الشيخ وقال له إننا علماء ولسنا فى حاجة للإرشاد كغيرنا ، فرد عليه ((المدعى)) وقال : هل نحن نأخذ منكم أجرة ؟ قال لقد طلبت مبلغاً كبيراً ، فقال إنه ليس أجرة ولكنه بشرى وصولكم للمدينة المنورة ، فطربت من تلك الإجابة وأقسمت على صديقى أن يعطيه ما طلبه كاملاً غير منقوص ، فأعطاه ما طلب ، فله ما أرق الطلب وما أسمى الأدب . ولئن سماها ((المدعى)) بشرى الوصول فإنى أسمىها بشرى الوصال ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لا يزار إلا بإذنه ، وما أسعد الزائر فى دنياه بإذنه الشريف وفى أخراه بشفاعته يوم يقوم الناس لرب العالمين .

سيدى العارف الحلوانى الكبير والملائكة :

ومما وقع لسيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه (وهو والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه) أنه بات ليلة بالحرم النبوى بإذن الوالى ، واستمر طول الليل يقرأ القرآن ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف مستقبلاً القبر الشريف على صاحبه أفضل وأزكى تحية ، فبينما هو كذلك رأى أشخاصاً نورانيه نازلة من السماء على القبر الشريف ، فأدرك فى الحال أنها من الملائكة ، وكان معه الشيخ محمد الغرباوى البلقاسى وكان نائماً ، فأيقظه ليريه هذه الأنوار ، فدهش ورعب ، فأشار عليه سيدى الشيخ الحلوانى بالنوم ، قال : وبقيت هذه الأنوار إلى الفجر .

و يقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه - كما جاء فى كتاب ((الفيض الرحمانى)) الذى ألفه ابنه المبارك المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز الحلوانى غفر الله له ((ذكر ابن حجر المكى فى كتابه الجواهر المنظم ، كما ذكر البرزنجى فى كتابه نزهة الناظرين ، روى ابن المبارك والإسماعيلى وابن بشكواك والبيهقى والدرامى وابن الجوزى عن كعب الأحبار أنه)) (ما من يوم وليلة إلا وينزل عند الفجر سبعون ألفاً من الملائكة يحفون بقبر النبى صلى الله عليه وسلم ويصلون عليه إلى الليل ، ثم ينزل سبعون ألفاً كذلك الفجر وهكذا . . . إلى أن يقوم صلى الله عليه وسلم من قبره فى سبعين ألفاً يزفونه وفى رواية يوقرونه)) .

رأى العلامة ابن حجر :

ويقول العلامة ابن حجر ، فإن قلت ما معنى يصلون عليه مع إفادة آية (إن الله وملائكته يصلون على النبي) أن جميع الملائكة مع كثرتهم التي لا يحيط بها إلا خالقهم يصلون عليه دائماً ، قلت معناه أن هؤلاء السبعين ألفاً يؤمرون بصلاة مخصوصة مناسبة لوقوفهم في حضرته صلى الله عليه وسلم .

إكرام والدتي في الرحاب النبوي :

وقد حدثني المرحمة والدتي عليها الرضوان (وكانت من الصالحات القانتات المباركات كما كانت مستجابة الدعوات) بما أكرمها الله به عندما تشرفت لأول مرة بزيارته صلى الله عليه وسلم فقد استقبلت من جهة القبر الشريف بعطر زكى جداً وقعت نقطة منه على وجهها ونقطة أخرى على خمارها ، وقالت ما شممت في حياتي رائحة أزكى منه بل ولا رائحة تقاربه ، وأضافت طيب الله ثراها أن الرائحة الزكية بقيت في خمارها ستة أشهر ، وحين حدثتني بذلك قلت لها لا تقصيه على غيري ، فإن ذلك مما يحسدك الناس عليه .

بين شاب صالح وبينى :

ومن طريف ما وقع لي في إحدى زيارتي للمدينة المنورة ، أنى لقيت شاباً صالحاً من بنى وطننا العزيز فقال لي : أأنت السيد حسن المطاوى ؟ قلت : بلى أننى هو ، هل رأيتنى قبل ذلك ؟ قال : نعم ، إنك حاضرتنا في جمعية الشبان المسلمين بمغاغة في سنة ١٩٤٨ ، ومن يومئذ أعرفك ، فتذاكرنا معاً في زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيها من الأناج والسعادة والبركة ، وقلت له : أتدرى أيها الأخ ، لولا كرم ضيافة الرسول صلى الله عليه وسلم وتواضعه ، لما استطاع القادم أن يقرئه السلام لما أعطاه الله من الهيبة التي تخرس الألسنة ، فبدأ عليه التعجب وقال : كأنك تصف ما وقع لي في أول وقفة بين يديه صلى الله عليه وسلم ، قلت : فماذا كان من أمرك ، قال : حبست عن الكلام فلم أستطع سلاماً ولا قولاً ، وانصرفت عاجزاً ، وقلت في ذلك شعراً ، فسألته عما قال

فكان مما رواه من شعره وأذكره :

عجب لسان عند قبرك ينطق
عَشَى الجلال لديك كل مشاعري
خرس الشفافة لديك هن الأصدق
فوقفت مضطرباً وقلبي يخفق

مرارة الفراق :

وإذا كان ذلك فى لحظات اللقاء ، فإنك تقدر الشدة التى يلقاها الزائر عند الوداع ، وقد كان يزامنى فى الزيارات الصديق الصالح المرحوم الحاج محمود جنوب ، وكان تاجراً بشارع الأزهر ، وفى مرة بكى عند مغادرة الحرم الشريف مودعاً ، فقلت له : لا تبك فإننا عائدون إن شاء الله كل عام : فقال : وهل يخفف عنى ألم الفراق إلا نية العودة ، فأعجبني هذا المعنى ، وعندما عدت للوطن العزيز ، رجوت صديقى الوفى المرحوم الشاعر الأديب محمد جاد الرب ، أن يصوغ ذلك المعنى فى بيتين من شعره العبقري الذى يعجبني كل الإعجاب ، فقال غفر الله له :

أسكان دار العز حان رحيلنا
وليس يسلينى عن البعد عنكمو
على رغننا منى السلام عليكمو
سوى نيتى أنى أعود إليكمو
فأطربنى ما قال .

تحية القدوم عند تكرار الزيارة :

ثم رجوته أن يصوغ على لسانى أبياتاً أنشدتها بين يديه صلى الله عليه وسلم إذا قدمت عليه فى زيارة لاحقة ، فقال طيب الله ثراه :

لقد عدنا وكان العود أحمد
سعيد من يحبك من بعيد
سلاماً يا حبيبي يا محمد
ومن يسعى لبابك كان أسعد
فجد بالوصل للمشتاق فضلاً
فأنت من السحاب الجود أجود
وصل عليه ياربى وسلم
ووفق كل مشتاق ليشهد

فقلت له : أرجو أن تغير الشطر الثانى من البيت الأول ، قال ولم ؟ قلت لا أستطيع أن أخاطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال إنى قصدت

أن يختم الشطر الأول بأحمد والثاني بمحمد ، ولا يعاب في الشعر أن يذكر باسمه صلى الله عليه وسلم ، قلت إنى لا أتكلم فى سلامة الشعر ولكنى أتكلم فى مذاق الزيارة وأدبها ، قال : إنى أعتذر من تغيير ليس له فى رأى مقتض ، فقلت إنك صنعت الشعر على لسانى لا على لسانك أو لسان غيرى ، وأنا الطالب وأنت المتفضل بتحقيق ما طلبت ، قال : ولكنى أعتذر : فضحكت وقلت : ستضطرنى أن أغير الشطر بنفسى ولو انى لست شاعراً أو أديباً مثلك ، قال فماذا تقول ؟ قلت : أقول ما أحب ، دون تدخل الشعراء ، فألح أن يسمع منى ما أحب أن أقوله ، قفلى :

لقد عدنا وكان العود أحمد سلاما يا مقرب يا مؤيد

فقال : التركيب الأول أحسن ، قلت له : ولو ، وضحكننا . اللهم اجمعنا بأحبابنا الذين سبقونا بالإيمان فى مستقر رحمتك يا أرحم الراحمين .

واجبات الزائر بالمدينة المنورة :

وعلى الزائر فى أثناء إقامته بالمدينة أن يتصدق بما يستطيع ، وأن يكرم أهل المدينة باعتبارهم جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخص برعايته وأدبه السادة الأشراف من سادتنا آل البيت لحديث مسلم ((أذكركم الله أهل بيتى)) وما أرق قول القائل :
فياسكنى أكناف طيبة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
وليغتنم الزائر فى أثناء إقامته بالمدينة المنورة ملازمة المسجد إلا لمصلحة راجحة ، وليحرص على ختم القرآن العظيم به ، وعلى أن يبيت فيه ولو ليلة يحييها بالقيام والطاعة .

المزارات بالمدينة المنورة :

يستحب الخروج إلى البقيع كل يوم بعد السلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصاً يوم الجمعة قاله الإمام النووى ، وليأت قبور الشهداء بأحد ، ويزور جبل أحد فى الصحيح : ((أحد جبل يحبنا ونحبه)) . ويستحب استحباباً

متأكداً إتيان مسجد قباء وهو فى يوم السبت أولى ، فيتوضأ ويذهب إليه ، ويستحب إتيان بقية المساجد والآثار المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم . وفى مناسك الإمام خليل المالكي بعد ذكر استحباب زيارة البقيع ومسجد قباء ونحوهما : وهذا فيمن كثرت إقامته وإلا فالمقام عنده صلى الله عليه وسلم لاغتنام مشاهدته أحسن .

وليلاحظ الزائر مدة إقامته بالمدينة جلالتها ، وتردده صلى الله عليه وسلم فيها ، ومشيه فى بقاعها ، ومحبه لها ، وتردد جبريل عليه السلام بالوحى فيها ، ولا يركب بها دابة ، وقد كان الإمام مالك يقول : إنى أستحيى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ، وفى رواية أخرى : أخشى أن يقع حافر الدابة فى محل مشى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أدب مغادرة المدينة :

وإذا أراد مغادرة المدينة المنورة ، فليودع المسجد النبوى الشريف بركعتين بالمصلى النبوى إن أمكن أو ما قرب منه ، ثم يقول بعد الحمد والصلاة والسلام : اللهم أنى أسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما تحب وترضى ، إلى غير ذلك مما يستحب للمسافر ، ويدعو فيما يدعو به قائلاً : اللهم لا تجعله آخر العهد بهذا الحرم ، ويختتم بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، ويأتى القبر الشريف ، ويسلم ويدعو بما تقدم أولاً ويقول : نسألك يارسول الله أن تسأل الله تعالى ألا يقطع آثارنا من زيارتك ، وأن يعيدنا سالمين ، وأن يبارك لنا فيما وهب لنا ، ويرزقنا الشكر على ذلك .

اللهم لا تجعله آخر العهد بحرم رسولك صلى الله عليه وسلم وحضرتة الشريفة ، ويسر لى العود إلى الحرمين سبيلا سهلة ، وارزقنى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

والأصل فى صلاة الركعتين حديث ((كان لا ينزل ^(١) منزلاً إلا ودعه بركعتين)) ، ويكون الزائر بعد انصرافه متعلق القلب بالزيارة ، مشتاقاً إلى تكرارها كما قيل :

(١) أى الرسول صلى الله عليه وسلم .

أحن إلى زيارة حى لىلى وعهدى من زيارتها قريب
وكنت أظن قرب الدار يطفى لهيب الشوق فإزداد اللىهيب

وینوى الزائر بعد ذلك أن يلتزم التقوى ، ويحذر المعاصى حتى يلقى الله تعالى ، وليكن على
باله قوله تعالى فى سورة الفتح : (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد
عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

عطف نبوى كريم :

وقد عطف على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحدى زيارتى ، وكان ذلك العطف
أحب إلى والله مما طلعت عليه الشمس ، فمذ أكثر من عشرين عاماً كنت متشرفاً بزيارته ،
وأردت أن أرحل إلى مكة المكرمة معتمراً وحاجاً ، فاغتسلت ولبست ملابس الإحرام استعداداً
لعقد النية بالعمرة فى مطار المدينة ، ودخلت الحرم للتوديع ، وتشرفت بالوقوف بين يديه
صلى الله عليه وسلم ، وخرجت لأركب السيارة من ميدان المناخ ، وبينما أنا سائر فى شارع
العينية ، وإذا بصوته الشريف يرن فى أذانى بقوله المبارك : شيعتكم السلام ، ولم يكن لى
عهد بلفظ شيعتكم إذ كان المعروف لنا : رافقتكم أو صحبتكم ، فما كدت أسمع صوته الشريف
حتى داخلتنى حالة روحانية ، فانهلت دموعى على خدى وتوالت ،

فلم أملك دموع العين منى ولا النفس التى جاشت مرارا

وظن من معى أن ذلك البكاء من أثر الفراق ، ولم يدر أنه من أثر الحنان الأبوى والعطف
النبوى على ضعفاء الأمة .

ثم وصلنا إلى المطار ، وركبنا طائرة من طراز ((داكوتا)) كانت من مخلفات الحرب ، وما
كادت تصعد فى السماء حتى تعرضت للمطبات الجوية ، فإذا هى تنزل حتى نقول لا تصعد ،
وتصعد حتى نقول لا تنزل ، واضطرب الركاب ، وخرج مساعد الطيار ليطمئنهم ، ومنهم من
تقأياً ، ومنهم من تغير لونه وامتقع ، فكنت أقول لهم : لا تخافوا ففيها سلامة إن شاء الله ،
وأدركت سر ذلك العطف عندئذ ،

وأنه صلى الله عليه وسلم طمأننا بلغة الجمع لا بلغة المفرد فقال ((شيعتكم السلامة)) لتشمل
الجميع سلامة الله على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت كلمته سكوناً لنا جميعاً ،
فما أبهره صلى الله عليه وسلم ، وما أرففه بالؤمنين وما أرحمه بزائريه .

صديق يحيينى :

وأمتع القارئ الكريم بأبيات من قصيدة حيانى بها صديقى العبرى الشيخ الصاوى شعلان من
نحو عشر سنين ، وكننت قد عدت من العمرة والزيارة وسكنت دارى بنيتها بمدينة الأوقاف ،
قال عفا الله عنه ومد فى عمره :

تشفى بمرآها المحب المغرما
صلى عليه ذو الجلال وسلما
فبلغت تكريماً وعدت مكرما
وكأنما القمران فيض منهما
يجد الدعاء إلى الإجابة سلما
تختال أجدائاً وتشرق أعظما
قد كاد حمزة فيه أن يتكلما
بالسبح أقماراً تضيء وأنجما
من وجهها الركن العلى الأعظما
يافوز مشتاق سعى وترسما
والله أكرم حين يسقى زمزما
لو يستطيع مشى إليك مسلما
وجد المواهب كلها من يما

بالله كيف شهدت أنوار الحمى
ودخلت من باب السلام على الذى
وسعدت يا حسن الرضا برحابه
ووقفت بين الصاحبين تخشعا
فى باب جبريل ومهبط وحيه
ورأيت جنات البقيع نواضراً
أصغيت فى أحد إلى شهادته
جمعتهم الفردوس تحت ظلالها
فى كعبة الله اعتمرت مقبلا
ومن الطواف إلى المقام إلى الصفا
المرء يكرم ضيفه بشرابه
يستقبل البيت الجديد مناره
هو منزل فى مسجد فى روضة

الباب السادس عشر

التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم

الرسول باب الله :

أكثر المعترضون على التوسل ، وقالوا ما قلوا ورموا المتوسلين بالكفر ، والأمر من البساطة بحيث لا يحتمل كل ذلك الجدل العقيم .

فالتوسل حين يتوسل إلى الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، إنما هو لاجئ إلى الله تعالى لا إلى غيره ، فإن رسوله صلى الله عليه وسلم هو بابه بدليل قوله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) ، فقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه ولم ير الله فى ذلك كفرأ ، بل قال سبحانه : (أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) . ومثل ذلك فى كتاب الله كثير : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) ، و (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) . ولم يقل الله لماذا يسألونك عنى ؟ ولا يسألون الله مباشرة فيجيبهم مباشرة ، بل أقر سبحانه لجوءهم فى السؤال إلى رسول الله وأجابهم على ما سألوا عنه رسول الله . وأما إنه سبحانه لم يقل لرسوله قل لهم (إنى قريب) على غير ما أجاب به الأسئلة الأخرى فلأن سؤالهم كان عن (الله تعالى) بدليل قوله (عنى) فمن الطبيعى أن تكون الإجابة (فإنى قريب) وهى جواب الشرط (وإذا سألك ...) بينما تم سؤالهم فى المسائل الأخرى بدليل قوله تعالى ويسألونك ، كما أنك تلاحظ أن قوله ((قل)) لأن المسئول هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعلمه الله الجواب بقوله تعالى (قل) والتوسل برسول الله ليس معناه ترك سؤال الله بل هو لجوء إليه من بابه الذى جعله رحمة للعلمين ، وإليك التفصيل .

تبليغ الدعوة :

إن الله دعانا إلى الإيمان على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخاطبنا بالقرآن الكريم الذى أوحاه الله إليه وعهد إليه بإبلاغه ، ولم يجعل الله رابطته بعباده رابطة مباشرة ، بل جعلها بالواسطة . لا بل إن وحيه وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالواسطة ، قال تعالى فى سورة الشعراء : (نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين) ، وجعل الله بيعته بيعة لله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) ، لأنه رسول ربه للناس . الرسالة المحمدية رحمة :

ورسالته صلى الله عليه وسلم قامت على الرحمة ولم تقم على الغضب ؛ ففى الحديث القدسى ((سبقت رحمتى غضبى)) وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فجعله تعالى مناوئاً للرحمة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : ((إنما أنا قاسم والله معط)) كما قال صلى الله عليه وسلم : ((إنما أنا رحمة مهداة)) ومع أن الله تعالى هو الفعال لما يشاء فإنه أقامها أسباباً لتؤتى ثمرتها بإذن مسببها سبحانه ، فخلق الأرض للنبات ، فإذا قلت أنبتت الأرض الزرع فالمعنى أنها أنبتته بإذن خالق الأرض ، فهو على المجاز لا على الحقيقة .

معرض التوحيد ومعرض الأسباب :

فهناك معرضان لا بد من الفصل بينهما ، معرض التوحيد ، ومعرض الأسباب التى أقامها الله لتؤتى ثمرتها بإذنه ، أما فى معرض التوحيد فليس مع الله أحد لا كبير ولا صغير ، فهو المقدر وهو المدبر وهو الرازق وهو المعطى وهو الشافى ..

إلخ فالله فعال لما يشاء فى قضائه الذى هو من سلطانه المطلق ، لكنه تعالى شاء أن يرزق البعض بالبعض ، ويُعلم البعض بالبعض ، بل ويخلق البعض بالبعض .

اللجوء للأسباب لا ينافى التوحيد :

واللجوء للسبب ليس معناه الانصراف عن المسبب ، فإنى ألبأ إلى الطيب باعتباره أداة أقامها الله لعلاج الأمراض مع ثقتى فى أن الشفاء من عندى الله (وإذا مرضت فهو يشفينى) ، فأنا لاجئ إلى الله بالأسباب التى أقامها ومعتمد عليه أن تؤتى ثمرتها بإذنه . وقد كلفنا الله أن نسعى للمعاش ونتخذ الأسباب مع أنه هو وحده الرازق ، لكنه جعل للرزق أسباباً يطرقها المسترزقون بأمره ليعطيهم ما قسم لهم من الرزق ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وما هو كائن فى أمور الدنيا على يد البعض للبعض ، يقول مثله فى أمور البرزخ حين ينتقل العباد من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ ، فمع أنه سبحانه هو الغفور الرحيم ، فقد أمرنا بصلاة الجنائز على موتانا ، فندعو لهم فى صلاة الجنائز بالمغفرة ، فإن لم نصل عليهم كنا عنده من الآثمين ، فشاء سبحانه أن يشفع الأحياء للأموات فى صلاة الجنائز من باب ربط الثمرات بأسبابها - وليس فى هذا تقييد لله ، ولا انصراف عنه ولا إشراك به ، بل فيه تضرع ودعاء ولجوء له ، وأمل فيه من طريق شرع الله وهو سبحانه الغيور على توحيد ذاته ، وهو ما يفيد انتفاع الميت من صلاح الحى لأن صلاة الجنائز عمل صالح .

وعكس هذه الصورة واقع بنص كتاب الله فقد شاء سبحانه أن يحفظ للغلامين اليتيمين كنزهما حتى يبلغا أشدهما ، فأوحى للخضر عليه السلام أن يقيم الجدار على الكنز ، وبين سبحانه أن ذلك منه رعاية لأبيهما الصالح فى نريته من بعده ، فقال تعالى : (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك

أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري : ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) . وهو ما يفيد قطعاً انتفاع الحى من صلاح الميت بعد موته .

وقد جمع الله تعالى بين معرض التوحيد ومعرض الأسباب فى قوله تعالى : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) . فقد أسلم سيدنا زيد ، وأعتق من الرق ، وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وكان ذلك كله على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسببه ، فجعل الله رسوله منعماً على زيد من باب السببية ، والله سبحانه وتعالى منعم بقضائه وقدره ، وكان تنفيذ قضائه على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نعت الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالإنعام مع أنه لا منعم إلا الله تعالى ليبين أن إنعام السبب هو من إنعامه جل جلاله ، وليس فى ذلك ما ينافى توحيد الله تعالى .

وشاء الله أن يدفع الناس بعضهم ببعض فقال تعالى فى سورة البقرة آية ٢٥١ : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ، وبين سبحانه الحكمة من دفع الناس بعضهم ببعض ، فقال تعالى فى سورة الحج آية ٤٠ : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) ، وهو ما يفيد أن الله يكرم الناس بصالحهم العاكفين على العبادة فى دور العبادة ، وقد أكرم الله الكفار فى مكة بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم فقال تعالى فى سورة الأنفال الآيات ٣٢ ، ٣٣ : (وإذ قالوا اللهم إن كان

هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) .

وفى معرض التوحيد يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) . وفى معرض الأسباب يقول له سبحانه : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ، أى تهدي من قضى الله أن يهتدى . فليس بين المعرضين تصادم ، بل هو الحق من ربك ، فهو المسبب ، والأسباب أسبابه ولا يكون لها ثمرة إلا بإذنه : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

وهذا يفسر لك كيف قال جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام : (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً) . وليس فى مقدور جبريل أن يهبها غلاماً بنفسه ، ولكنه استند إلى سلطان الله الذى آتاه وقال فى ثقة بربه (لأهب لك غلاماً) . لأنه تعالى قال له اذهب بأمرى فهب لها غلاماً بإذنى وقدرتى .

وكذلك قول سيدنا المسيح عليه السلام : (وأبرى الأكمه والأبرص وأحىى الموتى بإذن الله) ، وأيضاً قول سيدنا موسى عليه السلام : (رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) وهو لا يملك على الحقيقة نفسه ولا أخاه ، وإنما الله ملكه نفسه وأخاه . فقد قال تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) .

وسخر الله الملائكة فى الاستغفار للمؤمنين وكشف الله لنا عن فضله فى ذلك فقال تعالى فى سورة غافر الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا

وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

إذا فصلنا بين المعرضين معرض التوحيد ومعرض الأسباب ، وربطنا بينهما برابطة القضاء وتنفيذه بأسباب ، أجزنا في غير حرج التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه ، وكذلك التوسل بالصالحين من عباد الله المتقين الذين قال تعالى فيهم : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

أقوال العلماء :

وإليك ما يقوله الإمام السمهودي رضى الله عنه فى كتابه خلاصة الوفا :
التوسل والتشفع به صلى الله عليه وسلم وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسير السلف الصالحين .

آدم يتوسل :

وقد صحح الحاكم حديث : لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم لما غفرت لى (1) ، فقال : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقك ؟ قال : يارب لأنك لما خلقتنى بيديك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق ؛ إليك فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى ، وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك . وقال سيدى العلامة الزرقانى : والله در القائل حيث ضمن مضمون الحديث حاكياً عن سيدنا آدم عليه السلام فقال :

وكان لدى الفردوس فى زمن الصبا	وأثواب شمل الأنس محكمة السدى
يشاهد فى عدن ضياء مشعشعا	يزيد على الأنوار فى الضوء والهدى
فقال إلهى ما الضياء الذى أرى	جنود السما تعشو إليه تردداً

(1) طلب المغفرة متوسلاً بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال نبي خير من وطئ الثرى
تخيرته من قبل خلقك سيداً
وأعدته يوم القيامة شافعاً
فيشفع في إنقاذ كل موحد
وإن له أسماء سميت به
فقال إلهي امنن على بتوبة
بحرمة هذا الاسم والزلفة التي
أقلني عثاري يا إلهي فإن لي
فتاب عليه ربه وحماه من

وأفضل من في الخير راح أوأعدتى
وألبسته قبل النبين سؤددا
مطاعاً إذا ما الغير حاد وحيدا
ويدخله جنات عدن مخلدا
ولكنني أحببت منها محمدا
تكون على غسل الخطيئة مسعدا
خصصت بها دون الخليقة أحمدا
عدواً لعيناً جار في القصد واعتدى
جناية ما أخطاه لا متعمداً

ضريير يبصر :

وللنسائي والترمذي عن عثمان بن بن حنيف أن رجلاً ضريير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك ، قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : ((اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى ، اللهم شفعه في)) ، وصححه البيهقي وزاد ((فقام فأبصر)) .

وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا إذا قحطوا استسقوا بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا صلى الله عليه وسلم فاسقنا قال فيسقون . وفي رواية للحافظ أبي القاسم هبة الله عن ابن عباس أن عمر رضي الله عنه قال : اللهم إنا نستسقيك بعم نبينا صلى الله عليه وسلم ونستشفع إليك بشيبتة فسقوا ، وفي ذلك يقول عباس بن عتبة :

بعمى سقى الله الحجاز وأهله
عشية يستسقى بشيبتة عمر

وفي رواية للزبير بن بكار أن العباس رضي الله عنه قال في دعائه : وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم فاسقنا الغيث ، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض . وفي رواية له عن ابن عمر أن ذلك عام الرمادة .

حكمة الاستسقاء بالعباس :

ويقول المعترضون : لماذا توسلوا بالعباس رضى الله عنه ولم يتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان التوسل به صحيحاً وجائزاً . فنقول لهم لأن الاستسقاء له صلاة تودى ، وهي ركعتان ، وهي سنة مؤكدة . ويندب بعدهما خطبتان ويعقبهما دعاء ، ولا يعقل أن يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم من قبره الشريف لتأدية ذلك .

ولو تدبر المعترضون قليلاً لفظنوا أن السادة الصحابة اختاروا فى استسقاؤهم العباس رضى الله عنه لأنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأقرب الناس إليه ، فهو توسل بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سقاهاهم الله وسمى العباس رضى الله عنه ((ساقى الحرمين)) وقد قال العباس صراحة فى دعائه كما مر عليك : ((وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك صلى الله عليه وسلم فاسقنا الغيث)) وقد استجاب الله له .

وقد حكى أهل العلم عن الإمام العتبي (أحد شيوخ الإمام الشافعى رضى الله عنهما) . مستحسنين له . قال :

كنت جالساً عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) ، وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

ياخير من دفنت فى القاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبي : ثم انصرف ، فغلبتنى عيناي فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : يا عتبي إحق الأعرابى فبشره أن الله غفر له .

ويحكى الأصمعى رحمه الله أن أعرابياً وقف مقابل القبر الشريف فقال : اللهم هذا حبيبك ، وأنا عبدك ، والشيطان عدوك ، فإن غفرت لى سر

حبيبك ، وفاز عبدك ، وغضب عدوك ، وإن لم تغفر لى غضب حبيبك ، ورضى عدوك ، وهلك
عبدك ، وأنت أكرم من أن تغضب حبيبك ، وترضى عدوك ، وتهلك عبدك ، اللهم إن العرب
الكرام إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فاعتقنى على قبره .
قال الأصمعي فقلت : يا أبا العرب إن الله قد غفر لك وأعتقك بحسن السؤال .

المحبة ليست شركاً :

وليت شعري كيف يشكك الجاهلون في محبته صلى الله عليه وسلم ويرمون المحب بالشرك ،
أين المحبة من العبادة ؟ إننا نشهد في كل تشهد أنه عبد الله ورسوله ، فمن أين تأتي الشركه
؟ ومن أين يأتي اللبس ؟ وكيف لا أحبه بحب الله له ؟ وكيف لا أكرمه بتكريم الله له ؟ وكيف
لا أعظمه بتعظيمه له ؟ وقد جعل سبحانه اتباعه صلى الله عليه وسلم الدليل على محبته الله
تعالى في قوله سبحانه :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) ، وهل
اتباعه صلى الله عليه وسلم كان وفقاً على حياته ، أو هو قائم إلى يوم القيامة ؟ وهل أمرنا
الله تعالى بالصلاة والتسليم عليه في حياته وأولى يوم القيامة ؟ وهل كان الخليفة الأول أبو
بكر الصديق علم الأمة الأشهر جاهلاً بالتوحيد حين حرص على أن يدفن في قبره صلى الله
عليه وسلم وإلى جواره الحسى صلى الله عليه وسلم ؟ وهل جهل أمير المؤمنين عمر التوحيد
حين استأذن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن يدفن إلى جانب صاحبه ؟ هل نرميها
بالشرك لأنهما أرادا أقرب جوار في القبر الشريف وفضلاه عن مقبرة المسلمين العامة ، وهل
كان ابن عمر جاهلاً حين كان يدخل المسجد النبوي ويسلم على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ وهل كان عمر بن عبد العزيز جاهلاً حين كان يرسل عامل البريد للمدينة للسلام على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان الإمام مالك جاهلاً حين كان يقول : كيف أظأ
بحافر دابة أرضاً تضم جدت النبي صلى الله

عليه وسلم ؟ أو حين استفتاه الخليفة المنصور في الدعاء فيما إذا كان يواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يستديره ويتجه للقبلة ويدعو ؟ فأفتاه قائلاً : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى ، بل استقبله واستشفعه ، فيشفعه الله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) .

ولم أرد بهذه الكلمة أن أقنع المعترضين ، لأنهم لا يقنعون ، ويتمسكون برأيهم في تعصب شديد ، ولكني أردت أن أطمئن المؤمنين الذين يتبركون بأسلافهم الصالحين ويتوسلون بهم إلى الله الذي أكرمهم في جواره وهم السابقون بالخيرات بإذن الله ، وكفاهم شرفاً أن يقول تعالى في أحبابه : (لهم ما يشاءون عند ربهم) وهو سبحانه القائل : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقد سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعين بالصالحين حين استأذنه سيدنا عمر في الخروج إلى مكة للعمرة فقال له ((لا تنسني يا أخی من دعائك) فإذا كان الفاضل يجوز له أن يستعين بدعاء المفضل ، فكيف لا يستعين المفضل ببركات الفاضل ؟

وإذا كان لكل مؤمن شفاععة عند الله يوم القيامة فلماذا لا تكون للمقربين شفاععة في البرزخ ، وهو سبيل إلى الآخرة ، والله تعالى يقول في شأنهم : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . ولا شك أنه مما تقر به أعينهم أن تجرى رحمة الله للمؤمنين على أيديهم ، وإن يكرم الله زوارهم في حاجتهم وقد زاروهم زيارة خالصة لله وفي محبته تعالى ودعوا لهم بالمغفرة ، ويسرهم أن تكون لهم من الله الجائزة ، وهو سبحانه وتعالى صاحب الفضل على عباده أجمعين (قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

بيان للناس :

أقول : وفرق بين حب الصالحين وعبادة الأوثان ، ولا محل إذن للتشكيك في عقيدة المحبين بدعوى أن عباد الأصنام تقربوا بعبادتهم وقالوا : إنما نعبدهم

ليقربونا إلى الله زلفى ، والمحبون لا يقولون : نعبدهم ، إنما يقولون نحبههم لأن الله أحبههم وأحبوه (يحبهم ويحبونه) ، فهي مغالطة مكشوفة تحت شعار الغيرة على العقيدة ، والعقيدة تلزمنا محبة الصالحين ممن أنعم الله عليهم برضاه سبحانه ، وشجعنا على تقليدهم ، والسير على منوالهم فى طاعة الله ورسوله لنحشر معهم ، وننعم برضوانه فقال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) ، وعلما سبحانه أن نسأله هدايتنا لصراتهم فى كل فاتحة (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . وما أروع ما يقول فى شأنهم سيدى الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى فى الباب التاسع والعشرين من كتاب ((الفتوحات المكية)) :

((قال تعالى لإبليس : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فأضافهم إليه وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم فى الآخرة ، وما تجد فى القرآن عباداً مضافين إليه سبحانه إلا السعداء خاصة ، وجاء اللفظ فى غيرهم بالعباد .

التبرك بالآثار النبوية :

إن القرآن الكريم شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعبودية ، وكل مؤمن مصدق بالقرآن الكريم ، فكيف نتهم المحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالشرك ؛ وقد سأل أبو هريرة رضى الله عنه الحسن السبط رضى الله عنه أن يكشف له المكان الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سُرَّتَه ، فقبلها تبركاً بآثاره وذريته صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان ثابت البنانى رضى الله عنه لا يدع يد أنس بن مالك رضى الله عنه حتى يقبلها ويقول : يد مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورحم الله من قال :

يا من يذكرنى حديث أحبة طاب الزمان بذكرهم ويطيب
أعد الحديث على من جنباته إن الحديث عن الحبيب حبيب

ابن تيمية يتعجب :

وجاء فى كتاب (جواهر البحار)) قال المحب الطبرى : يمكن أن يستنبط

من تقبيل الحجر واستلام الأركان تقبيل ما فى تقبيله تعظيم الله تعالى ، فإنه إن لم يرد فيه خبر بالثواب ، فلم يرد فيه خبر بالكراهة ، وقال الحافظ زين الدين العراقى ^(١) : أخبرنى الحافظ أبو سعيد بن العلاء قال : رأيت فى الكلام أحمد ابن حنبل فى فى جزء قديم ، عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ ، أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبى صلى الله عليه وسلم وتقبيل منبره فقال : لا بأس بذلك ، فأرنااه الشيخ تقي الدين ابن تيميه ، فصار يتعجب من ذلك ويقول : عجيب ، أحمد عندى جليل يقول هذا ؟ قال : وأى عجب فى ذلك ، وقد روينا عن الإمام أحمد أنه غسل قميصاً للشافعى وشرب الماء الذى غسله به ، وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم فكيف بمقادير الصحابة ؟ فكيف بآثار النبى صلى الله عليه وسلم ؟ ولقد أحسن مجنون ليلى حيث يقول :

أمر على ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديار

وجاء فى كتاب ((جواهر البحار . . .)) وفى كتاب ((العلل والسؤالات)) لعبد الله ابن احمد بن حنبل ، سألت أبى عن الرجل يمس قبر النبى صلى الله عليه وسلم يتبرك بمسه وتقبيله ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى فقال : لا بأس به . أقول والله در القائل فى المحبة وأثرها :

ولو قيل للمجنون أرض أصابها غبار ثرى ليلى لجد وأسرعاً

وإن كان قد ورد فى ((التحفة)) لابن عساكر أن ابن عمر رضى الله عنه كان يكره أن يكثر مس القبر النبوى الشريف ، كما ورد عن أنس رضى الله عنه أنه رأى رجلاً وضع يده على قبر النبى صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال : ما كنا نعرف هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقول بعد ذلك ما جاء فى الحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) ، وحسن الظن بالمؤمنين فى نياتهم أولى من سوء الظن بهم إلى حد التفكير وفى ذلكالتكفير مغالاة لا محل لها مع استقرار الإيمان فى القلوب

(١) جواهر البحار - الجزء الثالث ص ١٧٧

بنعمة الله و فضله ، إذا كان المعترض لا يؤمن بالتبرك بالبركات التي أفاضها الله على عباده الصالحين ، فهو وشأنه ، ولكن لا يجوز له أن يكفر بغير حق غيره من المؤمنين الذين يتبركون في حسن اعتقاد بالله ، وهم مؤمنون بالله ورسوله ، ويصلون للقبلة ، وبواطنهم في علم الله وليعلم ذلك المعترض أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقتسمون شعره الشريف إذا قصة ، وكانوا يقترعون على الشعرة الواحدة إذا كان طلابها أكثر من واحد وتبرك أحدهم بشرب دمه الشريف حين احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يوارى الدم في الأرض خلف الجدار ، فأحس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه شربه فسأله : أين وارتيت الدم ؟ فقال خلف الجدار يا رسول الله فكرر عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله نفست على دمك أن أهريقه في الأرض فابتلغته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أحرزت بطنك من النار)) .

أبو أيوب يتبرك :

وقال أبو أيوب الأنصاري : وكنا نصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت وأنا وأم أيوب موضوع يده ، فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثوماً ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أر ليده فيه أثراً ، قال فجئته فرعاً : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا ، تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة ، قال : إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجي ، فأما أنتم فكلوه ، قال : فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد .

أرأيت أيه القارئ الكريم كيف كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يتبركون بآثار يده في الطعام ويتبعونها ، ولم يروا في ذلك شركاً كما يرى بعض الجفاة الذين يعترضون على المتبركين بالأولياء والصالحين من ذرية سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ويقولون في الأستهزاء إنهم قبوريون ، أي يتعلقون بالقبور ، وما دروا أنها تزهو على سائر القبور بتقوى نزلاتها ، تلك التقوى التي جعلتهم

أكرم الناس على الله كما قال تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ابن عمر يتبرك :

وكان ابن عمر رضى الله عنه - هو الفقيه الحجة - إذا أسرع به ناقته وهو ذاهب لمكة يشد زمامها ويقول لها : لعل خفاً يقع على خف ، أى ضيق خطاك لعلى أسعد وتسعدين بأن يقع خفك على خف ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم التى سارت من قبل فى هذا الدرب .

رؤيا رسول الله فى المنام :

روى ابن الأثير فى أسد الغابة فى ترجمة سيدنا بلال بن رباح رضى الله عنه أن بلالا - وكان بالشام - رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وهو يقول : ((ما هذه الجفوة يا بلال ما آن لك أن تزورنا ؟ فانتبه حزينا فركب إلى المدينة فأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وجعل يبكى عنده ويتمرغ عليه ، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام فجعل يقبلهما ويضمهما ، فقالا له نشتهى أن تؤذن فى السحر ، فعلا سطح المسجد ، فما قال : الله اكبر الله اكبر ، ارتجت المدينة ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، زادت رجتها ، فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله ، خرج النساء من خدورهن ، فما رؤى أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم ، أقول : لأنهم تذكروا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يؤذن فيه بلال بليل ، ولم يكن يؤذن بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

رؤيا لىسدى العارف الحلوانى :

ولا يفوتنى أن أمتع القارئ الكريم بما قاله سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) ، وكان قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم له فى المنام :

بشراى إن حلاك تبسم بالمنى
إن الكريم إذا رأى الضيف ابتسم
وبوجهك الميمون يسعد من رأى أنواره ممن بملتك اعتصم

أرنيه فهو سعادتي ومجادتي أبداً ولو نوماً وعنى لا تنم
يارحمة الله الأمان فكن لنا سوراً على الإيمان يا أفق الهمم

ويقول سيدي الشيخ عبد العزيز الحلواني (شقيق شيخي وسيدي الشيخ عبد السلام
الحلواني رضي الله عنهما) في كتابه ((الفيض الرحمانى فى تاريخ الإمام الحلوانى)) ما
نصه :

رأيت فى مذكرات والدى ما نصه :

((. . . ثم أن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق ، ففى البخارى عن أبى هريرة : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رأى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولا يتمثل
الشيطان بى)) ولا يشترط فى حقيقة رؤيته صلى الله عليه وسلم أن يرى على صورته التى
كان عليها ، ولكن إذا رؤى عليها كانت الرؤية على ظاهرها لا تحتاج إلى تعبير .

وأضاف الشيخ عبد العزيز قائلاً . . . وفى كتاب والدى ((الضوء الشارق)) : وكان سيدي
أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : ((
يا محمد ^(١) ما أنا بميت وإنما موتى عبارة عن تسترى عن لا يفقه عن الله تعالى ، وأما من
يفقه فهو يرانى وأراه)) . وقال المرحوم والدى مضمناً للحديث الشريف الوارد فى الجامع
الصغير للإمام السيوطى :

إنّ أزكى الأنام فى القبر حى مترف الجسم رطبه كالورد

ولهذا قال عند انتقال افرشوا لى قطيفتى فى لحدى

((وهذا الفرش خصوصية له صلى الله عليه وسلم ، وفى الحديث الشريف)) (إن الله عز وجل
حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)) .

أقول : وكان سيدي الشيخ أحمد الحوانى طيب الله ثراه يرى النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ،
وأكتفى هنا بإثبات بعض تلك الرؤى كما جاءت فى الكتاب المذكور ^(٢) :

(١) كان رضى الله عنه يسمى محمداً وكنيته أبو المواهب
(٢) الفيض الرحمانى .

قال رحمة الله تعالى : فى ليلة الخميس ٢٥ من ربيع أول ١٣٠٣ هـ رأيت فيما يرى النائم أنى بطيبة (المدينة) كرمها الله تعالى ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حى وكذا الزهراء والسبطان رضى الله عنهما وهما شابان يافعان أمردان وعندها خلق كثير من رجال ونساء محدقات ^(١) بها ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسقى الخلق شراباً حلو فى كوب كبير ، فأقبلت عليه فأقبل صلوات الله وسلامه على وأعطانى كوباً وأمرنى بشربه ، فشربته كله حتى اكتفيت ، ووجدت برّده ولذته فى جميع أعضائى ، ثم ناولنى كوباً آخر فأخذته وقلت إنى اكتفيت فقال : اشرب فشربته كله ، وكل ذلك وهو صلى الله عليه وسلم واقف على مكان عال فى مقصورة تنسب إليه ^(٢) لا أقدر على وصف حسنها وبديع صنعها ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم تنزل إلى فجلس فى ليوان كبير طويل مرتفع قدر قامة رجل تقريباً وأخذ يعتب على الزهراء رضى الله عنها فى إسرافها العطايا والنفقة التى بذلتها فى الفرح ، فأخذت أنا أخفض من سورته ^(٣) وأذكره أنها الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك كله فى جانب ما أعطاه الله نزر يسير ، وأعطانى صلى الله عليه وسلم قدمه المبارك الشريف ، فصرت ألتمه عارياً ظاهراً وباطناً وأضعه على وجهى وعينى وجبهتى وأكرر ذلك ، ثم قلت يا رسول الله : تحفتى على فرح السبطين قال : وما تريد ، قلت أن تلتفت إلى ولا تنسانى ، فأنعم لى بذلك مبتسماً ، ولا أنسى بياض وجهه الشريف وسواد لحيته الشريفة وحسن عينيه ثم استيقظت .

وقال رحمة الله تعالى : رأيت فى النصف الثانى من رمضان سنة ١٣٠٤ هـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام يقول : جئتك ببشارة من رب العزة وهى : (سلام عليكم كتب ريكم على نفسه الرحمة) ، ثم جاء بكتاب قديم بخط القلم فيه هذا المعنى مروياً فى جملة أخبار مرفوعة إلى

(١) مجتمعات عليها .
(٢) مخصصة له صلى الله عليه وسلم
(٣) غضبه .

النبي صلى الله عليه وسلم رقيقة الألفاظ مبشرة جداً واستيقظت فرحاً مسروراً والحمد لله .
وقد قصدت بإثبات هذه المرائى أن أبين للقارىء الكريم أن صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الروحية متصلة على الدوام بأبنائه المؤمنين ، وأنه لولا تلك الصلة لتزعزع إيماننا بطول القرون بيننا وبينه ، وكثرة الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ولا يذوق هذه الصلة الروحية إلا أهل التقوى من المؤمنين ، وقد ورد فى الحديث الشريف : ((حياتى خير لكم ومماتى خير لكم)) ، فسئل كيف يكون مماتك خيراً لنا يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((تعرض على أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم)) . وهذا ما يد لنا على أنه فى قبره الشريف عامل بقول الله تعالى فى سورة محمد :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم) .
وقد جاء فى تفسير ((ذنبك)) . أى ذنب أهل بيتك خاصة ، والمؤمنين والمؤمنات عامة ، لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم من الذنوب بعصمة الله له ، وقد سلف القول فى العصمة بالتمفضل فارجع إليه إن شئت فى الباب الثامن .

* * *

وختاماً أقول :

سيدي يارسول الله . صلوات الله وسلامه عليك وعلى آلك الكرام البررة وبعد ، فلقد على لسانى ما قلت ، ونقلت عن غيرى ما نقلت ، وأنت كما أنت على مر الزمان لا يستطيع أحد أن يوفيك حقه .

فإن قبلت الكتاب تكراً فقد سعدت ، وإن رأيتنى قصرت فعذرى لديك واضح :

أوصافك الغر فاقت عما أحيط وأعلم
محاسن ليس تحصي وحدها ليس يعلم

وفى قبولك رافة بالكاتب ، وفى عفوك عن القصور متسع ، وحسبك ما يتكلم به الله تعالى فى شأنك واصفاً ومادحاً فى القرآن الكريم .
أما أنت أيها القارئ الكريم فكل ما أرجوه منك دعوة صالحة تكون رابطة ودية فى الله بينى وبينك لا تنفصم عراها إن شاء الله وأن نعمل معاً سوياً بقوله تعالى :
(إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) .
صلوات الله وسلامه على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

محتويات الكتاب

صفحة	
٢	من القرآن الكريم والحديث الشريف
٣	تقديم الكتاب لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود (وزير الأوقاف والأزهر) ..
٨	مقدمة
	الباب الأول
	العقيدة الإسلامية
١٩	الإسلام دين الفطرة
٣١	الإسلام دين عام . الإسلام والعقل
٣٢	الإسلام دين الوحدانية . الله هو الخالق الفعال ..
٣٣	الصحابة والقدر . الإمام أبو حنيفة والقدر
٣٥	عبادة الله وحده
٣٥	الأحبار والرهبان . الفقهاء المجتهدون
٣٦	كلمة التقوى . طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه
٣٧	الأمة المحمدية وشريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما بعدها
٣٨	الإيمان بالغيب
٣٩	مزايا العقيدة الإسلامية
٤٢	مزايا الرسالة المحمدية
٤٣	كرامة التكاليف الشرعية
٤٥	هوى النفس وضرره
٤٦	تفسير وحدانية الذات
٤٧	المتشابهات فى القرآن الكريم
٤٩	السادة الصوفية وتوحيد الله تعالى

صفحة									
٥٢	الشيخ الأكبر والتوحيد .
٥٥	دليل الوجدانية .
٥٦	نفى الحلول والاتحاد عن الصوفية .
٦٠	همة الخواص .
									الباب الثانى
									الكتاب والسنة
									منة الله على المؤمنين . فضل الله على رسوله ..
٦٣	
٦٤	معجزة القرآن الكريم .
٦٥	العرب يعجزون عن تحدى القرآن الكريم .
٦٦	مثال لبلاغة القرآن الكريم . شرف القرآن .
٦٨	بداية الوحي .
٧٠	شدة الوحي .
٧٢	الإمام الباقلانى وإعجاز القرآن .
٧٣	الروحانية الكامنة .
٧٦	الإمام الباقلانى وفضائل القرآن .
٧٧	علاقة السنة بالقرآن الكريم .
٧٧	مسلك الصحابة فى العلم والقضاء .
٧٩	تعقيب الإمام ابن القيم .
٨٢	موقف السنة من القرآن .
٨٣	البيان النبوى .
٨٥	حاجتنا للسنة النبوية .
٨٧	الشرع والقوانين الوضعية .

الباب الثالث

الإسلام والجهاد فى نشره

٩٣	بداية الإسلام - معنى الشهادتين .
٩٤	التكبير - الأسوة الحسنة .
٩٥	الفضل الكبير - إنذار العشيرة .
٩٦	تطوير الدعوة إلى الإسلام . .
٩٨	السابقون الكرام . .
٩٩	العزم المؤكد . .
١٠١	فضيلة الإيمان . .
١٠٧	روعة القرآن . .
١٠٩	التحدى بالأسئلة . .
١١٠	معرفة الله تعالى . .
١١٢	الروح والمادة . .
١١٥	آفات النفس . .
١١٦	تعنت الكفار . .
١٢١	البحث عن الحق . .
١٢٣	اشتداد الأذى - الهجرة إلى الحبشة .
١٢٤	ائتمار قريش بمهاجرى الحبشة .
١٢٦	جعفر يشيد بالإسلام .
١٢٩	مناقب جعفر وابنه عبد الله . .
١٣١	إسلام عمر . .
١٣٩	عثمان بن مظعون .
١٤٠	الصديق يرد الجوار .
١٤١	معجزة فى شأن الصحيفة الظالمة .

صفحة									
١٤٣	موت السيدة خديجة وأبى طالب .
١٤٣	مفاوضة الكفار .
١٤٤	خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف .
١٤٥	سعادة عداس .
١٤٦	تضرع نبوى .
١٤٦	اللقاء الأول مع الأنصار . اللقاء الثانى بالأنصار .
١٤٨	أول سفير فى الإسلام . اللقاء الثالث بالأنصار .
١٤٩	بيعة العقبة .
الباب الرابع									
الإسراء والمعراج									
١٥١	الإسراء بالجسد .
١٦٠	تفصيل قصة الإسراء والمعراج .
الباب الخامس									
الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة									
١٨١	الإذن الإلهى بالقتال .
١٨٢	انتشار الإسلام بالمدينة . هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة .
١٨٢	أبو سلمة أول المهاجرين إلى المدينة . هجرة السيدة أم سلمة رضى الله عنها .
١٨٥	مؤامرة يكشفها الله تعالى .
١٨٦	الإمام على يفدى الرسول بنفسه . خروج الرسول وهم لا يشعرون ..
١٨٨	الإذن بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .
١٨٩	الاختباء فى الغار . وفاء أبى بكر .
١٩٣	معجزة نبوية . فطنة أسماء ..
١٩٤	جزع بنى هاشم . مائة ناقه لمن يرد الرسول على قريش .

صفحة									
	١٩٥	معجزة أخرى نبوية . إسلام سراقه .
	١٩٧	الوصول إلى قباء . يوم الاثنين .
	١٩٨	فى قباء . الأنصار يرحبون ..
	١٩٩	المسجد النبوى . معجزة نبوية .
	٢٠٠	أدب الأنصار . أول خطبة خطبها رسول الله .
	٢٠٢	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . حكمة المؤاخاة .
	٢٠٢	الأذان للصلاة واستحكام الإسلام .
	٢٠٤	غزوة بدر الكبرى ..
	٢٠٧	الملائكة فى غزوة بدر الكبرى .
	٢٠٨	الأنصار يتحدثون بنعمة الله .
	٢١٠	عداوة اليهود والمنافقين . إسلام عبد الله بن سلام .
	٢١١	كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر .
	٢١٤	بين الرسول والمسيحين .
	٢١٥	الغزوات والبعوث والسرايا .
	٢١٧	فرض الهجرة . أصحاب الأعداء .
	٢١٨	الفرار بالدين .
	٢٢٠	نحن وأسلافنا الصالحون .

الباب السادس

الإسلام فى الحرب والسلام

	٢٢٢	دعوة الإسلام سلمية . الإذن للمسلمين بالقتال ..
	٢٢٣	التحريض على القتال .
	٢٢٥	الشدّة على الأعداء . تعاون المؤمنين .
	٢٢٦	المتخلفون عن القتال .
	٢٢٧	جهاد التفقه فى الدين . جزاء المجاهدين .
	٢٢٨	الإسلام والقتال .

صفحة									
٢٣٤	قتال دفاع .
٢٣٥	إعلان الحرب . فتح مكة المكرمة .
٢٣٦	أسباب النصر . الصبر على مكاره الحرب .
٢٣٧	صلاة الخوف .
٢٣٨	قبول الصلح .

الباب السابع

البشرية والرسالة

٢٤١	بشرية الجنس وسمو النفس .
٢٤٢	رعاية الله .
٢٤٤	أعراض البشرية الجائزة .
٢٤٦	الإنصاف فى البحث .
٢٤٩	الفتح المبين والذنب المغفور .
٢٥١	العقاد وعلامات الرسالة .
٢٥٣	العارف النابلسى وذنوب الأنبياء .
٢٥٣	الخلاصة .

الباب الثامن

عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم

٢٥٤	الرسول حجة الله على خلقه . تبليغ الرسول عن ربه .
٢٥٥	اصطفاء الرسل .
٢٥٦	من فضل الله .
٢٥٨	النبوة والرسالة . خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .
٢٥٨	عصمة الرسول .

صفحة									
٢٦٠	الأسوة الحسنة والعصمة . .
٢٦٠	وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .
٢٦٢	البشرية والعصمة .
٢٦٣	التفاسير النابية . صور واقعية .
٢٦٧	نظرات للمؤلف . .
٢٦٧	عصمته صلى الله عليه وسلم .
٢٦٨	فداء أسرى بدر . .
٢٧٠	الإذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك .
٢٧٢	الذنب المقدم والمؤخر .
٢٧٦	الركون للمشركين .
٢٧٧	قصة الأعمى . .
٢٧٩	الضلال والهدى . .
٢٨٠	الوزر الذى أنقض الظهر . .

الباب التاسع

الاصطبار للعبادة

٢٨٢	بين العقل والقلب ..
٢٨٣	اصطباره صلى الله عليه وسلم للعبادة .
٢٨٣	تطويل القراءة . نصيحة نبوية .
٢٨٤	العلم والعبادة . هممة الأولياء فى طلب الله .
٢٨٦	شيخى والتجلى . .
٢٨٧	شيخك الذى يربيك .
٢٨٩	نفحات القرآن الكريم .

الباب العاشر

الأوصاف والخصائص المحمدية

الفصل الأول

أوصافه صلى الله عليه وسلم

٢٩٠	شرف الأمة المحمدية .
٢٩١	رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم .
٢٩٤	أمير المؤمنين عمر والفضائل النبوية .
٢٩٦	الخلق العظيم .
٣٠٠	شرف العبودية الكاملة .
٣٠١	أحسن التأديب .
٣٠٣	معنى العبودية الكاملة . قول الإمام سهل التستري .
٣٠٤	قول الإمام ابن القيم .
٣٠٧	الإمام الرازي والأفضلية .
٣٠٨	الشيخ الأكبر وأحدية الشرائع .

الفصل الثانى

خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم

٣٠٩	خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله .
-----	---	---	---	---	---	---	---	--

الباب الحادى عشر

أزواجه صلى الله عليه وسلم

الفصل الاول

تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم

٣٢٧	تعدد الأزواج بعد وفاة السيدة خديجة .
-----	---	---	---	---	---	---	---	--------------------------------------

صفحة									
٣٢٧	خصوم الإسلام ورد العقاد . .
٣٣٢	التعدد مشروع فى الأديان الكتابية .
٣٣٤	رأى الدكتورة بنت الشاطيء . وجهة نظر المؤلف .
٣٤٠	زواج الهبة .

الفصل الثانى

سيدتنا أمهات المؤمنين

٣٤٣	ترتيب الأزواج الطاهرات . .
٣٤٥	عناية الله بالأزواج الطاهرات .

الفصل الثالث

أم المؤمنين عائشة

٣٧١	قصة الإفك .
٣٧٥	المنافقون والإفك . القرآن الكريم والبراءة .
٣٧٦	سورة النور والبراءة .
٣٧٧	براءة صفوان وكرامة أم المؤمنين .
٣٧٨	إقامة الحد . جزاء السب . .
٣٧٨	تعقيب العلامة العقاد .
٣٧٩	طهارة جميع الأزواج .
٣٨٠	السيدة عائشة ومعركة الجمل .
٣٨١	حملة الجمل والمشاركة فى الحكم .
٣٨٢	نصيحة ابن عمر ..
٣٨٣	وجهة نظرى .
٣٨٩	أم المؤمنين وابن الزبير .
٣٨٩	تقوى الإمام .

صفحة									
٣٩٣									بين أم المؤمنين وابن عباس .
٣٩٤	أم المؤمنين فى الغضب والرضا .
	٣٩٦	مزايا أم المؤمنين ..
٣٩٦	بلاء الإمام .
٣٩٧	تزام الناس على بيعة الإمام . اتهام باطل .
٣٩٨	صبر جميل ورأى حازم . صفاء الإمام .
٤٠٠	فقه الإمام . رأى أهل السنة .
٤٠١	الإمام سليم فى موقفه .
٤٠١	الأستاذ الخطيب فى إنصافه للإمام . عذر الإمام .
٤٠٣	تسامح أم المؤمنين .
٤٠٥	أمانة التبليغ . أم المؤمنين وصدق الرواية .
	٤٠٧	أم المؤمنين والتزام البيت . أم المؤمنين تعاتب ابن عمر ..
٤٠٨	أم المؤمنين والأزدى . يوم الجمل .
٤٠٩	توبة نصوح . رأى العلامة العقاد .

الباب الثانى عشر

آل النبى وأهل البيت

٤١٠	أهل البيت .
٤١٣	الدعاء لأهل الكساء .
٤١٤	بيت السكنى والأهل .
٤١٤	الملحقون بأهل الكساء .
٤١٥	ثانى الثقلين .
	٤١٧	أهل القرابة والنسبة القوية ..
٤١٨	أهل البيت وعبادة الله .

صفحة									
٤١٨	الشيخ الأكبر وأهل البيت . .
٤٢١	الجمع بين الأهل والآل .
من	٤٢٢	رأى الفخر الرازى . .
٤٢٥	إلهام شيخى .
٤٢٧	تحية الشاعر الصديق .
الباب الثالث عشر									
الصحابة الكرام									
٤٢٨	تعريف الصحابى . .
٤٢٩	السابقون الأولون .
٤٢٩	أفضل الصحابة . .
٤٢٩	أبو بكر أول المؤمنين إسلاماً .
٤٣٠	بين التفضيل والمساواة .
٤٣٠	بين أمير المؤمنين عمر وزيد بن ثابت وأبى بن كعب .
٤٣١	الاتباع بإحسان . كبار التابعين .
٤٣٢	أين نحن من السابقين . الصادقون والمفلحون .
٤٣٤	الأنصار يؤثرون على أنفسهم .
٤٣٤	السيدة عائشة والإيثار . أبو عبيدة والإيثار .
٤٣٥	معاذ بن جبل والإيثار . الإيثار فى الاحتضار .
٤٣٦	السادة الصوفية والإيثار .
٤٣٦	بين الإيثار والإمسك .
٤٣٧	الجود بالأرواح . .
٤٣٨	يقين الصحابة بالله .
٤٤٠	الاستنجاد بالله . عبرة .
٤٤١	أشداء رحماء . .

صفحة	
٤٤٢	صاحب الغار
٤٤٥	الخلف بعد السلف . فقه الإمام زين العابدين فى حب الصحابة .
٤٤٦	فقه إمامنا على . فقه الإمام ملك
٤٤٧	الاستغفار للصحابة
٤٥١	بين عمرو بن العاص وبينى
٤٥٤	توبة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة
٤٥٧	بين التشيع وحب الصحابة

الباب الرابع عشر

فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم

٤٥٨	الصلاة على الرسول فى الكتاب والسنة
٤٥٨	معنى الصلاة
٤٦٠	حداد موهوب

الباب الخامس عشر

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

فضل المدينة المنورة

٤٦٢	أرض الله . فضل المدينة
٤٦٤	تربة المدينة مؤمنة . حفل مبارك
٤٦٥	دعاء نبوى للمدينة
٤٦٧	المساجد المفضلة . مسجد التقوى
٤٦٧	أفضل البقاع

صفحة	
٤٦٨	بين مكة والمدينة .
٤٦٩	مزايا المدينة المنورة .
٤٧٠	المدينة وأهلها . أكرم بقعة . .
٤٧٣	طريق النور .

الفصل الثانى

فضل زيارته صلى الله عليه وسلم

٤٧٥	فضل مثواه صلى الله عليه وسلم .
٤٧٥	حرمته صلى الله عليه وسلم .
٤٧٦	الموت والحياة فى البرزخ . .
٤٧٨	حياته صلى الله عليه وسلم فى قبره الشريف
٤٨٣	زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٤٨٧	الزيارة وشدة الرحال . الزيارة سنة واجبة .
٤٨٨	آداب الزيارة .
٤٩٢	شيخى والحجاز . .
٤٩٣	بشرى الوصول . .
٤٩٣	سيدى العارف الحلوانى الكبير والملائكة .
٤٩٤	إكرام فى الرحاب النبوى . .
٤٩٤	بين شاب صالح وبين المؤلف .
٤٩٥	مرارة الفراق .
٤٩٥	تحية القدوم عند تكرار الزيارة .
٤٩٦	المزارات بالمدينة المنورة . .
٤٩٧	آداب مغادرة المدينة .
٤٩٨	عطف نبوى كريم . .
٤٩٩	صديق يحيينى .

الباب السادس عشر

التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم

٥٠٠	الرسول باب الله
٥٠١	تبليغ الدعوة .
٥٠١	الرسالة المحمدية رحمة . معرض التوحيد ومعرض الأسباب .
٥٠٢	اللجوء للأسباب لا ينافي التوحيد .
	٥٠٥	أقوال العلماء . آدم يتوسل . .
٥٠٦	ضريح يبصر . الاستسقاء بالعباس .
٥٠٧	حكمة الاستسقاء بالعباس . المحبة ليست شركاً .
٥٠٩	بيان للناس .
٥١٠	التبرك بالآثار النبوية .
٥١٢	أبو أيوب يتبرك . .
٥١٣	ابن عمر يتبرك . .
	٥١٣	رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام . رؤيا لسيدى العارف الحلوانى .
٥١٦	ختم الكتاب .
								مراجع الكتاب
٥١٨	بيان المراجع .

مراجع الكتاب

- . القرآن الكريم .
- . كتب السنة النبوية .
- . تفسير الإمام القرطبي .
- . تفسير الإمام الفخر الرازي .
- . تفسير الإمام الألوسي .
- . تاريخ الأمام الطبري .
- . السيرة النبوية لابن هشام .
- . السيرة النبوية لابن كثير .
- . جواهر البحار للشيخ النبھانى .
- . الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محى الدين بن عربى .
- . الرسائل للشيخ الأكبر محى الدين بن عربى .
- . مثنوى جلال الدين الرومى . ترجمة وشرح الدكتور عبد السلام كفافى .
- . أعلام الموقعين لابن القيم .
- . عبقرية محمد للعلامة العقاد .
- . ما يقال عن الإسلام للعلامة العقاد .
- . حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعلامة العقاد .
- . الفلسفة القرآنية للعلامة العقاد .
- . الفيض الرحمانى للشيخ عبد العزيز الحلوانى .
- . على بن أبى طالب للأستاذ عبد الكريم الخطيب .
- . العقيدة الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة .
- . الرسائل للشيخ يوسف الدجوى .
- . خامس الخلفاء الرشدين الإمام الحسن بن على للمؤلف .
- . الصوفية فى إلهامهم للمؤلف .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٥٣٩٧ / ١٩٧٢